السهل المفيد
فى
تفسير القرآن المجيد

الجزء الاول

عبدالحي حسين محمد الفرماوي

سورة البقرة

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ

{ الـم }

[الآية ١]

هذه الحروف : هى الحروف المقطعة فى أوائل سور كثيرة ..

قيل فى معناها الكثير ..

ومن أوضح ما قيل فى ذلك : أنها لجذب اهتمام المعاندين ، ولفت أنظارهم لسماع القرآن الكريم .

< لِّلْمُتَّقِينَ هُدًى فِيهِ رَيْبَ لاَ الْكِتَابُ ذَلِكَ>
[الآية ٢]

هذا الكتاب الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم لا شك فى أنه من رب العالمين .. وهو هداية للذين يتقون غضب الله وعذابه باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

{ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }
[الآية ٣]

أي : الذين يصدقون بما غاب عنهم من البعث والحشر والجنة والنار والملائكة إلى غير ذلك مما أخبر عنه القرآن .

وفى ذات الوقت : يعبدون الله حق عبادته ، فيقيمون الصلاة ويؤدونها تامة كاملة بفروضها ، ويحافظون على مواقيتها .

وكذلك : ينفقون فى وجوه الخير من كل ما رزقهم المولى – مالاً أو جاهاً أو علماً .. إلى غير ذلك – طاعة لله ومرضاة له .

{ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ }

[الآية ٤]

والمتقون كذلك هم : الذين يصدقون بالقرآن وبالكتب التى نزلت على الرسل من قبلك يا محمد ، لا يفرقون بينهم ؛ لأن رسالات الله واحدة فى أصولها .

وهم أيضاً : يعلمون علم اليقين بالآخرة ، فيستعدون لها بالإيمان والعمل الصالح .

{ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
[الآية ٥]

هؤلاء المتقون السابق ذكرهم ووصفهم : سائرون على طريق الهداية إنعاماً عليهم من ربهم .

وهم بذاتهم : الفائزون بالجنة ، والناجون من النار .

هذا ..

والصنف الثاني من الناس : هم الذين يقول عنهم المولى جل وعلا.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٦]

أي : هؤلاء الذين علم الله عدم إيمانهم : لا تطمع فى هدايتهم ؛ فهم لن يؤمنوا سواء خوفتهم من عذاب الله أو لم تخوفهم .

والسبب فى ذلك أنهم:

{ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ }
[الآية ٧]

أي : أن قلوبهم أغلقت وختم عليها .. فلا يدخلها خير ، وأسماعهم صُمَّتْ .. فلا تَنتَفِعْ بما تسمع من حق ، وعيونهم عَمِيَتْ ، فلا تبصر صواباً ..

ولهذا : لهم عذاب قوى دائم .

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ }
[الآية ٨]

وهؤلاء : صنف ثالث خبيث .

CENTER>{ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }
[الآية ٩]

أي : يظهرون الإيمان والصلاح ، وهم على غير ذلك حقيقة.. فهم كفار فاسدون مفسدون ، يخدعون الذين آمنوا .

وضرر ذلك راجع إليهم لا محالة ؛ حيث إنهم سيعاقبون فى الآخرة ، وقد يفتضحون فى الدنيا كذلك : وهم لا يشعرون أن الله عالم بسرائرهم ومطلع على نواياهم وأفعالهم .

وهم يفعلون ذلك لأنـه:

{ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }
[الآية ١٠]

أي : شك فى مبادئ الإسلام ، ونفاق بها يُمْرِض قلوبهم ، فزادهم الله مرضاً بعز الإسلام ونصر أوليائه .

ولأنـهم يكذبون فى قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر.. لهم عذاب مؤلم ينتظرهم.

والعجيب أنـه : أولاً:

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ }
[الآية ١١]

{ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ }
[الآية ١٢]

أي ادّعوا الإصلاح وهم فى غاية الفساد والإفساد بكفرهم .

وحقيقة الأمر أنهم هم المفسدون ، ولكنهم يضحكون على أنفسهم ولا يشعرون بذلك .

ثانيا :

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ }
[الآية ١٣]

أي وإذا طلب منهم أن يؤمنوا مثلما آمن أتباع النبى صلى الله عليه وسلم .. قالوا : لا نفعل فعل هؤلاء الجهال .

* * *

يرد عليهم المولى بقوله : الجهال هم ولكن من فرط جهلهم لا يعلمون بذلك.

ثالثاً : **وعلى الرغم من كفرهم وإفسادهم وإستكبارهم .**

{ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ }
[الآية ١٤]

أي: إذا التقى هؤلاء المنافقون مع المؤمنين : تلوَّنوا وتصنَّعوا وأظهروا الإيمان .

وإذا انصرفوا إلى رؤسائهم وزملائهم فى الكفر.. قالوا : نحن لم نتغير ولم نؤمن حقيقة ، بل نقول ذلك للمؤمنين استهزاءً بهم ، وسخرية منهم .

{ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }
[الآية ١٥]

نعم .. المستهزئ حقيقة هو الله الذى يَمُدُّ لهم فى أسباب طغيانهم ويعاملهم بقانون الاستدراج والإمهال ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين [آل عمران ١٧٨] .

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ }
[الآية ١٦]

هذا الصنف الثالث الموصوف بما سبق : هم الذين أخذوا الضلالة ، وتركوا الهدى باختيارهم ..

فما ربحت صفقتهم هذه ، وما صاروا مهتدين بل أصبحوا خاسرين هالكين، فى النار خالدين .

وهؤلاء أيها القارىء الكريم .

{ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ }
[الآية ١٧]

أي : حالهم فى نفاقهم مثل الذى أوقد ناراً .. فلما أنارت الظلام ، وحققت الدفء والأمن : فجأة أطفأ الله هذه النار، وترك أصحابها فى الظلام خائفين ، تائهين عن الطريق .

{ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ }
[الآية ١٨]

وهذا حالهم صُمٌ عن الحق فلا يسمعونه ، خُرْسٌ عن الخير ، فلا يقولونه عمى عن طريق الهدى ، فلا يرونه .

ولذا فهم : لا يتوبون من ضلالهم أبداً .

وأيضاً:

{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ }
[الآية ١٩]

حالهم فى نفاقهم كأصحاب مطر ينزل من السحاب ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، مما يجعلهم يضعون أنامل أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعون شدة صوت الرعد ، مخافة الموت من ذلك .

حال هؤلاء.. مثل الكفار الذين لا يحبون سماع القرآن مخافة ترك دينهم الذى هو موت بالنسبة لهم .

مع أن الله محيط بهم علماً وقدرة ، فلا يغنى عنهم حذرهم من الله شيئاً .

هؤلاء المنافقين الكفار:

{ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ٢٠]

يكاد البرق لشدته وقوته ، وضعف بصائرهم ، وعدم ثباتها للإيمان يخطف أبصارهم .

ومع ذلك : فكلما أصاب هؤلاء المنافقين من عز الإسلام وخير أهله .. اطمأنوا إليه ، وإن أصيب المسلمون بنكبة واختبار قاموا راجعين إلى الكفر ، كمن أضاء له البرق ثم أظلم عليه .

ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم؛ حيث تركوا الحق بعد معرفتهإن الله على كل شئ قدير.

* * *

أيها القارئ الكريم : بعد أن وضحت الآيات الكريمة أوصاف المؤمنين والكافرين والمنافقين .. يأمر المولى كل الناس بعبادته مذكراً إياهم بعظيم نعمه ، حيث يقول جل شأنه مقرراً وحدانيته تعالى .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }
[الآية ٢١]

أي : وحدوا ربكم الذى أنشأكم والذين من قبلكم من العدم ؛ لعلكم تتقون بعبادته وتوحيده غضبه وعقابه .

وأيضاً هو سبحانه :

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٢٢]

الذى خلق لكم الأرض ممهدة كالفراش ، تنتفعون بها وعليها ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، وأنزل من السماء ماءً تشربونه ، كما أخرج بهذا الماء أنواع الثمار رزقاً وهدية منه سبحانه لكم .

ولهذا – إن كنتم عقلاء – فلا تجعلوا لله شركاء وأنتم تعلمون الخالق وهم لا يخلقون .

وبعد أن قرر المولى وحدانيته – كما رأينا – يقرر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيقول :

{ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٢٣]

أي: إن كنتم أيها الضالون تشكون فى أن القرآن من عند الله .. فأتوا بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله ، إن كنتم صادقين فى أن محمداً جاء بهذا القرآن من عند نفسه .

* * *

هذا .. ولما عجزوا بالفعل قال سبحانه

{ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }
[الآية ٢٤]

أي : فإن عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله ، ولم تستطيعوا ذلك ، ولن تستطيعوه أبداً ، فقد وجب عليكم الإذعان والإيمان بأنه من كلام رب العالمين ، لتتقوا بهذا الإيمان النار ، التى وقودها: الكفار ، والحجارة التى كانوا يعبدونها .. أي الأصنام ، هذه النار التى هيئت للكافرين يعذبون بها .

* * *

ولما ذكر سبحانه – كما رأينا – حال الأشقياء الكافرين : عقب عليه ببيان حال السعداء المؤمنين ، جعلنى الله وإياكم أحبتي فى الله منهم – فقال لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ٢٥]

وبشر الذين صدَّقوا بالله وبرسوله وبما جاء به وأخبر عنه ، وعملوا الصالحات : من الفروض ، والنوافل ، وإصلاح البلاد ، وإسعاد العباد ..

أن لهم : جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار .

وأيضاً : كلما رزقوا من ثمار تلك الجنات .. قالوا هذا مثل الذى رزقنا به من قبل في الشكل لكنه مختلف طعماً .

وكذلك : لهم فى هذه الجنات.. أزواج من الحور العين ، وغيرهن ، مطهرة من الحيض وكل قذر ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان .

ورابعاً : هم فى هذه الجنات باقون لا يموتون ولا يخرجون منها أبداً ، بل هم فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم الدائم .

*****

ولما ضرب الله فى كتابه المثل بالذباب فى قوله تعالى{ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له .. }[الحج ٧٣]

وبالعنكبوت فى قوله تعالى مثل{ الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً .. }[العنكبوت ٤١] ..

قال أهل الضلال مستنكرين :
ماذا أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة ..؟

فرد عليهم المولى قائلاً :

{ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ }
[الآية ٢٦]

أى إن الله لا يستحيى أن يذكر لبيان الحق أى شئ ، قل أو كثر .
فأما الذين آمنوا : فيعلمون أن هذا هو والحق من ربهم .
وأما الذين كفروا : فلا يعلمون ذلك ، بل يقولون .. أى فائدة فى ذلك الذكر؟

ويجيبهم المولى قائلاً : الفائدة فى ضرب المثل .. أنه يضل به كثيراً عن الحق ؛ لكفرهم به ، ويهدى به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به .

وعلى كل .. فما يضل الله به إلا الفاسقين ، الخارجين عن طاعته ، المصرين على ذلك .
وهؤلاء الفاسقون : هم

{ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }
[الآية ٢٧]

أى الذين اتصفوا : بنقص العهد مع الله ، وقطع ما أمرسبحانه بوصله ، والإفساد فى الأرض .
هؤلاء هم الخاسرون ؛ لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم .

{ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }
[الآية ٢٨]

أى كيف تكفرون بالله وقد كنتم عدماً ، فأخرجكم إلى الوجود ، ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم ، ثم يحييكم مرة أخرى بالبعث من القبور ، ثم إليه ترجعون بعد البعث فيجازيكم بأعمالكم ..؟

ثم أقام الحجة عليهم كذلك بدليل مما يشاهدونه فى خلق السموات والأرض .. فقال سبحانه :

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآية ٢٩]

أى : هو الذى خلق الأرض وما فيها جميعاً ؛ لتنتفعوا به .
ثم خلق سبع سموات بعد خلق الأرض .
وعلمه محيط بجميع ما خلق .

أفلا تدركون أيها الكفار أن خالق هذه الأشياء ابتداءً ، وهى أعظم خلقاً منكم .. قادر على إعادتكم وبعثكم للحساب والجزاء حقاً أأنتم أشد خلقاً أم السماء ..؟

*****

أيها القارئ الكريم .. يخبر تعالى عباده بإنعامه عليهم ، حيث ذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم ، حيثما يخاطب حبيبه صلى الله عليه وسلم قائلا :

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٣٠]

أى : واذكر يا محمد ، واقصص على قومك .. وقت أن قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض جنساً هم بنو آدم ، يخلف بعضهم بعضاً ، جيلاً بعد جيل .. فى تنفيذ أحكامى فيها ، وسياسة الخلق عليها .

قالت الملائكة – ليس اعتراضاً ولا حسداً – إنما استعلاماً واستفهاماً : ما الحكمة يا ربنا فى خلق هؤلاء .. مع أن منهم من يفسد فى الأرض بالمعاصى ، ويسفك الدماء ؟ ..
إذا كان المراد عبادتك : فنحن نسبح بحمدك ونقدسك ونصلى لك ..!!
أى: فنحن أولى بالاستخلاف .
أجابهم رب العزة قائلاً: إنى أعلم ما لا تعلمون من المصلحة فى استخلافهم ؛ حيث يكون فيهم المطيع والعاصى ، ويظهر عدلى فيهم ، ويتم جزائى لهم .

{ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٣١]

أى : وعلم الله آدم أسماء الأشياء كلها قبل وجودها .

ثم عرض هذه الأشياء على الملائكة ، وقال لهم أخبرونى بأسمائها إن كنتم صادقين فى أنكم أحق بالخلافة من آدم وذريته .

{ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }
[الآية ٣٢]

وهكذا : نزه الملائكةُ ربَّ العزة أن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى إياه ، أو أن يحيط أحد بشئ من علمه إلا بما شاء سبحانه وتعالى .

ثم أظهر تعالى مزية آدم على الملائكة حيث :

{ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }
[الآية ٣٣]

أى : أخبرهم يا آدم بما علمتك إياه .

فسمى آدم للملائكة كل شئ باسمه ، ولما فعل آدم ذلك :

{ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }

أى : ألم أقل لكم إنى..

أعلم ما غاب فى السموات والأرض ؟

وأعلم ما تظهرون من قولكم أتجعل فيها من يفسد فيها ؟

وأعلم ما تسرون من قولكم لن يخلق الله أكرم عليه منا ولا أعلم ..؟

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }
[الآية ٣٤]

أى : فسجدوا كلهم طاعة لله ، وإكراماً وتحية لآدم بالانحناء ، إلا إبليس .. الذى كان بينهم حيث : حسد آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة ، وقال أنا خير منه ثم أبى وتكبر ، وكان من الكافرين .

*****

{ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٣٥]

وهكذا : دون إعلام لنا نحن بهذه الشجرة ، ولا تدليل عليها لا من القرآن ولامن السنة الصحيحة ، حيث إن علم ذلك .. إذا عُلم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به كما يقول الإمام ابن كثير رحمه الله .

بل العبرة هنا بما صدر عن المولى لآدم من الإباحة لنعيم الجنة ، والنهى عن القرب من هذه الشجرة ، والتهديد عند المخالفة .

{ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ }
[الآية ٣٦]

فأوقعهما الشيطان فى الزلل والخطأ بسبب هذه الشجرة ؛ حيث قال لهما ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.
ثم قال: لهما إنى لكما لمن الناصحين
فأكلا منها
فأخرجهما الله مما كانا فيه من نعيم الجنة.

وكان القرار الإلهى :

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ

أى : انزلوا إلى الأرض : بعض ذريتكم لبعض عدو، بسب ما يكون من ظلم بعضهم لبعض ، ولكم فى هذه الأرض قرار ، وأرزاق وآجال ، إلى وقت مقدر معين .
ثم تقوم الساعة .

{ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }
[الآية ٣٧]

أى : ألهم الله تعالى آدمَ كلمات ، قالها لربه تائباً مستغفراً .
فتقبلها الله تعالى منه ، وتاب عليه ، وغفر له .

حيث إنه هو التواب الرحيم يقبل توبة التائبين ، ويغفر الذنب للمستغفرين .

ثم أخبر المولى عز وجل آدم وزوجه وذريتهما وإبليس.. بالقانون الذى يتم التعامل على أساسه مع الجميع ، بعد الهبوط من الجنة قائلاً :

{ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }
[الآية ٣٨]

أى : قلنا اهبطوا إلى الأرض جميعاً ، وسأنزل لكم ما تهتدون به إلى الخير والحق ، مع الأنبياء والرسل ، من الكتب ، والقرآن الكريم ، والقدوة الحسنة فى المرسلين .
فمن عمل بهذا الهدى الإلهى فآمن بى ، وعمل بطاعتى : فلا خوف عليهم فيما يأتى من أمور الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ٣٩]

أى : ومن كفر بى وكذب برسلى وكتبى وهَدْيى : فأولئك أصحاب النار هم فيها مقيمون ، لا يموتون ، ولا يخرجون منها أبداً .

*****

فى الآيات التالية .. تبدأ المواجهة الأولى – حسب ترتيب المصحف الشريف – مع بنى إسرائيل ، حيث يقول رب العزة :

{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ }
[الآيات ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣]

مواجهة صريحة ، وحملة واضحة ، فى كشف حقيقة نوايا اليهود ، وإظهار طبائعهم ، وتعرية وسائلهم ، فى عداء الإسلام والمسلمين على مر العصور.. بعد كشف عداوة الشيطان ، والتحذير منه .

وقد ورد هذا النداء يا بنى إسرائيل خمس مرات فى القرآن الكريم ، ثلاثة منها فى سورة البقرة .

وهذا هو النداء الأول : يذكرهم المولى فيه ، وذرياتهم ، ويذكرنا معهم ، بنعمه العديدة عليهم.
ثم يطالبهم بعد هذا التذكير الإلهى بالنعمة عليهم.. بأمرين هامين :

الأول : **الوفاء بالعهد وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون .**

الثانى : **الإيمان بالقرآن الكريم .**

وعلامة هذا الإيمان المطلوب ، ودليل صدقهم فيه .
التخلى عن ثلاثة أشياء .
والتحلى بثلاثة أشياء .

أولاً : **التخلى عن.. أن تكونوا أول من يكفر من جنسكم يا أهل الكتاب بالقرآن ؛ حيث عندكم من العلم به ما ليس عند غيركم .**

ثم التخلى عن إيثار الحياة الدنيا وتفضيلها وشهواتها على الإيمان بى ، والتصديق برسلى ، فإنها قليلة فانية .

ثم التخلى عن.. خلطكم الحق بالباطل ، وكتمانكم الحق ، الذى تعرفونه .

وبعد هذه التخلية من النقائص .. تأتى التحلية بالفضائل .

وهى :
التحلى .. بإقامة الصلاة .
والتحلى .. بأداء الزكاة .
والتحلى .. بالركوع مع الراكعين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
وبهذا التحلى وذاك التخلى مع الإيمان بالله ورسله ، والوفاء بالعهد ..!!
يتحقق منهم .. التذكر الحق لنعم الله عليهم .
وبذلك : يكونون مسلمين ، بل يكونون من المتقين ، المنتسبين حقاً لنبى الله إسرائيل ، أى يعقوب عليه السلام .

*****

هذا ..
ولما كان علماء اليهود – فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم – يقولون لأقربائهم ممن أسلموا : اثبتوا على دين محمد ، فإنه الحق .

نزل قوله تعالى:

{ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }
[الآية ٤٤]

أى : أتأمرون غيركم بالإيمان ، وتتركون أنفسكم دون إيمان ، خاصة وأنكم تتلون التوراة ، وفيها : الوعيد على مخالفة القول للفعل .

أفلا تعقلون سوء فعلكم هذا .. فترجعون إلى الحق .

{ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }
[الآية ٤٥]

واستعينوا على طاعة الله وفعل الخير ..
بالصبر ؛ لأنه يكسر الشهوة عن المخالفة والشر .
وكذلك .. بالصلاة ؛ لأنها تورث الخشوع ، وتنفى الكبر .
ومعلوم : أن الصلاة ثقيلة إلا على الخاشعين لله تعالى .

{ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }
[الآية ٤٦]

أى : الذين يوقنون بالبعث ، وأنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم إليه راجعون فيجازيهم على ما قدموا من خير أو شر .

ثم يكون النداء الثانى لليهود ، فى قوله تعالى :

{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }
[الآية ٤٧]

أى : فضلتكم على العالمين فى زمانكم .
وكان تفضيلاً موقوتاً – بزوال استخلافكم واختياركم – عندما أحسنتم وقتها .
أما بعد نسيانكم نعمة ربكم وعصيانكم أوامره وقتلكم أنبيائهم .. فقد حقت عليكم اللعنة ، وقضى عليكم بالتشريد .
ولما قالت اليهود : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وأبناء أنبيائه ، وسيشفع لنا آباؤنا ؛ قال لهم سبحانه .

{ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ }
[الآية ٤٨]

أى : واتقوا يا بنى إسرائيل عذاب الله وغضبه فى يوم القيامة .. بالإيمان بالله ، والتصديق بكتابه ، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم .

إذ فى هذا اليوم :
لا تنفع – بصفة عامة – نفس غيرها أبداً .
ولا يقبل – بصفة خاصة – من كافر ولا فى كافر ، شفاعة .
ولا يؤخذ من كافر فداءً ، ولو كان ملء الأرض ذهباً .
ولا ناصر لكافر .. من نفسه ، أو من غيره ، قريباً كان أو بعيداً .

*****

وبعد هذا التذكير المجمل بنعم الله عليهم ، فى الندائين السابقين وما فيهما .. !!
يبدو : أنه .. لم ينفع ، ولا ينفع ، ولن ينفع معهم التلميح – فى إصلاح حالهم – بل لابد من التصريح .. !!

وكذلك : لم ينفع ، ولا ينفع ، ولن ينفع معهم الإجمال – فى إصلاح حالهم – بل لابد من التفصيل .
وذلك : من خلال العرض المفصَّل بعض الشئ لمواقف منهم ولهم ومعهم ، فى هذه السورة الكريمة .
وعدَّدَ المولي سبحانه خمسة عشر موقفاً تتبين من خلالها .. طباعهم ، وعصيانهم ، وعقوباتهم ، ونظرتهم للبشرية عامة ، وللمسلمين خاصة ؛ تحذيراً منهم ، وتنبيهاً على خستهم ، وعدم الانخداع بهم .

يصور تعالى الموقف الأول من هذه المواقف بقوله تعالى :

{ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ }
[الآية ٤٩]

أى : اذكروا وقت أن نجيت آباءكم من فرعون وظلمه ، بتجميعكم مع رسولى موسى عليه السلام ، وتخليصكم مما كنتم فيه من سوء العذاب ، وتوجهكم – بتوفيقى لكم – للخروج من مصر نهائياً .
فهل عرف اليهود لهذه النعمة حقها ، ووفوا بعهدهم مع الله ، وآمنوا بكتابه، واتبعوا رسوله ، وانضموا لموكب المؤمنين .. ؟
كلا .. وألف كلا .. !!

ومع القارئ الكريم نستمع إلى الموقف الثانى .
إذ يقول تعالى:

{ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ }
[الآية ٥٠]

أى : واذكروا نعمتى عليكم .. عندما أنجيتكم أولاً من فرعون وظلمه لكم – وثانياً – من لحوقه بكم وقت خروجكم ، حيث شققنا البحر ودخلتم فيه ومشيتم إلى الشاطئ الآخر ، وسط ذهول فرعون وأتباعه من هذا المنظر العجيب الغريب.

وكذلك ثالثاً – من الغرق فى البحر ، وأخرجناكم منه سالمين .

ورابعاً – بغرق فرعون وآله ، وانتم تنظرون إليهم ، وإلى فعل الله تعالى فى الطغاة والظلمة ، وإنعامه بانجاء أوليائه من الكروب والأزمات .

فهل عرف اليهود لهذه النعمة حقها ، ووفوا بعهدهم مع الله ، وآمنوا بكتابه، واتبعوا رسوله ، وانضموا لموكب المؤمنين .. ؟ كلا .. وألف كلا .. !!

وإلى كتاب الله – أيها الكرام – نستمع إلى الموقف الثالث

{ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ *
ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }
[الآيتان ٥١ ، ٥٢]

خرج موسى عليه السلام للقاء ربه ، وطلب من قومه انتظاره أربعين ليلة ، وهى المدة التى حددها الله له فى وعده إياه.

فماذا فعل بنوا إسرائيل .. ؟

عدُّوا عليه عشرين نهاراً وعشرين ليلة ، وقالوا هذا هو المطلوب .

وبعد ذلك : قالوا أخلفنا موسى وعده .

ثم اتخذوا العجل إلهاً يعبدونه ، وهم ظالمون فى ذلك ؛ حيث عبدوا ما لا ينبغى أن يعبد .

ومع ذلك ، وبعد كل ذلك : عفا الله عنهم ، لعلهم يشكرونه بعودتهم للإيمان الذى ينفعهم .

فهل عرف اليهود لهذه النعمة حقها ، ووفوا مع الله ، وآمنوا بكتابه ، واتبعوا رسوله ، وانضموا لموكب المؤمنين .. ؟

كلا .. وألف كلا .. !!

*****

{ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }
[الآية ٥٣]

أى : واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم فى هذا الموقف – بعد كل ما سبق منكم – حيث آتينا نبينا موسى التوراة ، لتفرق لكم بين الحق والباطل ، والهدى والضلالة لعلكم بهذا الكتاب وما فيه تهتدون إلى الحق والصواب ، فتعودون إليه ، وتلتزمون به ، وتسعدون فى الدنيا والآخرة .

فهل عرف اليهود لهذه النعمة حقها ، ووفوا بعهدهم مع الله ، وآمنوا بكتابه، واتبعوا رسوله ، وانضموا لموكب الإيمان .. ؟

كلا .. وألف كلا .. ؟

* * *

الموقف الخامس .

يقول أهل العلم :

الكفارة .. طهارة .

والعقوبة.. تعيد صاحبها بعد ممارسته للذنب .. عضوا صالحاً نافعاً فى المجتمع من جديد .

ولذلك : فإن المولى رغم إنعامه على بنى إسرائيل – كما رأينا – وعفوه عنهم ، وإيتاء موسى الكتاب يهتدون به .. لم يهتدوا ، ولم ينصلحوا .

ولذا : كان لابد من عقوبة .

تصورها الآيات التالية :

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }

[الآية ٥٤]

أى : اذكروا يا بنى إسرائيل .. إذ قال موسى عليه السلام لقومه – بإذن من ربه – إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل إلاها .. وإنه لعمل فاحش يحتاج منكم إلى توبة فتوبوا إلى بارئكم .

وكأنهم قالوا : كيف نتوب .. ؟

فقال لهم فاقتلوا أنفسكم أى يقتل بعضكم بعضاً قتلاً حقيقياً.

وكانت هذه توبة بنى إسرائيل التى شرعها الله لهم .

وقد فعلوا..

وهنا : تاب الله عليهم ، وتمت النعمة .

حقاً : إنه هو التواب الرحيم بعباده جميعاً .

فهل عرف اليهود لهذه النعمة حقها ..

كلا .. وألف كلا !

*****

الموقف السادس

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

[الآيات ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧]

عجيب .. !!

بعد كل هذا ، وبعد هذه التوبة العنيفة : يطلبون من موسى عليه السلام أن يريهم الله عياناً بياناً ، لكى يؤمنوا به ..!!

خبرونى بربكم أيها الكرام ..

أبعد هذا جحود ونكران ..!!

أبعد فعل هؤلاء : تكون ثقة فيهم لإنسان .. !!

ولهذا .. كان الجزاء العاجل ، والعقاب العادل ..

حيث أخذتهم الصاعقة، وهم فى كامل وعيهم ، ينظرون إلى بعضهم البعض .

وماتوا فى الحال ، وهم على هذا الحال .

وهنا : دعا موسى ربه أن توهب لهم الحياة مرة أخرى ، عسى أن يذكروا هذه النعمة ، ويشكروا الله عليها ..

واستجاب الله لموسى عليه السلام ، وعادوا للحياة .

وليس هذا فقط .

بل جعل الله السحاب يظلهم من أشعة الشمس .

كما أنزل عليهم المَنَّ والسلوى ؛ طعاماً لهم ، قائلاً كلوا من طيبات ما رزقناكم .

فأكلوا وشربوا ، وتمتعوا بهذه النعم .

فهل عرف اليهود لهذه الإنعامات المتتاليات حقها ؟

كلا .. وألف كلا ..!!

حيث يقول تعالى تعقيباً على عصيانهم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

حقاً .. على الباغى تدور الدوائر .

أيها الكرام .. تعالوا إلى آيات الموقف السابع .

{ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }

[الآيتان ٥٨ ، ٥٩]

وبعد مرور أعوام عديدة ، ونشوء أجيال جديدة منهم ، أنعم الله عليهم بدخول هذه القرية وأباح لهم التمتع بخيراتها بعد التِّيه والضياع والجوع .

وهى نعم تستحق الشكر عليها بلا طلب من النعم .. لو كانوا يفقهون ..!!

فهل عرفوا : لهذه النعمة حقها ، ووفوا بعهدهم مع الله ، وآمنوا بكتابه ، واتبعوا رسوله ، وانضموا لموكب الإيمان ..؟

كلا .. وألف كلا !

بل عصوا .. حيث بدلوا أمر الله لهم قولاً وعملاً .

*****

وهنا يصدر رب العزة .. القول الفصل ، والحكم العدل..!!

حيث أنزل على هؤلاء الظالمين ، عذاباً من ؛ السماء بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله ، ومخالفتهم أحكامه ، وعنادهم له سبحانه .

* * *

الموقف الثامن : من مواقف تذكير الله لبنى إسرائيل بنعمه عليهم

يقول تعالى:

{ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ }

[الآية ٦٠]

أى : واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم ، حينما أنزلنا على آبائكم المن والسلوى وهم فى الصحراء القاحلة ، وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم فأكلوا وشبعوا .

ثم طلبوا من موسى الماء ليشربوا .

فاستسقى موسى ربه لقومه .. وأجاب الله طلب نبيه عليه السلام ، وأخرج لهم الماء من حجر ، يضربه موسى بعصاه .

ولما ضربه .. تفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم

وقيل لهم :
على سبيل الإباحة والإنعام.. كلوا واشربوا من رزق الله
ثم على سبيل النهى والتحذير.. ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .
فهل عرف اليهود لهذه النعمة حقها .. ووفوا بعهد الله ، وآمنوا بكتابه ، واتبعوا رسوله ، وانضموا لموكب الإيمان .. ؟
كلا .. وألف كلا .. !!

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ }
[الآية ٦١]

عجيب ..!!
ترك اليهودُ الحديثَ فى مهام الأمور ، التى خرجوا من مصر لأجلها..!!.
تركوا الإنعامات الإلهية عليهم ..!!
وتحدثوا مع موسى عليه السلام فى صغار الأمور ، وتوافه الحياة .. !!
لقد طلبوا من موسى : التغيير من المن والسلوى إلى ما دونها ، ممَا ألفوه أيام الذل والهوان ..
إنهم يريدون : البقول ، والبصل ، والثوم .
فوجئ موسى بهذا الطلب الغريب .. فقال مستنكراً أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟
ولما وجدهم مصرين ، وعن عظائم الأمور مشغولين وبتوافه الأمور شغوفين .. قال اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم .
وهكذا .. كتب عليهم العيش تحت أقدام الرغبات المادية ، وقضى عليهم – وهم يستحقون – الذل والهوان ، وانقطع الإنعام عليهم ، وبدأ العقاب الإلهى لهم.
نعم وضربت عليهم الذلة والمسكنة جزاءً عادلاً ؛ لكفرهم بنعم الله السالفة عليهم ، ولما اختاروه من هبوط وإنحطاط .
بل إنهم فوق ذلك باؤا بغضب من الله .
ولكن .. لماذا كل هذا .. ؟
لأنهم وصلوا إلى حد لا ينفع معه إلا هذا ، وكما يقولون : "آخر الدواء الكى" .
حيث إنهم كانوا يكفرون بآيات الله ونعمه .
وصاروا يقتلون النبيين بغير الحق أى ظلماً وعدواناً .
كما أنهم عصوا أوامر الله ، وارتكبوا المناهى عياناً بياناً ، وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه .
وكذلك كانوا يعتدون بغياً وظلماً لأنفسهم ، وعلى غيرهم من البلاد والعباد.
ومع كل هذا : فما يزالون يتبجحون ، ويدعون – بالرغم من كل ذلك – أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه .
وهنا ..
يرد القرآن عليهم ..

مكذباً دعواهم هذه .
وكاشفاً عن سر هذا الغضب الإلهى عليهم .
ومحذراً مَن يسير على دربهم ، ومقرراً لوحدة العقيدة.

حيث يقول تعالى:

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }
[الآية ٦٢]

والصابئون : قوم ليسوا على أى دين ، بل هم على فطرتهم التى فطرهم الله عليها .

والآية تقرر : أن من آمن بالله واليوم الآخر – من هؤلاء جميعاً – وعمل صالحاً : فإن لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون

وهذا – طبعاً – قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

أما بعد بعثته عليه الصلاة والسلام: فلابد من الإسلام ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين . [آل عمران ٨٥]

وكأنى بالمولى – جل وعلا – بعد هذا العقاب الشديد : يشعرهم – بهذا التعقيب : أن باب التوبة مفتوح لمن أراد العودة إليه .

فهل فهم اليهود ذلك .. ؟
وإذا كانوا قد فهموا : فماذا فعلوا .. ؟
هل عادوا .. ووفوا بعهدهم مع الله ، وآمنوا بكتابه ، واتبعوا رسوله ، وانضموا لموكب المؤمنين .. ؟
كلا .. وألف كلا .. !!

*****

الموقف العاشر

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ }
[الآيتان ٦٣ ، ٦٤]

يقول تعالى لبنى إسرائيل ، على مرأى ومسمع من المسلمين : اذكروا يا بنى إسرائيل حينما أخذنا عليكم العهد ، وأنتم تحت تهديد الهلاك بسقوط الجبل عليكم ، وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بقوة أى : بجد واجتهاد وإخلاص ، فى العمل بأحكامه ، وتنفيذ تعاليمه .

ولكن .. من العجيب : أنه بعد التهديد لكم ، وأخذ العهود معكم ، والأمر والتكليف بأخذ ما فى التوراة بجد ، والتوصية التى تنفعكم لعلكم تتقون .

لقد.. توليتم من بعد ذلك أى: أعرضتم عن الإيمان والاتباع وخالفتم .

وبالرغم من هذا الإعراض ، وتلكم المخالفة : فقد أرسلت إليكم رسلى ينتشلونكم من أوحالكم وماديتكم ، وقد أثمر فى بعضكم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين جميعاً ، بلا استثناء .

{ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ }

[الآيتان ٦٥ ، ٦٦]

ويستمر المولى فى تأكيد استمرارهم على الكفر ، وتذكيرهم بذلك ، وتهديدهم لذلك .

حينما علموا أن فريقاً منهم خالف تعاليم الله تعالى ، واعتدوا عليها ؛ حيث قاموا بصيد السمك فى يوم السبت ، وهم قد نهوا عن ذلك .

فلما لم تكن عندهم قوة عزيمة .. يتحكمون بها فى أنفسهم ، ويحترمون بها تعاليم الله .. بل كان العناد والمكابرة والاستهانة والمخالفة محل ذلك : كان العقاب الإلهى المناسب لهم والعادل معهم .

فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين أى : مطرودين من رحمة الله ، فكان المخالفون قردة ، وهلكوا بعد ثلاثة أيام .

وكانت هذه العقوبة : عبرة وعظة مانعة من ارتكاب ما عملوا .

فهل انتفع اليهود بهذه العبرة والعظة .. ؟

وهل غيروا طبعهم ، وكفوا عن تحايلهم ومكرهم .. ؟

وهل وفوا بعهدهم مع الله تعالى ، وآمنوا بكتابه ، واتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وانضموا لموكب المؤمنين .. ؟

كلا .. وألف كلا .. !!

* * *

الموقف الحادي عشر :

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ }

[الآية ٦٧]

يا ألله .. !!

جدال عنيف ، ونقاش عقيم .. !!

.. ماذا عليهم لو قالوا من أول الأمر : سمعنا وأطعنا..؟

خاصة: وأن الأمر من الله .. وليس من موسى.

وأيضاً : فالمأمور بذبحه "بقرة" أى : مجرد بقرة ..!!

ولكنه: الجدال والعناد ، وعدم الخضوع لأوامر الله .. ولو كانت يسيرة .

وتفاصيل هذا الموقف الغريب ، والذى لشدة غرابته : أخذ منه إسم هذه السورة الكريمة "سورة البقرة" .

حتى لا يُنسى هذا الموقف .

ولا يتناسى المسلمون هذه الطبيعة فى بنى إسرائيل .

قتل قتيل فى بنى إسرائيل ، ولم يعرفوا له قاتلاً ، فسألوا نبيهم ليسأل ربه ، فيعرفوا القائل .
وسأل موسى ربه ، وبلغهم أجابه ربه قائلاً إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة.
وكان عليهم السمع والطاعة، بالرغم من غرابة الأمر .
ولكنهم قالوا لموسى أتتخذنا هزواً ؟
ولأن المقام :جد لا هزل فيه .
ولأن الاستهزاء فى هذا المقام: جهل ، والاستهزاء والجهل يتنافى ومقام النبوة .
قال موسى أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين المستهزئين .

{ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ }
[الآية ٦٨]

فهل فعلوا .. ؟
لا ..!!
ولكن قالوا لموسى ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ..؟
إنه التعنت إذاً ..!!
ومع ذلك : سأل موسى ربه .
وكانت الإجابة إنه يقول إنها بقرة لا كبيرة فى السن ، ولا صغيرة ، بل بين هذا وذاك ، فتية فى أحلى أيام عمرها .
شدّدوا : فشدد الله عليهم .
ولذا: قال موسى ناصحاً لهم فافعلوا ما تؤمرون به ؛حتى لا يشدد الله عليكم أكثر من ذلك .

{ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ }
[الآية ٦٩]

فهل فعلوا .. ؟
لا..!!
ولكن قالوا لموسى ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها .. ؟
إنه زيادة التعنت والتنطع إذاً .. !!
ومع ذلك : سأل موسى ربه .
وكانت الإجابة إنه يقول لها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين .
بهذا أصبحت معالم البقرة : واضحة جدا.

{ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ }
[الآية ٧٠]

فهل فعلوا .. ؟

لا..!!

ولكن دخلوا فى جولة رابعة من العناد .

وقالوا لموسى ادع لناربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدين.

أخيراً .. قالوا إنا إن شاء الله لمهتدون .

{ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ }

[الآية ٧١]

وجاءت الإجابة

قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها .

وهنا .. وأخيراً .. قالوا الآن جئت بالحق .

ووجدوها فذبحوها مرغمين .

وبعد كل ذلك : هل وفوا بعهدهم مع الله ، وآمنوا بكتابه ، واتبعوا رسوله ، وانضموا لموكب الإيمان . ؟

كلا .. وألف كلا .. !!

* * *

الموقف الثاني عشر :

{ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }

[الآيتان ٧٢ ، ٧٣]

الآن .. وبعد تمام الذبح ، وتنفيذ الأمر : ندرك الصلة بين موضوع القتيل وذبح البقرة .

إن الله عز وجل .. يقدِّم بذلك : دليلاً على البعث وما فيه ، وصدق نبيه وما جاء به .

اختلفوا وتنازعوا فى معرفة القاتل ..

فقال الله تعالي اضربوه ببعضها أى اضربوا القتيل بجزء من هذه البقرة المذبوحة .

ففعلوا .. فقام القتيل ، وأخبر بقاتله .

وهنا: يعقب رب العزة بقوله كذلك يحى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون هذه الآية العظيمة .

فهل عقلوا .. وهل وفوا بعهدهم مع الله ، وآمنوا بكتابه ، واتبعوا رسوله ، وانضموا لموكب الإيمان .. ؟

قبل نقول كلا .. وألف كلا ، كما تعودنا..!! يقول لهم رب العزة سبحانه .

{ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }

[الآية ٧٤]

حيث إنها لم تلن بعد هذا كله ..!!

ولم تطوَع لهم نفوسهم .. الوفاءَ بعهدهم مع الله ، والإيمان به وبكتبه ، واتباع رسله ، والانضمام لموكب المؤمنين .!!

ولهذا يقول المولى تهديداً وتحذيراً وتنبيهاً : وما الله بغافل عما تعملون حيث يجازيكم ربكم على الخير خيراً ، وعلى الشر بمثله .

*****

يبدأ الحديث القرآنى بعد ذلك – مباشرة – مع المسلمين فى المدينة ، ليريحهم من عناء القلق بالأمل فى إيمان اليهود ، بعد أن علموا طباعهم .

وهو رسالة لكل المسلمين فى كل العصور والبيئات : تهدف إلى نفس الغرض.

حيث يقول تعالى:

{ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ }

[الآيتان ٧٥ ، ٧٦]

وهاتان الآيتان : تكشفان أمرين خطيرين.. يدلان على أن قلوب اليهود قد فسدت فساداً لإصلاح له ، ولا أمل بعده فى إيمانهم .

الأول : **أن فريقاً من اليهود ، وهم علماؤهم .**

كانوا يسمعون كلام الله ، ويعرفونه جيداً ، ويعقلون حلاله وحرامه .. ثم يقومون بتحريفه ، عن وعى كامل ، واختيار تام ، منهم .

فهل بعد هذه المصيبة منهم يا مسلمون تطمعون أن يؤمنوا لكم ؟

الثانى : **أن فريقاً آخر منهم .**

كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا أنه رسول الله حقاً ، ولكن إليكم خاصة ، ثم إذا خلا بعضهم إلى بعض كان العتاب بينهم ، واللوم الشديد ، لمن قال منهم آمنا ؛ حيث إن فى ذلك حجة للمسلمين عليكم ، ثم يقولون لبعضهم البعض موبخين أفلا تعقلون أن هذا خطأ منكم ، وخطر عليكم.

فهل بعد هذه المصيبة منهم – أيضاً – يا مسلمون تطمعون أن يؤمنوا لكم ..؟

ولأنهم يفهمون خطأ: أن مجرد قولهم للمسلمين آمنا : فيه الحجة .. ولو لم يقولوا ذلك ، ما كان للمسلمين حجة عليهم ..

فقد رد الله عليهم هذا الزعم والفهم الخاطئ ، بقوله سبحانه .

{ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ }
[الآية ٧٧]

حقاً .. إنه سبحانه يعلم هذا وذاك ، وما خفى عن هذا ولا عن ذاك ، وسيجازيهم بما يستحقون .

* * *

وبعد ذلك أيها الإخوة والأخوات : يبين ربنا جل وعلا للمسلمين الصادقين .. حال اليهود : العلمى ، والدينى ، والواقعى ، المنغمسين فى أوحاله ، والذى لا رجاء فى صلاحه ، أو إصلاحه .

وذلك : ليريحهم من عناء التعلق بالأمل فى إيمان اليهود ، ليوجههم إلى بذل الجهد الدعوى إلى مجال آخر .

إذ يقول سبحانه :

{ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ }
[الآيتان ٧٨ ، ٧٩]

هاتان الآيتان أيها الأفاضل .. توضحان : أن القاعدة العريضة من بنى إسرائيل ، كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة أصلاً ، بل كانت أميتهم أشمل من ذلك .. إذ لم يكونوا يعلمون عن دينهم ، أو يعرفون منه ، إلا مجموعة من الأغاليط والأكاذيب والأوهام والظنون .

وبطبيعة الحال .. فإن أميتهم إذاً : كانت أمية فكرية .

وذلك بسبب : فساد طبيعتهم ، وسوء أفعالهم ، وإنغماسهم فى شهواتهم من جهة ، ومن جهة أخرى .. نتيجة لتحريف علمائهم للتوارة ؛ ليشتروا بهذا التحريف ثمناً قليلاً من عرض الدنيا الزائل .

ولأن هذا : تفريط منهم فى الأمانة ، وخيانة فى أداء الرسالة ، وافتراء على الله عز وجل .. فقد كان التهديد الشديد ، والوعيد العنيف المخيف ، المتكرر لهم فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

وهذه مصيبة ثالثة منهم ومن علمائهم .

فهل بعد هذه الكارثة ، التى كانت منهم جميعاً تطمعون أن يؤمنوا لكم.. ؟

*****

أيها الأحباب فى الله .. !

ما زلنا فى رحاب حديث المولى مع المؤمنين الصادقين ، يشرفهم بخطابه، ليريحهم من عناء التعلق بالأمل فى إيمان اليهود ، وليوجههم إلى بذل الجهد فى مجال آخر أكثر أملاً ، وأجدى نفعاً .

حيث يقول سبحانه وتعالى:

{ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }

[الآية ٨٠]

وبهذا : يبين الله واحداً من أكاذيبهم ، وافتراءً من افتراءاتهم على الله سبحانه وتعالى ، إذ قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة .. .

سبحان الله ..!!

لقد اعترفوا أنهم سيعذبون ، وبهذا ينتقض ما يدعون من أنهم أبناء الله وأحباؤه .

ولكنهم كذبوا فيما اعترفوا به ، حيث حددوا أنه سيكون مساً ، وليس عذاباً معه خلود فى النار .

ثم كذبوا ثانياً فى تحديد مدة هذا المس الخفيف ، الذى يدعون ..

إذ قالوا أياماً معدودة .

وحتى لا تعلق أكاذيبهم هذه على الله تعالى.. فى أذهان غيرهم ؛ وصيانة للمسلمين من أدران هذه الأوهام ، وبياناً للحق : أمر المولى عز وجل حبيبه صلى الله عليه وسلم بالرد القوى المفحم عليهم .

حيث يقول له قل أتخذتم عند الله عهداً بذلك فلن يخلف الله عهده معكم.. ؟

أم تقولون على الله ما لا تعلمون كما هى عادتكم .. ؟

* * *

وهكذا يرد الله تعالي عليهم بقوله :

{ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

[الآيتان ٨١ ، ٨٢]

بلى أى : تمسكم النار ، وتخلدون فيها .

ثم يكمل محمد صلى الله عليه وسلم ، مبيناً لهم وللمسلمين ، وللدنيا كلها : سنة الله وعدله فى مثل هذه الحال ، حيث يتم كلام ربه قائلاً من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

ألا ترون أيها المستمعون الكرام أن قولهم بالنسبة للنار وعذابهم فيها مصيبة رابعة كبرى .

ولذلك كان الخطاب الشفوق المريح للمسلمين من عناء التعلق بإيمانهم أفتطمعون أن يؤمنوا لكم .

أقول : إذا كان هذا الكلام من رب العالمين ، وهو صادق لا محالة إلى يوم القيامة ..!!

فما بال الناس فى أيامنا هذه يطمعون فى أن يفى لهم اليهود بالمواثيق والعهود ..!!

*****

أيها الكرام : إلى المواقف التى يذكّر الله تعالى فيها بنى إسرائيل بنعمه ، فى مواجهة يهود المدينة ، وعلى مرأى ومسمع من المسلمين آنذاك ، وهو تعليم للمسلمين إلى يوم القيامة .

ا

لموقف الثالث عشر .

يقول تعالى :

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ }
[الآية ٨٣]

أى : اذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم ، حينما أخذت عليكم العهد بما فيه صالحكم ، وبما به تفضلون العالمين فى زمانكم .

وهذه الأشياء هى :

١- ألا تعبدوا إلا الله .

٢- وبالوالدين إحساناً .

٣- والإحسان لذى القربى ، وصلتهم .

٤- والعطف على اليتامى .

٥- والعطف على المساكين .

٦- والقول الحسن للناس ، ومع الناس .

٧- وإقامة الصلاة .

٨- وإيتاء الزكاة .

ويلاحظ : أن هذه الأمور فى مجموعها .. هى قواعد الإسلام ، وتكاليفه .. بل هى الإسلام فى شموله من : عقيدة ، وأخلاق ، وعبادات ، ومعاملات .

فهل فعل اليهود ذلك .. ؟

كلا .. وألف كلا

يقول تعالى ثم توليتم أى امتنعتم وخالفتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون.

* * *

الموقف الرابع عشر

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ }
[الآية ٨٤]

أى : اذكروا يا بنى إسرائيل نعمة الله عليكم ؛ حيث حرم عليكم سفك دماء بعضكم لبعض ، وحرم - كذلك - عليكم إخراج بعضكم لبعض من دياركم.

ثم أقررتم بذلك العهد وأنتم تشهدون على أنفسكم بذلك .

فهل التزم بنوا إسرائيل بهذا الميثاق .. ؟

وهل عرفوا نعمة الله عليهم فيه .. ؟

كلا .. وألف كلا ..!!

لا هم .. ولا ذرياتهم من بعدهم .

* * *

ولذلك : يبين الله تعالى لهم مخالفاتهم ، وتناقضاتهم هم ، وجزائهم ، وجزاء من يفعل فعلهم ، بقوله جل وعلا .

{ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }

[الآية ٨٥]

يا من أقررتم وأنتم تشهدون : أنتم الذين تخالفون هذه العهود ، كما أنكم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض .

وهذا النقض للميثاق : فعل شنيع ..!!

ولشفاعة هذا الفعل ، أو ذاك .. ولحظورته ..!!

فقد يبن الله جزاءه على وجه السرعة .. تهديداً لمرتكبين ، وتخويفاً لمن يفكرون فى ممارسته إلى يوم الدين .

حيث يقول فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون .

* * *

أيها الكرام : ليس هذا فقط .

بل يوضح المولى تعالى السبب الذى دفعهم إلى ذلك ، وشجعهم عليه .. وهو : فساد طبعهم ، وعدم تصديقهم للعذاب الذى ينتظرهم .

يقول تعالى:

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ }

[الآية ٨٦]

نعم .. إنه لا يفعل ذلك .. إلا الذين اشتروا الفانى بالباقى .

على كل حال ..

لهم ما اختاروا ..!!

ولكن : لا يخفف عنهم العذاب الناجم عن سوء اختيارهم ، وفساد قصدهم.

كما أنه لا ناصر لهم ، ينقذهم مما يكونون فيه من العذاب الدائم .

* * *

وبعد ذلك – أحبتى فى الله – تواجه الآيات الكريمة .. اليهود .. بملخص دقيق واضح صادق لتاريخهم مع أنبيائهم ، ومواقفهم منهم ..

إذ يقول سبحانه :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ }
[الآية ٨٧]

أى : ولقد آتينا موسى التوراة هداية ومنهاجاً ، فحرفت وبدلت ، وأتْبَعْنا موسى عليه السلام بالعديد من الرسل .

ومنهم عيسى عليه السلام .

وحتى لا تعاندوا عيسى أيضاً وتكذبوه : أيدناه بالمعجزات الباهرات ، من إحياء الموتى بإذن الله .. الخ كما أيدناه بروح القدس .

فماذا حدث من آبائكم مع هؤلاء الرسل الذين جاؤا لهدايتهم .. ؟

شق عليهم متابعة هؤلاء الأنبياء فى الهدى الذى جاؤا به .

بل كذبوا بعضهم ، كما حدث مع عيسى عليه السلام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم .

كما قتلوا البعض الآخر منهم ، كيحى وزكريا عليهما السلام .

ولذا : يواجههم القرآن قائلاً أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون .

* * *

وبعد هذه المواجهة العنيفة معهم ..

يتجه الحديث إلى النبى عليه الصلاة والسلام .. كاشفاً له السبب فى كل هذا الذى حدث – والذى يحدث – من اليهود .

إذ يقول ربنا عز جلاله:

{ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٨٨]

أى : أن السبب فى تكذيبنا للرسل ، ومنهم أنت يا محمد .. أن قلوبنا مغلقة مغطاة ، لا ينفذ إليها شئ مما تأتوننا به .

وهى : علة فاسدة ، وأكذوبة – منهم – واضحة ، تستروا بكفرهم خلفها .

ولكن الله يفضحهم .. حيث يبين أنهم قد طردوا من رحمة الله ؛ بسبب عنادهم وإفسادهم وتحريفهم بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون .

* * *

ثم يضيف القرآن الكريم من تاريخ المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم – أيها المستمعون الأماجد – ما يدلل على ذلك ويؤكده .

حيث يقول رب العزة:

{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ }
[الآيات ٨٩ ، ٩٠]

صدق الله العظيم .. أيها المستمعون الكرام ..

كان يهود المدينة ، قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم : يستنصرون على أعدائهم من الكفار فى الحروب ، قائلين "اللهم إنا نسألك بحق هذا النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا ، فى آخر الزمان ، أن تنصرنا عليهم وكانوا – بهذا الدعاء – يُنْصَرون .

فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه كتاب مصدق لما معهم من التوراة ، غير المحرفة : كفروا به .

فأنزل الله تعالى:

ولما جاءهم كتاب من عند الله وهو القرآن ، مصدق لما يعرفون فى كتابهم من صفات هذا النبى ، والبشارة بمجيئه : كفروا به .

إذاً فلعنة الله على الكافرين

إنهم باعوا أنفسهم للشيطان ؛ وكفروا بما أنزل الله ، بغياً وحسداً ..!!

إذ كيف يخص الله محمداً بهذا الفضل دونهم .

وهذا اعتراض منهم.. سفيه وقح على أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده غيرهم ، ما يشاء .

ولفعلهم هذا – وغيره – باؤا بغضب على غضب من الله تعالى إليهم ..

وفوق هذا.. فلهم فى الآخرة عذاب مهين .

*****

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ٩١]

أيها السادة

من أعجب الأمور .. أن هؤلاء الناس – بالرغم من كل ذلك – كانوا .

رإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله أى صدّقوا بالقرآن ، وبما جاء فيه .

قالوا نؤمن بما أنزل علينا أى نؤمن بالتوراة فقط ويكفرون بما وراءه أى القرآن ، الذى هو الحق مصدقاً لما معهم من التوراة والإنجيل .

وهنا .. يوضح رب العزة لمحمد صلى الله عليه وسلم : كيف يرد عليهم.

إذ يقول له : قل لهم يا محمد : إن كنتم مؤمنين حقاً كما تدعون .. فلم تقتلون أنبياء الله ؟

أى : لم قتل آباؤكم وأجدادكم أنبياء الله قبل ذلك ؟

والخطاب لهم ولآبائهم ، ولأبنائهم وأحفادهم ؛ حيث ارتضى الجميع فعل هؤلاء الأجداد .

* * *

أيها الأكارم ..

يكمل الله تعالى تلقين محمد صلى الله عليه وسلم الرد على دعاوى اليهود الباطلة .

حيث يقول سبحانه :

{ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ }
[الآية ٩٢]

أي : لقد جاءكم موسى بالآيات البينات الواضحات الدالة على صدقة .. كالعصا ، واليد ، وفلق البحر .

فلم اتخذتم العجل إلهاً من بعد ذهابه إلى ميقات ربه وأنتم ظالمون فى ذلك؟

إذاً .. فلستم بمؤمنين حقاً ، كما تدعون ..!!

* * *

وبعد أن ظهر كذبهم فى دعوى أنهم مؤمنين..!! :

يذكر الله تعالى الموقف الخامس عشر..

من المواقف التى يذكرهم فيها رب العزة بنعمه عليهم .

إذ يقول تعالى:

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ٩٣]

أي : اذكروا يا بنى إسرائيل .. حينما أخذنا عليكم العهد والمواثيق بالإيمان بالله ، واتباع رسله .

وذلك : وقت أن رفعنا الجبل فوق رؤسكم ، لتقروا بما عوهدتم عليه ، ولتأخذوه بقوة وجِد ، وقلنا لكم اسمعوا أي امتثلوا ، والتزموا بأحكامه .

فماذا فعلتم ..؟

لقد قلتم سمعنا وعصينا أي : سمعنا بآذاننا ، وعصينا بقلوبنا وأفعالنا .

فهل هذا يليق بمن يقولون تؤمن بما أنزل علينا .. ؟

لا والله .. لقد وصل حب عبادة العجل عندهم حداً كبيراً ، حتى صار كأنه شيئاً شربوه – لا بأفواههم ، بل – بقلوبهم .

وكل ذلك بسبب كفرهم .

قل لهم يا محمد ..

إن كان إيمانكم يأمركم بذلك : فبئست هذه الأشياء التى يأمركم إيمانكم بفعلها .

بل كيف تدعون الإيمان .. وأنتم تمارسون هذه الأفعال القبيحة من : نقضكم المواثيق ، وكفركم بآيات الله ، وعبادتكم العجل من دون الله .

*****

وبعد ذلك : يكون الاختبار العملى .. لكشف حقيقة إيمانهم الذى يدعونه .

استمعوا معى إلى هذه الآية الكريمة .

{ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٩٤]

حقاً .. إنه اختبار شاق وامتحان عسير ..!!

وكانت النتيجة بالرغم من كثرة إدعاءاتهم ، وعلوِّ أصواتهم : أنهم أحجموا عن تمنى الموت .

يقول الحبيب صلى الله عليه وسلم (ولو أن اليهود تمنوا الموت : لماتوا ، ورأوا مقامهم من النار) .

وليس هذا فقط .. بل استمعوا أيضاً ..

{ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }

[الآية ٩٥]

صدق الله العظيم .. إنهم لن يتمنوا الموت أبداً .

ولكن لم لن يتمنوه أبداً .. ؟

إنه الخوف من الله تعالى ، الذى حرفوا كتابه ، وخالفوا تعاليمه ، وكذبوا أنبياءه ، وقتلوا الكثير منهم .

على كل حال .. لقد فشلوا فى هذا الاختبار العملى .

وليس هذا فقط أيضاً .

بل استمعوا كذلك إلى ما يصور حرصهم الشديد على الحياة .

{ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }

[الآية ٩٦]

نعم .. إنك تجد اليهودى – وصدق الله – أحرص الناس على الحياة ؛ لعلمهم بمآلهم السئ ، وعاقبتهم الخاسرة .

ولذلك يود أحدهم لو يعمر ألف سنة خوفاً من العذاب الذى ينتظره.. من جهة ، ومن جهة أخرى: لتعلقهم الشديد بالماديات وبريقها .

وليس بمنجيه – ولا بمزحزحه – من هذا العذاب شيئاً ، مهما عمَّر من السنين .

والله بصير بما يعمل هؤلاء ، وسيجازيهم على أعمالهم ، طالت حياتهم أو قصرت .

* * *

ثم يكشف القرآن خسيسة أخرى فيهم .. وهى تفريقهم بين الملائكة ، حسب أهوائهم .

يقول ربنا جل وعلا :

{ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ }

[الآيتان ٩٧ ، ٩٨]

تلقين من المولى تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ليعلن هذا البيان على رؤس الأشهاد .

وهذا البيان .. يتضمن :

الوعيد ، والتهديد الشديد ، والذّمّ لمن يعادى جبريل عليه السلام .

وأن من يعادى واحداً من الملائكة : فقد عادى جميع الملائكة ، الذين هم رسل الله .

وبالتالى : فهو عدو لله ، كافر به .

ومن كان كذلك : كان الله عدوه ، وسيجازيه بما يستحق من نكال وعذاب .

* * *

وبعد هذا الرد القوى الواضح على اليهود .
تنتقل الآيات ..
لتثبيت قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، فى وسط هذه المعمعة من مجادلات اليهود .
ولبيان أنه : لا يكفر به صلى الله عليه وسلم ، ولا بالآيات البينات إلا الفاسقون ، الخارجون عن أمر الله عز وجل .
نستمع سوياً .

{ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ }
[الآية ٩٩]

قال أحد اليهود : يا محمد .. ما جئتنا بشئ نعرفه ، وما أنزل عليك من آية بينة .. فنتبعك ..
فأنزل الله – رداً عليه – هذه الآية الكريمة .
ومعناها : أنا أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات ، دالة على نبوتك ، أي : وهم يعرفونها جيداً ، ويعرفون نبوتك ، ولكنهم يكفرون بها حقداً وحسداً ، وما يكفر بها إلا الفاسقون .
وهذا من صريح التنديد والتهديد لليهود .. حيث لا عهد لهم ، ولا ذمة.

*****

وتستمر الآيات الكريمة – أيها المستمعون الكرام – فى كشف فوقهم وطبيعتهم الفاسدة فى نبذ العهود .
حيث يقول ربنا جل وعلا :

{ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ١٠٠]

والآية : وهى تخبر عن طبيعتهم فى الغدر بالعهود .. !!
تكشف للمسلمين ، وللناس عامة : تفكك أهوائهم ، وعدم وفائهم ، حتى لبعضهم البعض .
ونبذ كل فريق ما تعاهد عليه الآخر منهم .
وما يدفعهم إلى ذلك : سوى عدم إيمانهم بالله تعالى .

يقول الإمام الحسن البصرى – وكأنه يعيش بيننا الآن – ليس فى الأرض عهد يعاهدون عليه : إلا نقضوه ، ونبذوه ، يعاهدون اليوم ، وينقضون غداً .

سبحان الله ..!! ألا فليتعظ الذين يعاهدون ..!!

أيها الأحباب فى الله : استمعوا .

{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }

[الآية ١٠١]

نعم .. إن نبذهم لم يكن للعهود فقط ، بل كان كذلك للكتاب الأخير ، الذى جاء مصدقاً لما معهم من التوراة قبل تحريفهم لها .

نعم .. نبذوا كتاب الله وكأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله ، وأن من جاء به نبى من عند الله تعالى ..

لا .. بل هم يعلمون ذلك جيداً ، ولكنهم يكفرون.

وتركوه كذلك : لأنهم ..

نستمع إلى ما يرشدنا إلى المطلوب .

حيث يقول سبحانه وتعالى:

{ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }

[الآية ١٠٢]

حقاً .. فضّلت اليهود – من بعد إعراضهم عن القرآن ، ومخالفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم – واتبعت ما تقوّلته الشياطين كذباً وزوراً على عهد سليمان عليه السلام ، وصارت ترويه ، وتخبر به – من السحر .

هذا .. وكان السحر قبل زمان سليمان .. صحيحاً ، لأن السحرة كانوا على عهد موسى عليه السلام ، وسليمان بعد موسى .

وقد ادعى اليهود كذباً وزوراً :

أن الذى كان ينزل بالسحر من عند الله على سليمان : هما جبريل ، وميكائيل عليهما السلام .

ولذلك اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان أي : من السحر .

وقد رد القرآن عليهم رداً قاطعاً .

وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا

وكذلك يقول وما أنزل على الملكين ببابل أي : وما أنزل سحر على الملكين جبريل وميكائيل وكُلّفا بتبليغه لسليمان أو غيره .

ثم أخبر رب العزة لبيان الحقائق عن السحر وأهله .. حيث يقول :
ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر أي ببابل.
ومن هؤلاء الذين ضلوا هاروت وماروت .
وكانا يقولان استهزاءً لراغب تعلم السحر منهما : إنما نحن فتنة فلا تكفر أي ابتعد عنا ، ولا تتعلم منا .
ومع ذلك : يعلمان الناس ، ويتعلم الناس منهما فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه .
ويرد الله تعالى على السحرة والفاسدين والشياطين ، ويطمئن الصالحين، حيث يقول وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله .
وقد خسر هؤلاء الشياطين واليهود ومن يتبعهم ؛ حيث إنهم يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .
وقد خاب عملهم وضل سعيهم : حيث علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون .

* * *

أيها الكرام ..
ماذا على اليهود لو أنهم لم يمعنوا فى الضلالة والغواية .. وآمنوا بالله ورسله ، واتقوا محارم الله .. ؟
يجيب رب العزة قائلاً :

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }
[الآية ١٠٣]

نعم .. لكان ثوابهم عند الله خير وأعظم مما اختاروه لأنفسهم .
وإذا كان القرآن يقول لو كانوا يعلمون..!!
مع أنهم يعلمون ذلك :
فإن هذا من باب : التوبيخ لم على اختيارهم ؛ حيث أنزلهم القرآن – بهذا التَّعْبير – منزلة الجاهل الذى لا يعلم شيئاً .

*****

بعد هذا – أيها الإخوة والأخوات – يتَّجه القرآن بالحديث المباشر مع المؤمنين ، فى ثمانى عشرة آية .
يكشف فيها لهم : بعضاً من دسائس اليهود ، وكيدهم للإسلام والمسلمين . ويحذر من ألاعيبهم .
وينهى عن التشبه بهم .
أيها الأحباب : استمعوا معى إلى هذا النداء الحبيب الجميل .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ١٠٤]

نداء بهذا الوصف الجميل للمؤمنين : ينهاهم فيه رب العزة عن متابعة اليهود ؛ حيث كان المسلمون يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم راعنا أي التفت إلينا ، بعد أن سمعوها من اليهود .

ولكن اليهود : كانوا يقصدون بها – فى لسانهم ولهجتهم – السب واللعن ، فانتهزوا الفرصة ، وصاروا يقولونها له .

فنزلت الآية .. وانتهى المسلمون عنها ؛ لئلا تقتدى بهم اليهود فى اللفظ ، وهى تقصد المعنى الفاسد .

وقد أمر المولى المسلمين بمخالفتهم ، حيث قال لهم وقولوا انظرنا

كما حضهم على السمع والطاعة واسمعوا

واعلم أن من خالف أمره : له عذاب أليم وللكافرين عذاب أليم .

* * *

يا أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم ..!!

أتــدرون لمـــاذا حــثنا الله على مخالفة اليهود ، حتى ولو فى هذه الشكليات ..؟

استمعوا معى إلى القارئ الكريم .. لنعرف الجواب .

{ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }
[الآية ١٠٥]

أي والله .. ما يتمنى هؤلاء أن ينزل عليكم يا مسلمون أي خير من ربكم أبداً .

وذلك لشدة عدواتهم لكم ، وغيظهم منكم .

ولكن هل تمنع عداوتهم ، ويحول غيظهم دون فضل الله عليكم .. ؟

أبداً أبداً.. حيث إن الله يختص برحمته من يشاء

وهو وحده – سبحانه – صاحب الفضل ، لا يحجب فضله أحد ، ولا يمنعه عن جوده مخلوق والله ذو الفضل العظيم .

* * *

أيها الأحباب فى الله .. يكمل المولى سبحانه النهى عن التشبه باليهود ، أو التأثر بهم .

ويأمر بالرد على أباطيلهم ، وبخاصة فى قضية النسخ .

كما يفضح نياتهم ، ويكشف عن أغراضهم من هذه الحملات التشكيكية .. فيقول :

{ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ١٠٦]

يروى : أن اليهود لما حسدوا المسلمين فى التوجه إلى الكعبة ، بعد تحويل القبلة ، واغتاظوا منهم .. أخذوا فى الطعن على الإسلام والمسلمين ، والقرآن .. فأنزل الله هذه الآية الكريمة .

وهذه الآية تفيد أن الله تعالى .. ما يبدل من آية – فيرفع حكمها فقط ، أو يرفع تلاوتها فقط ، أو يرفع حكمها وتلاوتها معاً دون تبديل بالمرة .. إلا وأتى بما هو خير منه ، أو مثيل له ، مما فيه مصلحة الناس .

وهذا : رد على اليهود ، وتكذيب لهم ، وتثبيت للمسلمين ، ولمن يكون قد تأثر بكلام اليهود .

{ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }
[الآية ١٠٧]

* * *

وبعد بيان قدرته سبحانه ، وحديثه فى النسخ والتبديل : يحذر من فتح باب يأتى منه التشديد على المكلفين ، لو فتحوه .

فيقول جل وعلا :

{ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }
[الآية ١٠٨]

أي : بل تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل .. عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ..!!

هذا .. لا ينبغى منكم !

حيث إنه من يتعنت ويعاند ، ويتبدل الكفر بالإيمان : فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال والهلاك ، وضل سواء السبيل

*****

أيها القارئ الكريم ..!!

يعطف المولى تبارك وتعالى على المؤمنين : بإعلام عداوة الكفار من أهل الكتاب لهم .. ومن ثم يحذرهم من إتباعهم ، والانخداع بهم ، وسلوك طرائقهم .. فيقول :

{ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ١٠٩]

قال نفر من اليهود للمسلمين بعد موقعة أحد :

ألم تروا إلى ما أصابكم .. ؟ ولو كنتم على الحق ما هزمتم ..!! فارجعوا إلى ديننا ..

فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : ودَّ كثير من اليهود أن تكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ودينه، وكتابه ؛ دون سبب ، بل حسداً من عند أنفسهم خاصة .

وذلك : بعد ما تبين لهم .. الحقَّ فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، بالمعجزات ، والأوصاف المذكورة فى التوراة .

* * *

وبعد هذا الإعلام الإلهى : يبين القرآن الموقف منهم ، ومن رغبتهم الآثمة هذه .. فيأمر المسلمين بتركهم ، وعدم معاقبتهم ، حتى يأتى أمر الله فيهم ، أي بقتالهم .. وقد جاء بالفعل بعد غزوة الأحزاب ، أو قبلها بزمن قليل .

ثم تنتهى الآية بتهديدهم بقدرة الله تعالى الشاملة النافذة .

* * *

وحتى يمكن الله المسلمين من النصر فى الحياة الدنيا على أعدائهم : يحثهم على الاشتغال بما ينفعهم فى الدنيا والآخرة .

فيقول عز من قائل :

{ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }
[الآية ١١٠]

أي : أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وافعلوا كل خير .. فإن الذي تقدمونه لأنفسكم من خير : تجدون ثوابه عند الله ، القائل إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً

خاصة : أنه بكل ما تعملون بصير .

أيها الأحباب فى الله .

إذا كان كثير من أهل الكتاب : يودون أن تعودوا كفاراً ..!! فإنهم يقولون : إنه لن يدخل الجنة سواهم . استمعوا معى إلى هذه الأمانى الكاذبة .

{ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية: ١١١]

حقاً .. هذه شهواتهم الباطلة ، التي لا برهان لهم عليها ، ولا دليل لهم فيها.
ثم يبين المولى سبحانه وتعالى : من هم أهل الجنة ، الذين يستحقون دخولها ..
فيقول :

{ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }
[الآية : ١١٢]

أي يدخل الجنة غيرهم ..
وهم : من أسلم وجهه لله أي : إنقاذ لأمره ، وخضع لحكمه ، واتبع نبيه ، وعمل بتشريعه .
وهذا .. له ثوابه وجزاؤه الحسن – على إحسانه – عند ربه ، ولا خوف عليهم مما يأتى ولا هم يحزنون على ما فات .
حقاً .. إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون [فصلت ٣٠]

* * *

أيها الأفاضل ..
بعد هذا الرد الإلهى على من كفر من أهل الكتاب – يهوداً كانوا أو نصارى – وفضح أمانيهم ، وبيان زيفها : يبين الله تعالى للمسلمين .. تناقضهم فى مفاهيمهم ، وتباغضهم وتعاديهم مع بعضهم البعض ، وعنادهم كذلك لبعضهم البعض ..
بقوله تعالى :

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }
[الآية: ١١٣]

أي : قالت اليهود .. ليست النصارى على شئ صحيح فى عقيدتها ، معتد به .

وكفرت بعيسى عليه السلام .

وقالت النصارى .. ليست اليهود على شئ صحيح فى عقيدتها ، يعتد به . وكفرت بموسى عليه السلام .

وذلك فى الوقت الذى : يتلوا كل فريق منهم كتابه المنزل عليهم .

وفى كتاب اليهود .. التصديق بعيسى .

وفى كتاب النصارى .. التصديق بموسى .

وبمثل هذا القول من اليهود والنصارى : قال المشركون العرب .. أي: قالوا لكل ذى دين .. أنهم ليسوا على شئ ، وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

ويوم القيامة .. يجمع الله سبحانه وتعالى كل هؤلاء ، ويفصل بينهم بقضائه العادل ، فيما كانوا يختلفون فيه .. فيدخل المحق الجنة ، والمبطل النار.

*****

هذا ..

ولما منع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من دخول مكة ، وزيارة المسجد الحرام .. يوم الحديبية :

أنزل الله قوله تعالى :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

[الآية ١١٤]

وسعى فى خرابها يعني : قطعوا عنها من يعمرها بذكر الله ، ومنعوا من يأتيها للحج والعمرة .

هؤلاء .. الظالمون ، المانعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه :

ليس لهم أن يدخلوها آمنين .. إنما الأمن فيها للمسلمين فقط .

وليس لهم إلا الخزى والقتل والهوان فى الدنيا لكفرهم .

ولهم فى الآخرة – فوق ذلك – عذاب عظيم ، وهو الخلود فى النار .

* * *

أيها الكرام .. ما زلنا فى حديث القرآن عن اليهود والكعبة المشرفة .

حيث إنهم – كما تروى كتب أسباب النزول – عَيَّروا المؤمنين ، وقالوا : ليس لهم قبلة معلومة ، فتارة يستقبلون هكذا ، وتارة يستقبلون هكذا .

فأنزل الله تعالى قوله :

{ وَلِلَّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ١١٥]

أي : الأرض كلها لله .. فأينما تولوا وجوهكم فى الصلاة لله تعالى ، وبأمره : فهى قبلته التى رضيها ، وأمره بالتوجه نحوها ..

وهذا من فضل الله الذى يسع كل شئ لأنه العليم بتدبير خلقه .

يعنى : ولا اعتبار لكلام اليهود هذا ولا وزن ولا قيمة .

* * *

ثم يرد القرآن على اليهود والنصارى والمشركين ، الذين ادعو أن لله ولداً.

حيث يقول سبحانه وتعالى :

{ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ *
بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ }
[الآيتان ١١٦ ، ١١٧]

أي : قالت اليهود : عزيز بن الله .

وقالت النصارى : المسيح ابن الله .

وقالت العرب : الملائكة بنات الله .

قال تعالى منزها لنفسه عن ذلك كله سبحانه بل كل ما فى السموات والأرض، ومن فيهما له وحده ، ملكاً وخلقاً وعبيداً .

والكل له عز وجل : مطيعون خاضعون .

وهو سبحانه : خالق السموات والأرض ومبدعهما غير مثال سبق .

كما أنه – فوق ذلك – إذا أراد إيجاد أمر أو شئ .. فإنما يقول له كن فيكون فوراً .

هذا :

{ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ }
[الآية ١١٨]

أي وقال كفار مكة : لولا يكلمنا الله ؛ ليعلمنا أنك رسوله يا محمد ، أو تأتينا آية مما اقترحناه عليك ؛ نستدل بها على صدقك !!؟

على كل ..

فمثل هذا الكلام الذى يقوله كفار مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم : قاله مَن قبلهم من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم .

حقاً .. تشابهت قلوب الكفار جميعاً .. فى الكفر والعناد ، والتعنت ، وطلب الآيات .

ومع ذلك : قد بينا الآيات لقوم يوقنون أنها آيات من عند الله ؛ فيؤمنون.

*****

ثم يخاطب المولى حبيبه صلى الله عليه وسلم ، قائلاً :

{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ }
[الآية ١١٩]

أي : يا محمد .. إنا أرسلنا بالهدى ودين الحق .. بشيرا لمن آمن واهتدى بالجنة ، ونذيراً لمن كفر وضل بالنار .. فقط .

وأنت لا تحاسب عن أصحاب الجحيم وعدم إيمانهم .

وأيضاً :

{ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }
[الآية ١٢٠]

أي : ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ، وسيظلون يعادونك وأتباعك .. حتى تتبع دينهم .

فلا تهتم بهم ، ولا تخش من عدائهم ، فالله ناصرك عليهم .. وقل لهم إن الإسلام هو الهدى وما عداه ضلال .

ولا تتبع كذلك أهواءهم الباطلة هذه ..!!

فإنك إن اتبعت أهواءهم – وحاشاك من ذلك – أو اتبع أهواءهم أحد من أمتك بعد القرآن الذى جاءك .. فإنه : ليس من الله ولى يحفظه من الأذى ، ولا نصير يمنعه من العقاب على ذلك .

* * *

ثم يبين الله أهل الهدى بقوله

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }
[الآية ١٢١]

أي : هم المؤمنون الذين يتلون القرآن الكريم كما أنزل ، لا يغيرونه ، ولا يحرفونه ، ولا يبدلون فيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فعل اليهود فى التوراة ، وكما فعل النصارى فى الإنجيل .

وفوق ذلك : فهم يتدبرونه حق تدبره ، ويتفكرون فى معانيه وحقائقه ، وأسراره ، ويحلون حلاله ، ويحرمون حرامه .

أولئك حقاً يؤمنون به .

أما من يكفر به فيبدل ، ويحرف ، ولا يلتزم بحلاله وحرام ه: فأولئك هم الخاسرون .

* * *

ويعود الكلام مرة أخرى – أيها المستمعون الكرام – مع اليهود ..

حيث يناديهم المولى النداء الثالث فى هذه السورة الكريمة بصيغة يا بنى إسرائيل فيقول :

{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ *
وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ }
[الآيتان ١٢٢ ، ١٢٣]

أي أنعمت عليكم ، وفضلتكم على أهل زمانكم .. فاتقوا يوماً يأت لا محالة. وهو يوم القيامة ..

وهو يوم لا تجزى نفس عن نفس فيه شيئاً ولا يقبل من نفس فيه فداءُ . وكذلك لا تنفع نفساً كفرت بالله شفاعة شافع ، ولا يمنع عن الكفار عذاب الله وينصرهم أحد .

*****

وبعد هذا التكرير والتأكيد على اليهود : لكي ..

يوفون بعهدهم مع الله ، ويؤمنون بكتابه ، ويتبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل [الأعراف١٥٧] وينضمون لموكب المؤمنين .

أقول بعد هذا كله :

ينبه الله تبارك وتعالى على شرف إبراهيم الخليل عليه السلام .

الذى جعله الله للناس إماماً يقتدى به : فى التوحيد ، وحسن القيام بما كلف به من ربه ..

إذ يقول لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ }
[الآية ١٢٤]

أي : واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين ، وأهل الكتابين – اليهود والنصارى – الذين ينتحلون ملة إبراهيم ، وليسوا عليها .

اذكر لهؤلاء إبتلاء الله إبراهيم ، واختياره له بما يكلفه به من الأوامر والنواهى فأتمهن أي قام بهن كلهن خير قيام .

ومن هذه الكلمات :

ما قاله تعالى لإبراهيم عليه السلام إنى جاعلك للناس كلهم إماماً أي قدوة فى الدين إلى يوم القيامة .

ولذلك : لم يبعث نبى بعده إلا كان من ذريته ، ومأموراً باتباعه عليه السلام .

قال إبراهيم لربه ومن ذريتى أي اجعل من ذريتى أئمة كذلك .

قال الله تعالى : أجبتك إلى طلبك ، ولكن لا ينال عهدى الظالمين أي لا يكون ظالم إماماً فى الهدى أبداً .

ومن هذه الكلمات أيضاً:

{ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ }
[الآية ١٢٥]

أي : واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين .. وقت أن جعلنا الكعبة مثابة أي مرجعاً للناس ، تهفوا قلوبهم جميعاً إليه ، وأمناً أي أماناً لهم من كل خوف ، فإن من دخله كان آمناً من الأعداء والخسف والمسخ .

واذكر كذلك : وقت أن قلنا اتخذوا من مقام إبراهيم أي الحجر الذى قام عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة .. اتخذوا منه مصلى أي مكان صلاة .. أي صلوا خلفه .

وفى الخبر : الركن والمقام .. يا قوتتان من ياقوت الجنة ، ولولا ما مسَّهما من أيدى المشركين : لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب .

واذكر كذلك : وقت أن عهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أمرناهما أن طهرا بيتى من كل دنس ورجس للطائفين حوله والعاكفين المقيمين فيه والركع السجود أي المصلين .

ثم يقول رب العزة لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }
[الآية ١٢٦]

أي : واذكر يا محمد للمشركين وأهل الكتابين ، وقت أن كان إبراهيم عليه السلام يقول :

رب اجعل هذا المكان .. بلداً آمناً ، أي من القحط ، وارزق أهله من الثمرات .

وقد أجاب الله دعاءه : فجعله حرماً ، لا يسفك فيه دم ، ولا يظلم فيه أحد ، ولا يصاد صيده ، ويجبى إليه ثمرات كل شئ رزقاً وإنعاماً من الله تعالى على أهله وساكنيه .

ولما عمم إبراهيم عليه السلام طلب الإمامية فى ذريته ، وقال له ربه لا ينال عهدى الظالمين :

خصَّص هنا – أدباً مع ربه – فى طلب الرزق ، حيث قال وارزق أهله من الثمرات مَن آمن فقط منهم بالله واليوم الآخر.

فبين له المولى : الفرق بين الرزق والإمامة .

فإذا كانت الإمامة فى الصالحين فقط .. لصالح البشر .

فإن الرزق لا ينبغى أن يكون فى الصالحين فقط ؛ بل تكون للجميع .. لصالح البشر أيضاً ، وحتى لا يكون الصلاح إكراهاً .

حيث قال تعالى وأرزق من كفر أيضاً فأمتعه فى الدنيا ، بهذا الرزق قليلاً أي مدة حياته ، ثم أضطره فى الآخرة إلى عذاب النار وبئس المصير .

*****

أيها الأحباب فى الله .

يواصل ربنا تبارك وتعالى الحديث مع حبيبه وحبيبنا صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
[الآية ١٢٧]

أي : واذكر يا محمد للمشركين واليهود والنصارى ، الذين ينتحلون ملة إبراهيم ، وليسوا عليها .. وقت أن كان يرفع إبراهيم القواعد من البيت أي الكعبة وإسماعيل معه ،

وهما يلهمان بالدعاء لربهما قائلين :

يا ربنا إنا تقربنا إليك ، ونفذنا أمرك ، ببناء هذا البيت ، فتقبل عملنا ، إنك أنت السميع لدعائنا ، العليم بضمائرنا ونياتنا .

يا ألله ..!! تنفيذ للطاعات الشاقة ، مع الابتهال فى قبولها .. ؟!!

هلا تعلمنا واقتدينا ، وفعلنا ..!!

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾
[الآية ١٢٨]

أي : منقادين لك ، مخلصين لجنابك ، مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك .

وهما بهذا الدعاء .. يطلبان : الثبات على الإسلام وزيادة الإخلاص لله تعالى ، والإذعان لتعاليمه .

وذلك : لأنهما مسلمين أصلاً .

ثم يقولان .

واجعل يا ربنا من أولادنا وذرياتنا جماعة مسلمة لك منقادة لك ، مخلصة لجنابك ، مستسلمة لأمرك ونهيك ، خاضعة لطاعتك ، عاملة لمرضاتك .

وعلمنا شرائع عباداتنا لك ، وحجنا لبيتك الحرام .

وقد كان ..!!

{ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }
[الآية ١٢٨]

وقد .. سألاه – عليهما السلام – التوبة – مع عصمتهما – تواضعاً ، وتعليماً لذريتهما .

* * *

ثم واصلا الدعاء .. قائلين :

{ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية ١٢٩]

أي : ربنا وابعث فى أهل هذا البيت الحرام رسولاً لك يبلغهم دينك وشريعتك ، ويكون من أنفسهم ، ليس غريباً عنهم .

يقوم بمهمات ثلاث :

يتلو عليهم آياتك فى الكون المنظور ، وفى الكتاب المسطور .

ويعلمهم .. القرآن ، وما فيه من أحكام يتعبدون ويتقربون إليك بها .

ويزكيهم .. أي يطهر نفوسهم من الشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، ما ظهر منها وما بطن .

إنك يا ربنا أنت العزيز الغالب الحكيم فى صنعته وأفعاله .

*****

وبعد هذا التذكير – أيها المستمعون الكرام – من الله تعالى، على لسان محمد صلى الله عليه وسلم .. لليهود والنصارى ، ومشركى العرب ، بما كان من إبراهيم عليه السلام ، ومن معه .. وهم جميعاً يدعون الانتساب إليه .

بعد هذا التذكير : يوبخهم الله جميعاً على عدم اتباع ملته التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، بناءً على دعوة إبراهيم عليه السلام لربه .

يقول تبارك وتعالى .

{ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ }
[الآية ١٣٠]

نعم : لا يترك ملة إبراهيم عليه السلام .. إلا من أهان نفسه ، وجعلها سفيهة تافهة ؛ حيث حرمها عبادة ربه ، واتباع ملة إبراهيم .

إبراهيم هذا .. هو الذى اخترناه فى الدنيا واصطفيناه بالرسالة ، واتخذناه خليلاً .

وأما فى الآخرة : فإنه لمن الصالحين ، الذين لهم الدرجات العلا عند ربهم.

* * *

ثم يقول تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :

{ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآية ١٣١]

أي : اذكر يا محمد .. لليهود والنصارى والمشركين ..

وقت أن قال الرب جل وعلا لإبراهيم عليه السلام : أسلم . أي : أسلم لله وجهك ، وأخلص له قصدك، وأفرده بعبادتك .

قال : إبراهيم ، على الفور ، أسلمت لرب العالمين .

وليس هذا فقط ، بل كذلك :

{ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ }
[الآية ١٣٢]

أي : وصى إبراهيم بنيه ويعقوب بنيه ، قائلين لهم إن الله اصطفى أي اختار لكم هذا الدين أي : دين الإسلام ، فاتبعوه ، وآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، واعملوا بتعاليمه ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

وهكذا .. أمر لهم بالثبات عليه ، ونهى عن البعد عنه ، إلى مجئ الموت.

* * *

أيها الكرام ..

يروى أن اليهود قالوا للنبى عليه الصلاة والسلام : ألست تعلم أن يعقوب يوم أن مات .. أوصى أولاده باليهودية .. ؟

ولأن هذا كذب منهم وافتراء ..!!

فقد أنزل الله تعالى بيان كذبهم بقوله :

{ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }

[الآية ١٣٣]

أي أنتم كاذبون إذ لم تكونوا حاضرين موت يعقوب عليه السلام ، ولو كنتم حضوراً ساعتئذ ، لعرفتم أنه قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن والحمد لله تعالى له مسلمون.

ثم قال تعالى لهؤلاء الكاذبين :

{ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

[الآية ١٣٤]

أي : تلك أمة سبقت ، لها جزاء ما عملت ، ولكم جزاء ما عملتم ، ولا علاقة لكم بهم أبداً ، ولا تسألون عما كانوا يعملون فلا تحتجوا بهم ، وتكذبوا بشأنهم.

*****

أيها الفضلاء المستمعون :

أتذكرون قول اليهود والنصارى – فى الآية ١١١ من هذه السورة –لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى .

ورد الله عليهم بقوله تلك أمانيهم

استمعوا الآن – أعزكم الله – إلى بيان لون آخر من ألوان كفرهم وإضلالهم لغيرهم ، بعد بيان ضلالهم فى نفسهم .

{ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

[الآية ١٣٥]

أي قالت اليهود للمؤمنين : كونوا هوداً تهتدوا ..

وقالت النصارى للمؤمنين كذلك : كونوا نصارى تهتدوا .

ولئن كان ذلك فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم : فهو مستمر ، إلى وقتنا هذا .

وإن لم يكن بالأقوال .. فبالأفعال ، والتشويه ، والإعلام المضلل .. إلخ.

ولأنهم كاذبون ، ولأنهم لا يَكَلّون ، ولا يملون : فعلى المسلم الحق ، الواعى .. أن يعلنها صريحة ، وأن : يعمل بموجبها جاداً مخلصاً ، وهى "أن الهداية فى الإسلام وبالإسلام" .

ثم قال رب العزة لحبيبه (قل) لهم : بل نتبع ملة إبراهيم عليه السلام ، وهى الإسلام حنيفاً مائلاً إلى الحق وحده ، مبتعداً عن كل دين يخالفه .

وأنتم مشركون ، وما كان إبراهيم من المشركين ونحن له تبع .

* * *

ثم يقول رب العزة للمؤمنين ، إكمالاً للرد على هؤلاء المشركين :

{ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }
[الآية ١٣٦]

أي قولوا أنتم يا مسلمون .. آمنا بالأنبياء والرسل جميعا (لا نفرق بين أحد منهم) فكلهم مسلمون (ونحن له) كذلك (مسلمون) .

* * *

ثم يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وللمؤمنين معه :

{ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الآية ١٣٧]

أي : حالهم وأمرهم .

إما الإيمان مثلكم بما آمنتم به .. فيكونون معكم مهتدين .

وإما عدم ذلك .. فهم فى جانب وأنتم فى جانب ، أي أنتم مهتدون ، وهم ضالون .

هذا ..

وسيكفيك الله يا محمد ومن معك شرهم وشر خلافهم معكم .

حيث إنه السميع لأقوالهم العليم بأحوالهم ، والقادر على دفع أذاهم، ورد كيدهم .

* * *

وبعد هذا التطمين .. يقول تعالى للمؤمنين:

{ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ }
[الآية ١٣٨]

قولوا : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة.. صبغنا الله بالإيمان ، ومن أحسن من الإيمان بالله صبغة، ونحن فى ذات الوقت له متعبدون بما أمرنا به فى كتابه وعلى لسان نبيه .

*****

أيها الأحباب فى الله .. قال اليهود للمسلمين : نحن أهل الكتاب الأول ، وقبلتنا أقوم ، ولم تكن الأنبياء من العرب ، ولو كان محمد نبياً : لكان منا .
فنزل قوله تعالى:

{ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ }
[الآية ١٣٩]

أي قل لهم يا محمد ، أو قل أيها المسلم لهم ذلك .
وقل لهم أيضاً:

{ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }
[الآية ١٤٠]

أي كيف يكون هؤلاء الذين ذكرتهم يهوداً أو نصارى ..؟
واليهودية والنصرانية ما كانتا إلا بعدهما ، أي من وقت موسى وعيسى عليهما السلام ، وهما ما بعثا إلا بعد من ذكرتم بكثير .

ولذلك : هددهم عسي أن يعدلوا مواقفهم ، ويصلحوا أخطاءهم ، ويوفوا بعهودهم ، ويؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وينضموا لموكب المؤمنين .

* * *

ثم قال تعالى – مرة أخرى – لهؤلاء الكاذبين المكذبين !

{ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٤١]

أي : تلك أمة سبقت ؛ لها جزاء ما عملت ، ولكم أنتم جزاء ما عملتم ، ولا علاقة لكم بهم أبداً ولا تسألون عما كانوا يعملون فلا تحتجوا بهم ، وتكذبوا بشأنهم .

*****

وبعد أن رد الله تعالى على اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين قولهم إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى .

يرد عليهم كذلك قولهم للمسلمين بخصوص القبلة ، وتوجههم نحو الكعبة فى الصلاة : ما الذى ولا هم عن قبلتهم التى كانوا عليها .

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }
[الآية ١٤٢]

يروى الإمام البخارى عن البراء بن عازب .. أنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدنية .. فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يتوجه نحو الكعبة ..!!

فأنزل الله تعالى قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام .. الآية ١٤٤ .

وهنا : قال السفهاء ما ولاهم أي ما الذي صرفهم عن الصلاة إلى بيت المقدس ، وهى القبلة التى كانوا عليها ..؟

ولأنه سؤال تشكيك ، منبعه الجهل منهم ، ومبعثه الحقد على المسلمين وتميزهم بهذه القبلة : فقد أنزل الله تعالى ، رداً عليهم أمره التالي :

قل لهم أيها المسلم .. إن الجهات كلها لله ، وله وحده الأمر بالتوجه إلى أية جهة شاء ، لا اعتراض عليه ، ولا معقب لحكمه .

وهو وحده – كذلك – الذى يهدى من يشاء إلى الطريق المستقيم ، وهو الإسلام .

* * *

ثم يتجه الحديث في هذا القسم الثاني من السورة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلى الجماعة المسلمة من حوله ، ومن بعده صلى الله عليه وسلم .. فى بيان الأسس التى تقوم عليها حياة هذه الجماعة المستخلفة على دعوة الله فى الأرض ، وفى تمييزها بطابع خاص ، وبمنهج فى التصور وفى الحياة خاص.

وذلك بتحديد مكانتهم فى المفاهيم ، وبين الناس ..

فيقول تعالى :

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ... }

[الآية ١٤٣]

أي : وكما هديناكم للإسلام وحولناكم إلى قبلة إبراهيم جعلناكم – والخطاب للمسلمين – أمة وسطاً ، أي : عدولا شهداء على أهل الأرض .

ففى الدنيا : تضعون لأهلها من مبادئ دينكم .. الموازين والقيم ، وبحسن معاملاتكم وأخلاقكم .. تقيمون بينهم العدل ، وترفعون عنهم أغلال الظلم .

وفى الآخرة : تشهدون أن رسل الله بلغت أقوامها رسالات الله .

وفى هذا : غاية التشريف للمسلمين ، فى الدنيا وفى الآخرة .. لو يدركونه ..!!

وفوق ذلك التشريف .. تشريف آخر : وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم يكون شاهداً على حسن قيامكم بواجبات الاستخلاف فى الدنيا ، وعدالتكم فى الشهادة على الأمم يوم القيامة .

*****

{ ... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }

[الآية ١٤٣]

ثم يعود الحديث عن القبلة مرة أخرى .. فيقول عزَّ من قائل :

ما شرعنا لك يا محمد التوجّه إلى بيت المقدس أولاً ، ثم حولناك عنه إلى الكعبة .. إلا لنعلم المطيع المسلم لنا أمره ، من العاصى الذى يرتد عن دينه .

وحقيقة : هذا التحول أمر عظيم ، وثقيل على النفوس ، إلا على الذين هدى الله قلوبهم ، وأيقنوا بصدق الرسول ، وما جاء به من عند الله .

ثم طمأن رب العزة عباده بخصوص الصلوات التى كانت إلى جهة بيت المقدس قبلاً ..

فبين سبحانه أنه :

ما كان مضيعاً ثواب .. إيمانكم ، وصلاتكم ، وطاعتكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوجه إلى بيت المقدس ؛ حيث إن هذا التوجه تمَّ بأمر الله تعالى، وإن الله بالناس لرؤف رحيم .

* * *

وبعد أن رد المولى سبحانه على مقولات السفهاء فى تحويل القبلة ..!!

وبعد أن بين – كذلك – الحكمة فى الصلاة عقب الهجرة إلى بيت المقدس.

كان : الحديث عن هذا التحول من بيت المقدس الكعبة ..

فى قوله تعالى :

{ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ }

[الآية ١٤٤]

أي : نحن نرى ونعلم رغبتك يا محمد فى التوجه إلى الكعبة ، لأنها قبلة إبراهيم عليه السلام ، وتشوقاً منك إلى إيمان المشركين .

فأبشر .. بتحقيقنا لك ما ترجوه ، وترضاه .

وعلى الفور : يحقق له ربه سبحانه ما يحب

إذ يقوله له فول وجهك إلى المسجد الحرام ..

وهذا أمر أول بالتوجه إلى الكعبة .

وينعم على جميع المسلمين كذلك : بشرف هذا التوجه والتوحد وحيثما كنتم فى أي مكان فولوا وجوهكم إلى المسجد الحرام ..

ثم يقول رب العزة للمسلمين : كاشفاً لهم ، موقف أعوانهم من ذلك .

هؤلاء اليهود الذين أنكروا هذا التحول فى التوجه من بيت المقدس إلى الكعبة : يعلمون بما فى كتبهم عن أنبيائهم أن الله تعالى سيوجهك هذا التوجه ، ولكنهم يتكاتمون هذه الحقائق بينهم ، حسداً وكفراً وعناداً .

ولذلك : يتهددهم المولى بقول وما الله بغافل عما يعملون .

*****

{ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ }
[الآية ١٤٥]

يعنى : أنهم لا يؤمنون بك ، ولا يتبعونك ، ولا يتركون أهواءهم .. حتى ولو أتيت لهم بكل دليل على صحة ما جئت به .

وكما أنهم مستمسكون بباطلهم : فإننا نعلم أنك مستمسك بالحق الذى أنت عليه ، غير متبع لأهوائهم وضلالهم .

فلا تطمع فى إسلامهم ؛ لأنهم منصرفون عن الحق ، معاندون له ، حاقدون عليك ، حاسدون لك .

بل أكثر من هذا .

أن أهل الكتاب مختلفون ، لا يتفقون على رأي ، ولا يتبعون بعضهم البعض ..

من ذلك : أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى ، والعكس .

ثم يحذر تعالى من مخالفة الحق إلى الهوى والباطل .

ولهذا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد أمته :

إن من يتبع أهوائهم ويخالف الحق : فهو من الظالمين لأنفسهم ولغيرهم.

* * *

ثم يخبر الحق – أيها المستمعون الفضلاء – أن علماء أهل الكتاب يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم ، وصدقه ، وصحة ما جاء به ، كما يعرف أحدهم ولده.

فيقول سبحانه :

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }
[الآية ١٤٦]

ولذلك .. قال عبد الله بن سلام ، وكان من علماء اليهود فأسلم وحسن إسلامه .. لقد عرفت محمداً صلى الله عليه وسلم حين رأيته ، كما أعرف ابنى ، ومعرفتى بمحمد صلى الله عليه وسلم أشد .

* * *

ثم بين رب العزة أنهم مع هذا التحقق العلمى ، والمعرفة اليقينية :

ليكتمون عن الناس ما فى كتبهم من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمون أن محمداً صادق ، ويعلمون أنهم كاذبون .

*****

وبعد هذا – أيها الأكارم – يكون الكرم الإلهى بتثبيت النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه ، ببيان أنهم على الحق الذى لا شك فيه ، مهما تشكك أو شكك الحاقدون المعاندون .

فقال :

{ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ }

[الآية ١٤٧]

* * *

ويحث المولى تبارك وتعالى المؤمنين : على التسابق فى الخيرات ، والجد فى عمل الصالحات ، وعدم الانشغال بغير ذلك ..

فيقول :

{ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

[الآية ١٤٨]

أي : لليهودى وجهة هو قاصدها .

وللنصرانى قبلة هو قاصدها ..

وأنتم يا أهل الإسلام : قد هداكم الله للقبلة التى هى الكعبة ، والتى أمر الجميع بالتوجه إليها.

ولذلك : فاستبقوا غيركم فى الخيرات ، وبادروا إلى الطاعات ، واعلموا أن الله تعالى سوف يأت بكم جميعاً يوم القيامة ، ويفصل بين المحق والمبطل ، لا يعجزه أحد عن فعل شئ أراده .

* * *

ثم يكون الأمر الثانى – أيها الإخوة والأخوات فى الله – من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام ، و التوجه إلى الكعبة ، من جميع أقطار الأرض .

إذ يقول سبحانه :

{ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }
[الاية ١٤٩]

أي : من حيث خرجت للسفر .. فتوجه للمسجد الحرام إذا صليت ، واعلم أن هذا التوجه هو الحق من ربك .

وما الله بغافل عما تعملون فراقبوا الله فى أعمالكم كلها .

* * *

ويأتى بعد ذلك : الأمر الثالث باستقبال المسجد الحرام ، والتوجه إلى الكعبة.
ويلاحظ : أنه بنفس ألفاظ الأمر السابق ؛ حيث يقول سبحانه .

{ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }
[الآية ١٥٠]

وهذا : للتأكيد ، والتشديد ؛ لأنه أول ناسخ لحكم سابق وقع فى الإسلام ، وهو التوجه إلى بيت المقدس .
وقال بعض العلماء :
إن الأمر الأول : لمن هو مشاهد للكعبة .
والثانى : لمن هو فى مكة ، غائباً عنها لا يراها .
والثالث : لمن هو فى بقية البلاد بعيداً عن مكة المكرمة .

* * *

وهكذا : يعلمنا الله تعالى – من خلال هذا الأمر – أن فى التزامنا بالحق سلوكاً ، وتمسكنا به عقيدة ، إبطال لحجج المعاندين ، واسقاط لدعاواهم الباطلة .
كما أن فيه : التوصل لتمام الإنعام الإلهى ، والرجاء الصادق فى طلب الهداية من الله تعالى .
وإذا كان هناك – بعد ذلك – معاندون مستمرون فى جدالهم : فلا تخافوا جدالهم وعنادهم ، وتمسكوا بامتثال أمرى ، واجتناب نهيى .

*****

وبعد هذه الجولة فى موضوع تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة : يذكّر الله تعالى المؤمنين بنعمة إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ..

فيقول :

{ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ }
[الآية ١٥١]

أي : كما أنعمنا عليكم بتحويل قبلتكم إلى مكة .. أنعمنا عليكم سابقاً ببعث محمد صلى الله عليه وسلم إليكم ، وهو منكم .

يتلوا عليكم آياتنا .. المنظورة فى الكون وفى الأنفس ، والمسطورة عن طرق الوحى .

ويطهركم .. من دنس الأخلاق ، ورذيل الصفات ودنئ الأفعال .

ويعلمكم القرآن .. الذى هو منهج الحياة التى يرضى عنها ربكم .

كما يعلمكم الحكمة .. وهى السنة النبوية .

ويعلمكم – كذلك – ما لم تكونوا تعلموه بعقولكم من أخبار الأمم الماضية ، وقصص الأنبياء ، والحوادث المقبلة ، والغيبيات كالجنة والنار ، والحساب .. إلى غير ذلك .

ولذلك : يعلمنا رب العزة أن نقابل هذه النعمة بالاعتراف بها ، وذكر الله وشكره عليها .

حيث يقول :

{ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ }
[الآية ١٥٢]

أي : اشكروا لى نعمتى بالطاعة ، ولا تكفروا بفعل المعصية .

* * *

ولما ذكر رب العزة – أيها المستمعون الكرام – الذكر والشكر على النعمة: عقب عليه بذكر الصبر .. على الذكر ، وعلى الشكر ، وعلى البلاء .

وأرشد إلى الاستعانة على تحمل البلاء والاختبار بالصبر والصلاة فقال :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }
[الآية ١٥٣]

أي : إن الله مع الصابرين بالعون والمساعدة ، سواء فى الصبر على فعل الطاعات ، أو فى الصبر فى البعد عن المعاصى .

* * *

ولما قال الكفار والمنافقون : إن أصحاب محمد يقتلون أنفسهم ظلماً ، ليرضوه من غير فائدة ..!!
أنزل الله قوله تعالى :

{ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ }
[الآية ١٥٤]

وذلك : كما فى قوله تعالى فى سورة آل عمران ١٦٩ – ١٧٢ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم .
كل هذا الفضل .. لكن المشركين والمنافقين .. لا يشعرون به .
وهذا : موطن من المواطن التى يحتاج المسلم فيها إلى الصبر .

* * *

ثم يبين رب العزة الموطن الرابع من مواطن الصبر .. وهى : ألوان البلاء والاختبارات فى الدنيا ..
حيث يقول :

{ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ }
[الآية ١٥٥]

وهؤلاء الصابرون .. هم :

{ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }
[الآية ١٥٦]

أي : إنا ملك لله يفعل بنا ما يشاء ، وإنا إليه راجعون فى الآخرة ، فيجازينا على ما اكتسبنا فى الدنيا ، خيراً أو شراً .

وجزاء هؤلاء الصابرين .. يبينه الله فضلاً منه ورحمة فى قوله .

{ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ }
[الآية ١٥٧]

وفى صحيح مسلم : عن النبى صلى الله عليه وسلم : (ما من عبد تصيبه مصيبة ، فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها .. إلا آجره الله فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها) .

*****

وبعد أيها الأحباب فى الله ..

فإنه لما قال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهما يرفعان القواعد من البيت ، كما سمعنا منذ قليل ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ..!!

وأنصب الكلام بعد ذلك على البيت وتحويل القبلة إليه ، ووجوب التوجه نحوه ..!!

ثم كان التعقيب على ذلك كله بالأمر بالشكر والصبر ..!!

جاء هنا ذكر الصفا والمروة ؛ حيث إن السعى بينهما .. شكر لله تعالى ، ويحتاج – فى ذات الوقت – إلى الصبر .

وحتى لا يفهم – من جهة ثالثة – فاهم أن السعى بينهما ليس من المناسك.

هذا ..

ولأن المسلمين أول الأمر : كانوا يرون أنهما من شعائر الجاهلية ، وأنه لا ينبغى السعى بينهما ، مخالفة للكفار ، وأمسكوا بالفعل عن السعى بينهما .

فأنزل الله تعالى :

{ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ }
[الاية ١٥٨]

أي : إن الصفا والمروة من المناسك ..

فمن حج أو اعتمر : فعليه أن يطوف بينهما ، ولا حرج عليه ؛ لأنه يفعل شعائر الإسلام ، لا عادات الجاهلية .

وبهذا ..

بين الله أمراً : ينبغى أن يفعل من المسلمين ؛ شكراً لله تعالى .

ثم عقب عليه ببيان أمور .. لا ينبغى أن تفعل .

ومنها : كتمان العلم ، كما فى قوله تعالى

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ }
[الآية ١٥٩]

أي : إن الذين يكتمون ما أنزل الله لعباده من الآيات الواضحات الدالة على وجوده ، أو المعينة على حسن عبادته ، سواء كانت فى الآفاق أو فى الأنفس ، مما بينها الله تعالى فى كتابه ، أو كونه ، وفهمها المختصون ..!!
أو أن الذين يكتمون الحق بصفة عامة : بعد بيانه فى التوراة ، أو فى الإنجيل ، أو القرآن ..!!
أولئك : يلعنهم الله والملائكة والمؤمنون من الإنس والجن .
وفى الحديث الشريف من سئل عن علم يعلمه : فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار .
ولكن من رحمة الله تعالى أنه يقول :

{ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }
[الآية ١٦٠]

أي : إلا الذين تابوا عن الكفر بالله ، ورجعوا عن الكتمان .
وكذلك : أصلحوا أنفسهم ، وما أفسدوه بمواقفهم وأقوالهم ، وأعلنوا .. توبتهم منه ، وندمهم عليه ..
وثالثاً : أظهروا ما كتموا ، وأخذوا فى نشر الحق وإعلانه على الناس .
وهؤلاء : يقبل الله تعالى توبتهم ؛ لأنه هو التواب الرحيم ، وباب توبته مفتوح ، ورحمته وسعت كل شئ .

* * *

ولأن كتمان العلم ، ونشر الفساد .. يخالف ما يجب من الشكر لله تعالى :
فقد بين سبحانه نوعاً آخر مما يخالف الشكر المطلوب .
حيث قال :
فى معرض التحذير للمؤمنين ، وبناء الشخصية الإسلامية .

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }
[الآية ١٦١]

أي : إن الذين كفروا ، وماتوا على الكفر : عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .
وكذلك .. يكونون :

{ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ }
[الآية ١٦٢]

أي : خالدين .. فى اللعنة والطرد من رحمة الله .
أو فى النار – والعياذ بالله تعالى – لا يخفف عنهم من عذابها ، ولا أمل فى ذلك .

*****

أيها الأحباب فى الله تعالى
وهكذا .. حذر الله تعالى عباده من كتمان الحق ، ونفرهم من الكفر ، وخوفهم من اللعن وهو الطرد من رحمته .
وذلك : فيما استمعنا إليه من الآيات الكريمة .
تعالوا بنا نستمع إلى : أول ما يوجب الله تعالى إظهاره ؛ خوفاً من الكفر ، ونجاة من الطرد من رحمة الله تعالى .
حيث يقول تبارك وتعالى :

{ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }
[الآية ١٦٣]

فى هذه الآية الكريمة :
يقرر المولى وحدانيته .. بنفى أن يكون غيره إلهاً .
ويثبت فى ذات الوقت : إلهيته جل وعلا .
وفوق ذلك : فهو المولى لجميع النعم ، وكل شئ من آثار رحمته الخاصة والعامة .
هذا ..
ولما قرر ربنا عز وجل .. التوحيد ، وأثبت ألوهيته : أتبع ذلك بذكر البرهان والدليل على ما قرر وأثبت ، بقوله تعالى وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .
قال كفار مكة : كيف يسع الناس إله واحد ..؟
فأنزل الله تعالى ، كالدليل والبرهان على هذا ..
قوله سبحانه :

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }

[الآية ١٦٤]

أي : إن فى خلود السموات .. وما فيها من كواكب ومجرات وغير ذلك .

وكذلك : فى خلق الأرض .. وما فيها من جبال وبحار وقفار ووهاد ، وغير ذلك .

وثالثاً : فى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما من نظام بديع دقيق ، عجيب .

ورابعاً : فى السفن وأنواعها التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس فى حياتهم ، ومعايشهم .

وخامساً : فيما أنزل الله من السحاب من مطر ، فأحيا به الأرض بعد يبسها، وجعل من هذا الماء كل شئ حى ، وبث فى الأرض بسبب هذا الماء أنواع الدواب المختلفة الألوان والأشكال والأحجام .

وسادساً : فى تصريف الرياح فى الكون ، وفق نظام دقيق عجيب لا يختل.

وسابعاً : فى تسخير السحاب بين السماء والأرض ، وفق قدرته ومشيئته سبحانه وتعالى .

فى كل ذلك : لدلالات ، وبراهين كونية – لمن ينظرون إليها بعقولهم –على قدرة موجدها ، وحكمة مبدعها ، ووحدانية منشئها .

*****

وبعد هذا البيان الواضح :

يذكر الله تعالى موقف الكافرين وموقف المؤمنين من هذه الدلائل ..

فيقول تبارك وتعالى :

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ }

[الآية ١٦٥]

أي أن الناس أمام قضية التوحيد ودلائلها : فريقان .

كافر يحب معبوده الباطل ،

ومؤمن أشد حباً منه لله تعالى الإله الحق .

ثم يهدد ربنا عز وجل الكافرين به المعاندين لرسله ودلائله الواضحات ..

هؤلاء الذين لو يعلموا أن القدرة كلها لله تعالى على كل شئ من الثواب والعقاب دون أندادهم ..!!

ويعلمون – كذلك – شدة عقابه للظالمين .. إذا عاينوا العذاب يوم القيامة ..!!

نعم .. لو يعلمون ذلك : لكان منهم الندم والحسرة ، التى لا تدخل تحت وصف .

* * *

ويخبر ربنا عز وجل .. أنهم مع هذا الندم : يكفرون بأوثانهم التى كانوا يعبدونها ، والتى تتبرأ هى بدورها منهم يومئذ ..
قائلاً :

{ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ }
[الآية ١٦٦]

أي : يتبرأ الرؤساء المتبوعون ، من الذين اتبعوهم ، سواء أكان هؤلاء المتبوعون .. ملائكة ، أم إناثاً ، أو أصحاب ضلالات : من مذاهب فاسدة ، ومبادئ هدامة ، وذلك حينما يرون جميعاً أن العذاب قد حاط بهم .
وبهذا التبرؤ : تنقطع بينهم الروابط ، التى كانت تربطهم ، من دين واحد ، أو مذهب واحد ، أو أنساب .

* * *

ويبين رب العزة موقف التابعين لهؤلاء الرؤساء بقوله :

{ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ }
[الآية ١٦٧]

أي : يقولون لو أن لنا عودة ورجعة إلى الدار الدنيا ؛ فنتبرأ منهم ومن عبادتهم الباطلة ، ومذاهبهم الفاسدة ، واتجاهاتهم المنحرفة كما تبرؤا منا .
وهكذا .. يريهم الله عز وجل .. أن أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ، تتقلب الآن حسرات عليهم وندامات وعذابات .
وما هم فى ذات الوقت ، وفوق ذلك بخارجين من النار أبداً .

*****

أيها الأحباب فى الله من المستمعين والمستمعات ..
انتبهوا معى جيداً إلى أن الله تعالى قرر فى الآيات السابقة ، التى استمعنا إليها منذ قليل .. أنه لا إله إلا هو وأنه المستقل بالخلق ، كما ظهر واضحا فى الآيات الكريمة .
يبدأ – إنعاماً منه علينا – بيان أنه الرازق لجميع خلقه .. حيث يقول :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ }
[الآية ١٦٨]

يعنى : أباح الله لكم أيها الناس أن تأكلوا مما فى الأرض ، حلالاً من الله تعالى ، طيباً لكم .

فالتزموا بهذا الحلال الطيب .. ففيه الكفاية لكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان فى تزيين الحرام ، واتباع الشهوات .. إنه أي الشيطان لكم عدو مبين أي ظاهر العداوة ، ولكنه يلبس على أوليائه ، حيث يأتيهم من جهة ما يشتهون ، فيهلكهم ، فاحذروه .

تليت هذه الآية – يا أحباب المصطفى – عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة .. فقام سعد بن أبى وقاص ، وقال : يا رسول الله ..!! ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة .

فقال عليه الصلاة والسلام : يا سعد .. أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ، ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا : فالنار أولى به.

* * *

أيها الكرام يبين ربنا لوناً من ألوان عداوة الشيطان لبنى آدم ، فى الآية التالية ، فلنستمع إليها معاً خاشعين .

{ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ }
[الآية ١٦٩]

أي : من عداوة الشيطان .. أنه يزين لكم يا معشر الناس ، الأفعالَ السيئة ، وأغلظ منها كالزنا ونحوه ، وأغلظ منها – أيضاً – وهو القول على الله تعالى بلا علم .

ومع كل هذا البيان للعداوة بين الكافرين ومعبوداتهم يوم القيامة ..!!

وكذلك : مع التنبيه على عداوة الشيطان للإنسان ..!!

فإن الكافرين والمنافقين يعاندون .

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ }
[الآية ١٧٠]

أي : إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله على رسوله ، واتركوا ما أنتم فيه من الضلال والعناد ..!!

قالوا فى جواب ذلك : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .
وهنا .. يرد الله عليهم .. ومسفهاً لعقولهم ، ومنكراً عليهم .. قائلاً :

أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ

يتبعونهم ، ويسيرون على نهجهم ..؟
حقا ليس لهم فهم ولا هداية .؟ !!

* * *

ثم ضرب الله مثلاً للذين يتخذون من دون الله أنداداً ..
بقوله :

{ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ }
[الآية ١٧١]

وهكذا شبه الله الكافرين بالبهائم ، من حيث إن الكافر إذا دعى للإيمان : لا يسمع من الدعاء إلا جرس النغمة ، ودوى الصوت ، من غير فهم أو وعى ، وكذلك الحيوانات .. لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه ، ولا تفقه شيئاً آخر .
ذلك : أن هؤلاء الكفار صم عن سماع الحق بكم لا يتفوَّهون به عمى عن رؤية طرقه ومسالكه .
ومن هنا : فهم لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه .

* * *

هذا ..
ولما أمر الله الناس جميعاً بالأكل من الحلال الطيب ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ..!!
أمر المؤمنين كذلك : بالأكل من الحلال الطيب ، الذى يرزقهم الله تعالى به ، وأمرهم كذلك بشكر الله تعالى على هذا الرزق الحلال الطيب ..
فقال :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }
[الآية ١٧٢]

أي : إن كنتم صادقين فى عبادته .. فكلوا من طيبات رزقه ، واشكروه عليها.
ثم أتبع : ذلك بذكر المحرم عليهم .
فقال :

{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ١٧٣]

أي : حرم كل ما فارقته الروح من غير ذبح شرعى ، مما يذبح .. وقد خصصت السنة من هذا التحريم : السمك والجراد .

وحرم الدم السائل .. وقد خصصت السنة من هذا التحريم : الكبد والطحال .

وحرم لحم الخنزير وشحمه ، وجميع أجزائه .

وحرم كذلك : ما أهل به ، أي ما ذبح على غير اسم الله ، من الآلهة المزعومة ، أو الأصنام ، أو الأشياء المعظمة .

ولكن – من سماحة المشرع ، ورحمته – أنه رفع الإثم والحرج ، عمن أكل شيئاً من هذه المحرمات ، مضطراً ، غير باغ أي : راغب فى ذلك شهوة أو لذة ولا عاد أي : غير متعد مقدار الحاجة ، التى تفرضها هذه الضرورة . حيث إن الله غفور فيما أكل مضطراً رحيم حيث رخص له فى أكل المحرم عند الضرورة ؛ حرصاً على حياته .

*****

أيها المستمعون الكرام : قبل ثلاث عشرة آية .. استمعنا إلى آيتين كريمتين تحذران من كتمان العلم ، وتبينان أن جزاء صاحبه اللعن والطرد من رحمة الله ، إلا إذا تاب من كتم وبين وأصلح .
والآن .. وبعد الأمر بالأكل من الطيبات ، والتفصيل فى بيان المحرم من المطعومات : يتكرر التحذير من كتمان العلم ، وبيان أن جزاء صاحبه نار جهنم يوم القيامة ، والشقاق والخلاف وعدم الراحة النفسية فى الدنيا .
نستمع سوياً إلى قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ١٧٤]

وذلك لأنهم : عرفوا .. فكتموا ، وحرفوا ، وبدلوا ، وزيفوا .

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ }
[الآية ١٧٥]

أي : ما الذى دفعهم إلى ما هم فيه ، مما لا صبر أبداً عليه ، ولا نجاة أبداً منه .. ؟
والجواب :

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }
[الآية ١٧٦]

أي : نزل القرآن على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، والكتب على الأنبياء من قبله ، لإحقاق الحق وإبطال الباطل .. فاتخذ اليهود ومن على شاكلتهم آيات الله هزواً ، وخالفوها ، وكذبوها ..
وهؤلاء : فى خلاف وشقاق ، وبعد عن الحق الكبير .

* * *

أيها القارئ الكريم ..
لما أمر الله المسلمين – أولاً – بالتوجه فى صلاتهم إلى بيت المقدس ، ثم حولهم إلى الكعبة : كثر خوض أهل الكتاب وكلامهم فى هذا الموضوع ..
فأنزل الله تعالى بيان حجم هذا الموضوع من عقيدة المسلمين وأصول دينهم .. قوله تبارك وتعالى:

{ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }
[الآية ١٧٧]

وهذه – كما استمعنا – أنواع البر كلها ، كما قال الإمام النووى رحمه الله .
ومن اتصف بما فى هذه الآية : فقد دخل فى عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله .
والآية تبين أن طاعة الله عز وجل ، وامتثال أوامره ، والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع : هو البر والتقوى والإيمان الكامل .
وأنه ليس فى لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة: إن لم يكن عن أمر الله وشرعه .
كما أنها تجمع فى كلماتها الكريمة أصول هذا الدين .. من : عقيدة صحيحة ، وعبادة سليمة ، وأخلاق قويمة ، ومعاملات متينة .
ولذلك : يبين الله سبحانه

أن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات المفكورة فى الآيات الكريمة : هم الذين صدقوا فى إيمانهم ؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال .

وهم المتقون فى ذات الوقت : لأنهم حققوا التقوى حالاً وعملاً وسلوكاً ، فاتقوا المحرام ، وفعلوا الطاعات .

*****

وبعد هذا الحديث الطيب عن المتقين ، الذى استمعنا إليه من كلام ربنا العزيز .

تعرض الآيات الكريمة التالية علينا جزءاً من هداية الله لهؤلاء المتقين فى كتابه الكريم .. وهى قضايا فى الحياة العملية .

فلنستمع سوياً إليها خاشعين ..

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ١٧٨]

أي فرض عليكم العدل فى القصاص .

وهذه الأحكام المذكورة فى الآية ، وما فيها من تخفيف عليكم : إنما هي رحمة بكم من ربكم سبحانه وتعالى .

ومن خالف هذه الأحكام : فله عذاب شديد موجع فى الآخرة .

وليكن معلوماً جيداً : أن ما شرع وفرض بخصوص القصاص فيه خيركم وصالحكم .

أيضا :

{ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }
[الآية ١٧٩]

أي : إذا عرف هذا الحكم من يريد أن يقتل ، وتيقن من تنفيذ القتل فيه قصاصاً : لن يقتل أبدا ؛ إذا كان عاقلاً .

وفى هذا حياة له ، وحياة للمقتول ، أي حفظ لحياتهما ، لعلكم تتقون الله فى هذا الحكم ، أو تخافون من القصاص ، فتبعدون عن القتل أصلاً .

ومن هداية الله للمتقين كذلك ..

الوصية التالية:

{ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ }
[الآية ١٨٠]

أي : فرض على من قرب موته منكم ، وظهرت عليه أماراته ،وقد ترك مالاً من بعده :
أن يوصى بشئ منه للوالدين والأقربين ؛ رفقاً بهم وإحساناً إليهم .
وأن يكون بالعدل ، فلا يزيد على الثلث ، ولا يفضل غنياً على فقير منهم .

{ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ١٨١]

فمن بدل وصية الميت .. من شاهد أو وصى أو قريب أو بعيد ، بالتحريف ، أو التغيير بالزيادة أو النقصان ، أو كتمها وأخفاها : فإثم هذا التبديل على من فعله وحده دون غيره ، وللميت – مع ذلك – الأجر والثواب .
إن الله سميع لقول الموصى ، عليم بظلم المبدل ، فيجازى كلاً منهما بما يستحقه .
أما من خاف من موصٍ أن يظلم فى وصيته .. فأصلح بين الموصى وأقاربه ، وأمره بالعدل .. فهذا حكمه :

{ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ١٨٢]

أي : فلا حرج على هذا الناصح ، والله عز وجل يغفر لمن أصلح ويرحمه، و لمن وقع فى الخطأ وتراجع عنه .

أيها المستمعون الكرام .. هذه الوصية – التى استمعنا إلى آياتها : والتى كانت مفروضة – كما ذكرنا – قبل نزول آيات المواريث .. نسخت بعد ذلك ، وأصبح العمل بما فى آيات المواريث من أنصبة محددة ، ومقادير معينة لكل وارث فرضاً ، وأصبحت الوصية لمن لا يرث فى حدود الثلث أمراً مستحباً .

*****

هذا ..
وفى الآيات التالية : يخاطب الله تعالى المؤمنين ، آمراً لهم بالصيام ، كما أوجبه على الأمم قبلهم ..
حيث يقول عز من قائل :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }
[الآية ١٨٣]

أي : فرض عليكم الصيام ، كما فرض على الأمم من قبلكم ، من لدن آدم – عليه السلام – إلى عهدكم ، لعلكم تتقون الله باجتناب معاصيه ..

لأن الصيام .. أضبط للنفس ، وأردع لها عن مواقعة السوء .

ولما فيه كذلك : من زكاة النفس ، وطهارتها ، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة، والأخلاق الرذيلة .

ثم بين رب العزة ، مقدار هذا الصوم الذى فرضه بقوله :

{ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }

[الاية ١٨٤]

أي : ليس فى كل يوم ، بل فى أيام معدودات فقط .

وكان هذا فى ابتداء الإسلام ، حيث كانوا يصومون من كل شهر ثلاثة أيام ..

وقد تم نسخ هذا الحكم – بعد ذلك – بصوم شهر رمضان .

ثم بين – كذلك – ربنا عز وجل .. بعض أحكام هذا الصيام على ما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام ..

وبيان ذلك أيها الأحباب .

أن المريض والمسافر : لا يصومان فى حال المرض والسفر ؛ لما فى ذلك من المشقة عليهما ، بل يفطران ، ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر .

وأما الصحيح المقيم الذى يطيق الصيام : فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام .. إن شاء صام ، وإن شاء أفطر ، وأطعم عن كل يوم مسكيناً ..

فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم : فهو خير له .

وإن صام : فهو أفضل من الإطعام .

يقول الإمام النسفى : وكان ذلك فى بدء الإسلام .. فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه ، فاشتد عليهم ، فرخص لهم فى الإفطار والفدية .

ثم نسخ هذا التخيير بقوله تعالى .

{ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

[الاية ١٨٥]

وبهذا : يمتدح الله عز وجل شهر الصيام من بين سائر الشهور ؛ حيث اختاره من بينها لإنزال القرآن العظيم فيه هدى للناس من الضلال ، وجعله آيات واضحات ، دالة على صحة من جاء به من الهدى والفرقان بين الحق والباطل ، لمن فهمها وتدبرها .

ثم بين أحكام الصيام الناسخة لما كان قبل ذلك من أحكام ..

حيث إن من كان مقيماً غير مسافر فى هذا الشهر : فيلصم ولا يفطر .

ولما حتم الصيام على المقيم : أعاد ذكر الرخصة للمريض والمسافر فى الإفطار بشرط القضاء ، ليعلم أن هذا مما لم ينسخ .

ثم بين علة هذا الترخيص ..

{ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

حيث أباح الله الفطر فى السفر والمرض ؛ لأنه يريد بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر .

وأمركم بالقضاء لما فات خلال المرض والسفر ، لتكملوا عدة شهركم ، فتنالوا ثواب قضاء فريضتكم .

وكان ذلك :

لتذكروا الله تعالى ، عند انتهاء عبادتكم ، معظمين إياه على نعمة هدايتكم .

ولعلكم – كذلك – أن تكونوا من الشاكرين لله تعالى .. إذا قمتم بما أمركم الله به من طاعته ، بأداء فرائضه ، وترك محارمه ، وحفظ حدوده .

*****

ثم يكمل ربنا عز وجل بيان أحكام الصيام فيما يلى من الآيات .

ولكن .. يرشد سبحانه وتعالى – وسط الكلام عن الصيام – إلى ضرورة الاجتهاد فى الدعاء .

حيث أنزل على حبيبه صلى الله عليه وسلم ؛ يوم أن سأله أعرابى قائلاً : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه .. ؟

فسكت النبى صلى الله عليه وسلم .. فأنزل الله قوله تعالى:

{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }
[الآية ١٨٦]

وهذا – أيها المستعمون الكرام – وعد صدق من الله ، لا خلف فيه .

غير أن إجابة الدعوة لا تعنى بالضرورة تحقيق المطلوب بعينه .

عن أبى سعيد الخدرى .. أن النبى صلى الله عليه وسلم .. قال : (ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة .. ليس فيها : إثم ، ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل الله له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها) .

وبعد هذا الفضل الإلهى .. يكمل ربنا الحديث عن الصيام .. !!

فيبين رخصة من الله تعالى للمسلمين .. فيها الرفع لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام .

حيث يقول :

{ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }

[الآية ١٨٧]

أي أحل الله لكم الإفضاء إلى نساءكم بالجماع ليلة الصيام ، بعد أن كان ذلك ممنوعاً عليكم مع منع الأكل والشرب من بعد العشاء إلى الفجر .

نساؤكم لباس لكم ، وأنتم لباس لهن .. يباح لكم منهن ، ويباح لهن منكم: ما يحتاجه كل واحد من الآخر .

علم الله أنكم كنتم تخونون أنفسكم بمخالفة الحكم السابق الذى كان يحرم عليكم ذلك .. فخفف عليكم بهذا الحكم ، وعفا عنكم ما فعلتموه قبل هذه الرخصة ، رحمة بكم ، ولعلمه ندمكم على هذه المخالفات ، التى كانت تقع منكم .

فالآن .. باشروهن دون مؤاخذة منا ، وابتغوا أي اطلبوا ما كتب الله لكم وأحله من المباشرة فى مواضعها المباحة ، ولأغراضه المباحة من اللذة والولد .

وكذلك : كلوا واشربوا من بعد العشاء – طوال اليوم – إلى طلوع الفجر.

ولكن .. لا تباشروا نساءكم وأنتم معتكفون فى المساجد .

يا أحباب المصطفى .

تلك أحكام الله فلا تقربوها بالمخالفة ، أو التغيير ، أو الإهمال .

وهكذا .. يوضح الله آياته وأحكامه دينه للناس ، لعلهم يعرفون ، فيهتدون، فيطيعون .

أيها الكرام .

من الأحكام العملية ، التى بينها الله تعالى للمؤمنين (المتقين) من عباده : أكل أموال الناس بالباطل ، كالرشوة وغيرها .

حيث يقول سبحانه :

{ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }

[الآية ١٨٨]

أي : لا يأكل بعضكم مال بعض بوجه لم يشرعه الله تعالى لعبادة ، مثل : السرقة ، والغصب ، وغير ذلك .

وتحتكمون فيها – عند الخصومة – وأنتم تعلمون أنكم من الكاذبين الظالمين فى أكلها وأخذها .. وقد تدفعون بعضها على سبيل الرشوة إلى حكام السوء ، لتنتصروا على خصومكم ، وتأكلون بها حقوق غيركم ، كذباً وزوراً وظلماً .

*****

عن ابن عباس : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأهلة .. جمع هلال ، وعن الحكمة فى اختلاف أحوالها ومنازلها .

فنزل قوله تعالى :

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

[الآية ١٨٩]

أي قل : هى معالم .. يحدد الناس وفقها مواعيد صومهم وصلاتهم ، وعدد نسائهم ، ومواعيد ديونهم ، وباقى مصالحهم ، كما أنها معالم لفريضة الحج ، يعرف بها وقته .

ويلاحظ ؛ أن ربط مواعيد العبادات بمظاهر كونية كالشمس والقمر : أدعى إلى المعرفة السهلة من جهة ، وأبعد عن التلاعب من أي مصدر كان من جهة أخرى .

ثم سألوا كذلك عن حكم دخولهم بيوتهم من غير أبوابها ..!!

فكانت الإجابة .

روى البخارى عن البراء بن عازب : أن أهل الجاهلية ، كانوا إذا أحرموا للحج ، لم يدخلوا البيوت من أبوابها ، بل يدخل الواحد منهم بيته من غير الباب .

فبين الله تعالى : أن هذا ليس من البر ، كما كانوا يعتقدون ، بل البر الحقيقى تقوى الله ، واتباع تعاليمه .

ويلاحظ : أن النهى عن هذا الفعل من تمام التخلص من عادات الجاهلية ليخلص المؤمن فى تصرفاته كلها لله عز وجل ، واتباع تشريعه سبحانه ، والاقتداء بنبيه وحده صلى الله عليه وسلم ..

وهذا من تقوى الله عز وجل .

وفى تقوى الله الفلاح الحقيقى .

هذا ..

ومن التقوى كذلك : قتال من يقاتلوننا ؛ دفاعاً عن النفس ، وإعلاءً للدين .

ولذلك : لما منع المشركون المسلمين عن بيت الله الحرام عام الحديبية ، وتم الصلح ، على أن يعود المسلمون لقضاء العمرة فى العام المقبل .

وخاف المسلمون أن لا يفى الكفار بهذا العهد ، ويقاتلونهم ..!!

وكرهوا بالتالى أن يردوا على قتالهم بقتال ، فى الحرم والإحرام والشهر الحرام ؛ لأن ذلك محرم ..!!

نزل قوله تعالى :

{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }

[الآية ١٩٠]

أي : قاتلوا لإعلاء دين الله ، الذين يقاتلونكم من الكفار ، ولا تكونوا البادئين بهذا القتال ، فتصيروا من المعتدين .

والله لا يحب المتجاوزين ما شرع لهم .

ويلاحظ : أن الأمر بالقتال هنا .. هو فرض عين ؛ لأنه دفاع عن النفس ، أمام الأعداء المهاجمين المقاتلين .

وهذه : أول آية نزلت فى القتال بالمدينة .

وإذا كان فيها الأمر للمسلمين بقتال من يقاتلونهم : فإن الآية التالية تبيح قتال كل كافر غير معاهد ، لأن كل كافر إنما هو مقاتل إن استطاع .

فلنستمع سوياً خاشعين إلى هذه الآية الكريمة .

{ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ }

الآية ١٩١

وهذا فرض الكفاية .. أن يكون القتال لإعلاء الدين ونشر هدية .

أي : اقتلوهم حيث وجدتموهم .

وأخرجوهم من حيث أخرجوكم .

أي يا مسلمون .. أخرجوا الكفار من مكة كما أخرجوكم سابقاً .

وقد تم ذلك – بفضل الله – عام فتح مكة .

وكذلك يا مسلمون أخرجوا اليهود من فلسطين .

وسيتم ذلك – إن شاء الله – قريباً .

وكذلك : يا مسلمون أخرجوا الروس من الشيشان ..

وهكذا .. فالأمر بالجهاد ماض إلى يوم القيامة .

واعلموا يا مسلمون .. أن بقاء الكفار على شركهم ، ومحاولاتهم المستمرة فى إنزال البلاء والمحن بأهل الإيمان : أعظم ضرراً من القتل الذى يحل بهم منكم .

*****

ثم يعظم ربنا بيته الحرام .. بالنهى عن بدء قتال الكفار فيه ، إلا إذا بدؤا هم بالقتال ، فيكون الرد عليهم ، جزاءً لهم على كفرهم ، وعلى قتالهم للمسلمين .

ثم يفتح الله تعالى – أيها المستمعون الكرام – باب التوبة أمام أهل الكفر بقوله .

{ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

[الآية ١٩٢]

أي : فإن تركوا الشرك والقتال ، ودخلوا فى الإسلام ، وأنابوا إلى الله .. فإن الله غفور لذنوبهم ، رحيم بهم .

ثم يبين رب العزة : أن القتال ليس إلا لصيانة الدين ، وإعلاء شأن الإيمان بالله ، وحماية العقيدة .. بقوله:

{ وَقَاتِلُوَهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ }
[الآية ١٩٣]

أي : قاتلوا الكفار .. حتى لا يكون الكفر غالب ، ظاهر ، عال ..
بحيث يؤدى ذلك : إلى فتنة المسلم عن دينه .
وكذلك : حتى يكون دين الله .. هو الغالب ، الظاهر ، العالى .. على كل الأديان المحرفة ، والمذاهب الفاسدة .
فإن انتهى أعداؤكم عن كفرهم ، ودخلوا فى دين الله : فلا قتال بينكم وبينهم ؛ حيث يكون القتال فى هذه الحالة منكم لهم عدوان عليهم – ولا عدوان إلا على الظالمين الكافرين .

* * *

وكما عظم الله : البيت الحرام .. بتحريم القتال فيه إلا إذا بدأ الكفار بقتال المسلمين ..!!
فقد عظم تبارك وتعالى : الأشهر الحرم .. ، بتحريم القتال فيها ، إلا إذا بدأ الكفار – كذلك – بقتال المسلمين فيها .
حيث يقول:

{ الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }
[الاية ١٩٤]

وذلك : لما استعظم المسلمون القتال فى الشهر الحرام ..!!
قيل لهم : كما قاتلوكم فى الشهر الحرام .. قاتلوهم فى مثله .
حيث إن الحرمات : يقتص بمثلها .
ولهذا : فمن اعتدى عليكم فيها ؛ فقابلوه بمثل ما اعتدى عليكم ، فيها أيضاً .
واتقوا الله فى كل حال .
وفى حال انتصاركم على من اعتدى عليكم ، فلا تتجاوزوا ما يحل لكم .
وكونوا على يقين : أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد فى الدنيا والآخرة .
يالها من تربية رائعة على الطهر والنقاء والصفاء ، حتى فى حال الحرب والقتال .. !!

* * *

وبعد حديث الجهاد هذا ..

يأتى الأمر بالحث على الانفاق على الجهاد والمجاهدين فى قوله عز وجل:

{ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

[الآية ١٩٥]

أي : وأنفقوا فى سبيل الله ؛ طاعة له ، ولا تبخلوا فى ذلك ، فتلقوا بأنفسكم إلى الهلاك ؛ حيث يتقوى عدوكم عليكم فيهلككم .

وأحسنوا فى كل شئ .. وبخاصة فى قضيتنا هذه ، وهي الجهاد فى سبيل الله ، والإنفاق فيه وعليه .

ولا أعظم – أخى المستمع ، وأختى المستمعة – من هذا الترغيب فى ذلك إن الله يحب المحسنين فيثيبهم أعظم الثواب .

فمن منالاً يحب أن يحبه الله تعالى .. ؟

أيها السادة الكرام ..

انتبهوا معى – أعزكم الله – للآيات التالية .

حيث إن الحديث فيها عن ركن من أركان الإسلام .. وهو الحج إلى بيت الله الحرام ، وبيان مناسكه .

وهذا الحديث : يأتى مباشرة بعد بيان ربنا سبحانه للصيام والنهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، والجهاد ، والإنفاق فى سبيل الله .

وكل ذلك .. كما هو واضح :

يعمق الإيمان والتقوى فى المسلم ، وفى الأمة .

كما يبنى الشخصية المسلمة الجديدة ، التى تحمل النور والهداية للعالمين ..

يقول تعالى :

{ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

[الآية ١٩٦]

أي : أدوهما كاملين بأركانهما وشروطهما .

ولكن .. ما الحل لو منع من هذا الإتمام مانع .. ؟

نعم : فإن منعكم من الوصول إلى بيت الله الحرام لإتمام العمرة والحج مانع من : خوف عدو ، أو وقوع مرض ، وأردتم التحلل من الإحرام .. فعليكم تقديم هدية لأهل الحرم ، مما تيسر لكم ، وهى : ذبح بعير ، أو بقرة ، أو شاة .

ولكن .. لا تحلقوا رؤسكم ، ولا تتحللوا من الإحرام .. حتى تعلموا أن ما قدمتم من الهدى قد بلغ محله حيث مكانه الإحصار ، أو عند الحرم ، وذبح لأهله.

وعلى كل :

{ وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ }

لا حلق مع الإحرام .. إلا إذا وجدت ضرورة ..

فإذا وجدت – كما بيت الآية الكريمة – جاز الحلق ، تيسيراً من الشرع ، مع الفدية ، وهى : صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين ، أو ذبح شاة للفقراء .

هذا ..

وأما من لم يمنع من أداء المناسك ، ولم يكن به مرض ... فإليكم أيها الكرام حكمه .

وهو : أنه :

أي : فإذا أمنتم من الخوف أو المرض ، وتمكنتم من أداء العمرة والحج بإحرام واحد ، أو تحللتم بينهما من الإحرام ..

فعليكم : تقديم ما تيسر من الهدى ، يذبح يوم النحر ، شكراً لله تعالى على تمام النعمة ، ونعمة التمام .

فمن لم يجد هدياً : فعليه صيام عشرة أيام كاملة .. ثلاثة أيام منها وهو فى مكة قبل أداء مناسك الحج ، وسبعة منها .. إذا رجع إلى بلده .

وهذا الحكم : لغير أهل مكة .

*****

أيها الكرام ..

بعد هذا كله .. يقول تعالى لتربية المهابة منه عندنا ، والخضوع والخشوع إليه فينا ، والتخويف من التهاون أو مخالفة أوامره سبحانه وتعالى منا:

{... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ }

وبعد هذا الأمر الإلهى بتقوى الله فى جميع الأحوال ، والتخويف من مخالفة تعاليمه سبحانه .. فى الحج وغيره :

تمضى الآيات الكريمة .. فى بيان أحكام الحج خاصة .. فتبين زمنه ، وبعض آدابه .

حيث يقول عز وجل :

{ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ }
[الآية ١٩٧]

أي : وقته وزمنه .. أشهر معرفة عند الناس .
وهى : شوال ، وذو القعدة، وعشر ذى الحجة .
وبهذا : لا يصح الحج فى غير هذه المدة .
وقد نهى الله تعالى من أحرم بحج أو عمرة..عن إتيان القبيح قولاً أو فعلاً .
إذ أنه : علي من أحرم بحجة أو عمرة .. أن يجتنب .
الرفث .. وهو الجماع ودواعيه ، وكذلك : كل كلام فاحش .
والفسوق .. وهى المعاصى عامة .
والجدال .. وهو المراء وكثرة النقاش وشدته مع : الرفقاء ، والخدم ، والسائقين ، والبائعين ، وغيرهم .
وهذا : وإن كان شيئاً سيئاً بصفة عامة .. فهو فى الحج أسوأ .
ولذلك فالنهى عنه فيه أشد .
يقول الحبيب صلى الله عليه وسلم من حج هذا البيت .. فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه .
ويقول من قضى نسكه ، وسلم المسلمون من لسانه ويده : غفر له ما تقدم من ذنبه .

* * *

وبعد أن نهى ربنا – كما سمعنا – عن إتيان القبيح قولاً ، وفعلاً ..
حث على فعل الجميل ، مخبراً أنه عالم به ، وسيجازى عليه .

*****

أيها الكرام ..

عندما جاء الإسلام : تحرج المسلمون .. أن يتجروا خلال أيام الحج ، وهم يؤدون المناسك .
فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك .
فنزل قوله تعالى:

{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ }
[الآية ١٩٨]

أي : لا حرج ولا إثم عليكم أن تطلبوا من فضل الله رزقاً بالعمل أو التجارة وأنتم تحجون ، ما دام ذلك لا يؤثر ، على أدائهم المناسك .

* * *

فإذا انصرفتم بكثرة من عرفات ، بعد الوقوف بها : فاذكروا الله بالتهليل والتكبير ، والثناء ، والصلاة ، عند المشعر الحرام بمزدلفة ، واذكروه ذكراً حسناً ، على نعمه وهدايته .
ثم ..

{ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }
[الآية ١٩٩]

أي : لتكن إفاضتكم من حيث أفاض الناس من عرفات ، واستغفروا الله من أي تقصير يقع منكم .
إن الله غفور : لكل الذنوب ، رحيم بمن استغفر وتاب .
ثم يقول رب العزة:

{ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ }
[الآية ٢٠٠]

أي : اشتغلوا بذكر الله والدعاء بعد الانتهاء من آداء المناسك ، كما تذكرون آباءكم ومفاخرهم ، بل أشد ذكراً من ذلك .. أي : اجعلوا شغلكم الشاغل ذكر الله .. حتى أكثر من أي حديث أو ذكر لكم غيره .

*****

كما يرشد ربنا إلى دعائه بعد كثرة ذكره ، وأن لا يكون هو الدعاء بطلب الفانى ، كما يفعل البعض .
بل يكون الدعاء بطلب الباقى .

{ وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }
[الآية ٢٠١]

أيها الأحباب : جمعت هذه الدعوة – كما يقول الإمام ابن كثير – كل خير فى الدنيا ، وصرفت كل شر .

فإن الحسنة فى الدنيا : تشمل كل مطلوب دنيوى ، من عافية ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك .

وأما الحسنة فى الآخرة : فأعلى من ذلك ..

إذّ هي دخول الجنة ، وتوابعه ، من : الأمن من الفزع الأكبر ، وتيسير الحساب ، وغير ذلك من أمور الآخرة .

* * *

اسمعوا ما يقول رب العزة عن أصحاب هذا الدعاء:

{ أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ }

[الآية ٢٠٢]

أي : لهم الثواب الحسن على ما عملوه من أعمال حسنة : حيث إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً .

ثم أشار ربنا عز وجل إلى كمال قدرته ، لسرعة حسابه للخلائق فى يوم القيامة مع كثرتهم ، لنحذر مخالفته ، ونخشى عقابه ، ونسارع إلى مرضاته سبحانه .

*******   ثم يقول تعالى :**

{ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }

[الآية ٢٠٣]

ما نزلنا – كما ترون – مع آيات مناسك فريضة الحج .

وفى هذه الآية الكريمة : يأمر ربنا عز وجل من أنعم الله عليه بحج بيته الحرام .. بذكر الله تعالى والإكثار منه – بصفة عامة ، كما سبق أن ذكرت الآيات.. وبخاصة فى أيام التشريق بمنى ، كما فى هذه الآية .

وفى الحديث الشريف يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق : عيدنا أهل الإسلام ، وهى : أيام أكل وشرب ، وذكر الله تعالى .

وهذه الآيات المعدودات : ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، وفيها تكون إقامة الحجج بمنى.

ومن أتم الإقامة بمنى هذه الأيام الثلاثة – وهو الأفضل – فلا إثم عليه .

ومن أقام يومين فقط ، وتعجل الانصراف ، تاركاً اليوم الثالث : فلا إثم عليه .

ثم يختم المولى عز وجل آيات المناسك بأمرين :

الأول : تقوى الله سبحانه وتعالى .

الثانى : العلم بالحشر فى يوم البعث .

أي : اتقوا الله أيها المسلمون فى جميع أموركم وأحوالكم .

خاصة : وقد أديتم الذى ترجون به الرجوع من حيث أتيتم كما ولدتكم أمهاتكم بلا ذنوب وخطايا ، بعد أن غفر الله لكم .

ومما يساعدكم على هذه التقوى المطلوبة : علمكم بيوم الحشر الذى رأيتم نموذجاً له ، يذكركم به ، ويساعدكم على الاستعداد الدائم – بالعمل الطيب – له .

*****

أيها الأحباب ..!!

هل تذكرون قول الله تعالى فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق .. ؟

ثم قوله عز من قائل ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .. ؟

وقد تعرضنا لتفسير ذلك فيما سبق .

أعتقد أنكم – بإذن الله – تذكرون .

ونقول :

كان الحديث فى الآيتين عن بعض أصناف الناس .

الصنف الأول : هو الراغب فى الدنيا فقط ، ظاهراً وباطناً .

والصنف الثانى : هو الراغب فى الدنيا وفى الآخرة معاً .

ولأن سورة البقرة تعنى ببناء الشخصية الإسلامية : فقد كان الحديث عن أصناف الناس واضحاً فى آياتها ، كما رأينا فى مقدمة السورة وكما نرى هنا .

حيث يكون الحديث عن بقية الأصناف ، فى الآيات التالية ، ولنستمع خاشعين ، لقوله تعالى

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ }
[الآية ٢٠٤]

وهذا هو الصنف الثالث .. وهو : الراغب فى الآخرة ظاهراً ، وفى الدنيا باطناً .

ومعنى الآية : أنه حلو الحديث ، واسع المعرفة بأمور الدنيا وعلومها ، يظهر للناس الإسلام وحبه له ، وهو بخلاف ذلك ؛ حيث يبارز الله بما فى قلبه من الكفر والنفاق ، كما أنه – فى ذات الوقت – شديد العداوة للمسلمين .

وهذا قوله .

* * *

أما فعله .. فيقول عنه المولى :

{ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ }
[الآية ٢٠٥]

أي : وإذا بعد عنك .. خالف قولُه فعله .

أو أن المعنى : إذا تولى سلطة .. لم يكن له همّ .. إلا فى الإفساد للبلاد بالخروج عن شرع الله وعدله ، وكذلك الإهلاك للعباد بسبب الظلم ، الذى يكون منه ، علناً ، أو تحت شعارات خبيثة ، أو مبادئ ما أنزل الله بها من سلطان .

والله تعالى : لا يحب الفساد ، ولا أهله .

* * *

وأصحاب هذا الفعل : مغرورون .

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ }
[الآية ٢٠٦]

أي : إذا وعظ الواحد من أهل هذا الصنف .. امتنع ، وأبى ، وتكبر ، وعاند فى قبول النصح ، واستمر على ما هو فيه من إثم وخطيئة .

ولذلك : هذه نتيجته .

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ

نعم .. هذا لا يناسبه ، ولا يكفيه إلا جهنم ، ولبئس هذا الفراش له – فراشاً – يقيم فيه .

* * *

ثم ينتقل المولى – أيها الأحباب – مبيناً للمسلمين وللدنيا كلها .. أحلى الناس وصفاً ، وأرفعَهم مقاماً ، وأعلاهم شأناً .

حيث يقول عن الصنف الرابع:

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ }
[الآية ٢٠٧]

نزلت هذه الآية الكريمة : فيمن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ؛ حتى يقتل .
ومعناها : ومن الناس صنف يبيع نفسه لله تعالى ، راجياً بهذا البيع الحصول على مرضاته سبحانه وتعالى فقط .
هذا ..
والله عز وجل رؤوف بالعباد .. حيث يسر لهم هذا المقام ، الذى يوصلهم لمرضاته ، فيثيبهم عليه بالنعيم الدائم .

*****

أيها الكرام ..

بعد هذا البيان القرآنى لنوع من الناس يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ظاهره مسلم ، وباطنه منافق خبيث .. يحذر الله منه ، ويبعد أولياءه عن التأثر به ، أو التقرب إليه .
يصل هذا البيان القرآنى – خلال تربية الشخصية المسلمة – إلى مقام بيع النفس فى سبيل الله ، عند صنف من الناس ، صفت روحه ، وقوى إيمانه ، وباع نفسه ابتغاء مرضاة الله .
تبدأ الآيات الكريمة .
فى بيان أمر الله عز وجل لعباده المؤمنين الصادقين .. أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، وأن يعملوا بجميع أوامره ، وأن يتركوا جميع نوهيه ما استطاعوا ، وأن يجتنبوا ما يأمر به الشيطان .
حيث تقول:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }
[الآية ٢٠٨]

أي : خذوا الإسلام كله .. عقيدة ، وأخلاقاً ، وعبادات ، ومعاملات .
ولا تقتدوا بالشيطان ، أو تتبعوا وساوسه .
فهو لكم عدو ، قديم حديث ، دائم ، ظاهر العداوة .

{ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٢٠٩]

يعنى : فإن امتنعتم عن أخذ الإسلام وتطبيقه والإلتزام به وبأحكامه كلها ، من بعد أدلته الواضحة ، وحججه البينة : فاعلموا أن الله عزيز قوى لا يمنعه مانع من عذابكم ، حكيم لا يعذب من يعذبه إلا بحق .

* * *

أيها الأحباب .. بعد هذا التهديد للممتنعين عن تطبيق الإسلام كاملاً :
يأتى التهديد للكافرين ، ولمن يتبعون خطوات الشيطان .. فى قوله تعالى:

{ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ }
[الآية ٢١٠]

وهذا تهديد لهم بيوم القيامة ..
والمعنى : ماذا ينتظر هؤلاء الكفرة إلا أن يأتيهم أمر الله بالعذاب يوم القيامة ، فى ظلل من السحاب والملائكة .
وقد تم أمر إهلاكهم .
وإلي الله تعالى مرجع الأمور كلها ، فلا دخل لأحد فيها سواه ؛
حيث هى كلها : بعلمه ، وقدرته وإرادته .
ولهذا ..
أيكون بعد الأمر بالدخول فى الإسلام كلية ..!!
والنهى عن اتباع خطوات الشيطان ..!!
والتهديد فى حالة الزلل ..!!
أيكون بعد هذا كله .. مخالفة وزلل ..؟
الجواب:
نعم .. يكون .

*****

{ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }
[الآية ٢١١]

وهذا أمر للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولكل أحد كذلك ..

أن يسأل ويعتبر بما حدث من بنى إسرائيل ، الذين آتيناهم البينات والمعجزات على يد أنبيائهم فقتلوهم ، وبدلوا نعمة الله وآياته كفراً .. فعاقبهم الله ، والله شديد العقاب.

فلا ينبغى أن يكون من عاقل تبديل لنعمة الله .

ومن تبديل نعمة الله :

أن نستبدل : بقانون إسلامى .. قانوناً غير إسلامى .

وبدستور إسلامى .. دستوراً غير إسلامى .

وبنظام الله ..نظام البشر .

وبالأخلاق الإسلامية .. أخلاق الجاهلية .

وقد يسأل – أيها الأحباب – سائل ..

فيــقول : ما أسباب الزلل والخطأ ، واستبدال نعمة الله بغيرها ، عند البشر ..؟

الجواب:

{ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }
[الآية ٢١٢]

أي أن السبب :

هو الحياة الدنيا ، وزينتها ، وشهواتها ، والكبر الموجود فى قلوب الكافرين، الذي يجعلهم يحتقرون أهل الإيمان ، ويستكبرون عن متابعتهم .

وفاتهم أنه :

{زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }

أي فاتهم : أن هؤلاء الذين تحققوا بتقوى الله ، والذين يسخرون منهم ، ويستهزؤن بهم فى الدنيا .. فوقهم يوم القيامة .

فالمتقون : فى جنة عالية .

وأعداؤهم : فى نار حامية .

أما قضية الرزق المادى ، والغنى والفقر فى الدنيا : فهى بيد الله وحده ، يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيق على من يشاء ؛ لحكمة وغاية فى هذا وذاك .

* * *

هذا ..

وإذا كان الله عز وجل قد دعى – كما ذكرت الآيات منذ قليل – إلى الدخول فى الإسلام كليه ، وعدم إتباع خطوات الشيطان ..!!

فإن هذا هو الأصل ..
ذلك أنه :

{ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }
[الآية ٢١٣]

أي كان الناس جماعة واحدة ، متفقين على الإسلام الخالص ، من بعد آدم عليه السلام .
ثم حدث خلاف ، فبعث الله النبيين مبشرين للمؤمنين بالثواب ، ومنذرين للكافرين بالعقاب ، وأنزل مع كل واحد منهم كتاباً فيه الحق ، يحكم بينهم على أساسه ، ويردهم بهديه إلى الصواب الذى اختلفوا حوله .
وما اختلف المختلفون إلا حسداً ، وظلما لأنفسهم ولغيرهم ولدين الحق ؛ بسبب حرصهم على الدنيا .
على كل حال : هدى الله الذين آمنوا به ، واتبعوا رسله إلى الحق .
ولكن ..!!
الوصول إلىالهداية .. يحتاج إلى ثبات على الحق ، وتضحيات من أجله ، وصبر على الشدائد .

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ }
[الآية ٢١٤]

أي : أحسبتم أن تدخلوا الجنة قبل أن تبتلوا ، وتختبروا ، وتمتحنوا ، كما فُعِل بالمؤمنين الذين من قبلكم من الأمم السابقة .. ؟
وهم الذين مستم البأساء والضراء وزلزلوا من الخوف ..!!
حتى وصل بهم الحال إلى أن يقول الرسول والذين آمنوا معه من شدة ما يلاقون ويعانون ، مستغيثين : متى نصر الله ؟
والجواب لهم ، ولكم ، ولكل من يثبت على الحق ألاَ إن نصر الله قريب .

*****

أيها الأحباب فى الله .. !!

ما دام العمل بشرع الله كله ، وعدم اتباع خطوات الشيطان .. هو الطريق للحصول على النصر فى الدنيا ، ودخول الجنة فى الآخرة .

فهناك تساؤلات .. تعين معرفة إجاباتها على الإلتزام بشرع الله ، والبعد عن خطوات الشيطان ..

ومن هذه التساؤلات .

{ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }

[الآية ٢١٥]

والمقصود هنا : الصدقة ، وليست الزكاة الواجبة .

والسؤال عن الشئ الذى ينفق .

والجواب .. جاء على أسلوب الحكيم .

بمعنى : أن الآية أجابت عن المسئول عنه ، والذى كان ينبغى أن يسأل عنه أيضاً .

حيث بينت ما ينبغى أن ينفق ، وهو : كل خير .. مالاً ، أو جهداً ، أو حسن صلة ، أو غير ذلك .

كما بينت من ينبغى أن ينفق عليهم ، وهم : الوالدين ، والأقربين ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

ثم كان التشجيع على الإنفاق وما تفعلوا من خير أيَّ خير فإن الله به عليم وسيجازى صاحبه أضعافاً مضاعفة .

ومن التشجيع على بذل الخير .. !!

إلى التشجيع على بذل النفس فى سبيل الله ..

حيث يقول تعالى :

{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }

[الآية ٢١٦]

أي : فرض عليكم القتال ، وهو أمر مكروه ..!

ولكن عسى أن تكرهوا شيئاً كالجهاد وهو خير لكم إذّ فيه إحدى الحسنيين : وهي النصر ، وذلك خير فى الدنيا ، والشهادة ، و هى خير فى الآخرة .

وعسى أن تحبوا شيئاً كالقعود عن الجهاد وهو شر لكم إذ فيه الذل ، وضياع الحق ، وحرمان الفوز أو الأجر .

والله يعلم الخير لكم فى الدنيا وفى الآخرة وأنتم لا تعلمون فأطيعوه .

ثم يكون التساؤل الثانى .

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ٢١٧]

قاتل المسلمون المشركين – ذات مرة – دون أن يعرفوا أن هذا اليوم .. أول يوم من شهر رجب ، وهو شهر يحرم القتال فيه .

فقال الكفار للمسلمين : قتلتم فى الشهر الحرام ..!!

فنزلت الآية ..

ومعناها : أن القتال فى الشهر الحرام ، إثم كبير ..!!

ولكن الإثم الأكبر منه : الكفر بالله ، والصد عن سبيله ، وإخراج أهل المسجد الحرام منه ، وفى هذا فتنة ، وصرف عن الدين ، وهو أيضاً .. إثم أكبر من القتل .

ثم نبه الله المسلمين إلى أن الكفار : سيحاربونهم بشتى الوسائل ، رغبة فى صرفهم عن الحق الذى هم عليه .

ثم حذرهم – رأفة بهم ، وشفقة عليهم – من الخوف من أعدائهم ، أو الانخداع بحيلهم ومكرهم .. بقوله ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون فلا ترتدوا عن دينكم ولا تموتوا كفاراً .

* * *

وبعد ذلك : قال تعالى ، حثاً عن الجهاد ، وتخويفاً من تركه ، وبياناً لفضله.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }
[الآية ٢١٨]

أي : من اجتمعت فيه هذه الصفات الثلاث : الإيمان ، والهجرة حيث تجب، والجهاد .. فهو من الذين يستحقون رحمة الله ، والله غفور لذنوبهم ، رحيم بهم .

*****

ثم يقول تعالى :

{ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }

[الآية ٢٠٣]

ثم يكون التساؤل الثالث ..

الذى تساهم إجابته فى بناء الشخصية الإسلامية ، والتى تضع المبادئ الواضحة القوية للدولة الإسلامية ، وأحكام دينها .

وذلك فى قوله تعالى :

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ }

[الآية ٢١٩]

أيها الكرام ..

نزل فى الخمر أربع آيات .

قوله تعالى ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً .. [النحل ٦٧].

فكان المسلمون .. يشربونها ، وهى لهم حلال .

ثم إن عمر ونفراً من الصحابة .. قالوا : يا رسول الله ..!! أفْتِنا فى الخمر ، فإنها : مذهبة للعقل مسلبة للمال .

فنزل يسألونك عن الخمر والميسر .. هذه الآية .

فشربها قوم ، وتركها آخرون .

ثم شربها جماعة ، فسكروا ، فأم قوم بعضهم فى الصلاة ..

فقرأ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون ..!!

فنزل يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى [النساء ٤٣].

فقل من كان يشربها .

غير أن جماعة .. شربوا ، وسكروا ، وتخاصموا ، وتضاربوا ..

فقال عمر : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً ..!!

فنزل يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر واليسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتبنوه لعلكم تفلحون [المائدة ٩٠].

فقال عمر .. انتهينا يا رب ..!!

ومعنى الآية التي معنا : يسألونك عن حكم شرب الخمر ، وتعاطى الميسر..!!

رقل : فيهما آثام كبيرة ، ومضار عظيمة .. أكثر من المنافع الموجودة فيهما ، إذا قورنت المنافع بالمضار .

وكان هذا .. كالتمهيد للتحريم ، على التدريج لعادة ألفها الناس ، وتشابكت حولها المصالح .

*****

وبعد ذلك .. يكون هذا التساؤل الرابع .

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ

أي : يسألونك يا محمد عن مقدار ما ينفقون ، وما يتركون لأنفسهم وأهليهم .. ؟

قل : أي العفو ، وهو ما زاد عن حاجتك ، وحاجة أهلك ، ولو كان يسيراً ، على أن يكون من أطيب مالك وأفضله .

يقول ربنا عز وجل يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون [البقرة ٢٦٧] .

وهكذا يكون البيان (لعلكم تتفكرون) .

فيما هو أفضل وأصلح لكم ، فتفضلون أبقاهما ، وأكثرهما نفعاً .

* * *

ثم يكون التساؤل الخامس .. أيها الكرام ، على النحو التالى :

{ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

[الآية ٢٢٠]

لما نزل قول الله تعالى ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن سورة الأنعام ..!!

وكذلك قوله سبحانه إن الذين يأكلون اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً سورة النساء ..!!

اشتد الحرج على المسلمين ..

فسألوا رسول الله عن معاملتهم .

فأنزل الله عز وجل :

ويسألونك عن اليتامى .. الآية .

والمعنى :

ويسألونك عن مخالطة اليتامى ، فى الطعام والشراب ، وغير ذلك .

فكان الجواب :

قل : إصلاح لهم خير ، أي مخالطتهم على وجه الإصلاح .. خير لهم ولأموالهم .

وكذلك : خير من مجانبتهم .

وهم فى هذه المخالطة .. إخوانكم ، لا فرق بينكم وبينهم .

وعلى أية حال .. فالله يعلم المفسد لأموالهم من المصلح لها ، فيجازيه حسب نيته وعمله ..

فاحذروه ، وتجنبوا غضبه سبحانه .

هذا ..

ولو شاء الله لضيق عليكم فى معاملتهم بما يشق عليكم ، إنه : عزيز يعاقب من يخالف ، حكيم لا يكلف عباده إلا ما فى وسعهم .

*****

أيها الأخوة والأخوات فى الله .

بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى المدينة صحابياً ، ليخرج بعض المسلمين المحتجزين بمكة سراً .

وكان هذا الرجل .. يهوى – وهو فى الجاهلية – امرأة ..!!

فلما رأته بمكة : أتته وهي على كفرها ، وقالت : ألا نخلو ..!!

فقال لها : ويحك .. إن الإسلام قد حال بينى وبينك .

فقالت له : هل لك أن تتزوج بى ..؟

فقال : نعم ، ولكن أرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم .. آخذ إذنه ..!!

فلما عاد .. وسأل عن ذلك .

نزلت هذه الآية :

{ وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }

[الآية ٢٢١]

والمعنى : لا تتزوجوا أيها المسلمون الكافرات ، حتى يؤمن بالله ورسوله .

ولأمة مؤمنة يتزوجها المرء .. خير من مشركة ، حتى ولو كانت المشركة تعجبكم ، أو تحبونها ، لمالها ، وجمالها .

وكذلك ..

لا تزوجوا المسلمة لمشرك ، ولو كان من أهل الكتاب ، حتى يؤمن بالله ورسوله .

ولَرَجُلٌ مؤمن تتزوجه المسلمة .. خير من مشرك ، حتى ولو كان هذا المشرك يعجبكم ، أو تحبونه لماله ، أو لجماله ، أو لرياسته .

والسبب فى ذلك أن أولئك يدعون إلي النار .

لأن مخالطتهم ومعاشرتهم .. تبعث على حب الدنيا ، وتفضيلها على الآخرة ، وعاقبة ذلك وخيمة .

والأحكام السابقة .. هى حكم الله .

والله عز وجل : يدعو بشرعه ، وما أمر به ونهى عنه إلى الحصول على مغفرته ، ودخول جنته .

وكذلك : يبين آياته للناس لعلهم يتعظون بها ، فيعملون بشرعه ؛ فينالون مغفرته ويدخلون جنته سبحانه وتعالى .

*****

هذا ..
ويأتى التساؤل السادس ..
وهو قوله تعالى :

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }
[الآية ٢٢٢]

أيها الكرام ..
كانت المرأة من اليهود .. إذا جاءها الحيض : لم يأكلوا معها ، بل لا يجتمعون معها فى بيت واحد .
فلما هاجر المسلمون إلى المدينة .. وعرفوا ذلك ..
سألوا النبى صلى الله عليه وسلم .. عن هذا الأمر .
فنزلت هذه الآية .
ومعناها ..
ويسألونك عن الأحكام التى تترتب على الحيض .
الجواب :
قل هو أذى لمن يقرب من صاحبته ، ولها – أيضا – عند الاقتراب منها .
ولذلك :
فالحكم .. أن تجتنبوا مجامعة النساء ، حتى ينقطع الحيض .
فإذا تطهرن منه .. يحل لكم مجامعتهن من حيث أمركم الله أي فى الفرج دون غيره .
إن الله عز وجل يحب التوابين من الذنوب ، والمتطهرين من الجماع فى الحيض ، أو الفواحش عامة .

* * *

وكذلك أيها الإخوة والأخوات
قال اليهود – فى المدينة – للمسلمين : من أتى امرأة من خلفها فى فرجها .. جاء الولد أحول .
فخاف المسلمون .. وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك .
فأنزل الله تعالى:

{ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ٢٢٣]

أي : نساؤكم كأراضيكم التى تريدون حرثها ، وإلقاء البذر فيها من أي جهة شئتم .. لا يحظر عليكم جهة دون جهة .

لذلك : لكم أن تجامعوهن .. متى شئتم ؟ وكيف شئتم ..؟ ما دام ذلك فى الوضع المباح شرعاً .

وقدموا لأنفسكم الأعمال الصالحة .

واتقوا الله وراقبوه ، بعدم مخالفة تعاليمه وأحكامه .

واعلموا أنكم صائرون إليه .. فيحاسبكم على أعمالكم .. فاستعدوا للقائه .

وللمؤمنين البشرى بما أعد الله لهم فى الآخرة .

*****

ثم تنتقل الآيات إلى بيان جزء من شرائع الله ، التى أمر بالدخول فيها ، والالتزام بها ، فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة .

وهذا الجزء فى الإيمان .

ومجيئه بين الكلام عن النكاح والطلاق .. واضح الحكمة ؛

حيث إن الطلاق .. نوع يمين ، كما أن الإنسان كثير الحلف فى حياته الأسرية .

استمعوا معى – أعزكم الله – إلى بيان ذلك ..

فى قوله تعالى :

{ وَلاَ تَجْعَلُوا اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٢٢٤]

أي لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم .. من : البر ، وصلة الرحم ، إذا حلفتم على تركها .

وفى الحديث الشريف من حلف على يمين – أي على شئ – ورأى غيرها خيراً منها : فليأت الذى هو خير ، وليكفر عن يمينه .

* * *

ثم بين رب العزة جانباً من رحمته بنا .. فى قوله تعالى :

{ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ }
[الآية ٢٢٥]

أي أنه عز وجل : لا يعاقبنا ، ولا يلزمنا بما صدر عنا من الإيمان اللاغية، ولكنه سبحانه : يؤاخذنا على ما تعمدنا من الإثم فى الإيمان .

وهو تبارك وتعالى غفور حيث لا يؤاخذ باللغو فى الأيمان حليم حيث يقبل التوبة النصوح عن أي ذنب .

*****

وبمناسبة الأيمان .. تأتى آية تبدأ بكلام عن نوع من الأيمان .. يؤثر فى الحياة الزوجية ..
وهو ما يسمى بالإيلاء .
وذلك فى قوله تعالى :

{ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٢٢٦]

الإيلاء : هو الحلف .
والمراد : أن يحلف الرجل ألا يجامع امرأته مطلقاً ، أو مدة تزيد على أربعة شهور .
ومعنى الآية .. على الذين يحلفون أن لا يجامعوا نساءهم تربص أي : انتظار أربعة أشهر ، لا يجامع امرأته خلالها، وله خلال هذه المدة ، أو بعدها أن يجامعها ، إذا رجع عن يمينه والله غفور رحيم .
هذا ..

{ وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٢٢٧]

أي : وإن استمروا على ترك الوطء ، ولم يجامعوا نساءهم : فإن هذا اليمين .. يعتبر طلاقاً بائناً .
والله عز وجل : سميع لهذا الإيلاء ، عليم بالنيات .
وذلك : وعيد وتهديد للذين يؤلون ، ولا يعودون ، وهم ظالمون نساءهم .

*****

وبعد .. أيها الأحباب فى الله .

تدخل الآيات مباشرة فى موضوع : الطلاق .

وهذا : من البيان المباشر لأحكام الإسلام وشرائعه ، التى نطالب بتطبيقها والإلتزام بها .. امتثالاً لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم أي الإسلام وأحكامه كافة .
ولنستمع إلى بعض آيات أحكام الطلاق .
يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٢٢٨]

أي : حكم النساء المطلقات ، المدخول بهن ، من ذوات الحيض ..
هو :
أولاً : تمكث إحداهن – بعد طلاق زوجها لها – ثلاثة قروء ، لا تتزوج فيهن .. ثم تتزوج بعد انتهائن ، إن شاءت .
ولا يحل للمرأة هذه .. أن تتكتم على ما فى بطنها – من ولد أو حيض – إن كانت تؤمن بحكم الله تعالى ، وتخاف من عذابه فى اليوم الآخر .
ثانياً : لزوجها الحق فى ردها إلى عصمته ، إن أراد الإصلاح بينهما ، خلال هذه المدة ، حتى ولو امتنعت المرأة .
هذا ..
وليكن معلوماً : أنه للنساء – بصفة عامة – على الأزواج من الحقوق ، مثل ما على النساء للأزواج من الحقوق .
إذ على هذا : نصيب من الواجبات لصاحبه .
كما أن على الآخر : نصيب من الواجبات الأخرى لصاحبه .
كل بما يناسبه .
غير أنه للرجال على النساء درجة الطاعة ، وذلك بسبب القوامة ، ووجوب الإنفاق .

* * *

أيها الكرام ..
كان للرجل فى ابتداء الإسلام .. أن يراجع امرأته إذا طلقها ، ما دامت فى العدة ، ولو مائة مرة .
ولما كان ذلك فيه ضرر بالمرأة ..!!
فقد قصر الله عز وجل ذلك .. إلى ثلاث طلقات فقط .
وأباح الرجعة .. مرة ، وأخري فقط .

وجعل الطلاق بائناً بعد الثالثة ..
حيث قال :

{ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }
[الآية ٢٢٩]

أي : التطليق الذى يراجع الزوج فيه زوجته إلى عصمته بعد طلاقها : مرتان اثنتان فقط ، واحدة بعد واحدة .

وبعد ذلك .
إما إمساك لها ، بعد مراجعتها .. بمعروف ، وبغير ضرر أو إيذاء .
وإما تطليق الثالثة .. مع جبر خاطرها ، والإحسان إليها ، بما يناسب حاله وحالها .
ولا يحل للأزواج .. أخذ شئ من النساء – مهما كان أو غير ذلك – عند هذا الطلاق : إلا فى حالة واحدة .
أن تكون الحياة الزوجية أصبحت فى غاية الصعوبة والمشقة ، ولا تريد المرأة الإستمرار فيها ، وخافا أن لا يحافظا على شرع الله تعالى وأحكامه .
وفي الحديث الشريف أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير بأس : فحرام عليها رائحة الجنة .
عند هذا الخوف : رخص الله لها أن تفتدى نفسها ، بدفع ما أخذت أو بعضه ؛ مقابل أن يخلعها ..
ورخص للزوج أن يأخذ ويخالع .
ولا غضاضة فى الخلع : حفاظاً على سلامة المجتمع المسلم ، وصيانة بيوته.
وهذه هى حدود الله وأحكامه .. فلا تعتدوا عليها وتخالفوها ، فتكونوا من الظالمين .
هذا ..

{ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٢٣٠]

أي : فإن طلقها بعد الطلقتين .. فلا تحل له بعد هذه الطلقة الثالثة .. حتى تنتهى عدتها ، وتتزوج غيره ، ويطأها .

فإن طلقها زوجها الثانى بعد الوطء ، ولم يراجعها ، وانتهت عدتها منه : فلا جناح عليهما أن يرجعا إلى الزواج من بعضها البعض .
وذلك : إذا غلب على ظنهما أن يحافظا على شرع الله ، وإقامة حدوده.
وتلك : هى شرائع الله وأحكامه .. يوضحها سبحانه وتعالى لقوم يفهمون .. فيلتزمون .

*****

أيها الكرام ..

ما دام الحديث فى هذه الآيات الكريمة .

فاستمعوا معى – أعزكم الله – إلى بعض أحكام الطلاق الرجعى ..

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى .

{ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

[الآية ٢٣١]

إذا طلقتم النساء طلاقاً رجعياً ..

فإما : مراجعة قبل انتهاء العدة ، وحياة بالمعروف .

وإما : مفارقة بعد انتهاء العدة ، وتسريح بالمعروف .

ومن يراجع زوجته ، ويمسكها فى عصمته للإضرار بها : فقد ظلم نفسه بتعريضها لعقاب الله تعالى .

والذى يمسك للإضرار : لا يحترم أحكام الله تعالى .

والأولى : أن يذكر المرء نعم الله عليه ، ويخشى الله تعالى ، ويبتعد عن هذا الفعل القبيح .

* * *

هذا ..

ومن أحكام الطلاق الرجعى أيضاً .

{ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }

[الآية ٢٣٢]

أي : إذا حدث طلاق رجعى ، وانتهت العدة ، وأراد الزوجان الرجوع لبعضهما البعض ، واستئناف الحياة الزوجية بينهما مرة أخرى :

فليس للأولياء منع ذلك .

وهذا .. وعظ وتذكير من الله لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛

حيث هم أهل قبول الموعظة .

ذلكم الحكم .. وهو عدم المنع لهذا الزواج : أكثر خيراً لكم ، وأكثر طهراً لمجتمعاتكم .
والله وحده تبارك وتعالى : يعلم وأنتم لا تعلمون .
فاستجيبوا له ، والتزموا بشرعه .

*****

أيها الكرام ..!!
إذا حدث طلاق بين الزوجين : قد يكون هناك أطفال .
ولهؤلاء : أحكامهم ؛ حتى لا تضيع حقوقهم ، فيضيع المجتمع بسبب إهمالها.
ولذلك : بدأت الآيات فى بيان ذلك .. على النحو الذى نستمع إليه من القارئ الكريم .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلادَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾
[الآية ٢٣٣]

أى : وعلى المطلقات – إن وجد أطفال – أن يرضعنهم .
وعند النزاع فى مدة الإرضاع : تقدر بسنتين ، ولا زيادة على ذلك .
ويكلف الوالد : بإطعام الوالدات المرضعات ، وكسوتهن ، بقدر طاقته ، نظير هذا الإرضاع .
ولا تكلف نفس ، سواء كان الأب بالإنفاق ، أو الأم بالإرضاع دون إنفاق ، إلا قدر طاقة كل واحد منهما .
ولا تضار والدة بولدها ، ولا والد بولده .
ويقوم وارث الأب – عند وفاته – للوالدة المرضعة ، بمثل ما كان يقوم به الأب من الإطعام والكسوة .
وإذا أراد الزوجان فطام الطفل قبل الحولين ، أو بعد الحولين ، عن تراض بينهما ، ومراعاة لصالح الطفل بهذا الفطام : فلا إثم عليهما .
ثم يكون الخطاب المباشر .
للآباء : إن أردتم أن يُرضع أولادكم مرضعات غير أمهاتهم .. فلا حرج فى ذلك ، إذا أعطيتموهن أجر هذا الإرضاع ، بما يرضيهن.
ثم يقول ربنا ؛ للمحافظة على ما شرع فى أمر الأطفال والمرضعات ..
إنه لا تخفى على الله أعمالكم ، وسيجازيكم بها .
ولهذا .. فاتقوا الله بتنفيذ شرعه ، واعلموا أنه بما تعملون عالم به وبصير له .

*****

هذا .. وبمناسبة الكلام عن انفصال عقد الزوجية بالطلاق ، وما يترتب عليه ..!!
يأتى الكلام عن انفصال عقد الزوجية بوفاة الزوج وما يترتب عليه أيضا .
حيث يقول تبارك وتعالى:

{ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }
[الآية ٢٣٤]

أى : والنساء اللائى يموت أزواجهن :
تكون عدتهن .. أربعة أشهر وعشراً من الليالى ، يمتنعن عن الزواج فيها . إلى غير ذلك من أحكام عدة المتوفى عنها زوجها ، وحدادها عليه .
فإذا انقضت هذه المدة : فلا جناح على أحد فيما تفعل هؤلاء النسوة من التزين والتعرض للخطاب بالمعروف شرعاً ، بل الزواج نفسه .
والله بما تعملون يا أولياء النساء ، ويا أيتها الأرامل خبير عالم به ظاهراً وباطناً ، فيجازى على كل أحد بما يناسبه .

* * *

ثم يقول رب العزة للرجال :

{ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ }
[الآية ٢٣٥]

لا إثم عليكم يا معشر الرجال .. فيما عرضتم به من خطبة النساء ، المتوفى عنهن أزواجهن ، فى زمن العدة ، تلويحاً لا تصريحاً .
ولا إثم عليكم كذلك .. فيما أسررتموه فى نفوسكم من رغبتكم فى الزواج منهن .
وهذا الرفع للحرج والإثم عنكم ؛ بسبب علم الله برغبتكم الصادقة فى خطبتهن، وعفة لسانكم ، وطهارة خلقكم .
وإذا كان التعريض بالخطبة .. قد أبيح لكم على هذا النحو : فلا يباح لكم العزم على عقد النكاح فى زمن العدة ، أما العزم على عقده بعد زمن العدة .. فلا شئ فيه .
واعلموا أن الله مطلع على ما فى نفوسكم ، فاحذروا غضبه عليكم عند مخالفتكم .
واعلموا – كذلك – أن الله غفور لمن يخافه ، ويحذر عقابه ، حليم بتأخير العقوبة عن مستحقها .

* * *

ثم يكون الحديث عن الطلاق قبل الدخول ودون تسمية المهر ..
على النحو التالى :

{ لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٢٣٦]

أى : لا حرج عليكم فى طلاق النساء .. قبل الدخول بهن ، وكذلك قبل فرض المهر لهن .
ولكن .. للنساء فى حالة الطلاق هذه : المتعة .
وهى : تعويضها عما فاتها بشئ تأخذه من زوجها بحسب حاله من الغنى والفقر .
وذلك التعويض والتمتيع : يكون بالوجه الذى يحسن فى الشرع ، ويحفظ الكرامة .
وهو : واجب على المسلمين المحسنين .

*****

ثم يبين المولى عز وجل حكم الطلاق قبل الدخول ، مع تسمية المهر .. فيقول سبحانه وتعالى .

{ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }
[الآية ٢٣٨]

وهؤلاء : يجب لهن .. نصف المهر .
إلا .. أن تتنازل هى عن هذا النصف ، أو يعطى هو كل المهر ، تفضلاً منه .
ثم يَحُثُّ المولى على العفو ، ومراعاة الفضل بينهما .
في خطاب للجميع .. معناه :
أن عفو الزوج بإعطاء المهر كله : خير له .
وعفو المرأة بإسقاط ما لها من النصف : خير لها .
وهذا العفو : أقرب لتحصيل التقوى ، وتحقيقها .
ويحث رب العزة المجتمع على هذا العفو بالتحريض على أن يتفضل الأزواج بعضهم على بعض .
حيث إنه البصير بما يعملون .. فيجازى كل عامل بعمله .

*****

وهكذا أيها الكرام ..
رأينا أن سياق الآيات .. قد سار فى أحكام حياتية كثيرة ..
وهذه الأحكام تحتاج إلى : خضوع لله ، واستعانة بالصلاة على حسن الالتزام فيها بصفة عامة .
كما يقول رب العزة:

{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ}

أى حافظوا على أداء الصلوات بمراقبتها وأركانها وشروطها .
وبخاصة صلاة العصر ، نظراً لانشغال الناس عنها بمصالحهم .
وقوموا فى صلاتكم خاشعين خاضعين ذاكرين لله دائماً .

* * *

وهذه المحافظة : مطلوبة حتى فى حال الحرب أو الخوف .
حسب ما يقول ربنا عز وجل :

{ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ }
[الآية ٢٣٩]

أى : فإن كان بكم خوف من : عدو ، أو غيره ..
فصلوا على أى شكل ، حتى ولو كنتم راكبين ، إلى جهة القبلة ، أو إلى غير جهتها .
ولكن .. إذا زال الخوف ، وأمنتم : فأقيموا الصلاة كما أمرتم بركوعها ، وسجودها ، وخشوعها ، واذكروا الله على أن علمكم ما لم تكونوا تعملون من الصلاة والذكر والشكر .

* * *

هذا ..
ويعود السياق فى الآيات .. إلى خاتمة الكلام فى الأحكام حول موضوع الطلاق .
فيقول ربنا تبارك وتعالى بالنسبة للمتوفى عنها زوجها ؛ عناية بالمرأة المسلمة :

{ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٢٤٠]

يستحب أن يوصى الزوج قبل وفاته لزوجته : بما يتمتعن به من النفقة والكسوة ، وكذلك البقاء فى بيت الزوجية إلى تمام العام .

وبذلك : يكون إبقاء المرأة فى بيتها – بعد وفاة زوجها – أربعة أشهر وعشراً .. من باب الفرض .

كما تكون الوصية لها بالإقامة إلى نهاية السنة .. من باب الندب .

فإن خرجت المرأة من بيت الزوجية بنفسها ، دون إخراج لها : فلا إثم ولا جناح على أحد .

والله عزيز فى ملكه ، حكيم فى صنعه .

هذا ..

ويقول العلماء :

إن الوصية بالإقامة إلى نهاية الحول : منسوخ حكمها بالآية السابقة والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً .

* * *

عموماً ..

{ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ }
[الآية ٢٤١]

وهنا ..

إما أن يكون الطلاق رجعياً : فتكون النفقة خلال العدة واجبة على أهل التقوى .

وإما أن يكون الطلاق قبل الدخول ، دون تسمية المهر : فتكون المتعة ، واجبة – كذلك – على أهل التقوى .

وإما أن يكون الطلاق غير ذلك : فأهل التقوى يوجبون على أنفسهم المتعة المناسبة .

* * *

ثم يقول رب العزة .

{ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }
[الآية ٢٤٢]

مثل هذا البيان فى الطلاق وغيره من الأحكام : يبين الله لكم تعاليمه لتعقلوا ؛ وتفهموا ، وتعملوا .. فيرضى الله عنكم .

* * *

أيها الكرام ..!!

بعد بيان هذه الأحكام ، التى كان فيها :

الحث على القتال فى سبيل الله .

والإنفاق فى سبيل الله .

وطلب الدخول والامتثال للإسلام كلية ..

يسوق المولى عز وجل أمراً كان مشهوراً وعجيباً .. يبين فيه للمتهاونين فى الطاعة ، والبعيدين عنها : أنه لا يغنى حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه .

حيث يقول :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ }
[الآية ٢٤٣]

هؤلاء قوم من بنى إسرائيل : وقع الطاعون فى بلادهم ، ففروا هاربين منه؛ خوفاً من الموت ، إلى بلاد – كما ظنوا – ليس بها موت .

ولكن الله تبارك وتعالى ، الذى يقول للشئ كن فيكون : عاملهم بغير مقصودهم ، فأماتهم .

ثم أحياهم – وهو القادر على كل شئ – ليعتبروا ، ويعرفوا أنه لا مفر من قضاء الله .

وكان فى إماتتهم هذه ، وإحيائهم ، هذا : دليل على قدرة الله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى على البعث والإعادة بعد الموت .

والله عز وجل ذو الفضل على الناس فى البدء والمنتهى ..!!

ولذا : يجب شكره على كل حال .

ولكن أكثر الناس – مع هذا – لا يقومون بشكر الله على ما أنعم عليهم به فى دينهم ودنياهم .

ولأن هذا المثل فيه : دعوة للتوكل على الله ، والاعتماد عليه وحده ، والحث على الجهاد فى سبيله وعدم الخوف من الموت ..

فقد قال عز شأنه :

{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٢٤٤]

وهذا أمر باق إلى يوم القيامة : لهذه الأمة

وفيه : تشجيع لها على القتال فى سبيل الله ، إعلاءً لراية هذا الدين ، وإعزازاً لأهله ، ونشراً لهدية .

واعلموا أن الله سميع لما يقوله المؤمنون السباقون للجهاد ، وما يقوله المتخاذلون القاعدون عنه المانعون منه ، عليم بما فى ضمائهم جميعاً .

وفى ذلك : وعد بالخير لمن بادر إلى الجهاد ، ووعيد بالشر لمن تقاعس عنه ، أو منع منه .

* * *

هذا ..

ولأن فى الجهاد .. بذل للنفس والمال ..!!

ولأن الجهاد .. يحتاج إلى إنفاق ..!!

فكان الحث عليه فى قوله عز وجل :

{ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }
[الآية ٢٤٥]

أي : من ذا الذى ينفق فى سبيل الله نفقة طيبة ، بنفس راضية طيبة .

وفى تسمية النفقة هذه قرضاً : تنبيه على أن ذلك لا يضيع عند الله .

بل يعود إليه جزاءً طيباً ، وثواباً حسناً .

بل أكثر من هذا .. حيث يعود إليه أضعافاً مضاعفة .

حيث إن الله عز وجل : هو الذى بيده كل شئ ، وهو الذى يقبض ويبسط ، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم به .

وهذا الجزاء : يكون فى وقت تشتد الحاجة فيه إليه ، وهو يوم القيامة .

ويلاحظ جيداً : أن ورود هذه الآيات ، وما قبلها من آيات الحث على القتال والإنفاق فى سبيل الله ، وكذلك الآيات الآتية ..!!

وورود كل هذا فى سياق قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة : دليل على أن الإسلام لا يقوم ، ويقوى أهله .. بلا جهاد وبذل مال فى سبيل الله .

وغير ذلك : هو الوهم بعينه .

*****

ثم يبين رب العزة – أيها المستمعون والمستمعات الكرام – بعد هذا التشجيع على الجهاد والإنفاق فى سبيل ؛ إعلاءً لكلمته ..

يبين : أن الفئة القليلة المؤمنة تتغلب – بنصر الله – على الفئة الكثيرة الكافرة .

وأنه كذلك : لابد من الجهاد ، وإلا عم الفساد .

استمعوا معنا إلى قوله تبارك وتعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }

[الآية ٢٤٦]

ألم تعلم بقصة هذه الجماعة من بنى إسرائيل ، الذين كانوا بعد موت موسى عليه السلام .

حينما قالوا لنبى لهم : عيِّن علينا أميراً قائداً للقتال فى سبيل الله ، نتبعه ، ونعمل برأيه .

فماذا قال لهم .. ؟

أجاب قائلا : أنا أتوقع منكم الجبن والخوف والامتناع عن القتال .. إن حدث وفرض عليكم .

وهنا :

ردوا على نبيهم قائلين ..

وما الذى يمنعنا من أن نقاتل إذا جاءنا عدو ، وهجم علينا ، واحتلت منا البلاد، وسبيت منا الأولاد .

وكأنهم يقولون لنبيهم : على أية حال جرِّبنا ، والأيام خير شاهد .

وقد كان ..!!

فلم تمض الأيام أيها المستمعون الكرام ..!!

حتى هجم عليهم ، واحتل بلادهم ، وسبى أولادهم ، وأسر أبناء ملوكهم ، قوم من الجبابرة الطغاة .

وحقق القدر بهم ما أرادوا .

وكتب عليهم القتال .

فماذا فعلوا ، فيما طلبوا ..؟

يا الله ..!!

لما تحقق لهم ما طلبوا : أخلفوا بما وعدوا ..!!

جبنوا ، وأعرضوا ، وامتنعوا عن القتال ..!!

إلا قليلاً منهم ، لم يجبنوا ولم يمتنعوا .

وهذه أول النكبات والنكسات من أكثريتهم الظالمة .

والله سبحانه وتعالى عليم بالظالمين ، فيجازيهم بما يستحقون .

*****

وهنا .. والقتال قد فرض فعلاً ..

سأل نبيهم ربه إرسال ملك يكون أميراً وقائداً للقتال فى سبيل الله .

وأجابه الله عز وجل إلى طلبه .

وكان هذا الملك القائد .. هو "طالوت"

{ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }

[الآية ٢٤٧]

أي : قال لهم .. إن الله عز وجل أجاب طلبكم ، وحقق سؤلكم ، وبعث لكم طالوت ملكاً كما أردتم .

ولذا .. فليس ذلك باجتهاد منى ، بل هو اصطفاء من الله لطالوت .

طبعاً .. المتوقع إذاً :

أن تستجيب هذه القلة ، التى لم تجبن ، ولم تمتنع عن القتال حينما أصبح فرضاً .

ولكن ..!!

كانت النكبة والنكسة الثانية .

حيث إنهم :

اعترضوا على اختيار الله تعالى ، قائلين : كيف يكون له الملك علينا، وهو فقير ، لا مال له يتقوى به على شئون الملك والمملكة ؟

فى الوقت الذى : نحن فيه أولى بهذا الملك منه .

ولذا .. فنحن لا نرضى به ملكاً علينا .

* * *

ولأن نبيهم خاف عليهم غضب الله تعالى ، فقد حاول أن يثنيهم عن اعتراضهم هذا ، وأن يقنعهم بما اختار لهم ربهم .

حيث :

قال لهم : إن الله اختاره عليكم ، وهو أعلم بالصالح لكم منكم ، ولا اعتراض علي حكمه ..

أي : فلا تعترضوا على طالوت .

ثم ذكر لهم أمرين.. هما أنفع فى المَلِك القائد مما ذكروا من النسب والمال.

وهما :

السعة فى العلم .

والبسطة فى الجسم .

حيث ينبغى – كما يقول ابن كثير رحمه الله – أن يكون : ذا علم ، وشكل حسن ، وقوة شديدة فى بدنه ونفسه .

وفوق هذا وهذا .. فلا يحق لكم الاعتراض أبداً .

حيث إن الله يؤتى ملكه من يشاء ولا معقب لحكمه .
كما أنه واسع الفضل والعطاء ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

{ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ٢٤٨

]

أي : قال لهم نبيهم – إقناعاً لهم بطالوت – إن علامة بركة ملك طالوت عليكم ، ونجاحه فى قيادتكم : أن يعيد عليكم التابوت الذى كان قد أخذ منكم .
إن في حضور هذا الصندوق إليكم : طمأنينة لقلوبكم وسكينة من ربكم وفيه بقية مما ترك آل موسى وهارون أي بعض آثارهم المباركة .
كما أن الذى يأتى به ويحمله إليكم ، هم الملائكة .
ثم قال لهم نبيهم :
إن فى رجوع التابوت إليكم بهذا الشكل : علامة ودليلاً على أن الله جعل طالوت عليكم ملكاً ولكم قائداً .
أي : إن كنتم مؤمنين بالله ، اليوم الآخر .. فكفوا عن الجبن والجدال ، واتبعوا طالوت للقتال فى سبيل الله .

ويبدو أنهم أطاعوا وانتظموا تحت قيادة طالوت .

*****

{ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }
[الآية ٢٤٩]

أي : فلما خرج طالوت إلى جهاد العدو بجنده : قال لهم إن الله مختبر صدقكم فى الجهاد بنهر .
وهذا الاختبار : يكون بالامتناع عن الشرب منه .
ولذا : فمن شرب منه ، فهو غير صادق فى جهاده فى سبيل الله ، فليرجع ، ولا يقاتل معنا .
ثم رخص لهم فى أن يشرب الواحد منهم بيده من هذا النهر .. غرفة واحدة فقط .
فماذا حدث فى هذا الاختبار .. ؟

{ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }

أي : رسبوا فى هذا الاختبار ؛ حيث شربوا شرباً كاملاً ، إلا قليلاً منهم ، اغترفوا بأيديهم شربة واحدة فقط .

روى أنها كفتهم لشربهم وشرب دوابهم .

وكانت هذه هى النكبة والنكسة الثلثة من هؤلاء .

ورجع من شرب .

واستمر مع جالوت من لم يشرب ، ومن اغترف غرفة بيده فقط .

فلما ترك طالوت النهر بمن آمنوا ، واستمروا معه : ظهر لهم جالوت وجنوده .

فلما رأوهم .. ورأوا كثرة عَدَدِهم ، وقوة عِدَدِهم : استقلوا أنفسهم ، وعلموا ضَعفهم عن لقاء عدوهم ، وقالوا : لا قوة لنا على جالوت وجنوده .

وكانت هذه الهزة النفسية ستكون النكبة والنكسة الرابعة .. لولا لطف الله عز وجل بهم .

حيث قال الواثقون فى نصر الله ، تشجيعاً للمؤمنين الباقين : لا تخافوا ، بل تشجعوا ، فإن النصر من عند الله ، ليس عن كثرة عَدد ولا عِدد .

فإذا توافر الصدق والإخلاص والثبات عند المؤمنين به ، المقاتلين فى سبيله ، الصابرين على نوال مرضاته : ينصرهم على عدوهم ، ويرضى عنهم ، ويرضيهم سبحانه :

وهنا .. تقدم الجميع بروح الثقة فى نصر الله .

*****

{ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }
[الآية ٢٥٠]

أي : ولما تواجه الفريقان ..

فريق الإيمان بقيادة طالوت ، وهم قلة .

وفريق الكفر بقيادة جالوت ، وهم كثرة : لجأت الأقلية المؤمنة إلى ربها ، واستعانت به وسألته قائلة : ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

{ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }
[الآية ٢٥١]

نعم .. كانت النتيجة .. هى انتصار الحق على الباطل ، وهزيمة الكفر أمام الإيمان .
بل .. أكثر من ذلك :
قتل جالوت الكافر الطاغية ، واحد من رعَّية "طالوت" وجيشه ،وهو "داود".
وداود هذا : أعطاه الله – بعد ذلك – الملك فى بنى إسرائيل ، كما أعطاه النبوة عليه السلام .
كما أنعم عليه – بسبب هذا البلاء فى الجهاد – أكثر من ذلك وأكثر ، حيث علمه الله مما يشاء .

* * *

وهكذا .. كان الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل ، أهل الإيمان وأهل الكفر .
ولولا أن الله يدفع ببعض المسلمين أذى المشركين : لغلب أهل الطغيان على الأرض ، وأذلوا العباد وخربوا البلاد .
ولكن الله ذو فضل على العالمين ؛ حيث لا يرضى ذلك ، ولا يترك الباطل وأهله يغلبون ، فيفسدون .
ثم يقول ربنا عز وجل لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ }
[الآية ٢٥٢]

هذه الآيات والأخبار والقصص نتلوها عليك وهى صادقة ، وإنك لمن المرسلين من عندنا .. بآياتنا للعالمين .

فلا تهتم بما يقوله الكفار عنك .. من أنك لست مرسلاً .

*****

يقول تعالى:

{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }
[الآية ٢٥٣]

أي : بتخصيص كل واحد منهم بفضيلة ليست بغيره ، فهم يستوون فى الرسالة ، ويتفاوتون فى الفضائل .
فمثلاً :
منهم : من فضله الله بتكليمه من غير واسطة ، كموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

ومنهم : من رفعه على سائر الأنبياء ، كمحمد صلى الله عليه وسلم .. بعموم دعوته ، وختم النبوة به ، وتفضيل أمته على سائر الأمم ..

إلى غير ذلك.

وكذلك :

أيدنا عيسى بن مريم بالآيات الواضحات .. كإحياء الموتى ، وشفاء المرضى بإذن الله .

وقويناه بجبريل ، يسير معه حيث سار .

هؤلاء الرسل جميعاً .. جاؤا برسالة واحدة ، ولهدف واحد ، وكانت دعوتهم للإيمان واضحة .

ولم يكن هناك ما يدعوا أممهم إلى أن يختلفوا حول هذه الرسالة وهذا الهدف وتلك الدعوة .

حقاً .. حقاً ..

كل شئ فى الكون .. بمشيئة الله تعالى .

وما شاء الله كان .. وما لم يشأ لم يكن .

نعم .

لو شاء الله هداية الناس جميعاً إلى الإيمان ، واتفاقهم على كلمة الحق: لهداهم ، واتفقوا ، وما اختلفوا اختلافاً يؤدى بهم إلى الاقتتال بينهم .. خاصة بعد أن جاءتهم الآيات البينات مع رسلهم تدعوهم إلى الإيمان .

ولكن .. لأنه لم يشأ ذلك .. فقد اختلفوا .. فمنهم من آمن وثبت على إيمانه ، ومنهم من ضل وكفر بعد وضوح الحق أمامه .

ثم كان من نتيجة هذا التخالف : أن تقاتلوا .

ولو شاء الله ما اقتتلوا

نعم ..

الله يفعل ما يريد ، فلا يقع فى ملكه إلا ما وافق مشيئته عز وجل ، وله سبحانه الإرادة المطلقة .

* * *

هذا ..

ولأن قتال أهل الباطل ، ومنع بغيهم ، وصد طغيانهم .. يحتاج إلى مال وإنفاق ..

فقد قال عز من قائل :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ }

[الآية ٢٥٤]

أمر للمؤمنين – فيه التشريف لهم بالخطاب الإلهى – أن ينفقوا مما رزقهم الله فى سبيل الخير .. كالجهاد ، والصدقات ، والنفقات الواجبة ، وغير الواجبة ..

ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم .. ليوم القيامة ، حيث لا فداء للنفس ، ولا صداقات تنفع ، ولا شفاعات للكافرين تشفع .

والكافرون بالله تعالى ورسله واليوم الآخر : هم الظالمون لأنفسهم أولاً ولغيرهم ثانياً .

وكذلك : المانعون دفع زكاة أموالهم ، والمنكرون شرع الله ، أو شيئاً منه ، بعد إيمانهم .. هم الظالمون .

*****

أيها الكرام ..

هيئوا أنفسكم ، وجهزوا قلوبكم وعقولكم .. لسماع أروع كلام عرفته البشرية ، عن الله عز وجل .

هيئوا أنفسكم ، وجهزوا قلوبكم وعقولكم .. لسماع أفضل آية فى القرآن ثواباً فى قراءتها وفهمها .

هيئوا أنفسكم ، وجهزوا قلوبكم وعقولكم .. لسماع سيدة أي القرآن .

آية الكرسى :

يقول تبارك وتعالى :

{ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }

[الآية ٢٥٥]

أيها الأحباب فى الله ..

قبل التفسير الموجز لهذه الآية الكريمة .. أقول لحضراتكم : سنتبع فيها طريقة السلف الصالح ، وهى المرور على ما فيها من مسميات من غير تكييف ولا تشبيه . وهذا هو الأجود والأسلم .

ويتضح كلامنا هذا فيما يلى :

الله لا إله يعبد بحق فى الوجود كله إلا هو عز وجل .

الحي الدائم البقاء ، فلا انتهاء له سبحانه .

القيوم القائم بتدبير شئون خلقه على وجه الكمال .

لا تأخذه سنة ولا نوم أي : لا تغلبه مقدمات النوم ولا ينام .

له ما فى السماوات وما فى الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وتدبيراً .

من ذا الذى يشفع عنده لا أحد مطلقاً إلا بإذنه له سبحانه فى أن يشفع .

يعلم ما بين أيديهم أي الخلق وما خلفهم حاضرهم ومستقبلهم ، فى أمر الدنيا وأمر الآخرة .

ولا يحيطون بشئ من علمه حيث : علمه سبحانه محيط بكل شئ ، والخلق لا تعلم شيئاً من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى ، أن يعلمهم به عن طريق الرسل عليهم السلام .

وسع كرسيه السموات والأرض أحاط علمه سبحانه وتعالى بهما ، وبما فيهما ، وبمن فيها .

ولا يؤوده حفظهما ولا يثقل ويشق عليه سبحانه حفظ السموات والأرض ، وما فيها ومن فيها .

وهو العلى فى ملكه وسلطانه العظيم فىعزه وجلاله .
أيها الأحباب ..
هذه الآية الكريمة – يقول العلماء – إنها اشتملت أمهات المسائل والقضايا الإلهية .
ولأن المقام لا يتسع لبيان وشرح هذا الكلام النفيس :
فإننا نواصل الحديث مع باقى الآيات الكريمة .

*****

حيث إنه عز وجل .. بعد بيان صفاته عز وجل فى هذه الآية الكريمة ..
بين : أن العاقل لا يحتاج إلى إكراه أو إجبار على الإيمان بالله ، واعتناق هذا الدين .. بل يختار ذلك من غير تردد .
حيث يقول تبارك وتعالى :

{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٢٥٦]

أي : لا إجبار لأحد على اعتناق الدين الحق ، وهو الإسلام .
إذّ ليس الإكراه على دين الله .. من دين الله .
حيث .. تَبيَّن الهدى من الضلال لكل أحد ، وتميز الإيمان من الكفر بالأدلة الواضحة .
فمن : تمسك بالحق ، وعقد لنفسه من الدين عقداً وثيقاً محكماً ، لا شبهة فيه، ولا انقطاع له ، ولم يطع : أيَّ طاغوت .. من : شرك بالله تعالى ، أو احتكام لغير الله ، أو طلب النصرة من سواه عز وجل .(فقد استمسك بالعروة الوثقى) من الدين .
والله سميع عليم فأسمعوه من أنفسكم خيراً ، وأعلموه من أنفسكم طاعة ، وأحكموا أمر الإيمان بالله ، والكفر بالطواغيت .

* * *

وبعد هذا ..
يحث ربنا تبارك وتعالى على الإيمان .. وذلك : ببيان فضله على أهله .
حيث يقول:

{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ٢٥٧]

نعم ..
الله عز وجل يتولى الذين آمنوا .. فيعزهم ، ويرفع قدرهم ، وينصرهم على أعدائهم .
وأفضل نصر لهم من الله .. أنه يخرجهم وينجيهم من الظلمات ، وهى كثيرة: كظلمة الكفر ، وظلمة النفاق ، وظلمة إتباع الشيطان والشهوات .
يخرجهم من كل ذلك : إلى نور الإيمان واليقين وحلاوة الطاعة .
أما الذين كفروا ..
فلا يتولاهم رب العزة برحمته ..!!
إنما يتولاهم بالإغواء والإضلال : أهل الطاغوت ، وما أكثرهم .. من شياطين الإنس والجن .
وأسوأ إضلال وإغواء لهم : أنهم يخرجونهم ويحرمونهم من نور الفطرة السليمة ، والعقل ، والإيمان .. ويدخلونهم فى الظلمات ، من الشك ، والشبهات ، والشهوات .
هؤلاء الذين كفروا .. هم أصحاب النار وأهلها ، وهم داخلوها ومخلدون فيها ، خلوداً أبدياً .

*****

ثم يبين ربنا عز وجل بالمثال العملى ، والقصة الواقعية .. كيف يتصدى الطاغوت لإضلال الكفار عن الهدى ، وإخراجهم من النور إلى الظلمات ؛ لأنهم أولياؤه .
حيث يقول تبارك وتعالى .

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٢٥٨]

أي : ألم تعلم يا محمد ما يدعو إلى العجب من أمر هذه الطاغية الذى آتاه الله الملك إنعاماً عليه من ربه ، ليشكر ، ولكنه كفر ، وجادل إبراهيم عليه السلام فى وجود الله تعالى وقدرته ؟
لما قال الطاغية لإبراهيم عليه السلام : من ربك هذا الذى تدعونا للإيمان به ..؟
قال إبراهيم مستدلاً على وجود الله بقدرته ربى الذى يحيى ويميت أي : يخلق الحياة والموت .
ولم يفهم ذلك الطاغية ، حيث قال :
أنا أحيى وأميت أي آمر بالقتل وأعفو عنه .
ودعا برجلين ، فقتل أحدهما، وترك الآخر .
فلما وجد نبى الله عليه أنه غبى ، ولم يفهم بعد ، انتقل إلى دليل آخر .
وهنا :

دهش وتحير .. حيث إن الحجة قوية ، والدليل واضح ، ولم يهتد إلى رد على هذا الدليل .
ولهذا لا يوفق الله الظالمين ، ولا يلهمهم حجة فى مناقشة أهل الحق ..
ولذلك : يلجؤن فى الغالب إلى القوة والبطش .

*****

ثم يبين ربنا عز وجل – كذلك – بالمثال العملى ، والقصة الواقعية ، ولاية الله للمؤمنين ، وهدايته لهم . فى قوله تعالى :

{ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ٢٥٩]

أي : ألم تعلم يا محمد ما يدعو إلى العجب من أمر هذا الرجل ، الذى مر على قرية خالية خربة ، ليس فيها أحد من السكان ، فقال : كيف يحيى الله هذه القرية ، بعد أن خربت ، ولم يبق سكن ولا ساكن ؟
فأماته الله بقدرته سبحانه ، وأحياه بعد هذه المدة الطويلة
ثم ..
سئل عن المدة التى مكث فيها ..؟
فقال باجتهاده يوماً أو بعض يوم
إذّ يبدو أنه مات فى الضحى ، وبُعث قبل غروب الشمس ، فظنها شمس نفس اليوم .
وكانت المفاجأة له أن عرف أنه : فى تلك الحال مائة عام ، وليس يوماً أو بعض يوم ، كما ظن
وأراه رب العزة أمرين عجيبين يدلان على ذلك :
طعامه الذى كان معه .. لم يتغير ..!!
وحماره الذى كان يركبه .. نخرت عظامه ، وتفرقت .
حيث قال له .
(فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ) لم يتغير بقدرتنا .
أيضاً .
وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس .
أي : كيف أصبحت عظامه ناخرة ، وكيف تفرقت وتبعثرت .. ؟
كل ذلك :
لنجعل إحياءك ..!!
وإبقاء طعامك لم يتغير ..!!
وإعادة حمارك إلى الحياة ..!!

آية للناس ودليلاً على البعث الذى ينكرونه ، ولا يستعدون بالإيمان والعمل الصالح له .

وتعال معنا .

وانظر بنفسك إلى العظام الناخرة لحمارك كيف نحركها ، ونركبها مع بعضها البعض ، ثم نكسوها هذه العظام لحماً ، ثم نعيدها إلى الحياة ؟

وهكذا ..

لما تبينت له قدرة الله ، ورأى آثارها .. نطق بالكلام الطيب ، النابع من القلب الطيب ، قائلاً اعلم أن الله على كل شئ قدير .

*****

أيها الكرام ..

يسوق ربنا عز وجل أدلة أخرى على البعث ، وضرورة الإيمان بالله ، وقدرته .

حينما يقول كذلك .

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

[الآية ٢٦٠]

أي : واذكروا وقت أن سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه كيف يحى الموتى – ليس عن شك أو تعنت .

قال له ربه – وهو يعلم أنه أثبت الناس إيماناً – أوَ لم تؤمن .

أجاب إبراهيم عليه السلام بالإيجاب .

ولكنه يحب أن يرى ، ليزداد بالمشاهدة يقيناً على يقين ، وإيماناً على إيمان ، وطمأنينية فوق طمأنينة .

وحقق له ربه ما أراد .

وقد فعل عليه السلام ..

وازداد يقينه بهذه المشاهدة .

وازداد علمه بأن الله عزيز ، لا يغلبه شئ ، ولا يمتنع منه شئ حكيم فى أقواله ، وأفعاله ، فى شرعه ، وفى قدره ، سبحانه وتعالى .

* * *

أيها الأحباب فى الله ..!!

بعد الحديث عن قدرة الله تعالى على الإحياء ، المذكر بإحياء الله الناس يوم القيامة للجزاء ، على الخير خيراً ، وعلى الشر بمثله .

يكون الحديث : حول بيان جزاء الإنفاق فى سبيل الله يوم القيامة .. الذى أمر به المولى عباده ، فى قوله لهم من قبل يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة .

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }

[الآية ٢٦١]

وهذا مثل يضربه الله تعالى لبيان مضاعفة الثواب لمن أنفق فى سبيل الله ، وأن الحسنة يتضاعف ثوابها إلى سبعمائة ضعف ، ويزيد الله على ذلك لمن يشاء ؛ بحسب إخلاص كل واحد فى عمله وإنفاقه .

وفضل الله واسع وكثير ، والله عليم بمن يستحق هذا الفضل ممن لا يستحق.

* * *

ثم يمدح تبارك وتعالى ، الذين ينفقون فى سبيل الله ، ثم لا يتبعون إنفاقهم هذا بالمن على من أحسنوا إليه ولا بالأذى لمن أعطوه .

قائلاً عنهم :

{ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }

[الآية ٢٦٢]

ن عم ..

هؤلاء قوم أفاضل مخلصون .. لا يضيع ثوابهم .

إذ .. لهم أجرهم الجزيل عند ربهم القائل إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً .

ولا خوف عليهم فيما هو آت من ضياع الأجر ، أو نقصانه فى الآخرة ، أو خوف من العذاب .

ولا هم يحزنون على ما فات فيما مضى من الدنيا ، أو السيئات التى أبدلهم الله إياها بحسنات .

*****

{ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ }

[الآية ٢٦٣]

أي : كلام حسن ، ورد طيب على السائل ، ومغفرة وصفح عن الحاجة فى طلب الصدقة : أفضل عند الله من صدقة تدفع ثم يتبعها كلام يؤذى ويجرح المشاعر .

ولا حاجة لله تعالى إلى متصدق يمن ويؤذى .

وهو سبحانه حليم عن المعاجلة بالعقوبة لمن يحدث منه منّ أو إيذاء .

* * *

وبعد هذا البيان الإلهى والتوجيه الربانى فى موضوع الإنفاق ..!!

ينهى ربنا أن نبطل صدقاتنا نهائياً ، ونضيع ثوابها .. بهذا المن وذلك الأذى ..

فيقول عز من قائل :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْــهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }

[الآية ٢٦٤]

نعم ..

الذى يُتبع صدقته بالمن والأذى : يبطل ثوابها مثل المرائى بعمله ، يقصد به ثناء الناس ، أو النفع منهم ؛ حيث لا يقصد به وجه الله تعالى ، لأنه لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

ثم يضرب الله مثالاً آخر لهذا المُتْبع صدقته بالمن والأذى : بالصفوان الذي عليه تراب ، فغسله المطر ، ولم يبق منه شيء .

الصفوان : هو الحجر الأملس .

والوابل : هو المطر الشديد .

والصلد : هو الحجر الأملس – كذلك – وليس عليه شئ .

أي : مثله كحجر أملس عليه تراب ، نزل عليه المطر الشديد ، فتركه خالياً ليس عليه شئ من تراب أو ماء أو نبات .

وهكذا ..

لا يجد المتبعون صدقاتهم بالمن والأذى ، والمراؤن بأعمالهم ، ثواباً فى الآخرة لما أنفقوه وعملوه.. كما لا يحتفظ هذا الحجر بشئ بعد نزول المطر عليه . ولا هداية لهم والله لا يهدى القوم الكافرين .

*****

أما الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، ولا يتبعونها بالمن والأذى .. فهذا مثلهم .

{ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

[الآية ٢٦٥]

أي هؤلاء مثلهم : كأصحاب بستان فى مكان عال ، كثير الشجر ، حلو الثمر .. إن أصابه مطر شديد : أعطى من الثمار الضعفين ، وإن لم يكن مطراً شديداً : أنتج الإنتاج الطيب العادى بسبب الطل ، وهو المطر الخفيف ، الذى ينزل عليه بسبب ارتفاع موقعه .

والمراد : أن نفقات الصالحين .. تزكو عند الله ، ويبارك فى ثوابها قلّت أو كثرت .. مثل ثمار هذا البستان .. الذى يؤتى خير الثمار قل المطر أو كثر عليه .

والله بما تعملون من خير أو شر بصير يرى أعمالكم ونياتكم ، فيجازيكم على الخير خيراً ، وعلى الشر شراً .

وهكذا : عمل المؤمن .. لا يبور أبداً .. بل يتقبله الله وينميه ، ويجازى بالخير عليه .

* * *

ثم ينكر المولى أن يكون المؤمن .. ممن يعملون الحسنات ثم يغرقونها بالسيئات ؛ فيبطلون ثوابها ، ولا تنفعهم عند الشدة والحاجة .

إذ يقول تبارك وتعالى :

{ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ }

[الآية ٢٦٦]

هل يحب أحد منا – أيها الكرام المستمعون والمستمعات – أن يكون مثل هذا .

كلا والله – أبداً أبداً .

وهكذا ..

يبين لنا ربنا عز وجل : آياته وتعاليمه وأحكامه ، من أجل أن نعرف ، ونتفكر ، ونعتبر ، ونمتثل .

*****

أيها الأخوة والإخوات ..

لما رغب الله تعالى فى الإنفاق الخالص عن الشوائب : أتبع ذلك .. بيان المال المنفق منه .

فقال :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ }
[الآية ٢٦٧]

يأمر الله عباده المؤمنين بالإنفاق من أطيب المال ، وينهاهم عن التصدق برديئه وخبيثه .. حيث إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .

وأمرهم أن يعلموا أنه عز وجل غنى عن جميع خلقه ، وأنه المحمود فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه .

* * *

ثم يبين جل وعلا : سبباً من أسباب البخل .
حيث يقول :

{ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٢٦٨]

بالخطاب الإلهى ، والعطف الربانى : يُقْبِل الله على عباده محذراً لهم من عدوهم القديم .... وهو الشيطان .

الذى يخوفنا .. عند الرغبة فى الإنفاق فى سبيل الله من الفقر ؛ حتى نمسك ما بأيدينا من رزق الله ، فلا ننفقه فى طاعة .

ومع نهى الشيطان لنا عن الإنفاق ..!!

يأمرنا بالمعاصى والفحشاء ومخالفة الله تعالى .

وفى مقابلة ما يأمرنا به الشيطان : يعدنا الله بفضله ومغفرته .. إذا أطعناه سبحانه ، وامتثلنا لأوامره ، وخالفنا هذا الشيطان اللعين .

يعدكم ربكم وعداً حسناً .. على الإنفاق : مغفرة منه لذنوبكم وفضلاً أي : رزقاً حسناً .

فهو سبحانه واسع الفضل عليم بالقصد ، فيجازى بما يستحقه العبد .

* * *

هذا ..
ومن سعة فضله كذلك .. أنه :

{ يُؤتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ }
[الآية ٢٦٩]

والحكمة .. هى وضع الأمور فى مواضعها الصحيحة .
وهذا .. لا يكون إلا فقه فى دين الله ، مع توفيق – كذلك – من الله .
فلا يقول الإنسان كلمة : إلا فى محلها .
ولا يعمل عملاً : غير مناسب .
وذلك فى كل شئ .
فى إطار تعامله .. مع زوجته ، وأولاده ، وأهله ، وأقاربه ، وجيرانه ، وعمله ، ومسئولياته .. سواء أكانت على مستوى ضيق أم واسع .

* * *

ثم يخبر ربنا تبارك وتعالى .. أنه عالم بجميع ما يفعله أصحاب الطاعات.
حيث يقول :

{ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ }
[الآية ٢٧٠]

أي : يعلم به ، وبنية صاحبه فيه ، ويتقبله إن كان خالصا فيه لوجهه تعالى ، ويجازي عليه بأفضل منه .
وأما الذين لا يعملون بطاعته ، ويخالفون أوامره : فليس لهم من ينقذونهم من غضب الله عليهم ، وعذابه لهم يوم القيامة .

* * *

ثم يكون الثناء الإلهى – من باب الترغيب – على صدقة السر ، وصدقة الجهر .
إذ يقول سبحانه:

{ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }
[الآية ٢٧١]

ونشعر أن صدقة السر بهذا التعبير خير لكم أفضل ؟ لما فيها من البعد عن الرياء ، وكسر قلوب آخذى الصدقات .

ومع ذلك ..

ففى كل خير ..

حيث إنه من وسائل تكفير السيئات : بذل الصدقات .

مع التأكيد على : سلامة القصد ، وتوافر الإخلاص

حيث لا يخفى عليه – سبحانه – السر والجهر ، والنية الحسنة والقصد السئ .

ويجازى الكل بما يناسبه .

*****

ثم ينبه ربنا تبارك وتعالى .. على أمر هام ..

وهو عدم ربط دفع الصدقات بموضوع الهداية

إذ علينا ..

أن نتصدق ولو لم يترتب على ذلك هداية من نتصدق عليهم ، حتى ولو لم يكونوا مهتدين .

وهذا فى غير الزكاة وصدقة الفطر ، حيث لا يجوز دفعها لغير المسلمين .

يقول عز وجل

{ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ }

[الآية ٢٧٢]

عن ابن عباس رضى الله عنه .. قال : كانوا يكرهون أن ينفقوا على أقاربهم من المشركين ..!!

فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

فنزلت هذه الآية .

فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين .

الله أكبر ..!!

يا لها من عظمة فى هذا الدين ..!!

وهذا – كما قلنا – فى صدقة التطوع .

وإذا صحت الصدقة على غير المسلم بهذا الشكل : فمن باب أولى تصح على الفاسق المسلم .

ثم ينبه ربنا تبارك وتعالى :

على أن الذي تنفقونه من مال وتتصدقون به .. فثوابه لكم .

ولذا ..

ينبغى عليكم : أن تخلصوا النية لله فى إنفاقكم ، ولا تروا لأنفسكم فضلاً على من تنفقون عليهم .

وكذلك ..

إذا أعطيت لوجه الله : فقد وقع أجرك على الله ، ولا عليك لمن وصلت النفقة .. صالح ، أو فاسد مستحق ، أو لا يستحق ، المهم أنك مثاب من الله تعالى على قصدك .

حيث إن : ما تتصدقون به .. من مال ، أو أى خير .. يوفِكم الله ثوابه أضعافاً مضاعفة ، دون أن تنقصوا منه شيئاً .

ولذا :

لا عذر لكم .. أن تتكاسلوا عن الإنفاق .

ولا عذر لكم .. أن لا يكون إنفاقكم على أحسن الوجوه وأجملها .

*****

هذا ..

ولئن كان رب العزة .. قد أباح لنا أن ننفق ونتصدق : على كل خلق الله ..!!

فلقد نبهنا وحثنا على أن نخص بها الأولى والأهم ..!!

وهم : الأقرب ، والأتقى لله ، والأورع .

حيث يقول تبارك وتعالى :

{ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }

[الآية ٢٧٣]

أى : الأولى أن تدفعوا صدقاتكم .. للفقراء الذين اتصفوا بهذه الصفات ، أو بعضها .

وهى :

الإحصار فى سبيل الله ؛ بسبب الجهاد الذى يمنعهم من التفرغ للعمل .

العجز عن العمل والكسب ؛ بسبب انقطاعهم للعلم ، أو عدم الحيلة .

التعفف عن طلب الصدقة ؛ بسبب الخجل وشدة الحياء ، مع شدة عوزهم

العلامة الدالة على الفقر ؛ مع عدم الإلحاح فى طلب الصدقة .

ثم .. الفقراء بصفة عامة ، فيما بعد .

ثم يشجع الله القادرين على الإنفاق .

مبينا أنه : لا يخفى عليه شئ من هذا الإنفاق ، قل أو كثر ، وأنه سيجازى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة والمنفق أحوج ما يكون إلى ثواب إنفاقه .

وبعد هذا التشجيع : يكون الثناء الإلهى .. على الذين ينفقون فى سبيله وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات والأحوال .

حيث يقول عز من قائل :

{ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }
[الآية ٢٧٤]

نعم ..

الذين ينفقون أموالهم فى كل الأحوال ، والأوقات ، لحرصهم على الخير ، ومرضاة الله تعالى .. مسرين بنفقتهم ومعلنين ، فى ليل أو نهار .

إذ كلما عرفوا حاجة محتاج ، أو سئلوا فيها .. عجلوا قضاءها ولم يؤخروها .. دون تعلل بوقت أو حال أو ظروف ..!!

هؤلاء : لهم أجرهم عند ربهم ، لا يضيع ولا ينقص أبداً .

وأيضاً : لا خوف عليهم فيما هو آت ، ولا هم يحزنون على ما فات .

*****

أيها الفضلاء والفضليات ..!!

لما ذكر الله تعالى – فيما استمعنا إليه – الأبرار الصالحين المخرجين للزكوات ، المتفضلين بالصدقات لذوى الحاجات والقرابات ، فى جميع الأحوال والأوقات :

شرع جل وعلا .. فى ذكر الأشقياء الفاسدين .. أكلة الربا ، وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات .

حيث يقول سبحانه :

{ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ٢٧٦]

أى : أن الذين يأكلون الربا .. لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلى بعثهم ونشورهم .. إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له .

والسبب في ذلك : هو اعتراضهم على أحكام الله فى شرعه .

إذ شبهوا الربا بالبيع ، والبيع بالربا ، وكأنه لا فرق بينهما .

مع علمهم بتفريق الله بين البيع والربا .

فالبيع : مباح .

والربا : محرم ، أفظع التحريم .

وهذا التحليل والتحريم : من الله العليم الحكيم ، الذى لا معقب لحكمه ، والذى يعلم حقائق الأمور ، وما ينفع منها وما يضر .

ولذا ..

فمن بلغه حكم تحريم الربا ، ونَهْىَ الله عنه : فانتهى ؛ فله ما كان أكل من الربا قبل بلوغه الحكم ، أو قبل التحريم ، ولا إثم عليه .

أما من بلغه الحكم ، وعرف نهى الله عن الربا : واستمر على أكل الربا والتعامل به ؛ فقد قامت عليه الحجة ، واستحق العقوبة ، وسيخلد فى النار .

* * *

ثم يبين ربنا عز وجل .. أنه يعامل آكل الربا بخلاف غرضه ومقصوده من حاله .
حيث يقول تبارك وتعالى:

{ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ }
[الآية ٢٧٦]

وفى هذه الآية الكريمة : يخبر ربنا سبحانه وتعالى أنه يمحق الربا ، أى : يذهبه من يد صاحبه .. إما كلية بضياعه ، أو خسارته ، أو يحرمه بركة هذا المال ، فلا ينتفع به .. بل يعذبه الله به فى الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة .

وذلك : لأن آكل الربا .. لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ، ولا يكتفى بما شرع الله له من التكسب المباح ، ويسعى فى أكل أموال الناس بالباطل.

فهو .. جحود لما عليه من النعمة ، ظلوم آثم ، يأكل أموال الناس بالباطل ، كفور القلب بشرع الله تعالى ، أثيم القول والفعل .

والله لا يحب كل كفار أثيم .

*****

وبعد هذا الوصف المخيف .. لحال آكل الربا يوم القيامة ..!!
وبعد هذا التخويف الشديد ، والخسارة الفادحة .. من أكل الربا ..!!
يمدح الله المؤمنين بربهم ، المطيعين أمره ، المحسنين إلى خلقه ..!!
ويخبر عما أعد لهم من الكرامة فى يوم القيامة .
إذ يقول تبارك وتعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }

[الآية ٢٧٧]

أى : أن من اجتمعت لهم ، وتحققت فيهم هذه الصفات ..
وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة .. وبالطبع عدم مخالفة شرع الله وأكل الربا ..!! كان لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

* * *

ثم يأمر ربنا جل وعلا عباده المؤمنين .. بتقواه وينهاهم – كذلك عما يقربهم من سخطه ، ويبعدهم عن مرضاته .
حيث يقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ٢٧٨]

أى : خافوا غضب الله ، وراقبوا ربكم فيما تفعلون ، وما تتركون .
وتوقفوا عن التعامل بالربا فور معرفتكم حكم تحريمه ، ولا تستحلوا ما لكم من الزيادة على رؤوس الأموال ..!!
إن كنتم مؤمنين بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا .

*****

ثم يهدد ربنا تهديداً شديداً بوعيد أكيد مخيف .. لمن يستمر على التعامل بالربا بعد هذا التحريم الواضح ، والإنذار القوى .
قائلاً :

{ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ }
[الآية ٢٧٩]

يا ألله ..!!
حرب من الله ورسوله لآكل الربا ..!!
من يطيق ذلك ..؟
بل .. من العاقل الذى يسمع ذلك .. ثم لا يترك نهائياً التعامل بالربا .

اللهم نجنا من عذابك ..!!
وأبعدنا عن كل ما يغضبك علينا من قول وعمل يا رب العالمين ..!!
يا من تفتح باب التوبة :
لمن آمن :
بحرمة الربا ، وتوقف عن التعامل به ؛ حيث تقبل توبته ، وتغفر له خطيئته .
أما بالنسبة للأموال :
فلكم رؤس أموالكم خذوها .. دون الزيادة عليها ، وكذلك دون نقص منها.

* * *

هذا ..
وفى حال توقفكم عن التعامل بالربا ، ورغبتكم فى أخذ رؤس أموالكم .. قد يكون المدين لكم معسراً .
فماذا يكون العمل ..؟
يقول تعالى :

{ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٢٨٠]

أى : لا تفعلوا مثل ما كان يفعل أهل الجاهلية .. يقول الدائن للمدين : إما أن تدفع ، أو تزيد على رأس المال .
بل عليكم بالصبر على المعسر ، الذى لا يجد ما يسدد به دينه ، إلى ميسرة، ييسر الله له فيها حاله .
بل يدعو الإسلام إلى أكثر من هذا .
حيث يدعو إلى التصدق علي المدين المعسر .
الله ..!!
الله على روعة الإسلام ..
يدعو إلى التصدق على المدين ، إما بإسقاط الدين كله ، أو بعضه .
وهذا فيه خير كثير يوم القيامة لمن يفعله ، وهو يوقن بصلاحية هذا الحكم، وثواب عمله ، ويلتزم به .
يقول الحبيب صلى الله عليه وسلم : من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ، فلييسر عن معسر ، أو ليضع عنه .

*****

بعد هذه الأحكام ..!!
وبعد هذه التربية الإيمانية الربانية للشخصية والنفسية المسلمة ..

وامتداداً لها كذلك .

يعظ ربنا تبارك وتعالى عباده ، ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، وإتيان الآخرة ، والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ومجازاتهم إياه بما كسبوا .

قائلاً :

{ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }
[الآية ٢٨١]

يروى أن هذه الآية – فيما هو الراجح من الأقوال – آخر آية نزلت من القرآن الكريم .

* * *

هذا ..

ولما حرم الله الربا .. فقد فتح أبواباً من التعامل المادى الحلال تحل محله.

ومن ذلك : البيوع ، والقرض الحسن ، والمضاربة إلى غير ذلك .

وهو فى ذات الوقت : يذكر نموذجاً للمعاملات المنضبطة فى النظام الإسلامى ، وبيان أحكامه .

كل ذلك وغيره فى آية الدين ، وهى أطول آية فى كتاب الله تعالى .. وهى قوله عز وجل :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآية ٢٨٢]

لأن الكتابة : أوثق ، وآمن من النسيان ، وينتفى معها الجحود والإنكار .

وليكتب الكاتب بالحق فى كتابته ، لا يزيد فى المال والأجل ، ولا ينقص . ومن هنا ينبغى أن يكون : أميناً دَيِّناً ، يخاف الله تعالى .

ولا ينبغى أن يمتنع واحد من الذين يكتبون أن يكتب مثلما علمه الله من شرعه فى كتابة الوثائق .

فليكتب الكاتب ، كما علمه الله دون تبديل أو تغيير ، وليملى عليه المدين نفسه ، ليكون إقراراً على نفسه بلسانه .

وليتق الذى عليه الدين ربه .. فلا يمتنع عن الإملاء ، ولا ينقص من الحق الذى عليه شيئاً .

وإذا كان المدين لا يستطيع إملاء الكاتب الدين ؛ بسبب .. السَّفه ، أو الضعف ، أو عدم درايته : قام الذى يلى أمره بهذا الإملاء ، على وجه الصدق والحق .

ثم ..

على كتابة الدين يكون الإشهاد .. من العدول ، الذين يرتضيهما الطرفان الدائن والمدين .

وهؤلاء الشهود إما رجلين أو رجل امرأتين ، عند عدم توافر وجود الرجلين .

واشتراط المرأتين بدل الرجل : مخافة النسيان من إحداهما ، بسبب قلة الخبرة ، أو الانفعال ، أو الانشغال بالأمور النسائية الطبيعية .

وإذا طُلِب الشهداء لأداء الشهادة : فلا يمتنعوا حتى لا تضيع الحقوق .

كما أن أداء الشهادة : فرض كفاية .

ولا ينبغي : أن تملوا من كتابة هذه الديون إلى آجالها المضروبة ، صغيرة كانت هذه الديون أو كبيرة ، كثيرة هذه الكتابة أو قليلة .

وهذه الكتابة للدين على هذا النحو :

أعدل عند الله وأعون على إقامة الشهادة .

وأبعد للشك .

أيها الكرام ..

هذا المأمور به من الكتابة للدين ؛ بسبب البيع الآجل .

أما إذا كان البيع حاضراً : فلا بأس بعدم الكتابة ؛ لأنهم لو كلفوا الكتابة فى مثل هذه التجارة – مع كثرة حدوثها – لشق عليهم ذلك .

كما أنه : لا حاجة إلى الكتابة ، حيث إن كل طرف يأخذ حقه فى المجلس، وينتهى الأمر .

هذا تيسير الله تعالى وترخيصه فى الكتابه

أما فى الأشهاد :

فهو فى البيع : مندوب فى كل حال .

ولا ينبغى : أن تتسبب الكتابة أو الشهادة لصاحبها فى الضرر على أية حال .

والنهي عن الضرر – المذكور في الآية – في ذات الوقت نهى للكاتب والشاهد عن الامتناع عن أداء ما يطلب منهما .

وإن تفعلوا الضرر – على أى نحو كان – فإنه – خروج منكم عن طاعة الله تعالى ، لا حق إثمه بكم .

ختاما : خافوا وراقبوه .. فى امتثال أمره ، واجتناب نهيه .

و الله يعلمكم – بما مضى – مصالح أموركم ، وشرائع دينكم .

وهو سبحانه : شئ عليم ، لا يلحقه سهو ، ولا قصور

وهكذا .. أيها الإخوة والأخوات .

تنتهى آية الدين .

ويلاحظ فيها : البسط الشديد ، و التوضيح والتأكيد .

وكل ذلك يدل على : المبالغة فى التوصية بحفظ المال الحلال ، وصونه عن الهلاك ؛ ليتمكن الإنسان بواسطته من الإنفاق فى سبيل الله ، والبعد عن ما يغضب الله فى التعاملات من الربا وغيره .

وكذلك : المواظبة على تقوى الله ومراقبته سبحانه .

*****

هذا ..

وإذا كنا فى حالة سفر ، وتَدايَنَّا إلى أجل مسمى ..!!

فليقول ربنا جل وعلا :

{ وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }

[الآية ٢٨٣]

أى : إذا لم تتيسر كتابة الدين فى هذه الحال : فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة ؛ تستوثقون بها ، لضمان هذا الدين .

فإذا توافر الأمن وحسن الظن من الدائن فى المدين :

فليؤد المدين دينه للدائن .

ونلاحظ في الآية :

أولاً : أن المولى سبحانه .. سمى الدين أمانة ، مع أنه مضمون على خلاف الأمانة .

وذلك : لأن الدائن إئتمن المدين عليه بترك أخذ الرهن منه .

ثانياً : فى الآية حث على أن يكون المدين عند حسن ظن الدائن ، وأن يؤدى الحق الذى عليه .

وليتق الله ربه .. فلا ينكر حقاً .

ثم توجه المولى تبارك وتعالى بالخطاب إلى الشهود : مطالبهم بعدم كتمان الشهادة .

والكلام – فى ذات الوقت – خطاب للمديونين أيضاً .. من حيث إن شهادتهم على أنفسهم هى الإقرار بالدين ، والاعتراف به .

وخص القلب بالذكر آثم قلبه لأنه محل الشهادة .

وكتمانها : أن يضمرها فى قلبه ، ولا يتكلم به .

ولأن القلب إذا أثم : تبعه غيره .

والله تعالى بما تعملون أداءً للشهادة ، أو كتماناً لها عليم لا يخفى عليه شئ ، وسيجازى كل واحد بما عمل .

*****

ثم يبين لنا ربنا عظم شأنه : سعة علمه .. بسعة ملكه .

إذّ يقول :

{ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

[الآية ٢٨٤]

ما فيهن ، وما بينهن .. خلقاً ، وملكاً ، وتصرفاً .

لا تخفى عليه الظواهر ، ولا السرائر والضمائر ، وإن دقت وخفيت ، سبحانه وتعالى .

وهو – عز وجل – المحاسب لعباده على ما فعلوه ، وما أخفوه فى صدورهم .

أيها الأحباب فى الله ..!!

معنى الآية : وإن تظهروا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسكبم به الله يوم القيامة .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة : اشتد ما فيها على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخافوا من محاسبة الله لهم ، وذلك بسبب قوة إيمانهم ويقينهم .

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله ..!! كلفنا من الأعمال ما نُطيق .. الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة .

وقد أنزل عليك هذه الآية .. ولا نطيقها ..!!

فقال صلى الله عليه وسلم : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا .. ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

فلما قرأها القوم ، ولانت بها ألسنتهم : أنزل الله تعالى آمن الرسول بما أنزل الله إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

فلما فعلوا ذلك : أنزل الله تعالى لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. الآية .

ونُسِخَ قوله تعالى وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله .

* * *

وإلى هنا أيها الإخوة المستمعون والأخوات المستمعات ..

وتكون السورة قد انتهت .. وما بقى إلا خاتمتها فى آيتين كريمتين .

*****

فى الآية الأولى يبين الله سبحانه موقف النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الأحكام والتشريعات ، والعقائد ، والأخلاق ، والمعاملات ، التى ذكرتها هذه السورة .

فيقول تبارك وتعالى :

{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }

[الاية ٢٨٥]

والآية كما نرى :
وصفت النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، هذا الوصف الجامع الطيب..
فهم :
مصدقون ، سامعون ، مطيعون ، شاعرون بالتقصير ، طالبون للمغفرة ، مشفقون من المصير .
وهى – كما هو واضح – أحاطت بصفات المؤمنين – إحاطة كاملة ، شاملة .
ولذلك : يروى أنه لما نزلت هذه الآية .. قال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم "إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك .. فسل تعطه .. " .

* * *

وفى الآية الثانية من آيتى الخاتمة :
وصف الله عز وجل .. شأنه ، وعدله .
فقال :

{ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }
[الاية ٢٨٦]

أي : لا يكلف الله بما فوق الطاقة والوسع ، ولا يحاسب عليه ، وكل نفس لها ثواب ما كسبت من خير ، وعليها وزر ما كسبت من شر .
وبعد رفع الحجر عن عباده ، والتيسر عليهم : علمهم كيف يدعونه ، وتكفل لهم بالإجابة .
حيث يقول لهم قولوا :

{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا }

أي : من غير قصد منا وتعمد .

{رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ }

من الأعمال الشاقة ، والأحكام العسيرة ، التى لا نطيقها .
وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا
أمح سيئاتنا ، واستر ذنوبنا ، وأحسن إلينا بما أنت أهل له .
والمذنب يحتاج – كما يقولون – إلى ثلاثة أشياء :
أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه .

وأن يستره عن عباده فلا يفضحه بينهم .
وأن يعصمه فلا يوقعه فى الذنب مرة أخرى .
ثم قولوا :
أنت ولينا ، عليك توكلنا ، وبك استعنا : فانصرنا على من جَحَد دينك ، وعادى نبيك ، وحارب أولياءك .
واجعل لنا العاقبة عليهم فى الدنيا والآخرة .

* * *

وبعد ..
فأى خاتمة أعظم من هذه الخاتمة .
التى أحاطت بصفات أهل الإيمان .
ووصف الله تعالى بما يليق بذاته من فضل وعدل .
وعلمتنا العبودية لله بهذه الدعوات ، التى أحاطت بالخير كله .
وهكذا ..
تنتهى أيها الأحباب .. سورة البقرة بوصف المؤمنين بصفات أهل التقوى الذين قالوا سمعنا وأطعنا .
بعد أن بدأت بهم صراحة .. بوصفهم فى قوله تعالى ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين .
ندعو الله تعالى .. أن يجعلنا جميعاً منهم .. آمين .. فاللهم آمين .. يا رب العالمين .
ختاماً ..
يقول الحبيب صلى الله عليه وسلم : اقرأوا القرآن .. فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرأوا الزهراوين – البقرة وآل عمران – فإنهما تأتيان يوم القيامة .. كأنهما غمامتان – أو غيايتان – أو كأنهما فِرْقان من طير صواف، يحاجان عن أصحابهما يوم القيامة .. اقرأوا سورة البقرة .. فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة أي : السحرة [رواه : مسلم].

*****

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحى الفرماوى
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران – أيها الكرام – مدنية .

لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية : نزلت فى وفد نصارى نجران ، الذين قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فى العام التاسع من الهجرة النبوية الشريفة.

وهى تهدف إلى : بيان أمرين هامين ، وترسخهما بجلاء فى أذهان الجماعة المسلمة ، وهى تعدها لحمل الأمانة فى دنيا العالمين .

وهما :

توضيح العقيدة الإسلامية ، وإقامة الدلائل على وحدانية الله تعالى .

عرض مباهج الشريعة الإسلامية ، وبخاصة فيما يتعلق بالجهاد فى سبيل الله .

وإذا كانت سورة البقرة : قد ناقشت اليهود ، وتحدثت عنهم ..!!

فإن هذه السورة : تناقش النصارى ، وتتحدث عنهم .

تعالوا بنا أيها الأحبة .. نقرأ آيات السورة الكريمة .

{ الم * اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ }
[الآيات ١ ، ٢ ، ٣]

أي : نزّل القرآن عليك يا محمد ، بالحق الذى لا شك فيه .

وهو مصدق بما فيه للكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء .

وهى – كذلك – تصدقه ، بما أخبرت به ، وبشرت فى قديم الزمان .

وأنزل الله التوراة – أيضاً – على موسى بن عمران .

وأنزل – كذلك – الإنجيل ، على عيسى بن مريم .

{ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ }
[الآية ٤]

أي : أنزل الله التوراة والإنجيل من قبل القرآن ، هدى للناس فى زمانهما ، ممن تبعهما .

ثم أنزل القرآن بعد ذلك ؛ هداية للناس : جميعاً .

وفارقا بين محلية الدعوة وعالميتها .

وفارقا – كذلك – بين الحق والباطل بالدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات .

إن الذين جحدوا بآيات الله من القرآن وغيره ، وأنكروها ، وردوها بالباطل: لهم عذاب شديد يوم القيامة .

والله عزيز منيع الجناب ، عظيم السلطان .
ذو انتقام .. ممن عصاه ، وكذب بآياته ، وخالف رسله الكرام ، وأنبياءه العظام .

*****

ثم تبدأ الآيات فى الرد على وفد نصارى نجران .. بأسلوب المربى الحكيم .
فيقول تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء }
[الآية ٥]

نعم .. هذا هو الله سبحانه وتعالى : يعلم غيب السموات والأرض ، لا يخفى عليه شئ فيهما ، ولا منهما .
وأما عيسى الذى كان يخبر ببعض الغيب : فإنه يخفى عليه كل الغيب بعد ذلك ، ولهذا فليس بإله كما تزعمون .

وأيضاً فإن الله سبحانه وتعالى :

{ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية ٦]

وعيسى لا يفعل ذلك ، ولا يقدر عليه ، بل هو نفسه صوره الله فى الرحم .
ولهذا : فهو من جملة خلقه ، وليس بإله ، كما تزعمون .

* * *

أما العزيز فى سلطانه ، الحكيم فى تدبيره ..!!
فإنه : يخبر تبارك وتعالى أن فى القرآن آيات محكمات واضحات الدلالة هن أم الكتاب أي : أصله الذى يرجع إليه عند الاشتباه .
وأنه فيه آيات أخر متشابهات أي : تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئاً آخر .
وفى هذا : بيان ودلالة على إحاطة علمه سبحانه .

يقول عز وجل :

{ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ }
[الآية ٧]

عزيزى القارئ الكريم : لقد فهمت من هذه الآية الكريمة .. أن آيات القرآن فيها المحكم وفيها المتشابه .
ولعلك تعرف – كذلك – ما يفيد أن : كله محكماً ، كقوله تعالى كتاب (أحكمت آياته) [هود ١] فلا تنزعج ؛ حيث إن المعنى فى الآية : أنه ليس فيه عيب.
ولعلك تعرف – أيضا – ما يفيد أنه : متشابه كله ، كما فى قوله عز وجل الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً [الزمر ٢٣] .. فلا : تنزعج أيضاً ؛ حيث إن المعنى فى الآية : أنه يشبه بعض بعضاً فى الحسن والصدق .

على كل حال .. الناس أمام الآيات المتشابهات فى القرآن فريقان:
الذين فى قلوبهم ميل عن الحق : يتعلقون بالمتشابه .
أولاً : ليفتنوا به أتباعهم ، فيوقعونهم فى الشبهات .
ثانياً : يحاولون تفسيره ، ومعرفة المراد منه ، مع أنهم ليسوا من أهل العلم، كما أنه لا يعلم معناه إلا الله وحده ، وقد يعلمه – بعون الله – الراسخون فى العلم .

والفريق الثانى : هم الراسخون الثابتون ، المتمكنون فى العلم ، وهؤلاء يقولون : آمنا بالمتشابه ولا نعلم معناه ، وكل من المحكم والمتشابه : من عند ربنا عز وجل .
وهكذا : ما يتعظ ، ويتذكر ، ويتقى ربه إلا أصحاب العقول .
الذين يدعون الله قائلين .

{ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ }
[الآية ٨]

والذين يثنون على ربهم قائلين :

{ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ }
[الآية ٩]

*****

وبعد هذا الحديث عن الراسخين فى العلم ، الثابتين فى الإيمان : يخبر ربنا عز وجل عن الكفار ، مبيناً أنهم وقود النار ..

فيقول :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ }
[الآية ١٠]

وهكذا يبطل الله : نفع أموالهم ، التى يغترون بها على العباد ، ويطغون بها فى البلاد ، ويكثرون فيها الفساد .

ويبطل كذلك : نفع أولادهم ، التى يعتزون بها ، ويتفاخرون .

بل يصيرون هم – ليسوا فى النار فقط ، بل – وقود النار نفسه ، والعياذ بالله .

مثلهم فى ذلك :

{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ }
[الآية ١١]

ولذلك .. ومن باب التهديد والتخويف .

{ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ }
[الآية ١٢]

وقد كان .. حيث غلبهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فى معظم معاركه فى سبيل الله معهم .

وسوف يكون دائماً .. كلما عمل المسلمون بهدى ربهم ، ورفعوا راية دينهم .

وفوق ذلك : يحشر الأعداء يوم القيامة إلى جهنم ، وبئس المستقر والمقام .

* * *

هذا ..

وقل لهم .. يا محمد أيضاً:

{ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ }
[الآية ١٣]

وكان ذلك : فى يوم بدر .
وبقدرة الله : صار الكفار يرون المسلمين الذين كان عددهم ثلاثة عشر رجلاً وثلاثمائة فقط .
يرونهم : مثليهم ، أي ألفين ؛ إذّ كان الكفار ألفاً من المقاتلين .
وهكذا : يؤيد الله بنصره من يشاء ، دائماً .

حيث :
إن فى ذلك النصر ، بهذا الشكل : لعبرة باقية ، إلى يوم القيامة ، يستفيد منها – معرفة بنصر الله ، واحتماءً بجنابه ، واطمئناناً لرعايته ، كلما كانت المواجهة بين الكفر وأهله ، والإيمان وأوليائه – أولوا الأبصار .

*****

أيها الأخوة والأخوات ..
بعد بيان المولى لعدم نفع الدنيا ، وما فيها من أموال ، وأولاد ، كانوا يفترون بها ، ويعتزون ..!!
يبين ربنا جل وعلا : حقارة شأن الحظوظ الدنيوية ، بأصنافها ، تزهيداً للمؤمنين فيها ، وتوجيه رغباتهم إلى ما عند الله من النعيم المقيم .

حيث يقول :

{ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ }
[الآية ١٤]

يلاحظ جيداً .. أيها الأحبة الكرام: أن الله تبارك وتعالى – بالرغم من تزهيده لنا فى هذه الحظوظ الدنيوية – قد زينها للإنسان ..
وذلك : من أجل أن تعمر الحياة الدنيا .
ولذلك : إذا استعمل الإنسان هذه الأشياء المذكورة ضمن ما حدَّد الله فى كتابه ، وبين رسوله صلى الله عليه وسلم فى سنته .. يكون قد حقق الحكمة من التزيين ، وعمرت الحياة ، ولم تفسد الأرض ، وأرض الله عز وجل فى ذات الوقت .
وأما إذا تجاوز الإنسان فى استعمالها ما حدد الشرع : فقد أفسد الأرض ، وأسخط الله تعالى .
وفى الأول الآخر : فهذه الأشياء كلها .. متاع الحياة الدنيا ..!!
يتمتع الإنسان به فى الدنيا ، ثم يفنى ، ولكن ما عند الله .. هو الحسن كله ، وهو الجنة .
ولذا : فينبغى توجيه الرغبة فيما عند الله دون غيره ، والعمل الجاد لنواله ؛ والفوز به .

*****

وبعد أن بين المولى عز وجل ما زينه لنا فى الحياة الدنيا ، من متاعها الزائل ، وزهَّدنا فيه : يرفع همتنا سبحانه وتعالى إلى ما أعده فى الآخرة لعباده الصالحين ، من النعيم المقيم ...
فيقول :

{ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }
[الآية ١٥]

أي : قل يا محمد أأخبركم بخير مما زين للناس فى الحياة الدنيا ؟
والسؤال للتشويق والترغيب .

والجواب:
أن لهؤلاء الذين اتقوا ربهم ، فأطاعوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وعملوا بشريعته عند ربهم فى يوم القيامة .. هذه الأشياء :
أولاً : جنات تجرى من بين جوانبها وأرجائها .. أنهار العسل واللبن والخمر والماء .
ثانياً : أزواج مطهرة من كل دنس وخبث مادى ومعنوى .
ثالثاً : ورضوان من الله ينعم عليهم به ، فلا يسخط عليهم أبداً .
والله بصير بالعباد يعرف إخلاص كل منهم ، ومقدار تقواه ؛ فيجازى كل واحد منهم بما يستحق .
ولكن .. من هؤلاء العباد ، الذين يستحقون كل هذا العطاء ، وينالون كل هذا الثواب ..؟
إنهم ..

{ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }
[الآية ١٦]

أي : يقولون .. آمنا بك وبكتبك ورسلك ؛ فاغفر لنا بفضلك ، ونجنا من العذاب برحمتك .
هذه أقوالهم ..
أما أفعالهم وسلوكهم ..
فيخبر عنها رب العزة ، مادحاً لهم بذكرها .. حيث يقول :

{ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ }
[الآية ١٧]

أي : الصابرين على الطاعات ، وعن المعاصى ، وفى ساحات الجهاد ، وعلى المصائب والنكبات .
والصادقين .. فى إيمانهم .

والقانتين .. الطائعين لله فيما أمر ، وفيما نهى .
والمنفقين .. لكل خير على من يحتاج ، دون منٍّ ولا أذى ، ولا إسراف ولا تبذير .
وفوق كل هذا : فهم يقيمون الليل ، ويستغفرون ربهم فى الأسحار .
هذا ..
ولما أخبر سبحانه وتعالى بوحدانيته فى أول السورة الله لا إله إلا هو الحى القيوم ..!!
واستدل على هذه الوحدانية ..!!
وأخبر عما أعد للكافرين بها ..!!
وأخبر – كذلك – عما أعد للمؤمنين بها ..!!
أنتج ذلك : ثبوت هذه الوحدانية ، ثبوتاً لا شك فيه .

ومن هنا :
كرر – عز وجل – هذه القضية ؛ بشكل أوضح مما سبق ؛ إهتماماً بها ، وعناية بشأنها .
فقال :

{ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية ١٨]

أي : شهد الله وملائكته وأولوا العلم من الأنبياء والعلماء .. أنه لا إله إلا هو المتفرد بالإلهية لجميع خلقه ، وأن الجميع عبيده وفقراء إليه ، مقيماً للعدل فيما بينهم من شرعه وأمره ونهيه ورزقه .. الخ .

{لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

*****

أيها الكرام ..
ادعت اليهود : أنه لا دين أفضل من اليهودية ..!!
وادعت النصارى : أنه لا دين أفضل من النصرانية ..!!
فرد الله عليهم ذلك .
ونزلت هذه الآية :

{ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ }
[الآية ١٩]

وهكذا يخبر الله تعالى أنه لا دين عنده يقبله من أحد : سوى الإسلام .

وهو الاستسلام لله ، فيما بعث به رسله جيمعاً ، والذى كان آخرهم وخاتمتهم ، هو محمد صلى الله عليه وسلم .

ولذا : فمن لقى الله تعالى بعد بعثته سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم ، بدين على غير شريعته : فليس بمتقبل منه عند الله .

وهذا هو الحق الذى لا مراء فيه .

وأهل الكتاب – اليهود والنصارى – يعرفون أن الدين عند الله الإسلام ويعرفون أنه الحق ؛ إذ جاءهم العلم به فى كتبهم قبل تحريفها .

ولكنهم .. بسبب الحسد والبغى ، وطلب الرياسة : حملهم ذلك على المخالفة للخصم فى الأقوال والأفعال ، وإن كانت على حق .

وبذلك : كفروا بآيات الله جيمعاً .

وعلى كل حال :

من يكفر بما أنزل الله من الحق : فإن الله سريع الحساب له ، سريع المجازاة ، والمعاقبة على كفره .

*****

أيها الأحبة فى الله .

انتبهوا إلى المولى عز وجل ، وهو يوجه حبيبه صلى الله عليه وسلم إلى أدب الدعوة ، وحسن المناظرة ، مع المخالفين .

حيث يقول له ، والكلام لكل داع إلى الإسلام ..!!

{ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }

[الآية ٢٠]

أي : فإن جادلوك فى أن الدين عند الله الإسلام ، أو جادلوك فى صحة ما هم عليه ، أو جادلوك ليصرفوك عما أنت عليه ..؟!!

فقل لهم : لا فائدة من جدالكم هذا ؛ فقد أسلمت وجهى لله ، وأخلصت نفسى له .

وكذلك : من تبعنى .

وقل لليهود والنصارى والأميين الذين لا كتاب لهم : أسلموا وجوهكم لله ، فقد جاءكم معى من البينات والدلائل ما يقتضى دخولكم فى الإسلام ..!!

فإن أسلموا : فقد نجوا من الضلال والهلاك .

وإن رفضوا : فقد بلغت وأديت رسالتك ، وحسابهم على الله .

والله بصير بالعباد : يجازيهم على إسلامهم وعلى كفرهم .

هذا ..

ولأن فى الناس من يرفضون دعوة الإسلام ، ويكفرون بالله ..!!
فقد أمر الله عز وجل بتبشيرهم بالعذاب الأليم .
حيث قال :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }
[الآية ٢١]

أي : كل من يكفر بآيات الله .
وكل من يقتل النبيين .
وكذلك : كل من يقتل الدعاة إلى الحق ، وهو دين الله ..!!
بشرهم بعذاب الله الأليم يوم القيامة .
وأول من ينطبق عليه هذه القبائح : هم اليهود .
ويدخل فى هذا التهديد : كل من كان كذلك .
وليس هذا فقط .
بل :

{ أُولَـئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ }
[الآية ٢٢]

أي : ضاعت نتائج أعمالهم ، واستحقوا اللعنة ، وليس لهم ناصر يحميهم ، أو يدافع عنهم ، فى الدنيا والآخرة .

* * *

ثم يؤكد المولى تبارك وتعالى اختلاف وتخالف أهل الكتاب ، ويدعو – فى ذات الوقت – إلى التعجب منهم ، ومن أحوالهم .
فيقول :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ }
[الآية ٢٣]

أي : إن تعجب فالعجب من الذين لديهم علم من التوراة ، يدعون للتحاكم وفق ما جاء فيها ، وقد علموا أن الاحتكام إلى كتاب واجب .
ولكنهم : يرفضون إعراضاً ؛ لأن هذه طبيعتهم .

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }
[الآية ٢٤]

وهذا الإعراض : غرهم فيه ودفعهم إليه أنهم كذبوا على الله ، وصدقوا أنفسهم ، إذ قالوا لن تمسنا النار حيث لن نعذب فيها إلا أياماً معدودات .

* * *

{ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }
[الآية ٢٥]

أي : كيف يكون حالهم يوم القيامة ؟ وكيف تكون إجابتهم حينما يسألون عما كذبوا على الله فيه ؟ وكيف يعللون قتلهم الأنبياء والعلماء ..؟
والله سائلهم عن ذلك كله ..
ولن يفلتوا من العقاب العادل جزاء ما فعلوا .

*****

ولأن أهل الكتاب ضلوا ، وفسدوا ، وأفسدوا ..!!
ولأن أهل الكتاب خانوا أمانة الدعوة ..!!
فقد حول الله النبوة من بنى إسرائيل إلى النبى العربى الأمى ، خاتم النبيين، على الإطلاق .
ولذلك : ينبه المولى تبارك وتعالى إلى شكر نعمته على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذه الأمة .
فيقول :

{ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ }
[الآيتان ٢٦ ، ٢٧]

وبعد هذا الابتهال إلى الله ، والإذعان لقدرته ، والاغتراف من رحمته ، والاعتماد على عظمته وعزته : يكون النهى الإلهى للمؤمنين عن موالاة الكافرين.
حيث يقول تبارك وتعالى :

{ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ }
[الآية ٢٨]

أي : من يرتكب ما نهى الله عنه فى هذا ، ويخالف شرعه : فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه .
إلا من خاف : فى بعض البلدان ، أو الأوقات ، من شرهم .. فله أن يتقيهم بظاهره ، لا بباطنه ونيته .
ويحذركم الله نقمته ، إذا واليتم أعداءه ، وعاديتم أولياءه .
وإلى الله – فى النهاية – مرجعكم .. فيجازى كل واحد منكم بعمله.
فاحذروه .. !!

ولا تتعرضوا لغضبه بمخالفة أحكامه ، وموالاة أعدائه .

*****

ثم ينبه ربنا – تبارك وتعالى – عباده : على أنه عالم بجميع أمورهم ، قادر على معاجلتهم بالعقوبة .
وذلك : حتى يخافوه ، ولا يرتكبوا ما نهى عنه .
حيث يقول لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ٢٩]

أي : قل لهم .. مهما أخفيتم ما فى صدوركم – مما لا يرضى الله ، ومن ذلك ولايتكم للكفار – أو تظهروه : فإن الله يعلمه .
بل .. أكثر من ذلك : حيث لا يغيب عنه مثقال ذرة فى السماوات والأرض .
والله على كل شئ قدير ؛ فيعاقبكم ويجازيكم .
وهذا : تهديد شديد ووعيد بليغ من عذاب الله تعالى .

{ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ }
[الآية ٣٠]

أي : تتمنى كل نفس لو أنه كان بينها وبين ذلك اليوم وأهواله – حينما تعاين جزاء ما عملت – مسافة بعيده .
فلا تغفلوا عن مرضاته سبحانه ، ولا تتعرضوا لسخطه .
ولذلك : يحذرهم عز وجل من غضبه ، ويدعوهم لطلب مغفرته وعفوه ورحمته .
ومن رأفته بهم : أنه يرشدهم لطريق محبته .
كما يبين لهم – رأفة بهم وتشجيعاً لهم – نتائج محبته .

{ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٣١]

أي : إن كنتم تحبون الله بإيثار طاعته على أي شئ آخر ..!!
فعلامة هذا الحب : هو اتباع رسول الله ، فى دينه ، وأقواله ، وأفعاله ، وأحواله .
وإذا تبعتم رسول الله : أحبكم الله ، ورضى عنكم ، وغفر لكم ذنوبكم .
والله عز وجل .. غفور لمن تابع رسول الله ، رحيم به .

* * *

ثم قال تعالى – أيها الأحبة فى الله – للنبى صلى الله عليه وسلم:

{ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ }
[الآية ٣٢]

أي : قل لكل أحد من الناس ، عامهم وخاصهم .. أطيعوا الله بالعمل بكتابة والرسول بطاعته فى حياته ، وطاعة سنته ، وبمتابعته ، بعد وفاته ، صلى الله عليه وسلم .
فإن أعرضوا ورفضوا هذه الطاعة : فهذا كفر ، والله لا يحب الكافرين .

* * *

وبعد أن بين المولى عز وجل ما زينه لنا فى الحياة الدنيا ، من متاعها الزائل ، وزهَّدنا فيه : يرفع همتنا سبحانه وتعالى إلى ما أعده فى الآخرة لعباده الصالحين ، من النعيم المقيم ...

فيقول :

{ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ...}

أيها الأحباب فى الله .

تحدثت الآيات السابقة – كما قرأنا – عن وحدانية الله ، وبينت أن الدين عند الله الإسلام ، ووضحت أن الإسلام يتحقق بالمتابعة والطاعة .

والآن : تبدأ الآيات الكريمة فى تصحيح مفاهيم النصارى عن عيسى عليه السلام ؛ حيث إنهم بمفاهيمهم عنه قد انحرفوا إنحرافاً بعيداً عن الإسلام .

فيقول المولى عز وجل :

{ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ }
[الآية ٣٣]

أي : اختار هؤلاء ، وفضلهم على عالمى زمانهم .

يقول ابن عباس : قالت اليهود .. نحن من أبناء إبراهيم وإسحق ، ويعقوب ، ونحن على دينهم ، فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : أن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام ، وأنتم يا معشر اليهود على غير الإسلام .

{ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٣٤]

إنهم ذرية صالحة .

والله هو السميع لهم ، العليم بهم ، فيصطفى ويختار من يشاء ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ثم يقول رب العزة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

واذكر لأهل الكتاب وغيرهم ، هذه القصة .

{ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الآية ٣٥]

إمرأة عمران : هى أم مريم ، وجدة عيسى عليهما السلام ، وكانت لا تلد ، حتى كبرت وأسنت .

ولكنها – ذات يوم – دعت الله أن يرزقها ولداً .

فلما حملت به .. قالت : اللهم إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى يكون خالصا لعبادتك ، خادماً لبيتك المقدس .
إنك أنت السميع لدعائى ، العليم بنيتى وصدقى .
وتم حملها .
ووضعت وليدها .

{ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ }
[الآية ٣٦]

أي : حزنت لأنها كانت تريد أن يكون ذكراً جلداً ، قوياً ، يقوم على خدمة بيت المقدس .
ولكنها أعلنت رضاءها بعطاء الله ؛ حيث سمتها مريم .
ومعناها : العابدة .
وقالت : هى لك ولخدمة بيتك يا رب ، وأنا أتقرب بها إليك .. فاعصمها ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم الملعون .
ورضى الله تبارك وتعالى، بهذا النذر الطيب .

{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ }
[الآية ٣٧]

أي : تقبلها الله ، وأقامها مقام الذكر فى خدمة بيت المقدس ، وأنشأها فى هذا الجو الصالح ، والمكان المقدس نشأة حسنة ، ورباها تربية صالحة .
ثم : جعل سبحانه زكريا عليه السلام ، زوج أختها ، كافلاً لها ، وقائماً على مصالحها .

*****

والعجيب أنه :
لما رأى زكريا ذلك ، وشاهد فضل الله تعالى على عباده الصالحين : طمع فى الولد ، حتى وإن كانت زوجته عاقر ، وهو شيخ كبير .
ولكنها الطبيعة البشرية .

{ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء }

[الآية ٣٨]

في هذا المكان الطاهر : دعى زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه الولد الصالح ، والذرية الطيبة .
واستجاب الله دعاءه .

{ فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ }
[الآية ٣٩]

أي : خاطبته الملائكة مشافهة وهو قائم يصلى في المحراب .
قائلة :
إن الله أجاب دعوتك ، وقضى حاجتك ، ويبشرك بولد اسمه يحيى .
وهذه أوصافه :
مصدقاً بكلمة من الله أي : مصدقاً بعيسى .
وسيداً أي : شريفاً ، رفيعاً في خلقه ودينه .
وحصوراً أي : معصوماً من الذنوب .
ونبياً من الصالحين وهذه بشارة بالنبوة ، بعد البشارة بالولادة .
وهنا .. تعجب زكريا من وجود الولد بعد هذا الكبر ..!!
حيث :

{ قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء }
[الآية ٤٠]

وهو سؤال من يفرح بعد تحقق الطلب وإجابة الدعوة .
ولهذا : كان الجواب :
أن ذلك : من الأفعال العجيبة ؛ فالله لا يعجزه شئ ، ولا يتعاظم عليه أمر .

* * *

هذا ..
ولما تاقت لنفسه إلى سرعة تحقق هذا الأمر ، والتأكد من حدوثه .

{ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ }

[الآية ٤١]

أي : اجعل لى علامة على حمل امرأتى ، لأتلقى النعمة بالشكر – دون تأخير – فى بادئ الأمر .
قال له ربه : سأجعل لك علامة ، كما طلبت ، وهذه العلامة ..
تكون حُبْسَة فى لسانك ، لا تقدر معها أن تكلم الناس إلا بالإشارة ، ولمدة ثلاثة أيام فقط.
وليس هذا خرساً ، بل هى حبسة لسان عن الكلام مع الناس فقط .
لذلك :
انشغل فقط – خلال هذه المدة – بذكر الله ، والتسبيح والصلاة ؛ شكراً لنعمته عليك .

*****

أيها الكرام ..
نترك زكريا عليه السلام ، مع فرحته بهذه البشارة ، وشكره لله تعالى عليها..
ونتعرض لذكر قصة مريم عليه السلام بعد ذكر قصة أمها امرأة عمران .
حيث يقول عز من قائل :

{ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ }
[الآية ٤٢]

أي : قالت الملائكة لمريم ..
إن الله اصطفاك أولاً ، حيث قبلك من أمك ، يوم أن قالت رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى
وكان الجواب فتقبلها ربها بقبول حسن .
وطهرك من كل دنس .
واصطفاك ثانياً على نساء العالمين بأن وهب لك عيسى من غير أب ، وجعلك آية للعالمين .
ثم قالت لها الملائكة :

{ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ }
[الآية ٤٣]

أي : كونى خاشعة لربك ، خاضعة لحكمه ، ساجدة راكعة ، مع الساجدين الراكعين .

* * *

ثم يقول رب العزة لحبيبه صلى الله عليه وسلم ، ما فيه دليل للمعاندين على صدق محمد فى نبوته ، وما فيه هداية للمحبين المتبعين سنته العاملين بشريعته :

{ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ }
[الآية ٤٤]

أي : أن قصة أم مريم ، ومريم ، وزكريا وزوجته ، ما كنت تعرفها يا محمد ، لأنها من أخبار الغيب السابق ، ولكنا أعلمناك بها عن طريق الوحى .
وما كنت معهم حين اتفقوا – كما يقول المفسرون – على أن يجعلوا أقلامهم التى كانوا يكتبون بها فى الماء الجارى ، فمن وقف قلمه ، ولم يجره الماء ، فهو كافلها.
وكان الذى وقف : هو قلم زكريا ؛ فكفلها من دونهم .
وما كنت معهم كذلك .. حين تنازعوا واختصموا حول هذه الكفالة لمريم .
وكل هذا : لم تعرفه إلا عن طريق وحينا لك به .

*****

هذا ..
وبعد ذكر قصة مريم ، وزكريا ، وأم مريم : يبدأ عز وجل فى ذكر قصة عيسى عليه السلام .
قائلاً :

{ إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ }
[الآية ٤٥]

أي : يكون وجوده بكلمة من الله كن ، فيكون .
اسمه المسيح عيسى بن مريم .. ويسمى المسيح ؛ لأنه إذا مسح ذا عاهة برئ منها بإذن الله ، أو لكثرة سياحته من أجل الدعوة لدين الله .
وينسب إلى أمه ابن مريم لأنه لن يكون له أب .
ومع ذلك : يكون وجيهاً فى الدنيا بالنبوة والطاعة ، وفى الآخرة : بعلو الدرجة والشفاعة .
ومن المؤمنين عند الله .

* * *

وقالت الملائكة لمريم أيضاً مبشرة :

{ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ }
[الآية ٤٦]

أي : يكلم الناس بكلام الأنبياء في طفولته ، وحين يوحى إليه في كهولته .
ويكون من الصالحين في قوله وعمله .
فلما سمعت مريم بشارة الملائكة لها بذلك .

{ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ }
[الآية ٤٧]

أي : كيف يكون ذلك : ولم يمسسني بشر ، حلالاً ، أو حراماً ؛ حيث لم أتزوج ، ولست بغياً ..؟
أجاب الملك :

{قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}

أي : هكذا أمر الله ، لا يعجزه شئ ، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون .
ويلاحظ : أن الملائكة قالت لزكريا كذلك الله يفعل ما يشاء .
وهنا قالت لمريم كذلك الله يخلق ما يشاء .
وذلك : لأن ولادة العذراء من غير أن يمسسها بشر : أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير ..!!
فكانت عبارة الخلق .. المنبئة عن الاختراع : أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل .

* * *

ثم كان تمام هذه البشارة :

{ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ }
[الآية ٤٨]

ومن تمامها كذلك:

{ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }

[الآية ٤٩]

ومن تمامها ثالثاً:

{ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ }

[الآية ٥٠]

ثم يقول لهم :

{ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ } .

أي : فاتقوا الله ، ولا تكذبونى فيما جئت به ، وأطيعونى فى امتثال ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه .

ثم قال لهم : مؤكداً عبوديته .

{ إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ }

[الآية ٥١]

أي : أنا وأنتم سواء فى العبودية لله ، ووجوب الخضوع والاستكانة له .

وهذا : هو الصراط المستقيم ، الذى يؤدى بصاحبه إلى النعيم المقيم .

وهذا كله – جاء – فى معرض بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام.

*****

ثم ينقلنا الله عز وجل .. إلى موقف اليهود من عيسى عليه السلام .

وكأن رب العزة يقول : هذا الذى بشرت به مريم ، فى شأن ابنها .

فماذا حدث له : بعد أن بلغهم رسالة ربه ..!!

الذى حدث ..

أنهم .. كذبوه ، وجحدوا رسالته ..!!!

{ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ }

أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ
[الآية ٥٢]

أي : فلما وجدهم مصممين على الكفر ، مستمرين عليه : بحث عن الصالحين فيهم ..
قائلاً :
من ينصرنى فى الدعوة إلى الله ..

أجابه الحواريون .. وهم من آمنوا به ، وآزروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، ونصروه فى دعوته .. قائلين : نحن أنصار الله أي : أنصار دعوة الله معك ، لأننا آمنا بالله .
ثم طلبوا من عيسى أن يشهد على إسلامهم ، تشريفاً لهم ؛ حيث قالوا وأشهد بأنا مسلمون .

ثم توجهوا لربهم عز وجل قائلين :

{ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ }
[الآية ٥٣]

وهذا : تضرع منهم لله سبحانه وتعالى ، وعرض لحالهم عليه عز وجل بعد عرضها على رسوله ، إظهاراً لصدقهم ، وطلباً لمرضاة ربهم .
أي : آمنا بك ، واتبعنا رسولك ..!!
فاكتبنا عندك مع الذين يشهدون لك بالواحدانية ولرسولك بالصدق فيما جاء به .

* * *

وإذا كان هذا حال أنصاره الحواريين ، الذين آمنا به وصدقوه ..!!
فما حال الأغلبية .. التى كذبته ، وكفرت برسالته ؟
تعالوا معى أيها الأحبة فى الله نقرأ ما يخبر به المولى عنهم .
حيث يقول :

{ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }
[الآية ٥٤]

أي : ازدادوا كفاراً وعناداً ، ومكراً وفجوراً ، حتى إنهم أرادوا قتل نبيهم عيسى عليه السلام .
ولكن الله تعالى جازاهم على مكرهم .. بأن أفسد سعيهم ، ورفع عيسى إلى السماء .
ويلاحظ : أن المكر إذا نسب للإنسان .. كان بمعنى الخطيئة .

وإذا نسب لله تعالى .. كان بمعنى الجزاء عليها .
والله خير الماكرين أي أقوى المعاقبين على الخطايا .

*****

ثم يوضح ربنا – تبارك وتعالى – كيف فوَّت على الماكرين من اليهود مكرهم بعيسى عليه السلام .
إذ يقول .. انتبه وتذكر :

{ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }
[الآية ٥٥]

إنى متوفيك : أي : منيمك ، من النوم .
ورافعك إلى : أي إلى السماء حياً ، وقد رآه رسولنا صلى الله عليه وسلم فى السماء ليلة المعراج .
ومطهرك من الذين كفروا : أي مبعدك عنهم ، وعن خبثهم وإيذائهم لك .
وجاعل الذين اتبعوك أي : المسلمين ، الذين آمنوا بالله وصدقوا بك ، من أمتك ، أو من غيرها.
فوق الذين كفروا وكذبوك ، وجحدوا برسالتك ، وحرفوها من اليهود والنصارى وغيرهم .
وفى يوم القيامة : إلىَّ عودة الجميع ، فأحكم بينهم بالعدل ، فيما اختلفوا فيه ؛ ليظهر المحق من المبطل ، والمؤمن من الكافر ، ويكون الجزاء المناسب .

* * *

{ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ }
[الآية ٥٦]

وهذا : هو عين العدل .

{ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٥٧]

وهذا : هو عين الفضل .

* * *

أيها الأحباب فى الله ..

بعد هذا البيان الإلهى ، والتوضيح الوافى ، لأمر عيسى عليه السلام ، وما يكون منه ، وما يكون له .
يتوجه المولى بالخطاب التشريفى لمحمد صلى الله عليه وسلم .
حيث يقول له :

{ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ }
[الآية ٥٨]

أي : هذا الذى قصصناه إليك من أمر أخيك عيسى .. وحى إليك من الذكر الحكيم ، واللوح المحفوظ ، لا شك فيه ، ولا جدال حوله .

*****

أيها الكرام ..
لما قدم وفد نصارى نجران إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له : هل رأيت لعيسى مثلاً ..؟
إنه خلق بلا أب ، ومن لا أب له : فهو ابن الله .
فنزل رداً عليهم .. قول الله تعالى :

{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }
[الآية ٥٩]

أي : إن شأن عيسى ، وحالته الغريبة ، فى كونه خلق من غير أب .. كشأن آدم فى كونه خلق من غير أب ، ولا أم أيضاً .
بل خلق من تراب إبتداءً ، قال له كن .. فكان .
وهما – مع اختلاف خلقهما – يستويان أمام قدرة الله تعالى .
أي : إذا كانت دعوى النبوة تجوز فى حق عيسى عليه السلام .. !!
فهى فى حق آدم : جائزة بطريق الأولى .
ولو حدث فى حق آدم ذلك : لكان باطلاً .
ولهذا : فهو فى حق عيسى أشد بطلاناً .
وهذا الذى ذكرناه هو :

{ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ }
[الآية ٦٠]

أي : لا مجال للشك فى صحته من أي أحد ، على الإطلاق .

{ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ }
[الآية ٦١]

أي : من جادلك من النصارى فى شأن عيسى عليه السلام ، وأنه ابن الله – كما يزعمون – بعد ما جاءك من العلم والحق الذى عرفوه ..!!

فقل لهم : هيا بنا نتباهل .

أي : نجمع سوياً نحن وأنتم أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم فى مكان واحد .

ثم نبتهل أي نتضرع إلى الله فى الدعاء .

فنجعل لعنة الله على الكاذبين أي : هلاكه للكاذبين من أي الفريقين فى شأن عيسى ونبوته لله سبحانه وتعالى .

فماذا فعلوا ..؟

أيها الأحباب ..

يقول العلماء : لم يُروَ عن أحد موافق أو مخالف .. أنهم استجابوا ، وفعلوا ذلك .

* * *

حقاً ..

{ إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية ٦٢]

وهذا أمر واضح ، لا لبس فيه ، ولا غموض ، ولا خفاء .!

ومن شأنه : أن يقود إلى التسليم والإذعان .

{ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ }

[الآية ٦٣]

أي : فإن لم يستعملوا عقولهم ، ويتخلوا عن عنادهم ؛ فقد فسدوا ، وأفسدوا غيرهم .
والله عليم بالمفسدين .. يجازيهم شر الجزاء .

*****

أيها المجتمعون معنا على مائدة القرآن الكريم ..!!
بعد أن بين الله عز وجل أن الدين عند الله الإسلام ..!!
وبين – كذلك – أن اختلاف أهل الكتابين فيه : إنما هو من البغى والحسد..!!
وبعد أن بين – ثالثاً – أن الفوز برضوانه : طريقة أتباع الرسل عليهم السلام ..!!
وبعد أن بين – رابعاً – مبدأ عيسى عليه السلام ، ورد أكاذيب أهل الكتاب، وأغاليطهم حوله ، وبيان الحق فى شأنه .
أقول .. بعد هذا كله مما ذكرت آيات السورة .
يأمر المولى سبحانه وتعالى : بدعوة أهل الكتاب إلى الحق ، ومحاورتهم لإقناعهم به ، على النحو التالى فلنقرأ خاشعين .

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ }
[الآية ٦٤]

وفى هذا .. أمر لأهل الكتاب وغيرهم ، أن لا تكون العبادة والطاعة ، والتحليل والتحريم إلا لله وحده ، وأن لا يطيع بعضنا بعضاً فى معصية الله .

{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}

أي : فإن رفضوا هذه الدعوة ، وتولوا وأعرضوا عن الاستجابه لها : فأعلنوا التزامكم أنتم ، واستمراركم فى إسلامكم وطاعتكم لله .

* * *

ثم يستنكر رب العزة على اليهود والنصارى هذه المغالطات التاريخيه .
إذ يقول سبحانه :

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }
[الآية ٦٥]

ادعت اليهود : أن إبراهيم كان يهودياً .
وادعت النصارى : أنه عليه السلام كان نصرانياً .
وهذا خطأ فاحش .
حيث لم تنزل التوراة – كتاب اليهود – على موسى ، ولم ينزل الإنجيل – كتاب النصارى – على عيسى ، بل لم يكن موسى ولا عيسى نفسيهما .. إلا بعد زمن إبراهيم عليه السلام .
ولا يقول ما قلتم عاقل .
أفلا تعقلون ..!!

* * *

ثم يبكتهم القرآن الكريم قائلاً :

{ هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٦٦]

أي : لقد جادلتم بالباطل فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وعندكم علم بصفته فى كتبكم ، وصدقه فى دعواه . وكذبتم به ..!!
فلم تجادلون فيما ليس لكم به علم من أمر إبراهيم عليه السلام .
والله يعلم عنادكم وجدالكم بالباطل ، وأنتم جاهلون .
هذا ..
والحقيقة التى ينبغى أن تعرفوها أنه :

{ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }
[الآية ٦٧]

أي أنه عليه السلام : ما كان يهودياً ، ولا نصرانياً ، كما زعمتم ، بل كان حنيفاً مائلاً عن كل دين ، إلا دين الله .
نعم .. كان مسلماً لله فى شأنه كله .
وما كان من المشركين وقد أشركتم أنتم وغيركم ، فكيف يكون منكم ..؟

*****

وبعد أن نفى دعواهم الكاذبة فى انتسابه عليه السلام إليهم : بين .. أقرب الناس منه ، وأحقهم فى الانتساب إليه .
حيث قال عز من قائل :

{ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ٦٨]

أي : أن أحق الناس به :
أولاً : الذين اتبعوه ، وآمنوا به ، فى زمانه ، وبعد زمانه .
ثانياً : محمد صلى الله عليه وسلم ، خاتم الأنبياء والمرسلين .
ثالثاً : الذين آمنوا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
وهؤلاء : وليهم الله وناصرهم فى الدنيا وفى الآخرة .

* * *

ولأن أهل الكتاب – يا أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم – يعرفون الحق الذى أنتم عليه ، والنور الذى أنتم فيه : فإنهم لا يستريحون لذلك ، بل يحسدون ، ويحقدون ، ويريدون حرمانكم منه ، وصرفكم عنه إلى باطل قوانينهم ، وأنظمتهم ، وسلوكهم ، وأهوائهم .
يقول ربنا تبارك وتعالى:

{ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }
[الآية ٦٩]

لأن المؤمنين حقاً لا يطيعونهم ، إذّ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق..!!
ومن هنا ..
فإثم إضلالهم لغيرهم : يعود وبالاً عليهم ، وما يشعرون بذلك .

*****

ثم ..

لاحظوا أيها الكرام ..
هذا السؤال المفحم المباشر .

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ }
[الآية ٧٠]

أي : لم تكفرون بآيات الله الموجودة فى كتبكم ، وفيها البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم .
خاصة : وأنتم تعلمون صدقها ، علماً يقينياً كالمشاهدة .

* * *

وأيضاً ..
هذا السؤال المفحم المباشر الآخر :

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٧١]

أي : لم هذا التلبيس منكم ، وخلط الحق بالباطل ، بل كتمانكم الحق أصلاً ، وأنتم تعلمونه ، وتعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء به ، وأن المسلمين يتبعونه ، ويلتزمون به .
ثم ..
ثم يفضح الله سرهم ، ويكشف مكرهم بالمسلمين قائلاً :

{ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }
[الآية ٧٢]

أي : قالوا آمِنوا معهم بما جاء به محمد ، وخالطوهم ، ثم شككوهم فى دينهم ، واكفروا به ، لعلهم يرجعون عن دينهم .
ثم تواصوا فيما بينهم قائلين لبعضهم البعض :

{ وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٧٣]

أي : لا تطمئنوا إلا لبعضكم البعض ، ولا تتكلموا بما تعرفون ، وما تريدون الوصول إليه من إفساد المسلمين ، إلا فيما بينكم .

ويرد الله عليهم مكرهم ، ومثبتاً للمسلمين .

حيث يقول :

{قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }

أي : من شاء الله هداه ، وثبته على الإسلام ، ولا يضره كيدكم ومكركم .

* * *

وبعد هذا الرد عليهم ..

والتثبيت للمسلمين ..

يبين لنا عز وجل : سبب مكرهم هذا ، والدافع لحيلهم الخسيسة .

من عدم إيمانهم وكفرهم ..!!

وعدم بوحهم بأسرارهم ..!!

وهو : حقدهم أن يؤتى الله أحداً كتاباً ، أو حكمة ، أو فضلاً ، مثلما آتاهم.

أو : خوفهم من إقامة المسلمين للحجة عليهم عند ربهم .

* * *

ويرد الله عليهم حقدهم ، وانحراف فكرهم هذا ..

وفى ذات الوقت : يثبت المسلمين .

مبينا :

أن الفضل بيد الله ، ليس بيدهم ، يجود به على من يشاء من عباده .

وكذلك :

{ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }

[الآية ٧٤]

أي : يجعل رحمته مقصورة على من يشاء من عباده .

وقد أضاع أهل الكتاب ما أنعم الله عليهم به من فضل ، حيث كفروا بآيات الله ، ولم يتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، الذى بشر به أنبياؤهم ، وجاء وصفه فى كتبهم .

ولذلك : اختصكم أيها المسلمون برحمته وفضله ؛ حيث شرف نبيكم على سائر الأنبياء ، وهداكم به لأكمل الشرائع .

والله ذو الفضل العظيم .

*****

أيها الكرام ..!!

بعد أن وضحت الآيات الكريمة – التى قرأناها منذ قليل – خيانة أهل الكتاب ، وحيلهم ، ومكرهم ، بخصوص الدين ..!!

تبين الآيات التالية : خيانتهم ، وحيلهم ، ومكرهم ، بخصوص الأموال .

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }

[الآية ٧٥]

أى : فى أهل الكتاب الأمناء ، وفيهم – كذلك – الخونة ، المماطلون فى أداء الحقوق لأصحابها .

والسبب فى خياناتهم هذه أنهم ، يقولون هذا الكلام .

والأميون : من ليسوا على دين اليهود .. من العرب ، أو النصارى ، أو غيرهم .

والمعنى : أنهم يقولون ليس علينا حرج أو إثم .. فى أكل أموال غير أبناء دينهم ، وأن الله أحلها لنا حتى ولو كانت أمانات .

وهذا كذب وافتراء منهم على الله عز وجل متمعد .

ولذلك : يرد الله عليهم قائلاً :

{ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }

[الآية ٧٦]

أى : بلى عليهم إثم فى فعلهم هذا ، وتبريرهم له .

فإن من أوفى بما عاهد الله عليه : فقد اتقى الله بترك الخيانة والغدر .

والله يجب المتقين .. الذين يؤدون الأمانات ، والذن يوفون بالعهود .

ويدخل فى التقوى : طاعة الله ، والابتعاد عن محارمه .

ويدخل فى الوفاء بالعهد : ما عاهد أهل الكتاب ربهم عليه .. من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بعث .

*****

ثم يهدد ربنا عز وجل من إذا : حدث كذب ، أو اؤتمن خان ، أو عاهد غدر .
حيث يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
[الآية ٧٧]

أى : إن الذين يأخذون متاعاً قليلاً تافهاً من متاع الدنيا الزائل ، ويتركون ما عاهدوا الله عليه ، وأكدوه بأيمانهم ٠٠ من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، المصدق لما معهم .

هؤلاء :
لا خلاق لهم ٠٠ أى لا نصيب لهم فى الآخرة ، من رحمة الله ونعيمه .
ولا يكلمهم الله ٠٠ كلاماً يسرهم ويسعدهم به .
ولا ينظر إليهم ٠٠ نظرة عطف عليهم ، ورحمة بهم .
ولا يزكيهم ٠٠ أى ولا يطهرهم من الذنوب ؛ فيعفو عنهم .
ولهم – فوق كل ذلك – عذاب أليم شديد الإيلام .

* **

وكما أن فى أهل الكتاب ٠٠ الخائن ٠٠ الذى لا يؤدى أمانة ، ولا يفى بعهد : فإن فيهم من يكذبون على الله تعالى ، ويحرفون كلامه سبحانه .
يقول تعالى :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾
[الآية ٧٨]

أى : يحرفون التوراة ، ويبدلون ما أنزل الله فيها ، وينسبون ما يقولون بعد التحريف إلى الله ، وهذا كذب ، وهم يعلمون أنه كذب ، وأنهم يكذبون على الله .
ساء ما فعلوا ٠٠ وما يفعلون ٠٠!!!!

*****

هذا ٠٠

ويستمر المولى سبحانه وتعالى ، فى الرد عليهم من جهة ، وتصحيح مفاهيمهم وأغاليطهم وتحريفاتهم وأفعالهم من جهة أخرى .

حيث يقول :

{ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ }

[الآية ٧٩]

وقد نزلت هذه الآية : فى مواجهة وفد نصارى نجران ؛ لترد على عبادة النصارى لعيسى عليه السلام ، وتبطل مزاعمهم فى ذلك .

والمعنى : ما ينبغى لبشر – آتاه الله الكتاب ، والحكمة ، والنبوة ، من فضله أن يقول للناس : اعبدونى من دون الله ، أو اعبدونى مع الله .

بل : يقول لهم كونوا ربانيين أى : علماء عاملين ، تعلمون الناس الخير ، وتعرفونهم أمور دينهم .

أى : أن كلامكم هذا عن عيسى عليه السلام : كذب ، وادعاء باطل .

كذلك ٠٠!!

{ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ }

[الآية ٨٠]

أى : كما لا يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ٠٠ لا يأمرهم كذلك: أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله .

مثلما : اتخذ الصابئون .. الملائكة .

واتخذ اليهود .. عزيراً .

واتخذ النصارى .. عيسى .

هل يعقل : أن يأمر من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أحداً من المسلمين ٠٠ بالكفر ..؟!!

كلا ٠٠ وألف كلا .

*****

ثم يبين الله وحدة الأنبياء ، واجتماعهم على دين الله الواحد ٠٠ معرضاً باليهود وانحرافهم ، وتفريقهم بين رسل الله .

إذ يقول عز من قائل :

{ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ }
[الآية ٨١]

أى : أخذ الله العهد والميثاق على النبيين : أنهم إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم ؛ ليؤمننن به ولينصرنه فى دعوته ، مهما آتاهم الله من كتاب وحكمة .

والمراد بهذا الرسول : هو محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن باب التقرير : أكد الله عليهم ذلك .

والإصر : هو العهد القوى الثقيل .

والمعنى :

قال ربنا عز وجل للأنبياء بعد أن أخذ عليهم العهد بمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم :

أأقررتم بذلك ، وقبلتم عهدى الثقيل على هذا ٠٠؟

وفى هذا التقرير – أيها الأحبة فى الله – دلالة على أن المتابعة بالحق والخير : أمر شاق ، لا يستطيعه إلا من زكى الله نفسه .

نسأل الله أن يزكى نفوسنا ، وأن يؤتها تقواها .

إنه ولى ذلك ٠٠ والقادر عليه .

تعالوا بنا نتابع ٠٠ ماذا قال الأنبياء عليهم السلام لربهم ٠٠؟

نعم ٠٠

قالوا أقررنا ، واعترفنا ، وأخذنا عهدك .

وهنا .. قال لهم ربهم : اشهدوا على بعضكم البعض بهذا الإقرار ٠٠

وأكد ذلك الإشهاد – تخويفاً لهم من الرجوع عن عهدهم – باشتراكه سبحانه معهم فيه ، حيث قال وأنا معكم من الشاهدين على هذا العهد .

*****

ثم هدد الذين يخلفون الوعد ، وينقضون العهد ، ويخونون الأمانة . بقوله تعالى :

{ فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
[الآية ٨٢]

أى : فمن أعرض بعد هذا الميثاق ، وتولى وخالف بعد هذا البيان ؛ فهو فاسق متمرد كافر .

وهذا تهديد للمخالفين أوامر الله ، ووعيد لهم بالعذاب الشديد .

ماذا يريد هؤلاء ٠٠؟

وبالذات اليهود منهم ٠٠ الذين قالوا : كان إبراهيم – عليه السلام – يهودياً ٠٠؟

وأيضاً النصارى منهم ٠٠ الذين قالوا : كان إبراهيم – عليه السلام –نصرانياً ٠٠؟

وقد رد الله عليهم بقوله ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين [آل عمران ٦٧].

وهم الذين ينكرون – أيضاً – نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ماذا يريدون ٠٠؟

{ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ }
[الآية ٨٣]

أيريدون ديناً غير إسلام لوجه الله ، الذى هو دين الله ٠٠؟

فى الوقت الذى أسلم له سبحانه من فى السموات والأرض من الجن والإنس طوعاً بقلبه وإرادته ورغبه ، وكرهاً لأنه تحت سلطان الله وقهره ، لا يستطيع أن يمانع أو يخالف سلطان الله .

كما أنهم : لا يفرون من الله تعالى ؛ حيث إنهم إليه يرجعون فيجازيهم ، على رغبتهم السيئة هذه .

*****

هذا ٠٠

ولما أخذ ربنا – تبارك وتعالى – الميثاق على النبيين وأقروا به ٠٠!!

وعرف ذلك الميثاق ٠٠ أقوامهم من بنى إسرائيل ، ورفضوا الإلتزام به ، وابتغوا ديناً غير الإسلام ٠٠!!

أمر الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأمته ..

أن يعلنوا إيمانهم ٠٠ بالله تعالى ، ورسله جميعاً ٠٠ وكتبه التى أنزلها عليهم.

وأن يعلنوا كذلك : إسلام وجوههم لله تعالى ، ورضاهم بهذا الدين القيم .

فقال :

{ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }
[الآية ٨٤]

وعلى هذا : فالمؤمنون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠

يؤمنون ٠٠ بالله وبكل ما أنزل من عند الله ، وبكل نبى بعثه الله ، لا يفرقون بين أحد منهم ، وهم فى هذا كله مسلمون لله عز وجل .

وهذا هو الحق ٠٠ الذى لا بديل له .

{ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }
[الآية ٨٥]

أى : ومن يريد غير الإسلام ديناً له ٠٠
فلن يقبل منه ٠٠ أولاً .
وهو – ثانياً – فى الآخرة ، من الخاسرين ، الذين خسروا أنفسهم ، وأعمالهم .
وفوق ذلك :
فقد ضل ٠٠ وظلم نفسه .
واستحق المهانة والعذاب .
وإلا ٠٠

*****

{ كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٨٦]

هل يعقل أن يهدى الله تعالى : من كفر بعد أن آمن .
وشهد أن الرسول حق .
وقامت عليه الحجج والبراهين يصدق الرسول ، وما جاء به .
وظلم نفسه بذلك .
كلا ٠٠ وألف كلا .
وهذا هو العدل والله لا يهدى القوم الظالمين .

** *

وليس هذا فقط .
بل :

{ أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ }
[الآيتان ٨٧ ، ٨٨]

أى : من ارتد إلى الكفر بعد إيمانه ..
جزاؤهم العادل .
أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .
واللعنة : هى الطرد من رحمة الله ، ودخوله جهنم خالدين فيها لا يخرجون منها ، ولا هم ينظرون فيستريحون فيها بتأخير العذاب عنهم ولو ساعة.

* * *

ويفتح الله باب فضله ورحمته على من تاب وعاد إلى الإيمان ، وأصلح نفسه ، وعمله .
بقوله :

{ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٨٩]

* * *

أما الذين كفروا بعد إيمانهم ، ولم يتوبوا ، ولم يعودوا .. بل ازدادوا كفراً : فيقول عنهم رب العزة :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ }
[الآية ٩٠]

أى : لن تقبل توبتهم عند الموت .
وكذلك : لن يقبل منهم بعد الموت فداء لأنفسهم من عذاب الله ، عند معاينة العذاب .

*****

إقرأوا معنا – بارك الله فيكم – إلى قوله تعالى .

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ }

[الآية ٩١]

وبهذا ٠٠ بين الله عز وجل : ما لا ينفع الكفار ، ولا يقبل منهم ، بعد أن اغتروا به، وخدعوا فيه .
ولذلك :
يعقب عليه سبحانه وتعالى : ببيان ما ينفع المؤمنين ، ويقبل منهم ، بعد أن اكتسبوه من حلال ، وأنفقوا منه على حبهم له .
حيث يقول :

{ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ }
[الآية ٩٢]

أى : لن تنالوا بر الله ، وثوابه ، وجنته ، حتى تكون نفقتكم فى سبيل الله من أموالكم التى تحبونها .
لأنه – كما يقولون – لا وصول إلى المطلوب – إلا بإنفاق المحبوب .
قال الحسن : كل من تصدق ابتغاء وجه الله بما يحبه ولو ثمرة : فهو داخل فى هذه الآية .
ويزيد الله عز وجل فى الحث على الإنفاق ، والتأكيد على ثوابه ٠٠ بقوله :

وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ

أىَّ شيء ٠٠ مهما كان ٠٠ فإن الله به عليم ، يجازى عليه صاحبه خيراً منه .

*****

وبعد أن بين ربنا عز وجل : ما لا ينفع الكفار ، ولا يقبل منهم بعد أن اغتروا به ، وخدعوا فيه ٠
وبين : ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم ، بعد أن اكتسبوه من حلال وانفقوا منه – في سبيل الله – على حبهم له ٠
نقرأ كلام ربنا الحكيم الخبير ، إذ يقول :

{ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِـلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٩٣]

وسبب نزول هذه الآية ٠٠ أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : تزعم أنك على ملة إبراهيم ، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها ، وأنت تأكل ذلك ٠٠ فلست على ملة إبراهيم ٠
فرد الله عليهم ، وبين لهم : أن كل الطعام كان حلالا لإبراهيم عليه السلام ، ولبني إسرائيل من بعده ٠
ولم يحرم لحوم الإبل وألبانها إلا إسرائيل ، وهو يعقوب على نفسه خاصة ٠

كل ذلك : من قبل أن تنزل التوارة .
فلما نزلت التوراة : حرمت ما حرمت ٠

* * *

ثم تحداهم ربنا أن يأتوا بالتوراة ويقرءونها ليثبتوا خلاف هذا .
والذي حدث أيها الكرام أنهم : خافوا من افتضاحهم ؛ فلم يأتوا بها.
وبذلك : فقد كذبوا .
ولذلك : قال تعالى :

{ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }
[الآية ٩٤]

نعم ٠٠ وأي ظلم أكبر من الكذب على الله عز وجل ٠
ثم يأمر الله تبارك وتعالى نبيه ٠٠أن يعلنها صريحة عالية مدوية :

{ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }
[الآية ٩٥]

حقا ٠٠
ومن أصدق من الله حديثا ؟ !!

وعلى ذلك :
فآمنوا بالله ، واتبعوا ملة إبراهيم ، التي أنا عليها ، فقد كان إبراهيم حنيفا ،
أى : مائلا عن كل دين ، إلا الإسلام ، وما كان أبدا من المشركين بالله تعالى.

*****

ولأن الحج إلى البيت الحرام بمكة المكرمة ٠٠ مرتبط بسيدنا إبراهيم وملته ٠
فإن الله عز وجل يخبرنا في الآية التالية : أن أول بيت وضع لعبادة عموم الناس ، هو الكعبة ، التي بناها إبراهيم الذي يزعم اليهود والنصارى أنهم على ملته ، ومع ذلك لا يحجون إلى البيت الذي بناه بأمر الله ، ودعا الناس إلى حجة وزيارته ٠
يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ }
[الآية ٩٦]

وقد نزلت هذه الآية : لما قال اليهود للمسلمين ·· إن قبلتنا قبل قبلتكم .

والمعني : أن الكعبة هي أول بيت وضع متعبدا للناس في الأرض ، ذو بركة ، على من يتجه إليه ، وهداية للعالمين ؛ لأنه قبلتهم ، ومقصدهم جميعا هذا البيت ·

{ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ }
[الآية ٩٧]

أي : فيه دلائل واضحات على احترامه ، ومزيد فضله ··

ومن هذه الآيات :

الحجر الذي قام عليه إبراهيم ، وهو يبني الكعبة ، وعليه آثار أقدامه .

وأمن من دخله ، ونجاته من كل سوء ·

ومنها : غير هذين ·

* * *

وواجب لله على من ملك من الناس الزاد والراحلة ، الفائضين عن حاجة من تجب عليه نفقتهم ·· الحج إلى بيت الله الحرام ·

ومن أنكر فرضية الحج ، أو كفر بالله تعالى : فإن الله غني عنه ، وعن العالمين من الإنس والجن والملائكة ، وعن عبادتهم ·

*****

ثم يقيم ربنا – تجلت عظمته – على أهل الكتاب الحجة في مخالفتهم بقوله :

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ }
[الآية ٩٨]

أي : لا يوجد سبب من الأسباب يدعوكم إلى الكفر بآيات الله الظاهرة ، المنزلة على رسوله صلى الله عليه وسلم ٠

والله شهيد على أعمالكم المخزية ، وسيجازيكم عليها ، فخافوه ، واتقوه ، ولا تكفروا .

أكثر من هذا :

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }
[الآية ٩٩]

أي : لم تمنعون الناس عن الإسلام ٠٠؟

ولم تصدون من آمن بالله عن الإلتزام بدينه ، والدعوة إليه ، تحقيقا للعدل والسلام في دنيا الناس ؟

هل تريدونها – أي دعوة الإسلام – معوجة بحصركم الإسلام في العبادات والروحانيات ، وعزلها عن الحياة والتأثير فيها ، والتوجيه لها ٠٠ ؟

تفعلون هذا ٠٠ وأنتم تشهدون بما تعرفون من كتبكم : أن الإسلام هو الحياة ، وأن الحياة لا تكون إلا بالإسلام ٠

وعلى كل : فليس الله بغافل عما تعملون ، وما تقوم به مؤسساتكم وأنظمتكم المعادية الكافرة للحيلولة دون هذا الإسلام ، وانتشاره وتطبيقه ، وانتصار دعائه في

حماية الحق والدفاع عن أهله ٠

ولهذا ٠٠ سيجازيكم عن كل ذلك بما تستحقونه ٠

*****

أيها الأحباب في الله ٠٠٠ !!

بعد هذه المواجهة الشديدة الواضحة مع أهل الكتاب ٠٠ !!

يفسر لنا المولى مواقفهم ٠

ويبين لنا ما ينبغي أن نستعصم به ٠

حيث يقول جل شأنه ٠

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ }
[الآية ١٠٠]

وهكذا ٠٠

يحذرنا الله تعالى من طاعة بعض أهل الكتاب .. الذين كل رغبتهم أن يخرجوا المؤمنين من دينهم إلى الكفر بالله تعالى ٠

ولولا أن بعض المؤمنين يطيعون أهل الكتاب ؛ فينصرفون عن دينهم ، ويصبحون حربا على بلادهم وإخوانهم في الدين ٠٠ !!

لما نهى الله ، بقرآن يتلى إلى يوم القيامة ، عن ذلك ٠

ولما تعجب ربنا عز وجل ، واستنكر ..

حيث يقول لهؤلاء الذين يطيعون ٠

{ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }
[الآية ١٠١]

أي : كيف يحدث ذلك منكم ولكم ، والقرآن يتلى عليكم ، وفيه الدلائل الواضحات التي تعصم من هذا الكفر ٠

وفيكم – كذلك – رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنته ، وسيرته ، يزيح عنكم الشبهات ، ويوضح لكم الآيات ٠

إن هذا ٠٠ لا ينبغي أبدا ٠

فاعتصموا بالله ، ولا تفعلوا ذلك ٠

حيث إن من يجعل ربه ملجأ وملاذا عند الشبه والفتن : يحفظه الله ٠

*****

شرع – عز وجل – في بيان ما يكمل المؤمنين في أنفسهم ٠٠
بقوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ }
[الآية ١٠٢]

وهكذا ٠٠ أمر من الله بتحقيق التقوى حق تقاته بأن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى ٠

وكذلك في الآية : نهى لنا أن نموت على غير الإسلام ٠

ويكون ذلك : بأن نحافظ على الإسلام وتعاليمه ؛ لنموت عليه ٠

لأن عادة الكريم ٠٠ أنه من عاش على شئ : مات عليه ، وبعث عليه ٠

* * *

وكذلك لتكميل المؤمنين في أنفسهم ٠٠ يقول عز شأنه :

{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }
[الآية ١٠٣]

أي : تمسكوا أيها المؤمنون بدين الله ، ولا تتفرقوا بعد التشرف بالدخول فيه ، والانتساب إليه ٠

واذكروا أيها المؤمنون ٠٠ إنعام الله عليكم .

إذ كنتم قبل الإسلام ، أو بغيره : أعداء ، فجمع بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته عليكم إخوانا في الدين والولاية والنصرة .

وكنتم – كذلك – على حافة حفرة من النار ، قبل الإيمان ، ليس بينكم وبين الوقوع فيها ٠٠ إلا أن تموتوا كفارا ؛ فأنقذكم منها بالإيمان ٠

وهكذا ٠٠ يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون إلى الصواب وما ينال به الثواب .

*****

أيها الأحبة في الله ٠٠

بعد أن أرشدنا ربنا إلى ما يعيننا على تكميل أنفسنا ، والوصول بها إلى طريق مرضاته ٠٠ !!

يرشدنا سبحانه ٠٠ إلى ما يعيننا على أن نساعد به غيرنا لبلوغ هذا الكمال٠٠

فيقول :

{ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
[الآية ١٠٤]

أي : ولتكن منكم جماعة ٠٠ يدعون إلى الخير ٠٠ كل الخير ، وهو : ما وافق الكتاب والسنة ، وأصلح البلاد ، وأسعد العباد ٠

ويأمرون بالمعروف ٠٠ كل المعروف ، وهو : ما أمر به الشرع أو أباحه ٠

وينهون عن المنكر ٠٠ كل المنكر ، وهو : ما نهى عنه الشرع ، أو حرمه ٠

وهؤلاء : هم المفلحون، الفائزون برضوان الله تعالى ٠

ويلاحظ : أن هذا الموضوع ٠٠ فرض كفاية ، يقوم به البعض فيسقط الإثم عن الجميع ٠

ولكن ٠٠ لو تركه الجميع : أثمت الأمة كلها ٠

ويلاحظ أيضا ٠٠ أن أمة يقوم بعض أفرادها بمهمة إرشاد الغير إلى الخير : لا ينبغي لها أن تكون كالأمم السابقة التي فشلت في هذه المهمة ٠

ومن هنا ٠٠ يقول عز وجل :

{ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }
[الآية ١٠٥]

أي : لا تكونوا ٠٠ أيها المؤمنون ، كالذين تفرقوا عن دينهم ، واختلفوا فيه ، من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات ، الموجبة للاتفاق على كلمة الحق ٠

وبسبب هذا التفرق والاختلاف : كفر بعضهم بعضا ٠

وهؤلاء لهم عذاب عظيم ٠

ومتى يكون ذلك ٠٠ ؟

يكون ..!!

{ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ }
[الآية ١٠٦]

يعني : في يوم القيامة تبيض وجوه أهل الحق والإيمان ، وتسود وجوه أهل الباطل والكفران ٠

وللمؤمن نوره ٠٠ ولو كان أسود اللون ٠٠ !!

وللكافر ظلمته ٠٠ ولو كان أبيض اللون ٠٠ !!

حيث العبرة : ببياض القلب أو سواده ٠

أي : فأما الذين اسودت وجوههم يوم القيامة ٠٠

فيقال لهم توبيخا وتبكيتا : لم كفرتم بمحمد صلى الله عليه وسلم حينما بعث ، وذلك بعد أن كنتم مؤمنين به قبل مبعثه ، حسبما كنتم تعرفون من أوصافه وصدقه في كتبكم ٠٠ ؟

على كل حال : ذوقوا العذاب ، واخلدوا فيه ؛ بسبب كفركم هذا ٠

{ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ١٠٧]

أي : وأما الذين ابيضت وجوههم يوم القيامة ٠٠ فلا يقال لهم ما يعكر صفوهم ، بل يقال لهم : سلام عليكم طبتم .

ثم ٠٠ يدخلون الجنة بفضل الله ورحمته ، ويقيمون فيها ٠٠ أبد الآبدين ٠

*****

ثم يقول رب العزة : لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ }
[الآية ١٠٨]

أي : هذه الآيات السابقة ·· المشتملة على : نعيم الأبرار، وتعذيب الكفار ·· نتلوها عليك بما فيها من حق وعدل ، إعلاما لك وللمؤمنين بأمور الدنيا والآخرة ·
وما يريد الله أن يظلم العالمين ، وما يفعل ذلك ·· !!
بل العدل فعله ·· كما أن العدل اسمه ، سبحانه وتعالى ·

* * *

ولم لا يكون ذلك ·· ؟

{ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ }
[الآية ١٠٩]

نعم ·· لله ما في السموات وما في الأرض ، ملكا ، وخلقا ، وعبيدا ·
وإلى حكمه وقضائه ومشيئته : ترجع الأمور كلها ·

*****

أيها الأحباب في الله ··!!
ما يزال ربنا عز وجل يتعطف على عباده المؤمنين ، فيثبتهم على الحق ، والدعوة إلى الخير ··
حيث يقول لهم :

{ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ }
[الآية ١١٠]

والمعني :أنتم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ·· خير أمة أظهرتها في الوجود ، لنفع الناس وخيرهم ؛ لأنكم ·· تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ·
وأنتم – كذلك – على هذه الخيرية ·· ما دمتم متصفين بهذه الصفات ، ومحافظين عليها ·

* * *

ولما مدح الله تعالى أمة محمد لمحافظتها على هذه الصفات :

ذم أهل الكتاب ، وأنبهم ٠٠

حيث إنه : لو آمن أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به ، لكان خيرا لهم مما هم فيه ، من : طلب الرياسة ، وحب الدنيا ، والكبر ، والحسد ، ٠٠ الخ

ولأنهم لم يؤمنوا ٠٠ فهم بالتالي : لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، بل يحاربون المعروف ، ويشيعون المنكر ٠

ولذا : لا خيرية فيهم ، ولا خير منهم ٠

ومع ذلك ، وللإنصاف :

فإن قليلا منهم ٠٠ يهتدي : فيؤمن بالله ، وما أنزل عليهم ، وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن : أكثرهم ، وغالبيتهم على الضلالة ، والفسق والعصيان ٠

فلا تخافوهم ٠٠ !!

فهم :

{ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ }
[الآية ١١١]

أي : ضررا جزئيا ، بسيطا ، لا يصل أبدا – بإذن الله تعالى – لدرجة : القضاء عليكم ، وإنهاء وجودكم ٠

وإذا حدث قتال بينكم – يا مؤمنين – وبينهم : لا يثبتون أمامكم ، بل يولوكم الأدبار ، أي يفرون منهزمين ٠

ولا يكون لهم نصر عليكم أبدا ٠

وهذه بشارة عظيمة للمؤمنين ، يوم أن يحققوا في أنفسهم وبأنفسهم الإيمان ٠

وبخاصة ٠٠ مع اليهود الذين :

*****

{ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ }
[الآية ١١٢]

أي : لزمتهم وفرضت عليهم الذلة ، أينما وجدوا ، في كل دولة يعيشون في ظلها ، وخوفهم الدائم فيها ٠٠ مما يضطرهم إلى فعل الذليل من الأعمال ، والأحوال ؛ نفاقا واتقاء شر يلحق بهم ٠

ولا ترفع عنهم هذه المذلة ٠٠ إلا بواحد من أمرين :

حبل من الله ، أي : إمداد من الله لهم ، و سلطان يعطيه سبحانه إياهم علينا ؛ بسبب ذنوبنا وظلمنا ، وبعدنا عن الإيمان ٠

أو حبل من الناس ٠٠ أي : إمداد من الناس ، كما هو مشاهد من مساندة قوى الظلم لهم في تمكينهم ، وتخاذل أهل الحق عن قطع حبل المودة لهم ، والخوف منهم ، والتعاون معهم٠

وكما لزمتهم الذلة ٠٠ أيها الكرام : فقد لزمهم غضب الله عز وجل ، ويرجعون بعقابه الأليم يوم القيامة ٠

وثالثا : لزمهم خوف الفقر ، حتى مع غناهم ، وامتلاكهم لبيوت المال في العالم ٠

وكانت هذه الذلة لهم ، والغضب عليهم ، والمسكنة فيهم : لأنهم كفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءهم ؛ حيث إن من طبيعتهم ارتكاب المعصية وممارسة العدوان ٠

*****

بعد هذا ٠٠ يؤكد سبحانه وتعالى : أنهم

{ لَيْسُوا سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ }
[الآية ١١٣]

أي : ليسوا على شاكلة واحدة ٠

حيث إنه : كما أن فيهم من ضربت عليهم الذلة والمسكنة .

ففيهم كذلك :

جماعة مستقيمة ، ثابتة على الإسلام ، قائمة بأمر الله ، مطيعة لشرعه ، متبعة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ويكثرون التهجد ، ويتلون القرآن في صلواتهم خلال قيام الليل ٠

وليس هذا فقط ٠٠ !!

بل إنهم :

{ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ }
[الآية ١١٤]

أي : هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات ٠٠ هم من جملة عباد الله الصالحين ، الذين رضي الله عنهم ٠

ثم يطمئن ربنا تبارك وتعالى ٠٠ أصحاب الطاعات ، والمسارعين في الخيرات ٠٠ على حفظ حقوقهم ، وعدم ضياع ثواب أعمالهم ٠٠

بقوله جل شأنه :

{وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ }
[الآية ١١٥]

أي : والذين يفعله هؤلاء الصالحون من أهل الكتاب ، – أو من غيرهم من المسلمين بالضرورة – من خير – مع الله ، أو مع الناس – فلن يضيع ثوابه ، أو يحرموا أجره أبدا ٠
حيث أنه :
أي : لا يخفى عليه سبحانه أمرهم ، ولا يضيع لديه ثوابهم ، بل يجازيهم أعظم الجزاء٠

أيها الكرام ٠٠
من تكريم الله لعباده المؤمنين الصالحين ٠٠ أنه يعمل على تثبيتهم على ما هم فيه ، وإراحة أنفسهم بالحق الذي همم عليه ٠٠ وذلك بكل السبل والوسائل التي تحقق ذلك ٠
وقد يكون ذلك أحيانا ٠٠ ببيان بعض أحوال أعدائهم ، وكشف هوانهم على الله تعالى ، وخيبة أملهم بضياع ما يعتمدون عليه ، ويستندون – في كفرهم بالله – إليه ٠
ومن ذلك :
ما نقرؤه الآن سويا إليه ، حيث يقول عز من قائل :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ١١٦]

أي : لا ينفع الكفار ، ولا يدفع عنهم عذاب الله تعالى دفع الأموال ، ولا حماية الأولاد ، التي كانوا يظنون أنها تنفعهم ٠
وهؤلاء : داخلون في النار ، ليس لهم غيرها ، مقيمون فيها لا يخرجون منها أبدا ٠

* * *

ويضرب المولى سبحانه – مثلا – لما كانوا ينفقون في الدنيا وهم يظنون أنه نافعهم ، وهو في الحقيقة : ليس بنافعهم .
فيقول :

{مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }
[الآية ١١٧]

أي : إن الذي ينفقون من أموالهم ، حال كفرهم بالله ، مهما كان قصدهم بإنفاقها ٠٠ فهي : مثل ريح ، فيها برد شديد ، في يوم عاصف ، أصابت أرض قوم آن أوان حصاد ثمارها ، فأهلكته ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالذنوب والمعاصي ٠

وليكن معلوما جيدا ، وواضحا جدا ٠٠

أنه :

لا يظلم ربك أحدا .

فأصحاب الذرع : كان إهلاك ثمارهم ؛ عقوبة لهم على معاصيهم ٠

والمنفقون من أهل الكفر : لم تقبل نفقاتهم ٠٠ لعدم إيمانهم بالله تعالى ٠

*****

أيها الأحباب في الله ٠٠

لاحظوا ٠٠ أن فيما قرأنا من الآيات الكريمة عن هؤلاء الكفار وفعلهم ٠٠ فيه : التحذير لنا ، والتنبيه الشديد ٠٠ على عدم الوقوع فيما وقعوا فيه من أخطاء ٠٠ !!

حتى لا ينالنا ما ينالهم من عقاب ٠

* * *

بل أكثر من هذا ٠٠

حيث ينهانا رب العزة ٠٠ أن نتخذ من هؤلاء الكافرين ٠٠ بطانة من الخبراء والمستشارين ، نطلعهم على أسرارنا ، ونكشف لهم أحوالنا وجميع أمورنا ، لما في ذلك من الخطورة علينا ٠

حيث يقول تبارك وتعالى :

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }

[الآية ١١٨]

وذلك : لأنهم لا يألونكم خبالا أي : لا يقصرون في إفساد دينكم أيها المؤمنون ، بتشويه تعاليمه ، وانتقاص صلاحيته ، كما لا يقصرون في إفساد أمركم ، حيث يسعون بالإيقاع بينكم ، وتفريق كلمتكم ، وتوهين قوتكم ، وإضعاف وحدتكم ، بما يملكون ، ويستطيعون من المكر والخديعة ٠

وما كل ذلك : إلا لرغبتهم الشديدة ، في إضراركم دينا ودنيا ، أشد الضرر وأبلغه ٠

وهم ٠٠ مع ضبطهم لأنفسهم ، وكتمانهم لعداوتهم لكم : ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين ، حتى ولو علل بعضهم ، ما يظهر من ذلك بأنه (زلة لسان) ومع كل ذلك : فإن ما تخفيه صدورهم من البغض لدينكم ، والعداوة لكم ٠٠ أكبر مما قد ظهر على صفحات وجوههم ، وزلات ألسنتهم٠

وقد وضحنا لكم أيها المؤمنون ٠٠ الآيات الدالة على وجوب الإخلاص لله تعالى ، وموالاة أوليائه ، والحذر من أعداء الإسلام ، وعدم اتخاذهم بطانة لكم ومستشارين ٠

وهذا التوضيح : من اجل أن تعقلوا هذا الأمر ٠٠ فتفهموه جيدا ، وتعرفوا أضراره عليكم منهم ؛ فتلتزموا فيه بتعاليم ربكم ٠

*****

وبعد هذا التوضيح ٠٠

ينبه الله المؤمنين على خطئهم في موالاة أعدائهم وعدم البراءة منهم ، والقطيعة لهم ، والبعد عنهم ٠

حيث يقول تبارك وتعالى :

{هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }

[الآية ١١٩]

أي : هاأنتم أيها المؤمنون تحبون أصنافا من دونكم ، وهم لا يحبونكم ، بل تبذلون محبتكم لأهل البغضاء ، فتجعلونهم بطانة ، وهم لكم أعداء ٠

كما أنكم ٠٠ تؤمنون بكل كتاب أنزله الله على رسول من رسله الكرام ، وهم لا يؤمنون ، بل ينافقون .

وإذا تقابلوا معكم ، أو اجتمعوا بكم: قالوا آمنا وأظهروا لكم من الأقوال ما يطمئنكم إليهم ويحببهم إليكم !!..

وإذا فارقوكم ، أو خلا بعضهم إلى بعض عضوا أطراف أصابعهم ، وأظهروا أشد الغيظ منكم ، والحقد لكم ، والحنق عليكم ٠

وفي هذه الآية – كما هو واضح أيها الأحبة – توبيخ شديد لنا معشر المؤمنين ، على محبتنا لمن دوننا من أهل الكتاب ، فضلا عن غيرهم ٠٠ !!

إذ كأننا – بهذا التصرف – أضعف منهم في الحق الذي نحن عليه ، وهم أصلب منا في الباطل الذي هم عليه ٠

* * *

وبعد هذا البيان التوبيخى ، يعلمنا عز وجل الموقف الصحيح منهم ٠

وهو : عدم موالاتهم ، واتخاذ بطانة منهم ، وعدم حبهم ، أو التودد إليهم ٠

بل إن الواجب : إعلان البغضاء لهم ، والقطيعة معهم ··

قل أيها المؤمن بلسانك ولسان حالك لهؤلاء الحاقدين لكم موتوا بغيظكم فإنا لا نطيعكم ، ولا نتخذ بطانة منكم ، والله متم نعمه على عباده المؤمنين ، ومكمل دينه ومعل كلمته ، ومظهر عباده ، فازدادوا غيظا إلى غيظكم ، حتى تهلكوا به ·

إن الله عليم بذات الصدور أي : فيجازيكم عليه في الدنيا ، حيث يتحقق خلاف ما تأملون فيه ، ويجازيكم عليه في الآخرة بالعذاب الشديد ·

* * *

ثم يبين الله عز وجل : شدة عداوتهم لنا ، وشماتتهم فينا ؛ لنزداد بصيرة بموقفهم منا ، وتقوى عزائمنا في موقفنا منهم ، فلا نتخذهم بطانة ، بل أعداء لنا ·

حيث يقول عز من قائل :

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

[الآية ١٢٠]

أي : يحزنهم ما يفرحكم ، ويفرحهم ما يحزنكم ، وهذا منتهى البغض منهم ، والعداوة لكم ·

* * *

وأمام موقفهم هذا ··

يدلنا رب العزة على : ما إن تحلينا به ، وتحققنا منه ، لا يضرنا كيد غيرنا لنا.

وذلك في قوله : إن تصبروا على الطاعة ، وعن المعصية ، وعلى ابتلاءات الله لكم ··!!

وتتقوا الله – في ذات الوقت – وتجتنبوا محارمه : تكونون في معية الله وحفظه ، ولا يضركم مكرهم ، و خططهم ضدكم شيئا ·

ذلك حيث إنه : عالم ومحيط بمكرهم ضدكم ، فيحبطه لهم ، وينجيكم منه ، ومن ضرره بكم ·

*****

هذا ·· وبعد أن نهى الله المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم ، ووضح أسباب ذلك ·· !!

وبعد أن وعد المؤمنين – كذلك – بإحباط مكر الكافرين في حال الصبر والتقوى ·· !!

شرع في ذكر قصة "غزوة بدر" وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين ، والتمييز بينهم وبين المنافقين .

حيث يقول للحبيب صلى الله عليه وسلم :

{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}
[الآية ١٢١]

أي : واذكر يا محمد حينما خرجت من أهلك بالمدينة تنزل المؤمنين بمراكز وأماكن يقفون فيها لقتال العدو يوم أحد ، والله سميع لأقوالكم ، عليم بما في نفوسكم .
واذكر كذلك :

{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}
[الآية ١٢٢]

أي : اذكر وقت أن همت طائفتان من المؤمنين .. أن تنصرفا من ساحة المعركة ، حينما انسحب منها رأس النفاق بالمدينة ، وهو عبد الله بن أبي بن سلول .
ولكن الله عز وجل المتولي أمرهما ، وأمر الجميع – ثبتهما .. فلم ينصرفا.
وهذا : من فضل الله ، الذي نتعلم منه .. أن نسلم كل أمورنا إليه ، حيث إن مفاتيح القلوب بيديه سبحانه وتعالى ، وأن نتوكل عليه ، وألا نخالف أمره .
حقا ..
.. وعلى الله فليتوكل المؤمنون .
لاحظوا أيها الأحباب : أن هذا أمر صريح بالتوكل عليه ، والتفويض في كل الأمور إليه .
فهل نمتثل .. ؟

*****

أيها الكرام ..
لما كانت الآيات التي قرأناها تتحدث عن " غزوة " هزم فيها المسلمون عسكريا ؛ بسبب مخالفتهم لأوامر قيادتهم ، وصيانة لهم من أن تحدث هذه الهزيمة العسكرية ، ضعفا – ولو بسيطا – في نفوسهم .. !!
ذكرهم الله تعالى بيوم من أيام النصر ، تقوية لقلوبهم ، وتسلية لنفوسهم ، وشحذا لعزائمهم ..
حيث يقول سبحانه :

{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}

[الآية ١٢٣]

أي : نصركم الله يوم غزوة بدر ، وأنتم أقلية في العدد والعدة ، وأعداؤكم كثرة في العدد والعدة ٠
فاتقوا الله ، واستقيموا علي أمره وشرعه ، وأخلصوا الود للمؤمنين ، ولا تخشوا إلا الله تعالى لعلكم بذلك – وليس بغيره – تشكرون ربكم على إنعامه عليكم ٠
واذكر يا محمد :

{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ }
[الآية ١٢٤]

أي : تقول للمؤمنين ؛ تقوية لهم ، وربطا على قلوبهم ، وتثبيتا لأقدامهم في ساحة المعركة ألن يكفيكم أن يمدكم ويعينكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من عنده سبحانه ٠٠ ؟

{ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ }
[الآية ١٢٥]

بلى ٠٠ أي : يكفيكم ذلك ٠
لاحظوا أيها الأحباب : رعاية الله للمؤمنين ٠
حيث أمدهم أولا بألف من الملائكة ، كما في سورة الأنفال إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين الآية ٩ .
وهنا : صارت الملائكة ثلاثة آلاف أمدهم سبحانه بها ثانيا ٠
ثم ٠٠ أمدهم ثالثا بخمسة آلاف من الملائكة مسومين أي : معلمين معروفين ٠
على كل حال :

{ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }
[الآية ١٢٦]

أي : ما جعل الله إنزال الملائكة ، وإعلامكم بإنزالهم ؛ إلا بشرى لكم ، وتطيبا لقلوبكم ، وتطمينا لها ٠
وإلا فإن النصر من عند الله ، لا من عند المقاتلين ، ولا من عند الملائكة .. وإن كان هذا وذلك من الأسباب ٠

*****

أيها الأحباب في الله ٠٠
يبين ربنا عز وجل – بعد ذلك – بعض أسباب تشريع الجهاد ؟
ولماذا كلف به عباده ، ووعدهم عليه بالنصر ٠٠ ؟

حيث يقول :

{لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ }
[الآية ١٢٧]

أي : ليهلك طائفة من الذين كفروا ، أو يهزمهم ؛ فيرجعوا مكبوتين خائبين ، لم ينالوا مبتغاهم في إيذاء المسلمين ٠

* * *

ثم يوضح المولى : أن علينا الطاعة لأوامره ؛ حيث إن له الحكم في الدنيا والآخرة ٠٠
حينما يقول :

{لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}
[الآية ١٢٨]

أي : إن الأمر لله وحده ٠٠ إما أن يتوب على هؤلاء الكفار ويهديهم بعد الضلال ، وإما أن يعذبهم إن أصروا على الكفر ؛ حيث إنهم في هذه الحالة ظالمون يستحقون العذاب ٠
ثم يقدم ربنا تبارك وتعالى ما هو كالدليل على أن الأمر له وحده ٠٠
إذ يقول :

{ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ١٢٩]

أي : الجميع ملك له ، لا معقب لحكمه ، إن غفر فبالفضل ، وإن عذب فبالعدل ، و الله سبحانه غفور رحيم ، سبقت رحمته غضبه ٠
وبعد أن حذر المولى عباده المؤمنين ٠٠ من أخطر قضيتين يمكن أن تتساهل فيهما ٠٠
وهما :
طاعة أهل الكتاب .

واتخاذ بطانة من غير المؤمنين .
بعد ذلك :
ينهى عباده المؤمنين عن أكل الربا .
فيقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
[الآية ١٣٠]

وهذا نهى عن الربا ؛ حيث إن من طبيعته مضاعفة الدين : أن يؤدي إلى امتصاص دماء الناس ، وأكل أموالهم بغير حق ٠
ثم أمر المولى عباده بالتقوى ٠٠
وذلك بترك الربا لعلكم تفحلون في الدنيا والآخرة ٠
ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها ، عند المخالفة لأوامره ، وارتكاب نواهيه ٠
فقال عز من قائل :

{ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }
[الآية ١٣١]

يقول الإمام أبو حنيفة رحمه الله : هذه أخوف آية في القرآن ؛ حيث توعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ، إن لم يتقوه في اجتناب محارمه ٠
اللهم ٠٠ نجنا من غضبك ومن عذابك يا رب العالمين ٠

* * *

ولكن من كرمه تعالى أيها الأحباب في الله ٠٠ !!
أنه أطمع المؤمنين في نوال رحمته ٠٠ !!
وذلك : بدعوته لهم ٠٠ أن يسلكوا طريق طاعته سبحانه ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ٠
إذ يقول :

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }
[الآية ١٣٢]

أي : وأطيعوا الله فيما يأمركم به وينهاكم عنه ، من أكل الربا ، وغيره ٠

وأطيعوا الرسول كذلك ؛ فإن طاعته : من طاعة الله تعالى ٠

*****

ثم ندب ربنا عز وجل المؤمنين : إلى المبادرة إلى فعل الخيرات ، والمسارعة إلى نوال القربات ٠٠
فقال سبحانه :

{ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ }
[الآية ١٣٣]

أي : وسارعوا أيها المؤمنون إلى الأعمال الصالحة ، التي تؤدي بكم إلى نوال مغفرة من ربكم لذنوبكم ٠
وكذلك : إلى دخول جنة واسعة عرضها كعرض السماوات والأرض ، أما طولها فلا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ٠
أعدت وزينت للمتقين اللهَ تعالى ٠٠ بعمل الطاعات ، وترك المعاصي ، كما أعدت النار للكافرين ٠

* * *

ثم وصف الله المتقين ، أهل الجنة ٠٠ بقوله عز وجل :

{ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ١٣٤]

الصفة الأولى : إنفاق الأموال والجهد في طاعة الله ٠٠ في جميع الأحوال ٠
الصفة الثانية : كظم الغيظ وإمتلاك أنفسهم عنده ، وعدم التصرف عند الغضب بما يؤدي إليه ، ولا يعلمون أحدا به ، إحتسابا لله تعالى ٠
الصفة الثالثة : العفو عن الناس ، فلا يؤاخذون أحدا بذنب جناه عليهم ، بل يعفون ويسامحون ٠
الصفة الرابعة : الإحسان إلى المسئ ، وهي متاجرة مع الله تعالى ، حيث إنه يحب صاحب هذه الصفة ، وكفى بذلك مكسبا ٠
ثم ذكر المولى الصفة الخامسة من صفات هؤلاء المتقين ٠٠
فقال :

{ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }

[الآية ١٣٥]

نعم ..

ذكر الله عند الذنب ، والخوف من عقابه ؛ بما يبعث على التوبة ، والإقلاع عن المعصية ، والندم على إقترافها .. هو الصفة الخامسة .

وسواء كان ذكر الله تعالى باللسان والقلب ، أو بالقلب فقط : فإن المهم منه .. ما يقود العبد إلى طلب المغفرة من الله تعالى ، على ما صدر من ارتكاب فاحشة كبيرة ، أو ظلم للنفس بالوقوع في معصية دون ذلك .

المهم .. أن لا يكون هناك إصرار واستمرار على ارتكاب الفاحشة ، أو الوقوع في المعصية ، أو استهانة بعقابها .

وأن يكون لديهم العلم بأنه لا يغفر الذنب إلا الله سبحانه وتعالى ..

ومن هنا فتوبتهم إليه : متجددة ودائمة ، وعن قناعة بأنه الغفور الرحيم .

* * *

أيها الكرام ..

إذا كانت هذه هي صفات المتقين .. !!

فنحب أن نعرف سويا جزاءهم .

يقول تعالى :

{ أُولَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ }

[الآية ١٣٦]

هؤلاء الذين وصفوا وتحققوا بهذه الصفات جزاؤهم عند ربهم ..

أولا : مغفرة لذنوبهم ، وعفو كريم من الله تعالى عنهم .

ثانيا : جنات تجري من تحتها الأنهار ، يدخلونها ، يقيمون فيها ، لا يخرجون منها ولا يموتون أبدا.

وتختم الآية بهذا الترغيب في عمل الطاعات .

إذ يقول ربنا تبارك وتعالى :

ونعم أجر العاملين بالطاعات .. هذا الأجر .

أي : هل هناك من يطلب في يوم الجزاء .. أفضل من هذا .. ؟

فكونوا إذا من المتقين الموصوفين بهذه الصفات الجميلة .

*****

أيها الأحباب في الله .. !!

لاحظوا أن الآيات الكريمة كانت تحدثنا : عن غزوة أحد ، وغزوة بدر .

ثم انعطف الحديث من باب التعليم لنا في ثنايا الحديث عن الجهاد ، إلى موضوعات أخرى – مثل النهي عن أكل الربا ، والتخويف من النار ، والترغيب في الجنة والتحلي بصفات أهلها – ثم يعود الكلام إلي موضوع الجهاد مرة أخرى ٠٠

حيث يقول تعالي :

{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }
[الآية ١٣٧]

أي : مضت سنة الله في المخالفين لشرع الله ، ودعوات أنبيائهم بالإهلاك ، وسنن الله لا تتغير ولا تتبدل ، فسيروا في الأرض ، واعرفوا أحوال أممها ، وانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ٠

ولعل هذه المعرفة ٠٠ تفيدكم في طاعتكم لله تعالي وتعينكم على متابعة نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم ٠

كما تفيدكم في عدم الحزن حينما يتغلب الكفار أحيانا ، وتعلو رايتهم ٠٠

واعلموا أنى أمهلهم لوقت إهلاكهم الذي سبق في علمي ، ولا أهملهم بدون عقاب٠

ثم يقول ربنا عز وجل :

{ هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ }
[الآية ١٣٨]

هذا القرآن ٠٠

بيان وتوضيح بما يحتاجه الناس كلهم ، لصلاح دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم ٠

وهدي لمن اتبع ما فيه ؛ حتى لا يقع في الضلال والغواية ٠

وموعظة – في ذات الوقت – ينتفع بها المتقون منهم ٠

*****

وبعد هذا البيان العام ٠٠ !!

يقبل ربنا على أوليائه المتقين المجاهدين : بالموعظة والدروس ، من خلال تجربة عملية ٠٠ هي ماجرى يوم أحد ٠

حيث يقول تعالى لهم :

{ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ١٣٩]

أي : ولا تضعفوا عن الجهاد ، بسبب ما أصابكم ، أو يصيبكم ٠

ولا تحزنوا على ما أصابكم في سبيل الله ، وأعلموا – جيدا – أنكم أنتم الأعلون ؛ إن صح إيمانكم ، وقويت عزيمتكم ٠

وهذه ٠٠ بشارة للمؤمنين : بالعلو ، والغلبة والنصر ، في النهاية

كما تفيد الآية : أن صحة الإيمان وقوته ٠٠ تؤدي إلى : قوة القلب ، والثقة بوعد الله ، وقلة المبالاة بالأعداء وكثرتهم وعدتهم ٠

ثم يقول لأوليائه :

{ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }
[الآية ١٤٠].

أي : إن أصابكم أذى من عدوكم : فلا تهنوا ، ولا تحزنوا ، بل تجلدوا وتماسكوا ٠٠ فقد أصابهم كذلك ما أصابهم وتماسكوا وهم على الباطل ٠٠ فأنتم أولى بالتماسك وعدم التخاذل منهم لأنكم على الحق ٠

ويذكر ربنا سبحانه سنة من سننه ٠٠

فيقول : نحن نصرف ما في العالم من نعم ونقم ، بين الناس ، فنعطي لهؤلاء تارة ، ونعطي لغيرهم تارة أخري ٠

وذلك : لحكم وعلل كثيرة ٠

قد تعلم ويعرفها الناس ، وقد لا يعرفها أحد ..!!

ومن هذه الحكم في هذه المداولة : أربع ٠

ثلاث منها ٠٠ حينما تكون الغلبة على المسلمين ٠

وواحدة ٠٠ حينما تكون الغلبة للمسلمين ٠

وذلك : ليتميز المؤمن المخلص ٠٠ من الذي يرتد عن دينه ؛ بسبب المصاعب والمشقات من أجل نصرة هذا الدين ٠

وكذلك : ليكرم الله بعض المؤمنين بنوال الشهادة ، حيث يقتلون في سبيله ٠

ويلاحظ جيدا بعد ذكر هاتين العلتين :

انه من ليس مجاهدا ، أو على نية الجهاد ، صادقا مخلصا لله في ذلك : فهو ظالم لنفسه ٠٠ والله لا يحب الظالمين ٠

ويذكر ربنا عز وجل ٠٠ الحكمة الثالثة ، والحكمة الرابعة ٠٠ في قوله تعالى :

{ وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ }
[الآية ١٤١]

أي : ليميز الله الذين آمنوا ، وأخلصوا لله من غيرهم ؛ إن كانت الغلبة لغير المسلمين ٠
وكذلك : ليمحق الذين كفروا ويهلكهم ، ويمحو آثارهم وأفكارهم ؛ إن كانت الغلبة للمسلمين ٠

*****

هذا ٠٠ ويصحح المولى عز وجل مفهوما مغلوطا يقع فيه كثير من الناس ٠٠
وهو أن دخول الجنة ٠٠ يكون بدون جهاد ، وصبر ٠
حيث يقول :

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ }
[الآية ١٤٢]

أي : هل ظننتم أن دخول الجنة ٠٠ يكون بلا جهاد للنفس والهوى والشهوات والشياطين ؛ إمتلاكا لأسباب القوة ، و استعلاء على الوقوع في مستنقع الرذائل٠٠؟
وكذلك : بلا جهاد الأعداء نشرا للدين ، ودفاعا عن أهله وصيانة لحرماته ومقدساته ٠؟
وظننتم كذلك : أن دخول الجنة ٠٠ يكون بلا صبر على فعل الطاعات ، وعن ارتكاب المعاصي ، وعلى التحمل عند الابتلاءات ، وعلى الثبات والقوة في ميادين الجهاد إن كنتم تظنون ذلك : فأنتم على خطاء كبير ٠
ثم وبخ الله الذين تمنوا الحرب في يوم أحد ، وهو توبيخ لكل من كان مثلهم ٠
حيث يقول :

{ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ }
[الآية ١٤٣]

إذ قلتم ليت لنا يوما كيوم بدر ، لننال ما نال شهداؤه ٠
فتمنيتم الحرب ، وتسببتم فيها وقد وقعت ، ثم خالفتم ، ولم تلتزموا تعاليم قيادتكم ، فانهزمتم ٠
ولعله – كذلك – توبيخ على تمنى الموت ؛ حيث إن في تمنيه ٠٠ تمني غلبة الكافرين .
بل على المسلم : أن يتمنى الشهادة ؛ لينال كرامتها ، ولينتصر الإسلام والمسلمون .
وفي الصححين ٠٠ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم : لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافيه ، فإذا لقيتموهم : فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ٠

*****

هذا ٠٠ ولما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد ٠٠ !!

ولما قال أحد المشركين ، وأشاع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل ٠٠ !!
ولما بدأ الضعف يدب في نفوس بعض المسلمين ؛ بسبب ذلك ٠٠ !!
أعطى الله المسلمين درسا يفيدهم ومن بعدهم ، إلى يوم الدين ٠
حيث قال :

{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ }
[الآية ١٤٤]

أي : محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠ رسول كالرسل ٠
وقد مضت الرسل ، وماتوا من قبله ٠
وسيمضي هو كما مضوا ، ويموت كما ماتوا من قبله ٠
وكما أن أتباع الرسل السابقين عليهم السلام ٠٠ ظلوا متمسكين بدينهم بعد وفاة رسلهم : فعليكم أن تتمسكوا بدينه ، وتنشروا تعاليمه ، وتجاهدوا من أجله ، بعد وفاته.
ولا ينبغي أن يكون منكم ترك لذلك ، أو ضعف عنه ٠
ثم قال تعالى مستنكرا على من ضعف منهم : أفإن مات ، أو قتل : تركتم هذا الدين ..!!؟
على كل حال : من يرتد عن هذا الدين ، بسبب موت النبي ، أو بسبب معاداة دينه ، ومحاربة تعاليمه ، أو انكار صلاحيتها ٠٠ فلن يضر إلا نفسه ٠
أما من ثبت على كل حال ، وقام بطاعة الله ، وقاتل عن دينه ، واتبع رسوله حيا وميتا فهو من الشاكرين لنعمة الإسلام ، وسيجزيهم الله خير الجزاء ٠

*****

وبعد هذا – أيها الكرام – يشجع الله الجبناء ، ويبث فيهم الثقة ، ويرغبهم في الجهاد.
إذ يقول :

{ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ }
[الآية ١٤٥]

نعم ٠٠
فإن الإقدام أو الإحجام : لا ينقص من العمر ، ولا يزيد فيه ؛ حيث إنه لكل أجل كتاب ..؟
فلم انهزمتم ٠٠ ؟
والهزيمة لا تدفع الموت .

والثبات لايقطع الحياة ۰۰ ؟
على كل حال :
من كان عمله للدنيا فقط : نال منها ما قدره الله له ، ولم يكن له في الآخرة نصيب ۰
ومن قصد بعمله الدار الآخرة : أعطاه الله منها ، مع ما قسم له في الدنيا ۰
وسنعطى الشاكرين من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة ، بحسب شكرهم لنا ، وعملهم لمرضاتنا ۰

*****

وبعد ذلك – أيها الأحبة في الله – يقول ربنا تبارك وتعالى ، مسليا للمسلمين عما وقع في نفوسهم يوم أحد ۰

وهو – في ذات الوقت – تعليم لهم إلى يوم القيامة ۰

{ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ }
[الآية ١٤٦
]

أي : وكم من نبي قاتل معه من أصحابه ۰۰ ربانيون ، عالمون ،عاملون ، أتقياء فصبروا ، ومافروا عندما قتل نبيهم ، وما ضعفوا عن القتال في سبيل الله ، وما استكانوا وسكتوا عن الجهاد۰
والله يحب الصابرين على الإسلام ، المتمسكين به ، المجاهدين أعداءه ، من أجل نشره ، وإعلاء مبادئه.

* * *

وبعد أن بين الله تعالى محاسن أهل الإيمان الفعلية :
يبين محاسنهم القولية ۰
حيث القول عز وجل :

{ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }
[الآية ١٤٧]

أي : لم يكن لهم من قول ، ولا على ألسنتهم من كلام في كل حال – وبالأخص عند الشدائد ، ولقاء العدو – إلا هذا الدعاء ۰
ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا

مقدمين طلب المغفرة على ما هو الأهم بالنسبة لحالهم ؛ لتكون الإجابة أقرب إليهم ، لما في ذلك من الخضوع لله ، والركون لجنابه سبحانه .

إذ قالوا بعد ذلك داعين وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ٠

ولذلك : استحقوا ما ذكره الله تعالى في قوله :

{ فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ١٤٨]

أي : جمع الله لهم خيري الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا النصر ، وفي الآخرة المغفرة والجنة ٠

وهو جزاء حسن ٠٠ يناسب المحسنين ، الذين يحبهم الله تعالى .

*****

وبعد هذا البيان الإلهي لحال الربانيين ، وجزائهم عند ربهم : يزجر الله المؤمنين ، ويبعدهم ، وينفرهم عن متابعة الكفار ، وطاعتهم ٠

حيث يقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ }
[الآية ١٤٩]

وذلك : لأن طاعتهم تورث الهلاك في الدنيا والآخرة ، حيث إنهم يردوكم عن دينكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين .

ولهذا ٠٠ يأمر ربنا تبارك وتعالى أهل دينه ، وأتباع نبيه عليه الصلاة والسلام : بطاعته ، وموالاته ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ٠

حيث يقول :

{ بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ }
[الآية ١٥٠]

يعني : ليس هؤلاء الكفار أنصاركم ، حتى تطيعونهم ، بل الله ناصركم ، فأطيعوه ٠

كما أنه خير الناصرين ٠٠ المستحقين للطاعة ، الجديرين بالاستعانة
به دون غيره ٠

* * *

ثم بشر الله المسلمين بأنه سيلقى الرعب في قلوب أعدائهم ٠
حيث قال:

{ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ }
[الآية ١٥١]

يعني : سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب منكم ، والخوف من مواجهتكم ٠
وهذا ٠٠ من أعظم مظاهر النصرة من الله ؛ حيث إنه من المعلوم أن الجيوش التى تفقد معنوياتها : لا تستطيع القتال ، بل لا تستطيع أن تستعمل سلاحها ٠
وقد أعطى الله المسلمين ذلك ٠٠
ففي الحديث الشريف نصرت بالرعب مسيرة شهر
وذلك الرعب للكافرين من المسلمين : بسبب شركهم بالله تعالى ، وكفرهم بآياته ورسله ، من دون حجة لهم ٠
كما أننا : نجعل مأواهم النار سكنا ومثوى لهم وبئس مثوى الظالمين الكافرين ٠

*****

أيها الإخوة والأخوات في الله ٠٠
لما عاد المسلمون إلى المدينة بعد غزوة أحد ، وجلسوا يتدارسون ما حدث ، وأدلى كل منهم بدلوه ٠
أنزل الله تعالى :

{ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ
مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ١٥٢]

أي : صدقكم الله وعده بالنصر ، وحققه لكم أول النهار ؛ إذ تقتلونهم ، وتغلبونهم بإذنه ٠
حتى فشلتم في الثبات ، وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم قادتكم من بعد أن رأيتم ما تحبون ، وهو النصر ٠٠
إذ كان منكم من يريد الدنيا ومتاعها ، كما كان منكم من يريد الآخرة ونعيمها ٠٠

ثم صرفكم بهذا الخلاف عن متابعة عدوكم ، ومراقبته ، ومقاتلته ، إلى الهزيمة ، ليمتحنكم ، فيظهر المخلص الثابت من غيره ٠

ولقد عفا عنكم بفضله ٠٠ لما علم ندمكم على هذه من المخالفة ٠

والله سبحانه صاحب الفضل على المؤمنين ٠٠ في كل شئ ٠

ومن ذلك الفضل :

عدم تسليطه الكافرين عليهم – في هذه الحال – ليستأصلهم ، ومنع الكافرين من متابعة القتال ٠٠ حتى لا ينهوا أمر المسلمين ،

ومن ذلك الفضل أيضا :

العفو عنهم ، وقبول التوبة منهم ٠

***** ثم بين الله تعالى : كيف تم هذا الصرف الذي ذكره في قوله

ثم صرفكم عنهم .. فقال :

{ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }

[الآية ١٥٣]

ومعني الآية ٠٠ ولقد صرفكم الله عنهم ، بسبب مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصبحتم : بعد النصر عليهم ٠٠ تصعدون في الهروب ، وتستمرون فيه ، بعضكم دخل المدينة ، وبعضكم إنطلق إلى الجبل ، لا يلتفت الواحد منكم إلى

أحد ، وخلفتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا من ثبت معه منكم ، وهم قليل ، وهو يدعو الفارين منكم ، قائلا : إلى عباد الله ، إلى عباد الله ٠

وكان الجزاء على هذا الفعل منكم : غَمَّا أصبتم به ، وأذاقكم الله إياه بعد غم من الجراح ، والقتل ، وفوت الغنيمة ، وضياع النصر ٠

وكل ذلك الغم والهزيمة ٠٠ بسبب عدم خلوص النية من البعض فيكم ٠

ثم بين رب العزة ٠٠ الحكمة فيما حدث ٠

وهي : تدريب المسلمين على تحمل المصائب ، وعدم الجزع لها ، لكي لا تحزنوا فيما بعد على ما يفوت من المنافع ، ولا على ما يقع لكم من المصائب والابتلاءات .

ثم رهبهم سبحانه من الوقوع في المعصية بعد ذلك ، ورغبهم في طاعته ٠٠ بهذا الختام الرائع للآية الكريمة ٠

حيث قال والله خبير بما تعملون .

*****

هذا ..

ولكن رحمة الله بعباده المؤمنين الصادقين لم تتخل عنهم ، في هذا الوقت العصيب .

حيث يقول تبارك وتعالى :

{ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }

[الآية ١٥٤]

أي : أنزل الله على طائفة منكم : الأمن ، والسكينة ، والثبات ؛ حتى أخذكم النعاس ، الذي يمسح عن نفوسكم الهم والغم الذي أصابها ، بسبب هذه الهزيمة .

وهناك طائفة منافقة : لا يهمهم إلا أنفسهم ، ونجاتها ، فلا يهتمون بالدين ، ولا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، و لا بالجماعة المسلمة .

هؤلاء : لا يغشاهم النعاس .. من القلق ، والخوف ، والفزع .

هؤلاء : يظنون بالله غير الحق ، حيث يشكون في نصر الله لرسوله ،

ولجنده ، ولدينه .

وهذا : هو ظن الجاهلية ، الذي لا يظنه إلا أهل الشرك ، الكارهون

للاسلام ولرسول الله صلى الله عليه وسلم .

بل أكثر من ذلك .. !!

فهم يقولون بسبب ضعف عزيمتهم ، وقلة يقينهم : هل لنا في النصر الذي وعدنا به حظ ونصيب ، بعد هذه الهزيمة ، إنها النهاية لهذه الدعوة .

وفاتهم الإيمان بأن كل شئ بيده سبحانه .. من نصر ، أو هزيمة .

وعلى هذا : يجب التسليم لأمره ، والرضا بقضائه ، والمسارعة في مرضاته سبحانه .

* * *

ثم يكشف ربنا للحبيب صلى الله عليه وسلم ما يدور بينهم .

ويبين : أنهم يقولون فيما بينهم وبين أنفسهم ، خوفا ورهبة ، لو كان الأمر كما قال محمد .. لما غلبنا قط ، وما قتل منا من قتل في هذه المعركة .

ولو كان الأمر بأيدينا ، والاختيار لنا في الاشتراك بهذه المعركة ، ما كنا خرجنا ، وما قتل منا من قتل ، ولكنا أخرجنا كرها .

وهذا .. أيها الكرام : من شك المنافقين في صدق هذه الدعوة وصاحبها عليه الصلاة والسلام .

قل لهم يا محمد : قدر الله ينفذ لا محالة .. ولو قعدتم في بيوتكم ، لبرز وخرج من هذه البيوت ، من كتب عليه القتل ، إلى مصارعهم وأماكن موتهم ، لا يمنعهم من قدر الله مانع ٠

هذا ٠٠

وقد حدث في أحد ما حدث، وفعل الله ما فعل ؛ لفوائد كثيرة للمسلمين ٠

وذلك : ليختبر الله ما في صدوركم من الإخلاص والنفاق ، وليميز ما في قلوبكم من وساوس الشيطان ٠

وهذا – كما يلاحظ – من التربية للمسلمين بالشدائد ٠

وهو سبحانه عليم بما في القلوب ، لا يخفى عليه شئ مما فيها ٠٠ وإنما يبتلى بالشدائد والمحن ليظهر للناس المؤمن من المنافق ، والصادق من الكاذب ٠

*****

ثم يبين ربنا عز وجل السبب في هزيمة من هزم يوم أحد – تعليما لنا ودعوة إلي طاعته – بقوله سبحانه :

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ }

[الآية ١٥٥]

يعني : أن الذين خالفوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وتركوا مواقعهم ٠٠ كان ذلك منهم : بسبب إغواء الشيطان لهم ، ولم يكن عنادا منهم ، ولا فرارا من الزحف رغبة في الدنيا ٠٠

إنما هو الضعف البشري ، وإغواء الشيطان ٠

ولذلك ٠٠

يبشرهم الله بعفوه عنهم ٠٠

حيث غفر الله لهم ، وتجاوز عما كان منهم ، فهو سبحانه : يغفر الذنوب ، حليم لا يعاجل بالعقوبة ٠

*****

ثم ينهي الله عباده المؤمنين ٠٠ عن التشبه بالمنافقين ، في أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم ٠

فيقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

أي: لا تكونوا أيها المؤمنون كهؤلاء الكفار في اعتقادهم الفاسد ، الذين يقولون عن إخوانهم في النسب أو في السلوك أو في الإعتقاد ؛ حينما يسافرون للتجارة ، أو للغزو والحروب ثم يموتون خلال ذلك .

يقولون عنهم : لو كانوا عندنا ما ماتوا في السفر ، ولا قتلوا في الغزو ٠

سبحان الله ٠٠ !!

لقد خلق هذا الإعتقاد الفاسد ، في نفوسهم : ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم ٠

ولذلك :

صونوا من هذا الفهم الفاسد قلوبكم – أيها المؤمنون – وتحلوا دائما بالإيمان بقضاء الله وقدره ، وأنه لكل أجل كتاب ٠

ثم رد الله قولهم الباطل واعتقادهم الفاسد ٠

وبين أن الأمر بيد الله ، ولا يحيا أحد ولا يموت في موعده المقدر إلا بمشيئته سبحانه ، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص إلا بقضائه وقدره ٠

وهذا : رد على اعتقادهم الفاسد من جهة ، وتعليم للمسلمين صحيح العقيدة من جهة أخرى ٠

وبعد توضيح هذا الإعتقاد الفاسد في الموت في سبيل الله ٠٠ والتصحيح له ٠

يبين رب العزة : فضله ، والجزاء العظيم عليه ٠٠

حينما يقول :

{ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }
[الآية ١٥٧]

أي : أن الموت في سبيل الله .. وسيلة وطريق إلى نوال رحمة الله ، وعفوه ، ورضوانه ٠

وذلك الجزاء : خير من البقاء في الدنيا ، وجمع حطامها الفاني ٠

ويخبر ربنا – تبارك وتعالى – تهيئة لهذا الفهم ، ومساعدة علي قبوله ، والعمل من أجله : أن من مات أو قتل فمصيره ومرجعه ٠٠ إلى الله عز وجل ٠

حيث يقول :

{ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ }
[الآية ١٥٨]

أي : ترجعون إليه ، وتحشرون عنده ؛ فيجازيكم بأعمالكم ٠٠ إن خيرا : فخير ، و إن شرا فشر ٠

*****

وبعد ذلك التصويب والتعليم ٠٠

يقبل مولانا على الحبيب صلى الله عليه وسلم ٠٠ بشرف الخطاب له ٠

قائلا :

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ }
[الآية ١٥٩]

أي: بسبب رحمة الله لك ولأمتك ٠٠ لان جانبك لهم ، وحسن خلقك معهم ، يوم أحد ، ولم تعنفهم أو توبخهم ، على ما كان من مخالفتهم لك ، وما ترتب عليها ٠

إذ لو كنت : سئ الكلام ، قاسى القلب عليهم ؛ لانفضوا عنك ، وتركوك ، وتفرقوا من حولك ٠

ولكن الله بنعمته ورحمته : جمعهم عليك ، وألآن قلبك لهم ، تألف لقلوبهم ٠

يقول عبد الله بن عمرو : رأيت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الكتب المتقدمة "أنه : ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح " صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله ٠

لاحظوا أيها الأحبة في الله : حسن التنسيق ، والترتيب البديع في هذه الأوامر.

ذلك أن الله تعالى ٠٠

أمر أولا : بالعفو عنهم ، فيما يتعلق بحقوقه صلى الله عليه وسلم عليهم ، كما عفا الله عنهم ٠

فإذا انتهوا إلى هذا المقام ٠٠ !!

أمر ثانيا : أن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى ، لتنزاح عنهم التبعات وأثقال الذنوب ٠

فلما صاروا إلى هذا الحال ٠٠ !!

أمر ثالثا : أن يشاورهم في الأمر ، بعد أن صاروا أهلا للمشورة ٠

أي : شاورهم في كل أمورهم من حرب أو سلم ، أو غير ذلك ، مما لم ينزل عليك فيه وحى ٠

وذلك : تطييب لنفوسهم ، ورفع لقدرهم ، وتوعية لهم في أمورهم ، واستخراج لطاقات عقولهم ٠

فإذا شاورت ، ووصلت إلى قرار ، وقطعت الرأي على الأخذ به ٠٠ فتوكل على الله في تنفيذه ٠

إن الله سبحانه وتعالي : يحب المتوكلين عليه ، المفوضين أمورهم إليه ٠٠ حينما يأخذون في الأسباب ، ويبذلون الطاقة ، ويستنفدون ما في وسعهم ، ثم يعتمدون على الله ، وينفذون ما اجتهدوا فيه ، وشاورا من أجله ٠

*****

أيها الكرام ...

بعد الأمر بالشورى ، وبيان أهميتها ٠٠

وبعد الأمر بالاستعانة بالله ، والتوكل عليه .

يوضح الله سنة من سننه ، وقاعدة من قواعد قدرته وحكمته ، يثبت بها المؤمنين ، ويزيدهم بموجبها إيمانا على إيمانهم .

حيث يقول سبحانه :

{ إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [الآية ١٦٠]

أي : أن الأمر كله لله ومن الله ، في حال النصر ، وفي حال الهزيمة ؛

فلا يهزمكم أحد إن أراد الله نصركم ، ولا ينصركم أحد إن أراد الله هزيمتكم وخذلانكم .

ومادام الأمر كذلك .. !!

فعلى المؤمن ان يتصف بالتوكل على الله تعالى في كل حال .

*****

هذا ..

ويعود السياق في الآيات الكريمة – أيها الاحبة في الله – إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذ بعد أن وصفه رب العزة سبحانه في الآيات السابقة .. بلين الجانب ، وحسن الخلق ، وعدم الفظاظة ينزهه عز وجل هنا .. عن الخيانة .

فيقول :

{ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [الآية ١٦١]

أي : وما يمكن ولا يصح لنبي أن يغل .. أي : يأخذ شيئا خفية .

وكذلك : لا يمكن ولا ينبغي أن ينسب ذلك لنبي .

وهذا : تنزيه للنبي صلى الله عليه وسلم .. من جميع وجوه الخيانة ، في أداء الأمانة ، وتقسيم الغنائم ، وغير ذلك ؛ حيث أنه معصوم من ذلك كله .

وعلى كل .. فمن يخن ويغل ويأخذ شيئا من الغنيمة ، بعد المعركة ، أو خلالها . يأت بنفس ما أخذه يوم القيامة ، حاملا له فوق كتفه ، على رؤس الأشهاد ، أو يأت حاملا إثم ما أخذ وأخفى ، وبئس ما حمل ..!!

وبعد أن يأتي به ، وهيهات ..!!

يأخذ جزاء ما أخفاه وأخذه ، دون ظلم لها ، بزيادة في العقاب أو نقصان .

وهذا : تهديد مخيف ، يردع من الإثم السيء .

* * *

وبعد هذا التخويف . أيها الإخوة والأخوات .. يرفع الله همم أهل الإيمان إلى التحلي بالمحامد الموصلة إلى مرضاته تعالى .

إذ يقول :

{ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }

[الآية ١٦٢]

قطعاً .. لا يستوون .

بل .. لابد أنهم يتفاوتون ، كما يقول المولى سبحانه وتعالى :

{ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ واللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }

[الآية ١٦٣]

أهل الخير .. درجاتهم في الجنة .

وأهل الشر .. دركاتهم في النار .

*****

أيها الأحباب ..

بعد أن امتن الله على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى المؤمنين .. بلين جانبه عليه الصلاة والسلام ، في الشدائد ، وحسن خلقه .

يمتن مرة ثانية على المؤمنين بالنعمة الكبرى ، والمنة العظمى على الدنيا كلها ..

وهي بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

فيقول :

{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ }

[الآية ١٦٤

]

وهذه النعمة ٠٠ ليست إلا من الله ، وبها شَرُفَ العرب ، وبها تحددت هويتهم ، وعرفت ملامحهم ، وصار الاسلام بسببها ، هو : "بطاقة الشخصية " – كما يقول صاحب الظلال : التي تقدم بها العرب للعالم ؛ فعرفهم ، واحترمهم ، وسلمهم القيادة ٠

وهم اليوم وغدا ٠٠ لا يحملون إلا هذه البطاقة ، ليست لهم رسالة غيرها يتعرفون بها إلى العالم ٠

وهم إما أن يحملوها : فتعرفهم البشرية ، وتكرمهم ٠

وإما أن ينبذوها : فيعودوا هملا كما كانوا ، لا يعرفهم أحد ، ولا يعترف بهم أحد ٠

وما الذي يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة ٠٠ ؟

يقدمون لها عبقريات في الإنتاج الصناعي المتفوق ، تنحني له الجباه ، ويغرقون به الأسواق ، ويغطون به ما عند غيرهم من إنتاج ٠٠ ؟

لا .. لا ..!!

لقد سبقتهم شعوب كثيرة ، في هذا المضمار ٠٠ ؟

يقدمون لها ٠٠ ؟

أو يقدمون لها ٠٠ ؟

أو ٠٠ أو ٠٠ ألخ ٠

إنها وحدها – أيها السادة – بطاقة الشخصية ، التى تقدموا بها قديما للبشرية ، فأحنت لهم هامتها ٠

وهي التي يمكن أن يقدموها لها اليوم ٠٠ فيكون فيها الخلاص والإنقاذ من الضلال المبين ، والهلاك المقيم ٠

*****

بعد هذه الدروس الإيمانية التربوية ، التي تخللت الكلام عن عزوة أحد ٠

يعود السياق لدروس الغزوة المباشرة ٠

فيقول رب العزة :

{ أوَلَمَّا أصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أنْفُسِكُمْ إنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ١٦٥]

أ ي : ما كان ينبغي لكم أيها المؤمنون ٠٠ أن تقولوا حين أصابتكم مصيبة قتل السبعين منكم يوم أحد : كيف حدث هذا ..؟

خاصة وأنتم السبب فيما حدث ٠

إضافة إلى أنكم يوم بدر ٠٠ قد أصبتم المشركين مثليها ، حين قتلتم سبعين وأسرتم سبعين منهم ٠

الأولى : أن تعترفوا أنكم السبب بمخالفة أوامر قيادتكم ٠

والأولى كذلك : أن تعلموا أن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا راد لمشيئته ، ولا مانع لحكمه ، سبحانه وتعالى ٠

* * *

ثم يريح ربنا – تبارك وتعالى – نفوس المؤمنين ، ويرشدهم إلى الحق والصواب ، في علة ما حدث من هزيمة عسكرية ٠

حيث يقول :

{ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ١٦٦]

أي : كل شئ بقضاء الله وقدره ، وإذنه ، وليميز الله المؤمنين من غيرهم ، ويظهرهم للناس ؛ تكرمة لهم ، وإنعاما عليهم ٠

كذلك ٠٠

{ وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ }
[الآية ١٦٧]

أي : وليميز الله المنافقين من غيرهم ، ويظهرهم للناس ؛ إهانة لهم ، وكشفا لأمرهم ٠

هؤلاء المنافقون ٠٠ دعوا للاشتراك في المعركة وقيل لهم قاتلوا في سبيل الله ؛ رجاء الفوز في الآخرة ، كما يقاتل المؤمنون ٠

أو تعالوا ادفعوا العدو ، وأخيفوه فقط بتكثيركم سواد المجاهدين المؤمنين ، إن لم تقاتلوا ٠

فماذا قالوا ٠٠ ؟

قالوا : ليس هذا هو القتال ، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة ٠

وهنا ٠٠ كذبهم الله تعالى وبين أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك ..

فلما حدث ما حدث ، ظهر كفرهم ، وبعدهم عن الإيمان .

حيث إنهم يظهرون خلاف ما يضمرون ، والله يعلم إسرارهم ، وسيجازيهم على سوء نيتهم ، وفساد طويَّتهم .

ثم وصفهم المولى بأنهم ، هم :

{ الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ١٦٨]

يعنى : الذين قالوا عن إخوانهم في الصورة – ممن قتل يوم أحد – حينما قعدوا هم عن القتال ، لو أطاعونا وانصرفوا عن رسول الله ، وما قاتلوا : لما قتلوا ، كما لم نقتل نحن .

وهنا .. رد الله عليهم .

أي : إن كنتم صادقين في أن الحذر يمنع القدر ، ويدفع الموت : فادفعوه عن أنفسكم ، في ميدان القتال أو في غيره .

*****

وبعد هذه الجولة في الرد على المنافقين ، ومفاهيمهم المغلوطة .. ! !

يبين الله عز وجل الصواب .. في أمر القتل والموت في سبيل الله .

حيث يقول عز من قائل :

{ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }
[الآية ١٦٩]

وسبب نزول هذه الآية : أن الشهداء ، لما وجدوا طيب ما أعد الله لهم في الجنة ، قالوا : من يبلغ عنا إخواننا "أننا أحياء في الجنة "؟

فقال الله تعالى . أنا أبلغهم عنكم .

وأنزل هذه الآية .

ومعناها :

أن القتل الذي يحذره المنافقون ، ويحذرون الناس منه : ليس مما ينبغي الحذر منه ، بل إنه مما ينبغي السعي إليه .

حيث إن الشهداء .. وإن قتلوا في هذه الدار : فإن أرواحهم حية عند ربهم ، مرزوقة في دار القرار .

ثم وصف الله حالهم .. في حياتهم هذه ، ورزقهم ذاك .

بقوله سبحانه :

{ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }
[الآية ١٧٠]

أي : فرحين بفضل الله عليهم ، استبشروا لإخوانهم الذين لم يستشهدوا بعد ألا خوف عليهم فيما هو آت ولا هم يحزنون على شئ فات .

*****

وهذه بشارات أخرى لهؤلاء الشهداء ، الذين استبشروا أولا لإخوانهم ٠
حيث يقول عز من قائل :

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
[الآية ١٧١]

أي : يستبشر هؤلاء الشهداء بثلاثة أمور :
الأول : يستبشرون ويسرون .. بما أنعم الله عليهم به ٠
الثاني : يستبشرون و يسرون .. بما تفضل الله عليهم به من زيادة الكرامة ٠
الثالث : يستبشرون ويسرون .. بإعطاء الله المؤمنين أجورهم كاملة موفرة ٠
و في هذا : من الحث على الجهاد ، والترغيب في الشهادة ، والبعث
على إزدياد الطاعة ، وبشرى المؤمنين بالفلاح .. ما لايخفى ٠
وبعد أن بين الله فضل الشهداء ٠٠ ! !
يكون الحديث في وصف من بقي حيا من المؤمنين بعد المعركة ، وبيان
فضلهم ، وشجاعتهم ، وقوة إيمانهم ٠
حيث يقول تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾
[الآية ١٧٢]

هذه صفة أولى من صفات أهل الإيمان ٠٠
وهي : الاستجابة لداعي الجهاد في سبيل الله ، في كل الظروف والأحوال ، بصفة عامة ٠
وكانت هذه الاستجابة ممن بقي حيا من المؤمنين في غزوة أحد ، لما بلغ النبي عليه الصلاة والسلام أن المشركين قالوا بعد أن رجعوا عن أحد : لا محمد قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئسما صنعتم ، ارجعوا ٠٠ فرجعوا لقتال المسلمين مرة أخرى ٠
وهنا : دعا النبي عليه الصلاة والسلام – فقط – من اشترك في المعركة ، للقاء العدو ، فكان السمع والطاعة ، والاستجابة الفورية ، وهم مثقلون بالجراح فأنزل الله هذه الآية ٠
وبين تعالى فيها : أن كل من استجاب لله وللرسول ٠٠ فهو : محسن ، متق لله له أجر عظيم ٠

* * *

ثم يذكر الله تعال ٠٠ صفة ثانية من صفات أهل الإيمان ٠
وهي : الثبات في وجه ٠٠ التهديد ، والشائعات ، والحرب النفسية من الأعداء.
إذ يقول عز وجل :

{ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }
[الآية ١٧٣]

نعم ٠٠ إن من يستقرئ التاريخ : لا يجد لدى أعداء الإسلام وأهله سوى المحاولات الدؤوبة لبث الرعب في نفوس المسلمين ، وإضعاف ثقتهم في دينهم ، وصرفهم عن التمسك بمبادئهم ٠

ولذلك : كان من صفات المؤمنين ، المحسنين ، المتقين : أنهم في مواجهة هذه المحاولات ٠ يزدادون إيمانا وثقة بما هم عليه من حق ٠

كما أنهم يتوكلون على ربهم ، ويعتمدون عليه ، ويلتزمون بشرعه في كل حال ٠

وكان هذا موقف من بقي حيا بعد غزوة أحد ٠

استجابوا لله والرسول – على ما بهم من أوجاع – في تعقب أهل الكفر ٠

وأيضا : لم يخافوا التهديد ، ولم يتأثروا بالحرب النفسية ٠٠ ! !

وازدادوا يقينا بما هم عليه من حق وصواب وإيمان ٠

وتوكلوا على الله ، وفوضوا أمرهم إليه وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ٠

ولذلك ٠٠ كانت النتيجة كما يبينها المولى في قوله ٠

{ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ }
[الآية ١٧٤]

أي : عادوا ٠٠ سالمين ، وهذه نعمة من الله ، وقد فرَّ منهم أعداؤهم ، وعادت هيبتهم ٠

وهذا فضل من الله ، لم يمسسهم سوء لعدم التلاقي مع الأعداء ٠

كل ذلك : بسبب استجابتهم لله والرسول ، وسعيهم لنوال رضوان الله ، صاحب الفضل العظيم على أهل طاعته ٠

*****

وبعد هذه المواقف الإيمانية الرائعة منهم ٠٠ يكشف الله سبحانه لهم من الأسرار ما يزيدهم الله بمعرفتهم لها ٠٠ ثباتا على ثبات ، ويقينا على يقين ٠

حيث يقول لهم :

{ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ١٧٥]

أي : يا أيها المؤمنون ٠٠ انتبهوا جيدا ٠٠

فكل الذي يحدث ضدكم من حروب ، وتهديد ، وحرب نفسية ٠٠ وراءه عدوكم الأول ، القديم ، الحديث ، الشيطان ٠

الذي يخوفكم بأوليائه وأعوانه ، ويوهمكم أنهم أصحاب قوة عليكم ، وتفوق عنكم ٠

وهم ٠٠ ليسوا – في الحقيقة – كذلك بل هم ضعاف ٠٠ وأنتم بإيمانكم أقوى منهم ٠

ولذا ٠٠

فلا تخافوهم ٠٠ خوفا يقعدكم عن الإلتزام بدينكم ، والتَّقوِّى عليهم ، والتفوق عنهم ٠

نعم ٠٠ لا تخافوهم بأي شكل من الأشكال ، ولا في أي حال من الأحوال ، ولا في أي عصر من العصور ٠

بل ٠٠ خافوا الله ، وأطيعوه وحده ، إن كنتم مؤمنين حقا ..!!

هذا ٠٠

ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان في أشد حالات الحرص على إيمان الناس كلهم ٠٠ !!

فكان يحزن لكفرهم ، واستمرارهم عليه ، وحربهم لله ورسوله دفاعا عن هذا الكفر ٠٠!!

ولذلك يقول له رب العزة سبحانه : تعبيرا له علي تعنتهم معه في كفرهم ، وتعرضهم الدائم له بالأذى ، صلى الله عليه وسلم ٠

{ وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

[الآية ١٧٦]

والآية ٠٠ كما تلاحظون – أيها الأحبة في الله – فيها بشارة عظيمة للمؤمنين ، إذا صبروا ، واتقوا ٠

وهي : أن الكافر ٠٠ لن يضر إلا نفسه ، وأن وبال الكفر على أصحابه فقط ٠

* * *

ثم يقرر الله تعالى هذا المعني ويوضحه ، ويؤكده ، مرة أخرى ؛ للتحذير منه ، والإبعاد عنه ٠

في قوله عز وجل :

{ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

[الآية ١٧٧]

أي : الذين اشتروا الكفر ، ورضوا به ، وباعوا الإيمان ، وحرموا منه ٠٠

صفقتهم خاسرة .

ونتيجتها : عذاب أليم ٠

*****

ثم يصحح الله مفهوما خاطئا وتصورا باطلا لدى الكافرين ٠
حيث يقول عز شأنه :

{ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ }
[الآية ١٧٨]

أي : لا يظن أولئك الكافرون الظالمون لأنفسهم أن إملاءنا لهم بطول العمر ، والتوسعة في الرزق ، وإمهالنا إياهم بعدم التضييق عليهم ، وقلة الابتلاءات لهم ٠

لا ينبغي أن يظنوا : أن ذلك خير لهم ٠

بل ٠٠ نحن نملي لهم ونمدهم بالنعم ، ونمهلهم ٠٠ بعدم المسارعة في العقوبة : ليزدادوا إثما ؛ فيزدادوا عذابا أليما ، فيه المهانة ٠٠ بعد أن كانوا يظنون أن في المعصية والكفر الكرامة ٠

ومع هذا الإملاء والاستدراج للكافرين ٠٠ ! !

فإن هناك الامتحان والابتلاء للمؤمنين ٠

نعم ٠٠

{ مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ }
[الآية ١٧٩]

أي : لابد أن يوقع الله أمرا من المحنة ؛ يظهر فيه وليه ، ويفتضح فيه عدوه ، ويعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر ٠

وذلك : وعد للمؤمنين بالخير ، ووعيد للمنافقين ، والكافرين بالشر ٠٠ في الدنيا ٠

بعد بيان عقوبة الكافرين في الآخرة ٠

ثم يشرف ربنا – تبارك وتعالي – المؤمنين بالخطاب ، المطمئن

لصدق وعده ، ووعيده هذا ٠

حينما يبين لهم : سنة من سنن الله : وهي التمييز بين المؤمن والمنافق بالمحن والابتلاءات ٠

وإن معرفة المؤمن من المنافق ٠٠ بدون ابتلاءات ، أو قبل وقوع الابتلاءات والمحن : غيب ، لا يعلمه إلا الله ، ولا يطلع عليه أحدا من خلقه إلا من يختار لذلك من رسله ، عليهم السلام ، كما في قوله تعالى عالم الغيب فلا يظهر على

غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول [الجن ٢٦ ، ٢٧] .

ولذلك : آمنوا بالله ورسله حق الإيمان ، واطمئنوا عند الابتلاءات واثبتوا ٠

وإن تؤمنوا بالله ورسله ، وتتقوا ما يؤدي إلى غضب الله وعقوبته : فلكم أجر عظيم من الله تعالى ، في الآخرة ٠

*****

أيها الأفاضل ٠٠!!

بعد أن صحح الله – في الآيات السابقة – مفهوما خاطئا لدي الكافرين في إمهال الله لهم ، وعدم معالجتهم بالعقوبة ٠٠ !!

يصحح ربنا – كذلك – في الآيات التالية – مفهوما خاطئا لدى البخلاء ٠

وهو في هذا التصحيح وذلك : يعلم المؤمنين الصواب ، ويربيهم عليه ؛ ليؤسس مجتمعهم على المنهج الأمثل ٠

فلنتعرض إلى الحث على الإنفاق من خلال تصويب مفاهيم البخلاء عن المال٠٠

يقول تبارك وتعالى :

{ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }

[الآية ١٨٠]

أي : لا يظن البخيل أن جمع المال ، وعدم إنفاقه في وجوه الحلال والخير ٠٠ ينفعه ، وأن ذلك خير له ٠

لا ٠٠ وألف لا ٠٠

بل هو شر له ٠٠ في دينه ، وربما في دنياه ، و شر له في آخرته كذلك ٠

حيث إن البخلاء سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة .

أي : سيكون مالهم الذي جمعوه ، ومنعوه عن الحق ، طوقا من نار في أعناقهم يوم القيامة ٠

ولم لا يكون ذلك ٠٠ ! !

خاصة ٠٠ أنه :

وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

أي : ولله سبحانه وتعالى ما فيهما ٠٠ مما يتوارثه أهلها ، من مال ، وغيره ٠

وإذا كان الحال كذلك ، وهو كذلك ٠٠ !!

فما لهم يبخلون عليه بملكه ؟ ولا ينفقون منه في سبيله ٠٠؟

والله عز وجل بما تعملون خبير ٠٠!!

لا يغيب عنه شئ ٠

فاعملوا خيرا ٠٠

وأخلصوا نياتكم ، وضمائركم لله فيه ٠
لتنقذوا أنفسكم من عذابه ، وتنالوا رضوانه .

*****

وبمناسبة البخل والبخلاء ، واستمرارا في الحديث عنهم ، وبيان مساوئهم ٠٠
يهدد الله تعالى صنفا منهم ، أشد بخلا ، وأقبح قولا ، وأكثر عنادا ٠
وهو الذي قال أهله : إن الله فقير ونحن أغنياء .
فلنقرأ إلى هذا التهديد الإلهي لهم :

{لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ }
[الآية ١٨١]

يعني : لم يخف على الله تعالى قولهم الآثم .
هذا ، وقد أعد لهم – عليهم اللعنة – العقاب المناسب
الذي بينه في قوله تعالى :
سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ .
أي : سنأمر الحفظة بتسجيل قولهم السئ هذا ، ونحاسبهم عليه ٠
ونكتب معه كذلك : فعلهم السئ أيضا وهو قتلهم الأنبياء بغير حق ٠
ونقول لهم يوم القيامة : ذوقوا عذاب الحريق ، جزاء على ما كنتم تقولونه ، وما كنتم تفعلونه ٠
ونقول لهم – كذلك – توبيخا ، وتحقيرا ، وتصغيرا لشأنهم :

{ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ }

[الآية ١٨٢]

أي : ذلك العذاب ، بسبب ما قدمتموه من : الكفر ، والمعاصي ، والجرأة على الله ورسله ٠
وعلى كل ٠٠ فالله عز وجل ٠٠ لا يظلم عباده ، ولا يعاقبهم بغير جرم ارتكبوه ٠

*****

أيها الأحباب فى الله .

أتريدون معرفة الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء لتلعنوهم ..!!

إنـهم ٠٠ هم ٠

{ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }

[الآية ١٨٣]

وهؤلاء ٠٠ هم : اليهود .

ادعوا أن الله أمرهم في التوراة ٠٠ أن لا يؤمنوا لرسول ، فيصدقوه ، ويتابعوه ؛ إلا إذا قرب إلى الله قربانا يتقرب به إليه ، من صدقه ، أو ذبح ٠٠ الخ

ولابد أن تنزل من السماء نار تأكل هذا القربان ، وفي هذه الحال – فقط – نؤمن به ٠

* * *

ولكن الله عز وجل ٠٠ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم كذبهم هذا ، وتحريفهم للتوراة بقوله عليه الصلاة والسلام :

يعني ٠٠ قل لهم ؛ تكذيبا لقولهم ٠٠ ! !

قد جاءكم يا يهود رسل من قبلي بالحجج والبراهين والمعجزات الدالة على صدقهم ٠

كما جاؤكم بالذي قلتم من القربان آيضا ٠٠

فلم كذبتموهم ٠٠ ؟

ولم قتلتموهم ٠٠ ؟

إن كنتم صادقين في كلامكم ، ورغبتكم في الإيمان ٠٠! !

وإذا كان هذا فعلكم بالأنبياء ، الذين هم منكم ٠٠! !

فكيف يكون فعلكم بمن ليس منكم إن قدرتم عليه ٠٠ ؟

لا يشك عاقل أنكم مفترون في دعواكم ، متعنتون في مواقفكم ٠٠ ! !

*****

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى لحبيبه مطمئنا ومثبتا :

{ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ }

[الآية ١٨٤]

فإن كذبوك : فلا تبتئس ٠٠ ! !

فقد كذبوا رسلا من قبلك ٠٠ جاؤهم بالمعجزات الظاهرة ، والزبور ، وما فيه من حكم زاجرة ، والكتاب المنير ، وما فيه من هدايات باهرة ٠

ثم يخبر الله تعالى جميع الخليقة ٠٠ إخبارا عاما : بأن كل نفس ذائقة الموت .

حيث يقول سبحانه وتعالى :

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ }
[الآية ١٨٥]

وهذه الآية ٠٠ وعد للمؤمنين : بالتخفيف في سكرات الموت ، والبشارة بالخير في ما بعده ، من : نعيم القبر ، ويسر الحساب ، والخلود في دار النعيم ووعيد في ذات الوقت – للكافرين : بالشدة والإيلام في سكرات الموت ، والبشارة بالسوء فيما بعده ٠٠ من : عذاب القبر ، وشدة الحساب ، والخلود في دار العذاب ٠

والوفاء الحقيقي ٠٠ بالثواب والعقاب ٠٠ للطائع والعاصي : يكون في يوم القيامة ٠

والفائز – يومئذ – من زحزح عن النار وعذابها ، ودخل الجنة ونعيمها ٠

أما هذه الحياة : فصغير شأنها ، حقير أمرها ٠٠! !

فخذوا من متاعها ٠٠ طاعة الله إن استطعتم ٠٠ ! !

وقدموا لأنفسكم من خيرها ، ولا تفتنوا عن مرضاة الله تعالى بزخرفها ٠

*****

وبعد أن تحدث ربنا – تبارك وتعالى – مع النبي صلى الله عليه وسلم عما وقع لهم من أعدائهم ٠٠ من باب التسلية والتخفيف عنهم ٠٠ ! !

يحدثهم كذلك عما سيقع لهم مستقبلا .. من الاختبارات الإلهية ، ومن أذى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين ٠

وذلك من باب التثبيت لهم والتوجيه ٠

حيث يقول عز وجل :

{ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ }
[الآية ١٨٦]

أي : من سنتنا أن يبتلى المؤمن ويختبر إيمانه في شئ من ماله ونفسه ، وولده وأهله ، كما في قوله تعالى ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص

من الأموال والأنفس والثمرات [البقرة ١٥٥] .
وكل على قدر دينه ٠٠ ومن كان في دينه قوة : زيد عليه في البلاء ٠
وكذلك :
سوف تسمعون من اليهود والنصاري والكفار بطوائفهم : أذي كثيرا ، من : الطعن في الدين ، وتشويه تعاليمه ومبادئه ، وصد من أراد الإيمان ، وتخطئة من آمن ٠٠ آلخ .
وكل هذا : يحدث للمؤمن من الاختبارات لدينه ، والإيذاء في دينه ٠
فماذا يفعل إذا ..؟
الطريق الحق : فاصبروا الصبر الجميل ، الذي تصاحبه تقوى الله والعمل على نوال رضاه ٠
فإن فعلتم ذلك ٠٠ من الصبر والتقوى : أحسنتم ، وبلغتم نوال ثواب
عزائم الأمور ، التي يتنافس عليها المتنافسون ٠
وفي هذا : غاية الثناء من الله تعالى على من تحقق في هذا الموقف وأمثاله بالصبر والتقوى ٠

*****

ثم يتجه الحديث للتذكير بما أخذ الله على أهل الكتاب من أن يبينوا للناس ما في الكتب المنزلة على أنبيائهم ٠٠
ومن ذلك : ما ورد بخصوص محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ٠
فماذا فعلوا ٠٠ ؟
نقرأ سويا قوله تعالى :

{ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ }
[الآية ١٨٧]

لقد كتموا ما طلب منهم بيانه ، وطرحوه – استهانة به – وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا من عرض الدنيا الزائل ، ومتاعها الفاني ٠
فبئس البيع ، وبئست الصفقة ٠٠! !
وفي هذا : تحذير للعلماء ٠٠ أن لا يسلكوا سلكهم ، فيصيبهم ما أصابهم ٠

* * *

أيها الكرام ٠٠ ! !
بعد أن ذكَّر الله تعالى بما أخذ على أهل الكتاب من عهود ، وحذر من مسلكهم .. !!

يبين لنا عز وجل أن هذا الكتمان قد وقع ، وأن من وقع منه ذلك : يفرح به.
بل أكثر من هذا : أن أهل هذا الكتمان ٠٠ يحبون أن يحمدوا بأنهم أظهروا الحق ، مع أنهم لم يظهروه ٠
يقول سبحانه وتعالى :

{ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ١٨٨]

قال ابن عباس رضي الله عنه :
سأل النبي صلى الله عليه وسلم اليهود عن شئ ٠٠ مما عندهم في التوراة : فكتموه ، وأخبروه بغير الحقيقة ٠
وفرحوا بما كتموه من حق عن النبي صلى الله عليه وسلم ٠
ثم طلبوا أن يحمدهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما أظهروه له من حق .
بينما هم في حقيقة الأمر : قد كتموا عنه الحق ٠
هؤلاء : لا تحسبنهم – أيها المؤمن – ناجون من عذاب الله الأليم لهم ٠
أيها الأحباب ٠٠
لاحظوا – أعزكم الله – أن بعض المسلمين – أحيانا – يفهمون المراد من هذه الآية فهما خاطئا ٠٠ ! !
كما حدث من مروان بن الحكم والى المدينة المنورة ، حينما أخطأ في فهم هذه الآية ٠٠ يوم أن بعث واحدا من عماله إلى عبد الله بن عباس ، وقال له ، قل له :
لئن كان كل امرئ منا فرح بما فعل ، ويحب أن يحمد بما لم يفعل : معذبا ..!!
لنعذبن أجمعين ٠٠؟
فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية ٠٠ إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب ٠

* * *

ثم يقول تعالى بعد ذلك :

{ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ١٨٩]

أي : هو المالك لكل شيء ، والقادر على كل شيء ، فهابوه ، ولا تخالفوه.

*****

أيها الكرام ٠

بعد أن بين الله لنا فيما قرأنا – منذ قليل – صورة فريق من الناس ٠٠ لا يقومون بحق الله في كتابه ، واتباع رسوله ٠٠!!

يعطينا –عز وجل ، فيما سوف نقرؤه بعد قليل – صورة لفريق آخر من الناس ٠٠ يقومون بحق كتاب الله تعالى ، من خلال مجموعة من الآيات ، تصف أولى الألباب ، الذين إذا ذكروا يتذكرون ، ويطيعون الله تعالى ، وله يتذللون ٠

فلنقرأ سويا :

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ }
[الآية ١٩٠]

أي: في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ٠٠ وأدلة واضحة ، على : صانع ، حكيم ، قادر ،حي ٠

لأصحاب العقول ٠٠ التامة ، الذكية ، والذين هم أهل الفكر والذكر ، والذين خلصت عقولهم عن الهوى ، خلوص اللب عن القشر ٠

ثم يحكي ربنا – عز سلطانه – معلما لنا – دعاء أولى الألباب هؤلاء ٠٠ ، المبني على الدليل العقلي الذي عرفوه . فيقول :

{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }
[الآية ١٩١]

فيصلون بهذا الذكر ، وبهذا الفكر : إلى عظمة الله تعالى ٠٠ فيقولون بألسنتهم :

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

أي : نزهناك عن أن تكون خلقت الكون عبثا ، وعبدناك – وفق الفهم – لعظمتك ، وابتغاء مرضاتك ٠٠ فقنا ونجنا من عذاب النار .

ولم يكتفوا بذلك ٠

بل تضرعوا في طلب هذه النجاة قائلين :

{ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ }
[الآية ١٩٢]

أي : أهنته وفضحته على رءوس الأشهاد ٠

وما ذلك : إلا لأنه ظلم نفسه ، ووضعها في غير موضعها الذي أمر الله به ٠
ساعتها : وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنصَارٍ
يدفعون عنهم هذا الخزي والهوان والعذاب ، فلا تدخلنا يارب النار٠٠! !

* * *

وبعد هذا ٠٠
يحكي المولى – معلما لنا – دعاء آخر لأولى الألباب هؤلاء ، مبني على الدليل السمعي ، الذي وصلهم ٠ فيقول :

{ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ }
[الآية ١٩٣]

أي : بإيماننا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، وبالقرآن هاديا ومنهاجا ٠٠ ربنا اغفر لنا الذنب كله ، واجعلنا مع الأبرار بأن تختم لنا كما ختمت بالحسنى لهم ٠
لاحظوا – أيها الأحباب – أنهم كانوا يحبون لقاء الله ٠
وفي الحديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .
جعلني الله وإياكم والمسلمين جميعا منهم ٠٠ آمين يا رب العالمين .

* * *

ثم يقول أولوا الألباب داعين ربهم :

{ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ }
[الآية ١٩٤]

أي : يا ربنا أعطنا ما وعدتنا به على ألسنة رسلك الكرام من الفضل منك والرحمة بنا ٠
ومع أن الله عز وجل ٠٠ لا يخلف وعده .
وهم يعلمون ذلك جيدا ٠
إلا أنهم ألحوا في الضراعة والابتهال ٠٠ مبالغة منهم في التعبد والخشوع ، ورجاء التثبيت على الإيمان ، وطلبا لحسن الخاتمة ٠
نسأل الله تعالى : أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائه ٠٠ إنه ولي ذلك والقادر عليه .

*****

وبعد هذا الإلحاح في الدعاء من أولى الألباب الذي قالوا فيه خمس مرات ربنا أنعم الله عليهم ٠٠ ببيان سنة من سننه ٠٠ فيها كرمه وعدله ٠

حيث قال :

{ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ }

[الآية ١٩٥]

أي : سنتي مستمرة في أني لا أضيع ثواب عمل عامل منكم ٠٠ صغيرا هذا العمل أو كبيرا ٠ لا فرق بين ذكر وأنثى في ذلك ، حيث إن بعضكم من بعض ٠

ثم خصص بعض الأعمال ٠٠ وشرف فاعليها ، وبين جزاءهم عليها .

في قوله تعالى :

فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ

أي : هؤلاء المؤمنون الذي ضايقهم أعداء الله بالأذى حتى الجؤوهم إلى الخروج من ديارهم بسبب عقيدتهم ٠٠ وجاهدوا أعداء الله ، وقاتلهم من

قدر على ذلك منهم ، واستشهد من استشهد ٠

هؤلاء ..

أغفر ذنوبهم ، وأكفر عنهم سيئاتهم ٠

وأدخلهم جنات النعيم ٠

وذلك كله : جزاء من الله العظيم ، الكريم .

والله عز وجل : عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحا٠

يقول الإمام النسقي أيها الكرام : والهجرة كائنة في آخر الزمان ٠٠ كما كانت في أول الزمان ٠

وحقيقة هذا كلام نفيس : حيث نرى ذلك في عصورنا هذه كثيرا ٠

*****

وبعد أن بين الله حسن ما أعطى المؤمنين : يثبتهم ٠٠ ببيان سوء ما أعد للكافرين ٠٠

حيث يقول تبارك وتعالى :

{ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ }
[الآية ١٩٦]

أي : لا يغرنك ويفتنك ، ويصرفك عن الحق ٠٠ ما فيه أهل الكفر ، من : النعمة ، والسرور ، والمتعة ، واللذة ، والسلطان .

وحقيقة ٠٠ فما أكثر من يغتر بسلطان الكافرين ، وعزتهم ، وسيطرتهم على كثير من بلاد العالم ، وتقلبهم بها ، وتحكمهم في أمورها ٠

هؤلاء لذتهم ، ومتاعهم فيها :

{ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ }
[الآية ١٩٧]

يعني : سلطانهم ، وتقلبهم في البلاد ، وسيطرتهم على أمورها وكنوزها وخيراتها ٠٠ متاع قليل في جنب ما فاتهم من ر ضوان الله ، وما أعده الله للمؤمنين من نعيم الآخرة ٠

كما أن مصيرهم ومأواهم ٠٠ إلى جهنم ، وساءت جهنم مهادا مهدوه لأنفسهم.

هذا متاع الكافرين : لا بقاء له ٠

أما متاع المؤمنين المتقين : فهو االمتاع الحقيقي ، الذي لا انقضاء له ، حسب البيان الالهي له في قول ربنا تبارك وتعالى :

{ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ }
[الآية ١٩٨]

ما دام الأمر كذلك : فليثبت أهل التقوى في كل الظروف ، حتى ٠٠ وهو كانت الغلبة ، والعزة ، والسلطان ، لأهل الكفر والطغيان ٠

ثم يبين ربنا – الكبير المتعال – أن ما أعطاه وأعده للمتقين ٠

من المتاع الحقيقي ٠٠ إنما هو : رزق ، وعطاء ، وضيافة لهم من عنده تبارك وتعالى ٠

إذ يقول :

نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ

وما دام من عند الله : فلا يبلغه وصف ، ولا يحيط به علم ٠

وهذا عين الحقيقة ٠ ٠

وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ

أي : خير لهم وأفضل ٠٠ مما يتقلب فيه ، وينعم به الفجار ٠

وما دام الأمر كذلك ، وهو كذلك حقا – أحبتي في الله – فليثبت أهل الأيمان والتقوى والحق ٠٠ على العمل بكتاب الله ، والإلتزام بشرعه ، دون افتتان بما عليه الكفار ٠

*****

بعد هذه التوجيهات الربانية ، والبشارات التى يثبت الله بها المؤمنين ٠٠ ! !

يذكر الله تعالى صنفا من أهل الكتاب غير من سبق ذكرهم من الكافرين ، أو الذين يكتمون ما أنزل الله إليهم من الكتاب ٠

وبذلك يظهر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء ٠

فلنقرأ كلام ربنا الحكيم الخبير ...

{ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }

[الآية ١٩٩]

هؤلاء : طائفة من أهل الكتاب ٠٠ آمنوا بالله حق الإيمان ، وآمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، مع ما هم عليه من الإيمان بالكتب المتقدمة ٠٠ ومع أنهم خاشعون ، مطيعون ، خاضعون لله ، متذللون بين يديه ، ابتغاء رضوانه ٠

وسبب نزول هذه الآية : أن النجاشي ملك الحبشة – وكان نصرانيا ٠٠ فأسلم – لما مات : نعاه جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ٠٠ فقال عليه الصلاة والسلام : اخرجوا ، فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم .

فخرج إلى البقيع ٠٠ فنظر إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشي ، وصلى عليه واستغفر له ٠

فقال المنافقون : انظروا إلى هذا ٠٠ يصلى على نصراني لم يره قط ، وليس على دينه ٠

فنزلت الآية ٠

هذا ٠٠

والعلماء يقولون : "العبرة بعموم لفظ الآية وليس بخصوص سبب نزولها".

ولذلك : يدخل في حكمها كل من يؤمن من أهل الكتاب – اليهود أو النصارى – ويدخلون في الإسلام اليوم ، وإلي يوم الدين ٠

ويكون لهم من الله الجزاء الحسن مثل ما لهؤلاء ٠

حسب قوله تعالى :

أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ

أي : هؤلاء المتصفون بهذه الصفات الحميدة لهم أجرهم والذي وعدهم به ربهم في قوله أولئك يؤتون أجرهم مرتين كما في سورة

القصص ٠٠ تكريما لهم وتشريفا ٠

َ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

يعني ٠٠ فيصلهم أجرهم الحسن ، الموعودون به ، على وجه السرعة ، لنفوذ علم الله تعالى بجميع الأشياء ٠

أيها الأخوة ..

وصلنا – بفضل الله تعالى – إلى خاتمة السورة ، وهي الآية الأخيرة في آياتها.

وفيها يكون التعقيب على ما في السورة من تعاليم ، وأحكام ٠٠ بما يؤدي إلي الفلاح والفوز بكل مطلوب ، والنجاة والخلاص من كل الكروب ٠

حيث يقول تعالى بنداء كريم من رب كريم :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
[الآية ٢٠٠]

يعني : يا أهل الإيمان ٠٠ اصبروا على مشاق الطاعات ، وغير ذلك من المكاره ، والشدائد ، و صابروا أعداء الله في الجهاد ، وغالبوهم في الصبر على شدائد الحرب ، ولا تكونوا أقل منهم صبرا ورابطوا على الثغور ، مترصدين عدوكم ، ورابطوا على إتقان أعمالكم بغرض التفوق على أعدائكم ، ورابطوا في الطاعات لهزيمة الشيطان ، واتقوا الله في كل ما أمركم به ، فلا تخالفوا أحكامه لعلكم تفلحون.

نسأل الله تعالى ٠٠ الفلاح في الدنيا والآخرة ، بنوال مرضاته ٠٠ آمين ٠٠ وصلى الله عليه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين * والحمد لله رب العالمين ٠

*****

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله عز وجل :

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ }
[الآية ١]

(الحمد) هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل ٠
(لله)أى : ثابت لله تعالى ، فليعلم الجميع بذلك ؛ ليحمدوه ٠
(الذى خلق السموات والأرض) أى : أوجدهما من العدم ٠
وخصهما سبحانه بالذكر من بين الكائنات ؛ لأنهما أعظم المخلوقات للناظرين ٠
وقدم السماوات ؛ تشرفها ؛ ولأنها متعبد الملائكة ، ولم يقع فيها معصية ، ولتقدم وجودها ٠
(وجعل) أى: خلق (الظلمات) وهى كثيرة ٠٠ كظلمة الجهل ، وظلمة الكفر ، وخلق كذلك (النور) وهو واحد ؛ لأن الحق واحد ، مهما تعددت صور الباطل ٠
وإله بهذا الوصف : يستحق أن يحمد ، وأن يعبد٠
فهل كان الأمر من الخلق كذلك ؟
كلا ٠٠
حمد وعبد البعض : وهم الذين آمنوا ٠
(ثم الذين كفروا) مع قيام هذه الأدلة ، على وحدانية الله ، وعلى قدرته (بربهم) أى : عن حمد ربهم وعبادته والإيمان به (يعدلون) أى يسوُّون به غيره ، ويشركون معه غيره ٠

* * *

والذين كفروا ٠٠ يفعلون ذلك ٠٠
مع أنه سبحانه :

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ }
[الآية ٢]

أى: (هو) الله (الذى خلقكم من طين) بخلق أبيكم آدم منه ٠
(ثم قضى) أى : كتب وقدر (أجلا) أى: موعدا لكم ، تموتون عند انتهائه ٠

وهناك – كذلك – (أجل مسمى)آخر محدد ومقدر (عنده) لبعثكم ، لا علم لكم به ٠

(ثم أنتم) أيها الكفار، بعد هذا الخلق ، الذى أنتم ثمرته ، وبعد هذا الأجل ، الذى ترون غيركم يموت عنده ، كما تنتظرونه أنتم ، (تمترون) أى : تشكون ، وتكذبون بالبعث ٠

خاصة : بعد علمكم بأنه – عز وجل – خلقكم ابتداء ، ومن قدر على الابتداء – وهذا أمر بديهى – كان على الإعادة أقدر ٠

* * *

والذين كفروا ٠٠ يكذبون بالبعث ٠٠

{ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ }
[الآية ٣]

أى : (وهو الله) المعروف بالألوهية ، والمستحق للعبادة وحده (فى السموات وفى الأرض)٠

وهو الله (يعلم سركم وجهركم) ما تسرون به ، وما تجهرون به ، بينكم وبين أنفسكم ، أو بينكم وبين بعضكم البعض ٠

(ويعلم) كذلك (ما تكسبون) من خير ؛ فيثيب عليه خيرا ، ومن شر؛ فيجزى عليه شرا ٠

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) [الزلزلة ٧ ، ٨] ٠

* * *

فوق كل هذا ٠٠ بالنسبة للذين كفروا ٠٠ !!

{ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ }
[الآية ٤]

والمعنى :

أنه بعد كفرهم بآيات الله ، وإعراضهم عنها كلية ، كما أنهم كانوا يشكون : كانت الآيات تستمر فى العرض عليهم ، رغبة فى إيمانهم ٠ ٠

ولكنهم ٠٠ كانوا دائما معرضين عنها ، لا يأبهون لها ، ولا يلتفتون إليها ، استكبارا وعنادا ٠

ولكن ٠٠

لماذا هذا الموقف منهم ٠٠ ؟

{ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ }
[الآية ٥]

والمعنى : لأنهم كذبوا ، وأعظم شىء كذبوه ، وكذبوا به هو (الحق) أى : القرآن (لما جاءهم) وتحداهم ، وعجزوا ٠

على كل حال :

(فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) أى : فسيعلمون أخبار القرآن ، وأنباء ظهوره ، وعلوه ، وانتشار مبادئه ، كما سيعلمون يوم القيامة ، حينما يأتيهم العذاب ، قيمة (ما كانوا به يستهزؤن) ٠

وهذا : تهديد لهم وتخويف ، ودعوة للتفكير فى حالهم ، وضرورة مراجعة موقفهم من القرآن ٠

*****

وإذا كانت الدعوة فى الآية الفائتة بالتهديد والوعظ والتخويف فهناك: دعوة كذلك ، وتهديد بضرب المثل ٠ فلنقرأ قوله تعالى :

{ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ }
[الآية ٦]

والمعنى :

فليؤمنوا ، وإلا أهلكناهم بانقضاء آجالهم ، وأنشأنا من بعدهم قوما آخرين ٠٠ يؤمنون ، ولا يضرنا ذلك شيئا ، بل إذا لم يؤمنوا هم الخاسرون ٠

(ألم يروا) فى أسفارهم لتجاراتهم (كم) أى : كثيرا ممن (أهلكنا من قبلهم) من الأمم السابقة ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، عن طريق المعاينة ، ورؤية الآثار ، أو عن طريق سماع الأخبار كقوم فرعون وغيرهم ٠

(من قرن) أى : مدة انقضاء أهل كل عصر ٠

هؤلاء الذين رأيتم آثارهم ، أو سمعتم أخبارهم : كنا قد (مكناهم فى الأرض) قوة وسعة ، وبسطة ، وأعطيناهم (ما لم نمكن لكم) أى : ما لم نعطكم ونمكن لكم به فى الأرض ٠

(و) كذلك (أرسلنا السماء) أى : المطر (عليهم مدرارا) كثيرا متتابعا ، منه يشربون ، وبه يزرعون ٠

(و) كذلك (جعلنا الأنهار تجرى من تحتهم) أى : من تحت أشجارهم ، ومساكنهم ٠٠

يعنى : عاشوا فى الخصب ٠٠ بين الأنهار والأشجار والثمار ٠

ومع ذلك ٠٠ !!

لم يؤمنوا ٠

أتدرون ماذا حدث لهم ٠ ؟

(فأهلكناهم) أى : أهلكنا أهل كل قرن من تلك القرون ، وذلك ٠ (بذنوبهم) أى بسبب ذنوبهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم ، ولا ما هم فيه من قوة وثراء ٠
وأنتم كذلك : يا أهل مكة ، بل يا كل الكفار ٠٠ إن لم تؤمنوا، وتكفوا عن العناد : سنهلككم كما أهلكناهم ٠
وأيضا : سنأتى من بعدكم بقوم آخرين ، كما ..
(أنشانا من بعدهم) أى : الذين كفروا (قوما آخرين) يؤمنون ، فيسعدون ٠

*****

ولكن ٠٠ !!
يبدو أنه لا أمل فى إيمان المعاندين من أهل مكة ، ولا المعاندين من الكفار فى كل عصر ٠
حيث يقول تعالى :

{ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ }
[الآية ٧]

والمعنى :
ولأن طبيعتهم – أى المعاندين لله ولرسوله – جاحدة ٠٠ فهم لا يؤمنون ٠
حتى (ولو نزّلنا عليك) يا محمد (كتابا فى قرطاس) أى : كلاما مكتوبا فى ورق ، كما اقترحوا ، مما يشير إليه قوله تعالى على ألسنتهم (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه)[الإسراء ٩٣] ٠
(فلمسوه بأيديهم) بعد نزوله ، واللمس باليد : أقوى دلائل التأكد والتثبت ٠
وهذا يقتضى : اليقين بصحة نزول القرآن من عند الله ، وضرورة الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٠
فهل – بعد ذلك – يؤمنون ٠٠ ؟
لا ٠٠ بل :
(لقال الذين كفروا) لشدة عنادهم وجحودهم :
(إن هذا إلا سحر مبين) أى : سحر واضح ، سحرنا به محمد ، وما هو بنبى ٠

* * *

وليس هذا فقط ٠
بل زادوا فى عنادهم ٠

{ وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ }

[الآية ٨]

والمعنى : لو نزلنا عليك كتابا مكتوبا فى ورق ، ولمسوه بأيديهم ٠٠ وعاندوا ، وقال الذين كفروا منهم (إن هذا إلا سحر مبين) : لزادوا فى عنادهم ، واقترحوا أشياء أخرى ، تعجيزا له صلى الله عليه وسلم ، كما فى قوله تعالى :

(وقالوا) أى : الذين كفروا منهم ٠

(لولا أنزل عليه ملك) أى : هلا أنزل عليه ملك ، بمعنى : يا ليته أنزل عليه ملك ٠

ولا جواب لـــ (لولا) هذه منهم ٠

ولكن الجواب عليهم من الله تعالى بما يكشف استمرار عنادهم ٠

حيث يقول أولا :

(ولو أنزلنا ملكا) كما اقترحوا وطلبوا ، فلم يؤمنوا : (لقضى الأمر) بهلاكهم (ثم لا ينظرون) أى : لا يمهلون لتوبة ، أو معذرة كعادة الله فيمن قبلهم ، من إهلاكهم عند تنفيذ مقترحهم إذا لم يؤمنوا ٠

* * *

{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ }
[الآية ٩]

يعنى : ولو استجبنا لهم ، وأنزلنا ملكا كما طلبوا (لجلعناه رجلا) أى: لجعلنا الملك الذى طلبوه على صورة الرجل ؛ ليتمكنوا من رؤيته، حيث لا قوة للبشر على رؤية الملك ٠

(و) لو أنزلناه ، وجعلناه رجلا ؛ ليتمكنوا من رؤيته : (للبسنا عليهم) أى : لخلطنا عليهم ، وزدناهم ضلالا على ضلالهم٠

وذلك بسبب (ما يلبسون) على أنفسهم ، بأن يقولوا ما هذا إلا بشر مثلكم ، وليس ملكا كما طلبنا ، مع أنه ملك ٠

*****

ثم يتوجه الخطاب والكلام ٠٠ إلى الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فيقول له ربه ، مثبتا ، ومطمئنا ٠

{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ }
[الآية ١٠]

والمعنى : لا تحزن يا محمد من موقفهم هذا ، وعنادهم ، واستهزائهم ، فلست وحدك فى ذلك ٠

(ولقد استهزئ برسل) من إخوانك ، الذين أرسلوا (من قبلك) ولم يفلتوا من عقاب الله ٠
(فحاق بالذين سخروا منهم) أى : فنزل وحاق بهؤلاء الساخرين المعاندين المكذبين ، جزاء استهزائهم (بما كانوا به) من الرسل (يستهزئون)٠
فكيف بمن يستهزئ بك ، أو بما جئت به ٠٠ ؟ !!

* * *

خوفهم يا محمد بمصائر من سبقهم من المكذبين٠

{ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }
[الآية ١١]

أى : (قل) لهم (سيروا فى الأرض) علاجا لتكذيبكم (ثم انظروا) واعتبروا(كيف كان عاقبة المكذبين) للرسل من قبلكم ، حتى لا تكذبوا مثلهم٠

* * *

ثم ٠٠ لهم أيضا ..

{ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ١٢]

والمعنى : (قل) يا محمد ، دعوة لهم ، متسائلا : (لمن ما فى السموات والأرض)٠٠ ؟
وأجب فورا : حيث لا خلاف حول هذه القضية ٠٠
و(قل لله) حتى وإن لم يقولوا ذلك ٠
ثم قل : (كتب) ربكم (على نفسه الرحمة) أى : قضى ، فضلا وعطفا، ودون إلزام ٠
وفى ذلك : تلطف وترغيب فى دعوتهم للإيمان ٠
وبعد الترغيب : يكون الترهيب ، فى قوله (ليجمعنكم إلى يوم القيامة) ليجازيكم بأعمالكم ، وعنادكم ، إن بقيتم على الكفر ٠
ويوم القيامة هذا (لا ريب فيه) فهو آت لا محالة ، وعقابكم – إن بقيتم على الكفر – حاصل حاصل ٠
على كل حال ٠٠
(الذين خسروا أنفسهم) بتعريضها للعذاب والمهانة (فهم لا يؤمنون) بيوم القيامة ٠
فلا تبتئس يا محمد من أجل هؤلاء المعاندين .

*****

ويقرر المولى سبحانه ٠٠ ملكيته للكون ، وسمعه ، وعلمه ٠
بقوله :

{ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الآية ١٣]

والمعنى :
(و) قل يا محمد: (له) أى لله عز وجل (ما سكن) أى : ثبت واستقر (فى الليل والنهار) يعنى : كل شىء فى الوجود ٠٠ ملك له سبحانه ٠
(وهو السميع) لما يقال فى هذا الوجود كله (العليم) بما يُفْعل فيه ٠

* * *

وما دام الأمر كذلك :
فإن الله عز وجل يأمر حبيبه صلى الله عليه وسلم أن يعلنها صريحة مدوية ٠
فى قوله الكريم له :

{ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }
[الآية ١٤]

والمعنى :
(قل) يا محمد لهم ، وللدنيا كلها ، وهو أمر لكل مسلم – كذلك – أن يقولها واضحة قوية ، لكل من يحاولون صرف المسلم عن دينه ٠
(أغير الله أتخذ وليا) أعبده ، وأقصده فى كل شىء سوى الله سبحانه وتعالى ٠٠ ؟
هل يعقل هذا ٠٠
خاصة : وهو (فاطر السموات والأرض) خالقهما ومبدعهما ومخترعهما على غير مثال سبق ٠
(وهو)سبحانه (يطعِم ولا يطعَم) يرزق الدنيا كلها وأهلها ، فهو الخالق الرازق ، والمنافع كلها من عنده سبحانه ٠
وبعد هذا الإنكار : يكون طلب الإعلان عن الموقف الصريح .
(قل) يا محمد ثانيا : (إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) وألتزم من هذه الأمة ٠
وقيل لى كذلك (ولا تكونن) يا محمد (من المشركين) بالله تعالى٠
يعنى : أمرت بالإسلام ، ونهيت عن الشرك ؛ حيث إنهما لا يجتمعان أبدا ٠

* * *

كما أمِرَ صلى الله عليه وسلم ٠٠ أن يعلن كذلك ما يلى :

{ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }
[الآية ١٥]

يعنى :
ثالثا : (قل) يا محمد ، والأمر – كذلك – لأمته صلى الله عليه وسلم ، بنفس التكليف ٠
(إنى أخاف إن عصيت ربى) بعبادة غيره ، أو بإشراك غيره فى عبادتى ٠
(عذاب يوم عظيم) وهو يوم القيامة ٠

* * *

خاصة ٠٠ وأنه :

{ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ }
[الآية ١٦]

يعنى : الذى (يُصرَف) ويُبْعَد (عنه) العذاب ، (يومئذ) أى: فى يوم القيامة : (فقد رحمه) الله ، الرحمة العظمى، وأراد له الخير ٠
(وذلك) الصرف للعذاب عنه يوم القيامة : هو (الفوز المبين) والنجاة الحقيقية ٠
وأى فوز ٠٠ أعظم من النجاة من النار ، ودخول الجنة ٠٠ ؟!

*****

وإذا كان هناك تصور ، أو أدنى خاطر ٠٠ فى أن إعلان موقف المسلم من ربه ومن دينه ، بهذا الشكل المطلوب : قد يتسبب له فى أى ضرر ٠٠ فليعلم جيدا "أن النفع والضر بيد الله وحده" .
حيث يقول عز وجل :

{ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

[الآية ١٧]

والمعنى :

اعلم أيها المؤمن جيدا ٠٠ أنه :

(إن يمسسك) أى يصيبك (الله بضر) من مرض ، أو فقر ، أو إيذاء ، أو ابتلاء ، أو غير ذلك من صور البلاء .

(فلا كاشف له) أى : لا صارف له ، ولا منجى منه ، ومن ضرره (إلا هو) سبحانه وتعالى .

واعلم أيضا ٠٠ أنه :

(إن يمسسك) أى : ينعم عليك الله (بخير) من غنى ، أو صحة ، أو منصب ، أو جاه ، أو ولد ، أو غير ذلك .

(فهو على كل شىء قدير) أى : فهى نعمة من قادر ، يحفظها عليك ، ويديمها عندك ، أو يزيلها منك إن أراد ، وحده ٠

* * *

وزيادة على ما عرفت أيها المؤمن ٠٠ فاعلم – أنت وغيرك – ما يجب أن يكون معلوما عن المولى عز وجل ٠

يقول تعالى :

{ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ }

[الآية ١٨]

يعنى : هو الذى ٠٠ خضعت له الرقاب ، وعنت له الوجوه ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمته وجلاله وكبريائه وقدرته الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه ، وتحت قهره ، وخضعت لمشيئته ٠٠ فلا ينفذ شىء إلا بمشيئته ، ولا يكون إلا ما أراد ٠

(وهو الحكيم) فى أفعاله ، وأحكامه ، وتشريعاته٠

(الخبير) بمصالح عباده ٠

ولذلك : لا يعطى إلا عن علم وحكمة ، ولا يمنع إلا عن علم وحكمة ، سبحانه تعالت عظمته ٠

*****

أيها الأحبة فى الله ٠٠

قال الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم : لقد سألنا عنك اليهود – وهم أهل الكتاب – عن صدقك فى نبوتك ، وطلبنا منهم الشهادة فى ذلك ٠٠ فأنكروك ، وأنكروا نبوتك ٠

فهل أتيتنا بشاهد يشهد لك ·
فأنزل الله تعالى :

{ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ }
[الآية ١٩]

والمعنى : اسأل الكافرين عن أعظم الأشياء شهادة ، أى : عن أعظم الشهداء ·
ثم أجب بقولك (الله) حيث لن يقولوها عنادا واستكبارا ·
نعم (قل الله شهيد بينى وبينكم) على صدقى فيما أبلغكم به ·
وقل لهم كذلك (وأوحى إلى هذا القرآن) الذى عرفتم ما فيه من إعجاز ومعجزات (لأنذركم) يا أهل مكة ، بل يا كفار الدنيا كلها ، وكذلك أنذر (من بلغ) أى : من بلغه القرآن ، من الإنس والجن فى أى مكان ، وفى أى زمان بعدى إلى يوم القيامة ·
ثم يوبخهم ، ويبكتهم ، بقوله :
(أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) هذا لا يصح ولا ينبغى؛ لأنه إله واحد ، هو المعبود بحق ·
ولذلك : إنا (لا أشهد) بما تشهدون .
(إنما هو إله واحد) وبذلك أشهد ، وأومن .
(وإننى) فى الوقت ذاته (برىء مما تشركون) معه سبحانه من الأصنام ، والمعبودات الزائفة الأخرى·

*****

هذا ·· ولئن كان أهل الكتاب من اليهود كذبوا على أهل مكة حينما سألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وطلبوا شهادتهم فى أمر صدقه فى ادعائه النبوة ·
فإن الله عز وجل يكشف سترهم ، ويفضح كذبهم ، ويظهر الحقائق للدنيا كلها بقوله :

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٢٠]

والمعنى : أن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، من كتبهم (كما يعرفون أبناءهم) وبالتالى فهم يعرفون صدق نبوته ، وعالمية رسالته ، وخاتمية بعثته صلى الله عليه وسلم ·
وعلى ذلك فــ(الذين خسروا أنفسهم) من المشركين ، والملحدين، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى .
(فهم) هؤلاء الذين (لا يؤمنون) به ، ولا بالذى أوحى إليه ، وهم حقا الخاسرون لرضوان الله ، ونعيم الجنة·

* * *

هؤلاء الذين (لا يؤمنون) بمحمد صلى الله عليه وسلم : قد ظلموا ٠

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ }
[الآية ٢١]

والمعنى : لا أظلم من اثنين :
الذى يفترى ويختلق على الله الكذب ، كنسبة الشريك إليه ٠
والذى يكذب بآياته ، كما فعل أهل الكتاب فى إنكارهم للقرآن ٠
والحال والنتيجة ٠٠ أنه :
(لا يفلح الظالمون) حيث لا ينجون من مكروه ، ولا يفوزون بما يرجون إلى ما يحبون ٠

*****

ثم تنقلنا الآيات الكريمة إلى مشهد من مشاهد القيامة حيث تقول :

{ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ }
[الآيات ٢٢ – ٢٤]

والمعنى : اذكر أيها العاقل ٠٠
(يوم نحشرهم جميعا) أى : كل هؤلاء الظالمين ، الكاذبين ، المكذبين ٠
ماذا يحدث ٠٠ يومذاك ٠٠ ؟
(نقول) توبيخا (للذين أشركوا) مع الله غيره : (أين شركاؤكم) هؤلاء (الذين كنتم تزعمون) أنهم آلهة ، وتعبدونهم مع الله ، أو غير الله ٠ ؟
أين هم الآن ٠٠ ؟ !!
بماذا يجيب هؤلاء الظالمون ٠٠ ؟
يقول ربنا :
(ثم لم تكن فتنتهم) أى جوابهم ، وسماه فتنة ؛ لأنه جواب كاذب ، فتنوا به ، وظنوا أنه ينجيهم فى هذا الموقف ٠
ماذا قالوا فى جوابهم ؟

(قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) أمر عجيب ، وجواب غريب. (انظر) يا محمد ، ويا كل عاقل (كيف كذبوا على أنفسهم) بنفيهم الشرك ، الذى كانوا فيه غارقين ، وله ملازمين .

وانظر يا محمد ، ويا كل عاقل : كيف (ضل عنهم) وغاب من عقولهم ، وعن نجدتهم ، وعن نفعهم (ما كانوا يفترون) هــ، من الآلهة المزعومة ٠

*****

وبعد ذلك : يبين الله لحبيبه أن من الكفار من يستمع إلى القرآن ، ولكنه لا يستفيد شيئا ٠

{ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ }
[الآية ٢٥]

والمعنى : (ومنهم) أى من هؤلاء الظالمين ، الكاذبين ، الكافرين (من يستمع إليك) حين تتلوا القرآن ، وهذا فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى كل زمن بعده إلى يوم القيامة ٠

(و) لكن بعنادهم وجحودهم (جعلنا على قلوبهم) أغطية (أن يفقهوه) تحول بينهم وبين فقهه وفهمه والانتفاع به ٠

(و) كذلك جعلنا (فى آذانهم وقرا) ثقلا ، يحول بينهم وبين الاستماع النافع ٠

هؤلاء : لا ينتفعون بعقولهم ، ولا بقلوبهم ، ولا بأسماعهم ، ولا بأبصارهم ٠

حيث إنهم كذلك (إن يروا) بأعينهم (كل آية) دالة على وحدانية الله ، وصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم (لا يؤمنوا بها) عنادا واستكبارا٠

(حتى)إنهم (إذا جاءوك) وتشرفوا برؤيتك ، وسعدوا بمجالستك ، لا ينتفعون بهذا ، بل (يجادلونك)٠

بماذا يجادلون ٠٠ ؟

(يقول الذين كفروا) عن القرآن (إن هذا) أى ما هذا الذى نستمع إليه (إلا أساطير الأولين)أى : أكاذيب ينقلها ويحكيها عن الأولين السابقين ، ليلفت نظرنا إليه ، ويضحك علينا بها ٠

* * *

يقول تعالى عن هؤلاء :

{ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }
[الآية ٢٦]

والمعنى : (وهم) أى : المشركون (ينهون) الناس (عنه) أى عن القرآن ، أو عن محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به ، واتباعه .

(و) كما أنهم – فى الوقت ذاته – (ينأون عنه) بأنفسهم ، فلا ينتفعون به ، ولا يستفيدون منه ٠

وهم بهذا (يهلكون أنفسهم) ويضرونها(وما يشعرون) بخطورة هذا الضرر الغائب عنهم ، بعد أن لم يدركوا خطورة الضرر المشاهد فى الدنيا٠

*****

إذا كان هذا حالهم فى الدنيا ٠٠
فما حالهم فى الآخرة ٠٠ ؟
يصوره ما يلى :

{ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ }
[الآيات ٢٧ – ٢٩]

والمعنى :

(ولو ترى) هؤلاء المكذبين (إذ وقفوا على النار) أى : عاينوا النار ورأوها ، أو حين حبسوا على الصراط فوق النار ٠٠ لرأيت منظرا عجبا٠

بل لسمعت ما هو أعجب ٠

(فقالوا يا ليتنا) وهم يتحسرون (نرد) إلى الدنيا ، فنتبع محمدا ، (ولا نكذب بآيات ربنا) كلها ، ومن أعظمها القرآن ، (ونكون من المؤمنين) أى: معهم ، وفى صفوفهم ٠

ولكن ٠٠ !!

أنى لهم هذا الرجوع ، خاصة وأنه اضطرارى ، لا عن قناعة ٠

(بل) هم لا يؤمنون ، إنما الواقع ، أنه (بدا) ظهر واتضح لهم (ما كانوا يخفون) عن الناس من فضائحهم ، ومساوئهم ، وظلمهم (من قبل) هذا الموقف الذى انكشف فيه كل شىء ، وشهدت فيه على المرء جوارحه٠

والحقيقة : أنهم (لو ردوا) إلى الدنيا كما يتمنون الآن (لعادوا) مرة أخرى (لما نهوا عنه) من الشرك والمعاصى (وإنهم لكاذبون) فى وعدهم الإيمان إذا عادوا إلى الدنيا ٠

(و) لو عادوا (لقالوا) مرة أخرى ، كما كانوا يقولون (إن هى إلا) أى : ما هى إلا (حياتنا الدنيا) فقط (وما نحن بمبعوثين) مرة أخرى لحساب أو جزاء ٠

* * *

مشهد آخر ٠٠

{ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ }
[الآية ٣٠]

والمعنى : (ولو ترى) كذلك هؤلاء المعاندين ، يوم القيامة ، وقد (وقفوا على ربهم) يعنى حبسوا بين يديه للسؤال ٠

ونتابع هذا المشهد ٠٠

(قال) أى يقول لهم ربهم (أليس هذا) الذى أنتم فيه الآن من البعث (بالحق) أى : الواقع الموجود بالفعل ؟

فماذا يكون جوابهم ؟

لقد كانوا يسمعون عن البعث ، أيام كانوا فى الدنيا ، وكانوا ينكرونه؛ لذا : يجيبون قائلين :

(بلى) أى هو حق ، لا ريب فى ذلك ٠

ثم يؤكدون كلامهم بالقسم عليه قائلين :

(وربنا) ليؤكدوا الإقرار والاعتراف بالبعث والربوبية ٠٠ ولكن ٠٠ متى ذلك ، وقد فات الأوان ٠٠ !!

والنتيجة ؟

النتيجة معلومة ٠

(قال) الله تعالى (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم وعنادكم فى الدنيا ٠

*****

هؤلاء الذين كذبوا بالبعث ولقاء الله : قد خسروا ٠

يقول تعالى :

{ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ }
[الآية ٣١]

والمعنى هؤلاء الذين كذبوا (بلقاء الله) وهو البعث : خسروا خسرانا لا ينتهى ٠

هؤلاء : (إذا جاءتهم الساعة بغتة) أى : دون علمهم بوقتها ، ودون استعداد لها ، ولما بعدها ٠

(قالوا : يا حسرتنا) وهو ندم لا يفيد (على ما فرطنا فيها) أى قصرنا ، وتغافلنا عنها ، وعن الإيمان بها ، والعمل من أجل النجاة فيها ، وكان ذلك التفريط : فى زمن الدنيا ٠

يقولون ذلك ، ويتحسرون بهذا الشكل :

(وهم) فى الواقع (يحملون أوزارهم) أى ذنوبهم (على ظهورهم) لا تفارقهم ، ولا يتخففون أو يستريحون منها (ألا ساء ما يزرون) لأنه بئس الحمل حملهم ، وساء الوزر وزرهم ٠

* * *

ما الذى شغل هؤلاء عن الإيمان ، وعن العمل الصالح ، حتى يتحسرون هذه الحسرة ٠٠ ؟
الدنيا ٠٠!!

{ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }
[الآية ٣٢]

والمعنى : (وما الحياة الدنيا) أى الانشعال بها ، والانقطاع لها ، (إلا لعب) بترك ما ينفع لما لا ينفع (ولهو) أى ميل عن الجد إلى الهزل ٠٠ وما أهلها المنشغلون بها إلا أهل لعب ولهو ٠

وأما الدار الآخرة وهى دار الخلود : فهى (خير) ونفع ، وحياة حقيقية (للذين يتقون) ربهم فى الدنيا ، بترك المعاصى ، والإقبال على الطاعات ٠

(أفلا تعقلون) ذلك ٠٠ ؟!!

(أفلا تعقلون) قيمة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة ، فتعملون للآخرة٠٠؟!!

(أفلا تعقلون) عن الله ، فتسمعون ، وتطيعون وتتقون ؛ فتثابون ؟!!

*****

هذا ٠٠ ولأن عموم البلوى : مما يهون الألم ، ويخفف الحزن ٠
فقد قال تعالى لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ }
[الآية ٣٤]

والمعنى : لست وحدك يا محمد فى تكذيب قومك لك ، فــ(لقد كذبت رسل) كثيرة ، من إخوانك ، الدين أرسلوا إلى أقوامهم (من قبلك) وأوذوا كذلك منهم ٠

فماذا فعلوا ٠٠ ؟

(صبروا على ما كذبوا وأوذوا) أى : صبروا على تكذيب قومهم لهم ، وإيقاعهم الأذى بهم ٠

ولكن ٠٠ إلى متى هذا الصبر على التكذيب والإيذاء ٠٠ ؟

(حتى أتاهم نصرنا) على أعدائهم ، حيث إنه ٠٠ ليس بعد الصبر إلا النصر ، كما هى سنتنا ، ووعدنا لأوليائنا ٠٠

فاصبر حتى يأتيك نصرنا على أعدائك ٠

(ولا مبدل لكلمات الله) أى : لا مبدل ، ولا مغير ، لمواعيد الله ، فى نصرة أوليائه على أعدائهم ٠

هذا ٠٠

(ولقد جاءك من نبأ المرسلين) بعض أخبارهم ، وقصصهم مع أقوامهم ، فيما أوحينا إليك من القرآن ؛ لتعتبر بها ، وتتصبر بما حدث لأصحابها ٠

وهذا ما ينبغى عليك فعله ٠

* * *

أمَّا ٠٠

{ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ }

[الآية ٣٥]

يعنى : (إن كان) عظم عليك (إعراضهم) عن الإسلام ، بسبب حرصك عليهم ، ورغبتك فى إيمانهم ٠٠

فماذا ستفعل ، والأمر ليس إليك فى هدايتهم ٠٠ ؟!

على كل حال :

(إن استطعت أن تبتغى) تجد (نفقا) سربا ، (فى)باطن (الأرض)(فتأتيهم بآية)مما اقترحوا عليك ليؤمنوا : فافعل ٠

كما أنه : إن استطعت – كذلك – أن تجد (سلما) تصعد به (فى السماء)(فتأتيهم بآية) مما اقترحوا عليك ليؤمنوا : فافعل ٠

وفى كل الأحوال : لن تستطيع شيئا من هذا ٠٠ فاصبر إذًا ، واعلم أنه :

(لو شاء الله) هدايتهم : (لجمعهم على الهدى)أى : لجعلهم يختارون الهدى ٠

ولكن ٠٠ لم يشأ ذلك ٠٠

ولهذا ٠٠ لم يؤمنوا ٠

(فلا تكونن من الجاهلين) بذلك ، وما فيه من الحكم العظيمة ٠

*****

إن بعد هذا التأنيس ، وتهوين شدة موقف الكافرين وعنادهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الدعاة إلى الله من بعد .

يبين الله تعالى لحبيبه أن هؤلاء الكفار لا يسمعون بعقولهم ، ولا يستفيدون مما يسمعون ؛ لأنهم موتى القلوب .

{ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ }
[الآية ٣٦]

والمعنى : لا تحزن ولا تهتم يا محمد بمن لا يستجيب لدعوتك من هؤلاء ، (إنما يستجيب) لها (الذين يسمعون) سماع فهم وانتفاع ٠

وهؤلاء الذين يعاندونك ، ويكفرون بك وبدعوتك : موتى القلوب ٠

(والموتى يبعثهم الله) أى : يحييهم يوم القيامة ٠

(ثم) بعد هذا البعث والإحياء (إليه يرجعون) للحساب والجزاء ، فيجازى كل أحد بما يستحق٠

* * *

ومن صور عناد هؤلاء الكفار :

{ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية ٣٧]

والمعنى : أنهم (قالوا) هلا (نزل عليه) ليقنعنا بنبوته (آية) خارقة كناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى ، تكون(من ربه) الذى يدعونا إلى الإيمان به ٠ ؟

(قل) يا محمد (إن الله قادر على أن ينزل آية) مما اقترحوا ، أو غير ذلك من الآيات ٠

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) ضرر ذلك عليهم ، حيث إنه لو نزلنا لهم ما اقترحوا : لوجب هلاكهم ٠٠ لو لم يؤمنوا ، كما حدث لمن سبقهم ٠

ويلاحظ : أن طلبهم هذا ٠٠ إهمال منهم لكل ما جاء مع محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات ، وأعلاها شأنا ، القرآن الكريم ٠

* * *

ومع ذلك ٠٠ يبين تعالى بعض آياته العظيمة ٠٠ فيقول :

{ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ }
[الآية ٣٨]

والمعنى : أن كل نوع من أنواع الحيوان ، والطيور ٠٠ أمة من الأمم ٠٠ وهذا فى حد ذاته : آية تدل على الله تعالى ؛ بدليل أنه لا ينسى أحدا منها تدبيرا ورزقا٠

وهكذا ٠٠ (ما فرطنا) أى : تركنا وأهملنا (فى الكتاب) وهو اللوح المحفوظ (من شىء) فلم نكتبه ٠

حقا ٠٠ من لم ير هذه الآيات ، ويؤمن بها ، فأى آية تجعله يؤمن ؟ كما أن الجميع من هذه الأمم والخلائق (إلى ربهم يحشرون) فيقتص من هذا لذاك ، ويقضى بينهم جميعا ٠

وهذه أيضا آية ٠

* * *

ومع هذا ٠٠ فالذين كفروا : صم وبكم لا يهتدون ٠

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }
[الآية ٣٩]

والمعنى : والذين كذبوا بالقرآن ، وكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وكفروا بالله تعالى ٠٠ كالأصم الذى لا يسمع ، والأبكم الذى لا يتكلم ؛ لأنه لا يستفيد بما يسمع ، ولا يتكلم بالحق الذى يعرف ، ومع ذلك يعيش فى ظلمات الجهل والشك ، فكيف يهتدى إلى الحق مثل هذا ٠٠ ؟

هؤلاء لا يكون منهم إيمان لفساد طبعهم وطبيعتهم ٠

(من يشأ الله يضلله) لفساد طبعه (ومن يشأ) هدايته (يجعله على صراط) طريق (مستقيم) وهو دين الإسلام ٠

*****

ثم يأمر تعالى نبيه بتوجيه الخطاب إلى الكفار المعاندين ٠٠ حيث يقول تعالى :

{ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٤٠]

والمعنى : (قل) يا محمد ردًّا عليهم فى اقتراحهم أن تأتيهم بآية من ربك :

أخبرونى ٠٠

(إن أتاكم عذاب الله) فى الدنيا ، أو فى الآخرة ٠٠ !!

(أو أتتكم الساعة) يعنى فاجأتكم القيامة ٠٠ !!

ماذا تفعلون ٠٠ ؟

(أغير الله) من آلهتكم المزعومة (تدعون)يعنى : تستغيثون بها ، وتطلبون منها إنقاذكم مما أنتم فيه ٠ على كل حال :
(إن كنتم صادقين) فى أنها تنفعكم ، وتدفع عنكم الضر فادعوها٠

* * *

وفى الحقيقة دعاؤكم لها لن يحدث ، واستغاثتكم بها لن تكون ٠

{ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ }
[الآية ٤١]

يعنى : فى ذلك الوقت العصيب ٠٠ لن يكون دعاؤكم إلا لله ، واستغاثتكم لن تكون إلا بالله ٠
كما أنه : لن يكشف عنكم ما بكم إلا الله تعالى إن شاء ذلك ، فضلا منه ورحمة ٠
وأما آلهتكم التى كنتم تعبدونها وتشركونها مع الله : فإنكم تنسونها تماما فى هذا الوقت ، الذى تدركون فيه جيدا ٠٠ أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله سبحانه وتعالى ٠

*****

ثم يبين ربنا سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام ٠٠ أن التكذيب عادة الأمم مع إخوانه من النبيين قبله ؛ حتى لا يزداد ألمه وحزنه من أجلهم. فيقول :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ }
[الآية ٤٢]

والمعنى : لقد أرسلنا رسلا من قبلك يا محمد إلى الأمم السابقة ، لتبليغهم رسالة الله ودعوتهم إلى التوحيد ٠٠ فكذبوهم ، كما كذبك قومك٠
(فأخذناهم بالبأساء والضراء) أى : أصبناهم بالبؤس ، والفقر ، والجوع ، والمرض ، ونقصان الأنفس والثمرات ٠
أتدرى لماذا ٠٠ ؟
(لعلهم يتضرعون) أى : لعلهم يعرفون ربهم ، فيؤمنون به ، ويتوبون عن ذنوبهم ، ويخشعون له ، ويتضرعون إليه أن يكشف عنهم ما نزل بهم ٠

* * *

أتدرى ماذا فعلوا ·· ؟

{ فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ٤٣]

والمعنى : أنهم عاندوا ، ولم يتضرعوا ، ولم يؤمنوا ·
أما كان الأولى بهم ، والأنفع لهم (إذ جاءهم بأسنا) أن يتركوا عنادهم ، ويـــ(تضرعوا) .
(ولكن) ما الذى جعلهم لا يتضرعون ·· ؟
لقد (قست قلوبهم) واستمرت على ما هى عليه من العناد ، بل زادت فيه ·
(و) ما السبب فى هذه القسوة ·· ؟
إنه الشيطان ·
نعم (زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) من المعاصى ، والكفر بالله، والعناد لرسله عليهم السلام·
فماذا حدث لهم بعد ذلك ·· ؟

* * *

يقول تعالى :

{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ }
[الآية ٤٤]

والمعنى : فلما قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، وأهملوا ما ذكرتهم ووعظتهم به أنبياؤهم ·· !!
(فتحنا عليهم أبواب كل شىء) من ملذات الحياة ، بعد البؤس الذى كانوا فيه ؛ استدراجا لهم ·
(حتى إذا فرحوا بما أوتوا) فرح الطغاة الظالمون ، الذين لا يشكرون الله على نعمه ، واطمأنوا على أحوالهم ·
(أخذناهم) بالعذاب فجأة ، من حيث لا يتوقعون·
ويلاحظ : أن نزول العذاب بهم ، وهم فى حالة الرخاء والسلامة ، أشد عليهم وقعا ، وأكثر لهم ألما ·
فلما حدث ذلك : إذا هم متحيرون فى أمرهم ، يائسون من كل خير، حزانى منكسرون ·

* * *

وهكذا ٠٠

{ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآية ٤٥]

يعنى : قطع دابرهم ، وانتهوا عن آخرهم ، بسبب ظلمهم ، (والحمد لله رب العالمين) حيث نصر المرسلين ، وأهلك الظالمين ٠

*****

مرة أخرى ٠٠ يا محمد ٠٠

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ }
[الآية ٤٦]

(قل) يا محمد للكافرين المكذبين المعاندين :

أخبرونى ٠٠ إن أصابكم الله بالصمم ، وأعماكم ، بأن أخذ سمعكم وأبصاركم ، (وختم) كذلك ، يعنى : طبع (على قلوبكم) بحيث لا تعرفون شيئا ، ولا تميزون شيئا : هل يقدر أحد غير الله تعالى أن يرد ذلك أو شيئا منه ، ويعيده إليكم ، كما كان ٠٠ ؟

إن أمرهم لعجيب ٠٠ !!

(انظر كيف نصرف) نبين ، وننوع لهم (الآيات) والدلائل ، على وحدانيتنا وقدرتنا ؛ لكى يؤمنوا ٠

(ثم هم) بعد ذلك كله (يصدفون) يعنى يعرضون عنها ، ولا يعتبرون بها ، ولا يؤمنون بسببها ٠

* * *

أيضا ٠٠

{ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ }
[الآية ٤٧]

يعنى : (قل) يا محمد للكافرين المكذبين المعاندين :

أخبرونى ٠٠ (إن أتاكم عذاب الله) وحل بكم (بغتة) أى : فجأة ، دون علامة تسبقه (أو جهرة) بأن سبقته علامات تدل على قرب وقوعه٠

(هل يُهلك) هلاك سخط من الله تعالى ، وغضب عليهم (إلا القوم الظالمون) وهم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم ٠

*****

ثم يبين ربنا عز وجل ٠٠ وظائف الرسل عليهم السلام ٠

حيث يقول :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾
[الآية ٤٨]

يعنى : لم نرسل هؤلاء الرسل لتقترح عليهم الآيات ، ويكونوا محل اختبار من أقوامهم ٠٠ بل هم (مبشرين) بالخير للصالحين ، (ومنذرين) بالشر للعصاة٠

وعلى ذلك :

(فمن آمن) بالله ، وبما جاءوا به (وأصلح) عمله ، فردا كان أو جماعة : (فلا خوف عليهم) من العذاب فى الآخرة (ولا هم يحزنون) على مافاتهم ، أو فاتوه وتركوه ، من متاع الدنيا الزائل ٠

* * *

وأما غير هؤلاء ٠٠

فيقول تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾
[الآية ٤٩]

يعنى : الفريق الآخر من أقوام الرسل ، وهم (الذين كذبوا) بآياتنا ، وعاندوا رسلنا ٠٠ فهؤلاء : (يمسهم العذاب) أى : ينالهم ، وينزل بهم ، فى الدنيا والآخرة ٠

وذلك (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم ، وخروجهم عن طاعة الله ، ومتابعة الرسل ٠

*****

يا محمد ..

{ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ }
[الآية ٥٠]

يعنى : (قل) لهؤلاء الكافرين المكذبين المعاندين :

(لا أقول لكم عندى خزائن الله)التى يرزق منها عباده ، حتى أتصرف فيها ، كما تريدون ، وتقترحون على قلب الجبال ذهبا ٠

(ولا أعلم الغيب) حتى تسألونى عن وقت قيام الساعة ٠

(ولا أقول لكم إنى ملك) حتى تطلبوا منى الصعود إلى السماء ٠

أى : أننى لست بهذا ولا ذاك ٠

إنما أنا بشر (أتبع ما يوحى إلى) من ربى ، فأبلغكم به ، لا أنقص منه ، ولا أزيد عليه ٠

(قل) لهم ، بعد هذا التوضيح ، وهذا البيان ٠

(هل يستوى الأعمى والبصير) يعنى الكافر الذى ضل الطريق ، والمؤمن الذى هُدى إلى صراط مستقيم ٠٠

لا يمكن أبدا أن يستويا ٠

وما دام الأمر كذلك ٠٠

(أفلا تتفكرون) فتعقلون ، فتؤمنون ٠٠ ؟

* * *

هؤلاء المعاندون : لا يخافون ولا يتعظون ٠٠ !!

يا محمد ٠٠ بعد أن بلغتهم وأنذرتهم : اتركهم ، ولا تنشغل بهم ٠

{ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }
[الآية ٥١]

يعنى : خوف بالقرآن الذين يخافون ربهم ، ويتعظون بآياته ، ويخافون لقاءه فى يوم الحشر ، يوم (أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم) فى هذا اليوم (من دونه) يعنى غيره سبحانه (ولى) يتولى أمرهم (ولا شفيع) يشفع لهم فى دفع العذاب عنهم ٠

وهؤلاء : هم عصاة المؤمنين ٠٠ خوفهم بالعذاب (لعلهم يتقون) ربهم فيقبلون على طاعته ، ويبتعدون عن معصيته ٠

*****

وبمناسبة الكلام على المؤمنين ٠٠

فإن الكفار طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يطرد فقراء المسلمين من مجلسه حتى يجلسوا هم معه ، قال صلى الله عليه وسلم ما أنا بطارد المؤمنين ٠

قال الكفار : فاجعل لنا يوما نجلس معك فيه ، وتتحدث العرب بفضلنا ، فإذا فرغنا فاقعد معهم ، إن شئت ٠٠ فوافق صلى الله عليه وسلم على ذلك ٠

وهنا نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى :

{ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٥٢]

الآية الكريمة – كما هو واضح – نهى للنبى صلى الله عليه وسلم – وهو للدعاة كذلك من بعده – عن طرد الفقراء الذين يعبدون الله ، ويخلصون فى طلب العلم ، من مجلس العلم والمعرفة ، ومن يطرد هؤلاء : فهو من الظالمين ٠

والمعنى : (لا تطرد) من مجلسك ، هؤلاء المؤمنين الفقراء (الذين يدعون ربهم) أى : يعبدونه (بالغداة والعشى) يعنى بالصلوات كلها فى الأوقات كلها (يريدون وجهه) أى : مخلصين لله فى عبادتهم له ، وطلب عفوه وغفرانه ، وليس شيئا من أغراض الدنيا ومتاعها الزائل ٠

خاصة وأنه :

(ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء) يعنى ما عليك رزقهم ، حتى يشق عليك (فتطردهم)، ولكن رزقهم على الله تعالى ، كما أن رزقك ليس عليهم كذلك ٠٠

لا تطردهم (فتكون) بسبب ذلك (من الظالمين) إن فعلت ذلك ٠

*****

ولو سأل سائل قائلا : ما الحكمة فى أن يكون أتباع الرسل عادة من الفقراء؟

فالجواب ٠٠ فى قوله تعالى :

{ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ }
[الآية ٥٣]

أى : كان أتباع الرسل عادة من الفقراء ·· اختبارا وامتحانا لأهل الكبر ، هل يتخلون عن كبرهم ، ويتقبلون شرع الله ؟

وعلى كل حال : فالاختبار للطرفين الأغنياء والفقراء ·

(ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) ·· ؟

يعنى : يقول الأغنياء المتكبرون على الفقراء ·· أهؤلاء الفقراء منّ الله عليهم بالإسلام دوننا ، حيث سبقونا إلى الإيمان ·· ؟

ويقول الفقراء المتطلعون إلى الأغنياء ·· أهؤلاء الأغنياء غير المؤمنين ، منَّ الله عليهم بسعة الرزق دوننا .

وهذه فتنة واختبار للفريقين ·· والله عليم – فى الوقت ذاته – بمن يشكره من الفريقين ·

(أليس الله بأعلم بالشاكرين) له ؛ فيهديهم إلى الصواب؟

بلى ، وألف بلى ·

* * *

ثم يكون الأمر للنبى صلى الله عليه وسلم بتكريم المؤمنين ، فى قوله تعالى:

{ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

[الآية ٥٤]

المعنى : (وإذا جاءك) من نهيناك عن طردهم من مجلسك ، وهم (الذين يؤمنون بآياتنا) أى : الموصوفون بالإيمان بآيات الله ، كما وصفوا فى الآيات السابقة بالمداومة على عبادته (يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) يعنى : الذين جمعوا بين فضيلة العلم وفضيلة العمل ·

(فقل) لهم :

أولا: (سلام) من الله تعالى (عليكم) إكراما لكم ·

ثانيا : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) قضى ربكم بسعة رحمته عليكم ، وقبوله التوبة منكم ، تفضلا منه سبحانه وإحسانا ·

ثالثا: ومن رحمته (أنه من عمل منكم سوءا)أى : ذنبا (بجهالة) منه لخطورة المعصية (ثم تاب من بعده) رجع عن ذنبه ، ولم يصر عليه (وأصلح) عمله وسلوكه : (فأنه غفور) لأهل الإيمان (رحيم) بهم ·

* * *

أيها القارئ الكريم ··

من أول السورة إلى هنا ٠٠ يقول عنه تبارك وتعالى :

{ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ }
[الآية ٥٥]

أى : بهذا التوضيح ٠٠ نبين (الآيات) المسطورة فى القرآن ، والمنظورة فى الأنفس والأكوان : ليظهر الحق فيعمل به ، والباطل فيبتعد عنه ٠

أيضا (ولتستبين) أى لتظهر (سبيل المجرمين) يعنى طريقهم وما فيه من مخاطر وأضرار عليهم ؛ فيجتنبوه ٠

***

ثم يأمر المولى تبارك وتعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم ٠٠ أن يقول لهؤلاء الكفار ، المعاندين ، المتكبرين ٠٠ أربعة أشياء :

الأول :

{ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ }
[الآية ٥٦]

يعنى : (قل) يا محمد لهؤلاء المعاندين ٠

(إنى نهيت) من ربى (أن أعبد الذين تدعون من دون الله) وهى الأصنام ، التى كانوا يعبدونها ، وصرفت عن ذلك بفضل الله تعالى ٠

وفى ذلك : قطع لآمالهم الفارغة فى ركونك إليهم ٠

الثانى :

{ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ }

يعنى : (قل) يا محمد – كذلك – لهم ٠٠

(لا أتبع أهواءكم) الضالة ، المنحرفة ، التى لا تقود إلى خير أبدا ٠

ولو فعلت ، واتبعت أهواءكم ، وانحرفت عن دينى (قد ضللت إذًا) وصرت ضالا منحرفا مثلكم ٠

(وما) كنت فى هذه الحالة (من المهتدين) كما أنكم لستم بمهتدين ٠

* * *

الثالث :

{ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ }
[الآية ٥٧]

يعنى : (قل) يا محمد لهم ، ثالثا ٠

(إنى على بينة) دليل وبرهان واضح ، بصدق ما أنا عليه ٠

هذه البينة ، وهذا الدليل : منزل (من ربى) وهو القرآن الكريم (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) .

وأما أنتم فقد (كذبتم به) أى : بالقرآن ، ولم تؤمنوا بالله تعالى ، ولذا صرتم مستحقين لعذاب الله ٠

فلما استعجلوا مجىء هذا العذاب ، على سبيل الاستهزاء به : قال(ما عندى ما تستعجلون به) من العذاب ، بل العذاب عند الله تعالى ٠

وما(الحكم) فى أمر هذا العذاب ، أو مجيئه ، أو غير ذلك (إلا لله) وليس لى ، ولا لأحد سواه ٠

فهو سبحانه (يقص الحق) أى : لا يحكم إلا بحق ٠

(وهو خير الفاصلين) الحاكمين ، بينى وبينكم ٠

* * *

الرابع :

{ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ }
[الآية٥٨]

يعنى : (قل) يا محمد لهؤلاء المكذبين الكافرين ٠

(لو أن عندى) وبيدى ، ومفوض إلى من الله تعالى ٠

(ما تستعجلون به) وهو العذاب ٠

(لقضى الأمر بينى وبينكم) أى : لجئت به ، وعذبتم حقا ، كما تستعجلون استهزاء ، واسترحت منكم ، ومن عنادكم ، ولكن ذلك ليس بيدى ، بل هو عند الله عز وجل ٠

(والله أعلم بالظالمين) ووقت عقابهم المناسب ، وأنتم ظالمون ، وسيعاقبكم ربى تبارك وتعالى ، فى وقت لا يعلمه إلا هو ٠

***** وإذا كان إيقاع العذاب بالكافرين : من اختصاص قدرة الله تعالى ٠
فإن معرفة وقت عذابهم : من اختصاص علم الله سبحانه ٠
حيث يقول ربنا :

{ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٥٩]

ومعنى الآية : (وعنده) تعالى ، وحده (مفاتح الغيب) أى : خزائن الغيب ، وما فيه ، أو عنده الطرق الموصلة إلى علم الغيب ٠
(لا يعلمها إلا هو) فقط ٠
وهذه المفاتح للغيب ، التى لا يعلمها إلا هو سبحانه : هى الخمسة المذكورة فى قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت) [لقمان ٣٤]٠
وبعد أن بين ربنا تعلق علمه بالغيبيات : ذكر تعلق علمه – كذلك – بالمشاهدات ، فقال بادئا فى تفصيل بيان ذلك ٠
(ويعلم ما فى البر والبحر) وما فيهما من عجائب مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته ، وسعة علمه تبارك وتعالى ٠
ثم بين علمه – سبحانه –بأحوال ما فى البر والبحر كذلك ٠٠ فقال :
(وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) لأنه مسقطها بإرادته ٠
(ولا حبة) موجودة (فى ظلمات الأرض) إلا يعلمها ٠
(ولا رطب) حى من النبات ، أو غيره (ولا يابس) ميت من النبات – كذلك – أو غيره ، إلا يعلمه سبحانه ٠
كل ذلك مسجل ومدون (فى كتاب مبين) واضح، لا يعلمه ولا يعلم ما فيه ، إلا الله ٠

*****

ثم يبين الله تعالى أثرا من آثار قدرته ، وقهره لعباده ٠
حيث يقول :

{ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآية ٦٠]

أى : (وهو) الله (الذى يتوفاكم بالليل) وذلك بقطع أرواحكم عن باطنكم ، فتنامون ٠

وهو الذى (يعلم ما جرحتم) أى ما كسبتم وفعلتم (بالنهار) وبالليل أيضا ٠

(ثم) هو الذى (يبعثكم فيه) أى : يوصل أرواحكم بباطنكم وظاهركم ، فتستيقظون ، سواء كان فى النهار أو فى الليل ٠

وذلك النوم ، وتلك اليقظة – وهى مظهر من مظاهر قدرته سبحانه – (لِيُقْضَى أجل مسمى) عند الله أى : لتتم حياتكم إلى أن يأتى أجل الموت الذى تنتهى عنده الحياة ، وتنقطع أرواحكم عن ظاهركم وباطنكم .

(ثم) بعد ذلك (إليه مرجعكم) يوم البعث من القبور ٠

(ثم) فى هذا اليوم (ينبئكم) يخبركم ، ويحاسبكم (بما كنتم تعملون) من خير أو شر ٠

* * *

وبعد ذلك : يصرح ربنا عز وجل بقهره لعباده ٠

فيقول :

{ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ }
[الآية ٦١]

يعنى : (وهو القاهر فوق عباده) الغالب ، المتصرف فى أمورهم ، لا غيره – سبحانه – حيث يفعل بهم ما يشاء ، خلقا وإفناء ، وإحياء وإماتة ، وإثابة وتعذيبا٠

(ويرسل عليكم حفظة) من الملائكة ، يحفظونكم ، ويحافظون عليكم ، وآخرين منهم يحفظون أعمالكم ويسجلونها عليكم ٠

وهؤلاء الحفظة : يكونون معكم ، يؤدون هذه المهام ٠٠ طيلة حياتكم ٠

(حتى إذا جاء أحدكم الموت) وانتهى أجله ، ومدة بقائه فى الدنيا ٠

(توفته رسلنا) أى : توفاه الله تعالى ، بأن أمر ملك الموت بقبض روحه ، وأمر أعوان ملك الموت بنزع هذه الروح من الجسد ٠

(وهم) فى القيام بهذه المهمة (لا يفرطون) أى : لا يقصرون ، لأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

* * *

وبعد قبض أرواح البشر ، وموتهم ٠٠

ماذا يكون ٠٠ ؟

{ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ }
[الآية ٦٢]

أى : (ثم) بعد الموت ، يكون البعث لجميع الخلائق ، ويعودون إلى الله تعالى ، الذى هو (مولاهم الحق) حيث لا مولى ولا ناصر ، فى هذا اليوم إلا هو سبحانه ، وهو الحكم العدل ٠

(ألا له الحكم) فى الدنيا والآخرة ، فيفصل بين الخلائق ، يجازى العاصى ، ويثيب المطيع ٠

(وهو أسرع الحاسبين) لا يشغله حساب عن حساب ، ولا اعتبار للوقت – عنده – فى هذا الحساب ، حيث لا يحتاج – سبحانه – إلى فكر وعد كما يحتاج البشر ٠

*****

أيها القارىء الكريم : بعد هذا التخويف المفيد من رب العالمين لعباده ٠٠

يأمر ربنا – تبارك وتعالى – محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكّر ببعض ألوان من قدرة الله عليهم (لعلهم يفقهون) فيؤمنون ٠

حيث يقول :

{ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ }
[الآية ٦٣]

والمعنى : (قل) يا محمد لهؤلاء المعاندين ٠٠ توبيخا وتذكيرا ٠

(من) الذى (ينجيكم من ظلمات البر والبحر) أهوالهما ، ومخاوفهما سوى الله سبحانه وتعالى ، الذى (تدعونه) عند الشدائد (تضرعا وخفية) أى : فى السر والجهر ٠٠ ؟

تقولون ساعتئذ : (لئن أنجانا) من هذه الأهوال والمخاوف والشدائد (لنكونن) لك (من الشاكرين) المؤمنين بك ، المطيعين لأمرك ، المتبعين لرسلك ٠

فماذا يحدث بعد دعائهم وقولهم هذا ٠٠ ؟

* * *

{ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ }
[الآية ٦٤]

أى : (قل) لهم يا محمد ٠

(الله) وحده ، هو الذى (ينجيكم منها) أى : من هذه الظلمات فى البر والبحر ، والمخاوف ، والشدائد ٠
كما ينجيكم سبحانه وتعالى (من كل كرب) يصيبكم ٠
ومع ذلك ٠
(ثم أنتم)الذين قلتم (لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) بعد أن (ينجيكم منها ومن كل كرب) به سبحانه (تشركون) .
أهذا يعقل ٠٠ ؟ أهذا يقبل ٠٠ ؟!!

* * *

يا محمد ٠٠

{ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ }
[الآية ٦٥]

والمعنى : (قل) يا محمد لهؤلاء المعاندين محذرا ٠٠
الله ربى (هو القادر) وحده (على) :
(أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) كالحجارة ، والصيحة ، والصواريخ والقنابل ، ٠٠٠ إلخ .
أو يبعث إليكم عذابا (من تحت أرجلكم) كالخسف ، والزلازل ، والبراكين ، والفيضانات ٠٠٠إلخ .
(أو يلبسكم) أى : يجعلكم وأنتم مع بعضكم البعض مختلطين (شيعا) أى : فرقا ، مختلفة الاتجاهات ، متنازعة الرغبات والأهواء ٠
(ويذيق بعضكم) بسبب هذا التخالف والتنازع (بأس بعض) أى : عذاب بعض ٠
حقا ٠٠ إنها ابتلاءات ، وتخويفات شديدة ، وتحذيرات أكيدة ٠
فماذا فعل المعاندون ٠٠ ؟
(انظر كيف نصرف الآيات) ننوع الآيات الدالة على قدرتنا لهم (لعلهم يفقهون) ولكنهم لا يفقهون ٠

* * *

{ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ }
[الآية ٦٦]

والمعنى : أنه بعد كل هذا البيان ، والتحذير ٠٠ (كذب به) أى : بالقرآن ، وما فيه من التخويف بالعذاب (قومك) أى : كل من عاندك من البشر أجمعين ، حيث إنك مرسل لجميع العالمين ٠

(و) كان عليهم أن يؤمنوا لأنهم يعلمون علم اليقين ، أنك نبى ، وأن القرآن (هو الحق) وكل ما فيه حق ٠
وعلى كل حال : (قل) لهم (لست عليكم بوكيل) أى : بحفيظ ، يمنعكم من الكفر ، أو يعاقبكم عليه ، بل ذلك إلى الله تعالى ٠

* * *

قل لهم – أيضا – يا محمد :

{ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٦٧]

يعنى : لكل أمر أوانه ، ولكل شىء أخبر بوقوعه القرآن وقته المقدر فيه حدوثه ، ومن ذلك : عذابكم ٠
(وسوف تعلمون) ساعتها ما يحدث لكم ، وينزل بكم أيها الكافرون ٠

*****

ثم يحدد الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم موقفه من هؤلاء المعاندين ، وذلك قبل الأمر بقتالهم ٠
حيث يقول :

{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٦٨]

والمعنى : (وإذا رأيت) يا محمد ، أو يا أيها المؤمن (الذين يخوضون فى آياتنا) أى : يستهزئون بالقرآن ، ويطعنون فيه ، وأنت لا تقدر على رد استهزائهم ومنعه ، أو الدفاع عنه ، وإبطال مطاعنهم (فأعرض عنهم) أى : لا تجالسهم ، ولا تخالطهم ، وابتعد عنهم ، (حتى يخوضوا فى حديث غيره) حتى يبتعدوا عن ذلك ، وينشغلوا بحديث غيره أو أمر آخر ٠

(وإما ينسينك الشيطان) هذا النهى ، فجلست معهم ، وخالطتهم ، فإن الله يغفر لك بسبب هذا النسيان ، ولكن بشرط أن (لا تقعد بعد الذكرى) مرة أخرى (مع) هؤلاء (القوم الظالمين) الكافرين ، المعاندين ، حيث لا ظلم أكبر من ظلم الاستهزاء بآيات الله والتكذيب بها ٠

*****

أيها القارئ الحبيب ٠٠

لما نزلت الآية السابقة ٠٠ قال المسلمون : إن قمنا كلما خاضوا فى آيات الله واستهزءوا بها ٠٠ لم نستطع أن نجلس فى المسجد ولا أن نطوف بالبيت ٠

وهنا نزل قوله تعالى :

{ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }

[الآية ٦٩]

والمعنى : ليس على (الذين يتقون) الله ، شىء من ذنوب هؤلاء ٠٠ إذا هم جالسوهم ، فذلك مباح لهم ، وفق ما شرع الله ٠

(ولكن) عليهم أن يفارقوا مجلسهم إن خاضوا واستهزءوا بآيات الله .

كما أن عليهم أن يعظوهم ، من باب الــ (ذكرى لعلهم يتقون) الله ، فيكفون عن ذلك، ويؤمنون ٠

ومن هذا نفهم ٠٠ أن موضوع الرد على المستهزئين بآيات الله ، والطاعنين فى القرآن الكريم : له اعتبارات ٠

حيث إن المؤمن إذا لم يكن مؤهلا لهذا الرد وعالما به ٠٠ فلا عليه أن يسكت بشرط عدم الرضا ، وعدم مخالطة المستهزئين ٠

وأما إذا كان عالما بالرد مستطيعا له ٠٠ فعليه أن يرد وفقا للضوابط الشرعية ، وذلك من باب الذكرى والموعظة ، وتبليغ الرسالة ٠

ولذلك : على المسلم أن يكون على ذكر وفهم لهذه الآية ؛ حيث كثر فى زماننا الخوض والطعن فى آيات الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ٠

* * *

على كل حال :

{ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ }

[الآية ٧٠]

يعنى : (وذر الذين اتخذوا) أى : اترك هؤلاء الكافرين المعاندين الذين اتخذوا وجعلوا (دينهم) الذى فرض عليهم ، وأمروا باتباعه (لعبا ولهوا) باستهزائهم به ، وإعراضهم عنه (وغرتهم الحياة الدنيا) وزخرفها بذلك الذى يفعلونه ٠٠ اتركهم ولا تتعرض لهم ٠

(وذكر) فقط (به) أى : بالقرآن ، وما فيه ، هؤلاء القوم ، وعظهم ٠

وذلك : خوفا عليهم ، من (أن تبسل) تمنع ، وتحبس (نفس) من هؤلاء (بما كسبت) أى بما عملت من سوء ، حيث تبسل أى : تمنع من دخول الجنة ، وتحبس فى النار ٠

و(ليس لها) فى هذا الوقت ، وهذا الحال غير الله تعالى ، (ولى) يدفع عنها هذا العذاب (ولا شفيع) يطلب التخفيف أو النجاة لها ٠

حتى (وإن تعدل كل عدل) أى : تدفع كل شىء فداء لنفسها لا يقبل ، و (لا يؤخذ منها)٠

(أولئك) المستهزئون ، (الذين أبسلوا) حبسوا عن الجنة ، وحبسوا فى النار (بما كسبوا) وعملوا (لهم شراب من حميم) ماء حار ، يقطع أمعاءهم ، ولهم كذلك (عذاب أليم) مؤلم غاية الألم ٠

وكان ذلك : (بما كانوا يكفرون) أى : بسبب كفرهم ٠

*****

وحتى يفيق هؤلاء الكافرون من ضلالهم ٠٠

{ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }

[الآية ٧١]

قيل : إن ابنًا لأبى بكر رضى الله عنه ، لم يكن قد أسلم بعد ، دعا أباه إلى عبادة الأصنام ٠

فنزلت هذه الآية ٠

ومعناها : (قل) يا محمد ، أو يا أبا بكر ، أو يا أيها المؤمن ٠

أنعبد (من دون الله) أى : غير الله (ما لا ينفعنا) بشىء (ولا يضرنا) بشىء، وندعوه لقضاء حاجاتنا ، وإجابة دعائنا ٠٠ ؟!!

(ونرد) فى الوقت ذاته (على أعقابنا) أى : إلى الكفر بعد الإيمان ، وإلى الضلال بعد الهداية ، وذلك (بعد إذ هدانا الله) ووفقنا إلى رحاب دينه ، وأجواء طاعته ٠٠ !!!

ونكون فى هذه الحال :

(كالذى استهوته الشياطين) فأضلته عن الحق والنور والهدى ، وجعلته (فى الأرض حيران) تائها لا يدرى أين يذهب ، ولا ماذا يفعل ٠٠ ؟

مع أن (له أصحاب) مؤمنون ، صالحون(يدعونه إلى الهدى) ليهدوه إلى طريق الصواب والفلاح ٠

قائلين له (ائتنا) تعال معنا إلى الخير ، ورضوان الله ، ولكنه ٠٠ لا يجيبهم، ولا يسير معهم ، ولا يهتدى بهدى الله ٠

يا محمد ٠٠ يا أيها المؤمن ٠٠

أعلنها صريحة للدنيا كلها ٠٠

(قل إن هدى الله) الذى هو الإسلام : (هو الهدى) الحقيقى ، وما عداه ضلال وضياع ٠

وقل (أمرنا لنسلم) وجوهنا وأمورنا (لرب العالمين)

* * *

قل كذلك :

{ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }
[الآية ٧٢]

أى : وأمرت (أن) أقول كذلك (أقيموا الصلاة) أى : كونوا خاضعين لله ، خاشعين لجلاله ، مؤدين لتعاليمه وأحكامه ، (واتقوه) فلا تعصوه ٠

(وهو الذى إليه تحشرون) فيجازيكم على ما قدمتوه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ٠

* * *

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ }
[الآية ٧٣]

والمعنى : هذا الإله ، الذى أمَرنا ٠٠ أن نسلم له ، وأن نقيم الصلاة ، وأن نتقيه ٠٠

(هو الذى خلق السموات والأرض) وما فيهما ومن فيهما (بالحق) أى : بالحكمة والحق ٠

وهو الذى حين (يقول) للشىء (كن فيكون) بلا تمنع ولا تأخير ٠

حيث إن (قوله الحق) الصدق الواقع لا محالة ، فلا راد لقوله ، ولا معقب لحكمه ٠

(و) هو الذى (له الملك) وحده (يوم ينفخ فى الصور) يوم القيامة ٠

وهو (عالم الغيب) ما غاب (والشهادة) أى : ما شوهد ، أى : عالم السر والعلانية ، عالم ما غاب عن العباد ، وما هو مشهود لهم ٠

(وهو) كذلك (الحكيم) فى كل أفعاله وأحكامه وتشريعاته ، (الخبير) بباطن الأشياء كظاهرها ، وبالحساب والجزاء ٠

*****

يا محمد ٠٠

بعد أن أنكرت عليهم عبادة ما لا ينفع ولا يضر : اذكر لهم إبراهيم عليهم السلام ، الذين يدعون أنهم على ملته ..

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٧٤]

فى هذه الآية وما بعدها : مناقشة من إبراهيم عليه السلام للكفر وأهله ، وإبطال لدعواهم عبادة غير الله ، وإبطال لحججهم ٠

ومعنى الآية :

اذكر يا محمد للكفار ٠٠ وقت أن (قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة) تعبدها من دون الله : هل هذا يليق منك ، وهى لا تستحق ذلك ؟!!

(إنى أراك وقومك) فيما تفعلونه هذا (فى ضلال) عن الحق واضح (مبين) لا خفاء فيه على عاقل أبدا ٠

وهذا تقبيح للشرك وأهله ٠

* * *

{ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ }
[الآية ٧٥]

يعنى : وكما أرينا إبراهيم ٠٠ قبح الشرك فيما سبق بعين البصيرة والعقل: نريه (ملكوت السموات والأرض) لطائف السموات والأرض ، فيما يأتى ، بعين البصر والمشاهدة ، ليستدل به على وحدانيتنا ٠

(وليكون) بسبب هذه الدلائل والمشاهدات (من الموقنين) بوحدانية الله تعالى، وقدرته ٠

*****

وهذه بداية استعراض بعض ما فى الملكوت ، على طريقة إسقاط أدلتهم التى يتمسحون بها ٠

{ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ }
[الآية ٧٦]

يعنى : عندما أظلم الليل على إبراهيم عليه السلام ٠٠ (رأى كوكبا) جهة السماء ، وكانوا يعبدون الكواكب ٠

وهنا : (قال) لقومه (هذا ربى) كما تزعمون وتدعون ٠

(فلما أفل) أى : غاب هذا الكوكب ٠٠ أراد أن ينبههم إلى الخطأ فى دينهم، ويرشدهم إلى الصواب ٠

لذلك (قال) لهم : (لا أحب) أن أتخذ (الآفلين) الذين يغيبون أربابا ؛ حيث إن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال ٠

فهل أقنعهم ذلك ؟

أبدا ٠٠ أبدا .

ولهذا انتقل إلى دليل مشاهد آخر .

* * *

يقول تعالى :

{ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ }
[الآية ٧٧]

يعنى : وعندما أظلم الليل على إبراهيم عليه السلام ٠٠ (رأى القمر بازغا) طالعا فى السماء٠

وهنا : (قال) لقومه (هذا ربى) كما تزعمون وتدعون ٠

(فلما أفل) أى : غاب القمر واختفى ٠٠ أراد أن ينبههم أنهم فى ضلال وعلى غير هدى ، ولكن بطريق غير مباشر ٠

لذلك (قال) لهم (لئن لم يهدنى ربى) ويثبتنى على الهدى (لأكونن) مثلكم (من القوم الضالين) ٠

فهل أقنعهم ذلك ٠٠ ؟

أبدا ٠٠ أبدا ٠

ولهذا انتقل إلى دليل مشاهد آخر ٠

* * *

{ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ }
[الآية ٧٨]

يعنى : وعندما طلع النهار على إبراهيم عليه السلام ٠٠ (رأى الشمس بازغة) أى طالعة بنورها على الكون ٠٠

وهنا : (قال) لقومه (هذا ربى) كما تزعمون وتدعون ، وزاد قائلا (هذا أكبر) من الكوكب الذى رأيته وأفل ، ومن القمر الذى رأيته وأفل ٠

(فلما أفلت) أى : غابت هى الأخرى ٠٠
هنا قويت عليهم الحجة ، وسقطت أدلتهم فى عبادتهم للكواكب والنجوم ٠
فهل اقتنعوا بالتوحيد ، وتركوا شركهم الذى هم عليه ؟
أبدا ٠٠ أبدا .
لذلك : أعلن إبراهيم عليه السلام بكل وضوح وصراحة ، البراءة مما يشركون .

* * *

وكأنهم قالوا : ماذا تعبد أنت ٠٠ ؟
فأجابهم قائلا :

{ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ }
[الآية ٧٩]

يعنى : إنى أسلمت أمرى ، و(وجهت وجهى) وأخلصت بعبادتى (للذى فطر) أى خلق (السموات والأرض) وهو الله ٠
وفى الوقت ذاته (حنيفا) يعنى مائلا عن الأديان كلها والمعبودات غير الله كلها ، إلى الله وحده ٠
(وما أنا) على هذا الحال (من المشركين) به مثلكم ٠

*****

هل اقتنعوا وآمنوا ٠٠
أبدا ٠٠ أبدا ٠٠!!
فماذا فعلوا ٠٠ ؟

* * *

يقول تعالى :

{ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ }
[الآية ٨٠]

يعنى : لم يؤمن قومه ، ولم يتركوه ، بل جادلوه فى دينه ، وفى توحيد الله ٠

وهنا : (قال) لهم (أتحاجونى فى الله) أى : أتجادلوننى فى توحيد الله ، وترغبون فى جعلى معكم فى الشرك (وقد) أنعم على ربى ، و (هدان) إلى توحيده، ورحمته ٠

فهددوه ، وخوفوه من أصنامهم أن تصيبه بسوء وأذى ٠٠

(و) هنا قال لهم ، أنا (لا أخاف ما تشركون به) من الأصنام والكواكب والنجوم ، ولن يصيبنى سوء منها لعدم قدرتها على ذلك ٠

ولكن إذا شاء ربى أن يصيبنى من السوء شيئا ، بصفة عامة يكون ٠

وذلك بمشيئته هو ، لا بمشيئة الأصنام ٠

(وسع ربى كل شىء علما) أى : وسع علمه كل شىء وأحاط به (أفلا تتذكرون) فتميزون بين القادر والعاجز ، فتؤمنون ٠٠!!

* * *

ثم قال إبراهيم عليه السلام لهم :

{ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٨١]

والمعنى : (وكيف أخاف ما أشركتم) بالله من أصنامكم ، التى تخوفوننى منها ، وهى لا تضر ولا تنفع ٠

(ولا تخافون) أنتم من ربى ، الذى بيده الضر والنفع ، و (أشركتم بالله) فى العبادة (ما لم ينزل به) أى : بإشراكه معه (سلطانا) يعنى : دليلا على أنه شريك لله ٠

وعلى ذلك :

(فأى الفريقين) أنا وأنتم : (أحق بالأمن) من العذاب ؟

(إن كنتم تعلمون) من الأحق بالأمن حقيقة : فآمنوا ٠

* * *

ثم بين لهم الذين هم أحق بالأمن ؛ حيث قال :

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ }
[الآية ٨٢]

يعنى : الآمنون من عذاب الله تعالى ، هم (الذين آمنوا) به سبحانه ، واتبعوا رسله (ولم يلبسوا) يخلطوا (إيمانهم بظلم) أى: بشرك.

(أولئك) وليس المشركون(لهم الأمن) من العذاب (وهم) فى الوقت ذاته (مهتدون).

*****

يقول تعالى بعد هذا كله :

{ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٨٣]

والمعنى : هذه المحاورات والأدلة التى قدمها إبراهيم عليه السلام ، على توحيد الله ، وقدرته ، واحتج بها على قومه وبطلان ما هم عليه من الشرك : (آتيناها) أرشدنا إبراهيم إليها ، وعلمناه إياها ، ليتغلب بها (على قومه) وضلالهم.

وفى ذلك : رفع لقدره ، وإعزاز لجانبه ؛ حيث إننا (نرفع) من نشاء رفعه (درجات) فوق درجات .

(إن ربك) يا محمد (حكيم) فى رفعه من يشاء (عليم) بمن يستحق رفع القدر ومن لا يستحق .

* * *

ولما غلب إبراهيم خصومه ، وانتصر عليهم فى باطلهم بدلائله القوية ، التى علمه إياها .

ولما لم يستجيبوا لدعوته : اعتزلهم ، وهاجر من بلادهم ، فارا بدينه ، عابدا لله وحده .. !!

عوضه الله بذرية صالحة كثيرة ، ورفعهم فى عليين.

حيث يقول سبحانه :

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٨٤]

والمعنى : (وهبنا) لإبراهيم (إسحق ويعقوب) بنيان هديناهما مثله ، مقتديان به ، كما هدينا (نوحا) قبل ذلك .

ووهبنا له من الذرية كذلك (دواد وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون) وكلهم من رسل الله وأنبيائه .. جزاء منا وإنعاما .

(وكذلك) أى مثل هذا الجزاء الحسن بالذرية الصالحة المهتدية (نجزى المحسنين) ٠

* * *

أيضا :

{ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ }
[الآية ٨٥]

يعنى : وهبنا له كذلك من الذرية (زكريا ويحيى وعيسى وإلياس) وكلهم (من الصالحين) الذين آمنوا ، وعبدوا الله وحده ، وعملوا الصالحات ٠

* * *

أيضا :

{ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ }
[الآية ٨٦]

يعنى : وهبنا له كذلك من الذرية (إسماعيل واليسع ويونس ولوطا) ولأنهم من المحسنين ، ولأنهم من الصالحين ٠٠ فضلناهم (على العالمين) .

* * *

وزدناهم فضلا على فضل ٠٠
يقول سبحانه وتعالى :

{ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }
[الآية ٨٧]

يعنى : وأنعمنا على هؤلاء بما يلى :

فضلنا كذلك أناسا (من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) على العالمين لإيمانهم ، وعملهم الصالحات ٠
(واجتبيناهم) يعنى : اصطفيناهم واخترناهم لرسالتنا من دون الناس أجمعين٠
(وهديناهم إلى صراط مستقيم) وهو الإسلام ، دين الله الواحد إلى الناس كلهم فى كل العصور ٠

*****

ثم بين هذا الصراط المستقيم ٠٠ قائلا :

{ ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ٨٨]

يعنى : (ذلك) الصراط المستقيم ، وهو الإسلام ، الذى دان به الأنبياء ، وهدوا إليه : هو (هدى الله) أى دين الله وهديه ونعمته (يهدى به من يشاء من عباده) فضلا ، ويضل عنه من يشاء من عباده عدلا ٠

(ولو) افترضنا أن هؤلاء الرسل والأنبياء (أشركوا) بالله تعالى غيره مع فضلهم ، ورفع درجاتهم : (لحبط عنهم) وضاع منهم ثواب (ما كانوا يعملون)٠

وهذا : رفع لمكانة التوحيد ، وإعلاء شأن الإسلام ، وحط وإهدار للشرك وأهله ٠

* * *

ثم بين ربنا – عز وجل – نتيجة عدم الإيمان بهؤلاء الرسل والأنبياء ٠
فقال :

{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ }
[الآية ٨٩]

يعنى : هؤلاء الأنبياء والرسل الثمانية عشر المذكورون (الذين آتيناهم) من عندنا (الكتاب)الوحى المنزل (والحكم)أى : الحكمة (والنبوة) وهى أعلى مراتب البشر ، وأرقى درجات العبودية ٠

هؤلاء : يجب الإيمان بهم ، واتباعهم فيما أوحى إليهم ٠

(فإن يكفر بها) أى بنعمتنا عليهم ، ووحينا إليهم (هؤلاء) المعاندون المكذبون لك يا محمد ، من أهل مكة أو غيرهم : (فقد وكلنا بها) وفقنا للإيمان بها ، وأعددنا للقيام بواجباتها (قوما) غيرهم كالمهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين (ليسوا بها بكافرين) مثلهم ، بل مستمرون على الإيمان إلى يوم القيامة ٠

* * *

ثم بين ربنا أهل الهدى ، الذين يجب الاقتداء بهم ، فقال :

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ }
[الآية ٩٠]

يعنى : (أولئك) المذكورون من الأنبياء ومن أضيف إليهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، هم (الذين هدى الله) ٠

وعلى ذلك : فهم أهل الهدى ، لا غيرهم ، وطريقهم ٠٠ من التوحيد لله ، والصبر على مشاق الدعوة : واجب الاتباع ٠

لذلك يقول المولى (فبهداهم اقتده) أى : اتبع ، ولا تخالف ٠

وبعد هذا التقرير والتوضيح لطريق السير الصحيح ٠

يقول تبارك وتعالى لحبيبه (قل) يا محمد لأهل مكة وللكفار جميعا (لا أسالكم عليه) أى على ما أبلغكم به (أجرا)حتى تشكوا فى إخلاصى ٠

(إن هو) أى: القرآن ، والبلاغ به (إلا ذكرى) تذكرة ، وموعظة ، ليست لكم وحدكم ، بل (للعالمين) من الجن والإنس ، اليهود ، والنصارى ، والمسلمين ، فى كل زمان ومكان إلى يوم الدين ٠

*****

هؤلاء اليهود ٠٠ يقول عنهم ربنا :

{ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ }
[الآية ٩١]

والمعنى : ماعرف اليهود الله حق معرفته فى الرحمة على عباده حينما أنكروا بعثة الرسل ، والوحى إليهم ، وذلك (إذّ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء) ٠

(قل) لهم يا محمد (من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) عليه السلام ، وهو التوراة ، فكان (نورا وهدى للناس) فى زمانكم ، ولكنكم كنتم (تجعلونه قراطيس) أى : تكتبون ما فيه فى أوراق مقطعة متفرقة ، (تبدونها) تظهرونها للناس على أنها التوراة ، ولكنكم فى الحقيقة (تخفون كثيرا) من تعاليم التوراة التى لا تحبونها فى هذه القراطيس ، أى الوريقات .

قل لهم يا محمد : وبهذه التوراة ، ومن هذه التوراة ، يا من تنكرونها ، وتخفون كثيرا منها (علمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) من قبل مما خفى عنكم ، والتبس عليكم ، واختلفتم فيه ٠

(قل) لهم يا محمد جوابا على سؤالك لهم (من أنزل الكتاب) فلم يجيبوا : (الله) هو الذى أنزل الكتاب ، الذى جاء به موسى وكل كتاب جاء به نبى من الأنبياء كذلك ٠

وبعد هذه الأقوال لهم : (ذرهم)اتركهم (فى خوضهم) أى ضلالهم ، وكفرهم (يلعبون) ويسخرون حتى يأتيهم من الله اليقين ٠

وساعتها ٠٠ يعلمون : لمن العاقبة ٠٠ لهم أو لعباد الله المتقين ؟

*****

نعم ٠٠ الله سبحانه وتعالى : هو الذى أنزل التوراة ، وهو الذى أنزل كل كتاب إلى نبى من الأنبياء ٠

{ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ }

[الآية ٩٢]

معنى الآية :

(وهذا) القرآن كذلك (كتاب أنزلناه) على محمد صلى الله عليه وسلم لهذه الأغراض :

(مبارك) للبركة به ، من حيث كثرة فوائد ، ومنافعه٠

و(مصدق الذى بين يديه) من الكتب ، فهو يؤيد ويصدق ما فيها من التوحيد، وأصول الإسلام ، قبل تحريفها ، وتبديل ما فيها ٠

(ولتنذر أم القرى ومن حولها) أى : وللإنذار والتخويف من عذاب الله لمن كفر وعصى ، من أهل (أم القرى) وهى مكة ، وكل من كان حولها من أهل الدنيا جميعا ٠

هذا : ومن المعلوم ٠٠

أن (الذين يؤمنون بالآخرة) ويخافون منها ، ويستعدون لها (يؤمنون به) وبالحق الذى فيه ٠

وهؤلاء (هم) الذين (على صلاتهم يحافظون) .

* * *

وبعد تقرير هذا عن القرآن ٠٠

يحدثنا ربنا جل وعلا عن الظالمين ٠٠ فيقول :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ }

[الآية ٩٣]

والمعنى : ليس هناك فى البشر أظلم من هؤلاء :

الذى يفترى على الله الكذب بصفة عامة ، وبخاصة : هؤلاء الذين قالوا (ما أنزل الله على بشر من شىء) وأنكروا الرسالات.

والذى يدعى النبوة ، ويقول (أوحى إلى) من الله ، والحقيقة أنه (لم يوح إليه شىء) بل هو كاذب فيما يدعيه .

والذى يقول (سأنزل مثل ما أنزل الله) أى : قرآنا مثل القرآن .

هؤلاء الظالمون وأمثالهم .. يقول عنهم ربنا تبارك وتعالى ، منبها ، ومحذرا ، ومهددا :

(ولو ترى) بعينيك هؤلاء الظالمين ، وقت كونهم (فى غمرات الموت) سكراته وشدائده .

(والملائكة باسطوا أيديهم)إليهم بالتعذيب ، وهم يقولون لهم :

(أخرجوا أنفسكم) هاتوا أرواحكم لننزعها من أجسادكم .

ثم يقولون لهم كذلك:

(اليوم تجزون عذاب الهون) أى : الهوان.

وذلك بسبب :

(ما كنتم تقولون على الله غير الحق) من أن له شريكا ، أو ولدا .. إلخ.

(وكنتم) كذلك (عن آياته تستكبرون) فلا تؤمنون بها .

*****

إذا كان ما سبق هو ما يقال لهم من بشارة السوء عند الموت ..

فماذا فى يوم القيامة .. ؟

يقول تعالى لهم :

{ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ }

[الآية ٩٤]

يعنى : يقول الله لهم تحسيرا (ولقد جئتمونا) للحساب والعقاب (فرادى) منفردين ، بلا مال ، ولا أهل ، ولا معين .

حفاة عراة (كما خلقناكم أول مرة) لا لباس ولا غطاء ولا زخارف .

(و) قد (تركتم ما خولناكم) ما ملكناكم وأعطيناكم من المال والولد ، والمناصب (وراء ظهوركم) فى الدنيا ، ولم تحملوا منها معكم شيئا ٠

وأنتم فى هذه الحال : أحوج ما تكونون إلى أى شىء ٠٠ !!

بل أنتم فى أمس الحاجة إلى من يشفع عنكم ٠٠

(و) لكننا ٠٠ لا (نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) لله تعالى ٠

أين هم الآن ٠٠ ؟

(لقد) تشتت جمعكم و(تقطع بينكم) وصلكم٠

(وضل) وضاع وبطل (عنكم ما كنتم تزعمون) أنه ينفعكم ، ويشفع لكم ، وينجيكم من هؤلاء الشركاء ٠

*****

الآيات السابقة – أيها القارىء الكريم – كانت فى إثبات وتقرير توحيد الله تعالى ، والنبوة ٠

والآن تبدأ الآيات فى إثبات وتقرير دلائل كمال قدرة الله وعلمه وحكمته سبحانه ٠

إذ يقول رب العزة :

{ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ }

[الآية ٩٥]

والمعنى :

(إن الله) سبحانه هو (فالق الحب) أى الذى يشق الحبة اليابسة كحبة القمح فيخرج منها ورقًا أخضر (والنوى) أى : الذى يشق اليابسة ، مثل نواه المشمش ، فيخرج منها شجر صاعدًا فى الهواء ٠

وهو سبحانه الذى (يخرج الحى) كالإنسان (من الميت) كالنطفة٠

والعكس كذلك ، حيث إنه هو لا غيره (مخرج الميت) كالنقطة (من الحى) الإنسان ٠

(ذلكم الله) المحيى المميت ، الذى له كمال قدرة ، الواحد ، الذى لا يستحق العبادة غيره ٠

(فأنى تؤفكون) فكيف تصرفون عن توحيده ، والإيمان به ٠٠ ؟

* * *

كما أنه سبحانه :

{ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }

[الآية ٩٦]

يعنى : ومن كمال قدرته كذلك ٠٠ أنه (فالق الإصباح) أى الذى يشق بنور الصبح ظلمة الليل ٠

وهو سبحانه الذى (جعل الليل سكنا) تسكن الخلائق فيه وتستريح من التعب فى النهار .

وهو سبحانه – كذلك – الذى جعل (الشمس والقمر حسبانا) أى : حسابا للأوقات ؛ حيث إنهما يجريان بحسبان ، أى بحساب دقيق .

(ذلك) كله (تقدير) أى خلق وتخطيط وتنفيذ (العزيز) فى ملكه (العليم) بخلقه .

* * *

أيضا ..

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}
[الآية ٩٧]

يعنى : ومن كمال قدرته ، ودلائل وحدانيته .. أنه سبحانه (هو الذى جعل) أى خلق (لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) أى فى أسفاركم فى البر والبحر ، وفى ظلمات الليل ، وفى جميع منافعكم خلال ظلماتهما.

وبهذا وغيره (قد فصلنا) وبينا ووضحنا (الآيات) الدالة على كمال قدرته (لقوم يعلمون) يدركون ذلك ويفهمونه ، فيؤمنون .

* * *

أيضا ..

{ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ }
[الآية ٩٨]

يعنى : ومن كمال قدرته كذلك ، أنه (هو الذى أنشأكم) أى خلقكم (من نفس واحدة) هى نفس آدم عليه السلام .

(فمستقر ومستودع) أى : فلكم مستقر فى رحم الأمهات ، ومستودع فى ظهور الآباء ، أو : فلكم مستقر فوق الأرض وأنتم أحياء ، ومستودع تحتها وأنتم أموات .

وبهذا وغيره (قد فصلنا) وبينا ووضحنا (الآيات) الدالة على كمال قدرته (لقوم يفقهون) يدققون النظر ، ويعملون الفكر ، فيفهمون ، ويؤمنون .

* * *

أيضا :

{ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَباً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

[الآية ٩٩]

يعنى : ومن كمال قدرته سبحانه ، أنه (هو الذى أنزل من السماء ماء) أى: من السحاب مطرا ٠

(فأخرجنا به) أى بالماء (نبات كل شىء) فالماء واحد ، والنبات مخلتف الأصناف والألوان والطعم (فأخرجنا منه)أى من النبات (خضرا)يعنى : أخضر اللون (نخرج منه) أى من النبات الأخضر اللون (حبا متراكبا) مثل السنبل الذى تراكب وتراص حبه ٠

ومن كمال قدرته : أنه يخرج بالماء (من النخل من طلعها) وهو أول ما يخرج منها (قنوان) وهى : العذق الذى يحمل التمر (دانية) أى قريبة التناول ، سهلة المأخذ ٠

ومن كمال قدرته : أنه يخرج بالماء (جنات من أعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه) أى : أن الزيتون والرمان ، بعضه متشابه وبعضه غير متشابه فى اللون والطعم والقدر ، وكله يخرج بماء المطر ٠

(انظروا) أيها الناس لتعتبروا ، وتعرفوا قدرة الله (إلى ثمره) أى النبات (إذا أثمر) حين يخرج هذا الثمر ضعيفا لا طعم له ٠

(وانظروا) إلى (ينعه) نضجه ، وكيف تغير حاله ٠

(إن فى ذلكم)أى هذه المشاهد والمخلوقات الإلهية :

(لآيات) دالة على كمال قدرته سبحانه (لقوم يؤمنون) بالله تعالى ، ووحدانيته ٠

*****

فهل آمنوا ٠٠ ؟

يقول تعالى :

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ }

[الآية ١٠٠]

بعد أن منّ الله على هؤلاء الكفار ٠٠ بإيجادهم ، وخلق ما يحتاجون إليه فى معايشهم ٠٠ بّين معاملتهم لخالقهم سبحانه ٠

والمعنى : أن هؤلاء الكفار (جعلوا لله شركاء الجن) أطاعوا الشياطين ، وجعلوهم شركاء لله ٠

ولكن : كيف يكون هذا ، وهو الذى (خلقهم) وهل يعقل أن يكون المخلوق معبودا ٠٠ ؟

كما أن هؤلاء الكفار (خرقوا له) أى : اختلقوا ونسبوا كذبا له تعالى (بنين) كالذين قالوا المسيح ابن الله ، (وبنات) كالذين قالوا الملائكة بنات الله ٠

وهؤلاء وهؤلاء : قالوا ما قالوا (بغير علم) أى جاهلين بما قالوا ٠

(سبحانه وتعالى عما يصفون) تنزه الله ، وتقدس ، وتعالى عما يصفونه ، بهذا الوصف الآثم أو ذاك ٠

* * *

حيث إنه :

{ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآية ١٠١]

أى : هذا الإله الواحد ، الذى أخطئوا فى حقه ، هو (بديع السموات والأرض) أى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ٠

هذا الإله الواحد ٠٠ لا يمكن أن يكون له ولد ٠٠ لهذه الأسباب :

الأول : كيف يكون له ولد ، والولادة من صفات البشر ومخترع البشر لا يكون بشرا ، فلا يمكن إذا أن يكون له ولد ٠

الثانى : (لم تكن له صاحبة) أى لم تكن له زوجة ، فلا يمكن إذا أن يكون له ولد ٠

الثالث : أنه (خلق كل شىء) ولا يناسبه ولا يماثله شىء من خلقه ، فلا يمكن إذا أن يكون له ولد ٠

الرابع : (وهو بكل شىء عليم) أى : ما من شىء خلقه إلا وهو عليم به ، وبمصالحه ، غير محتاج إليه ، بل غنى عن كل شىء ، فلا يحتاج إلى الولد ، فلا يمكن إذًا أن يكون له ولد ٠

* * *

إنما هذا الإله هو :

{ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ }
[الآية ١٠٢]

يعنى : الموصوف بكل ما سبق من صفات القدرة والعلم والوحدانية ٠٠هو (الله ربكم) الذى أنشأكم ورعاكم ورباكم حتى صرتم إلى ما أنتم فيه (لا إله إلا هو) الذى خلق كل شىء فى الماضى ، والذى يستحق العبادة وحده ، وهو (خالق كل شىء) فى الحاضر والمستقبل ، والذى يستحق العبادة وحده ٠

وما دام هذا الإله بهذه الأوصاف (فاعبدوه) ولا تعبدوا غيره ٠
كما أنه سبحانه (على كل شىء وكيل) أى : حفيظ ورقيب على كل شىء من الأرزاق والآجال والأعمال ٠

* * *

إضافة إلى أنه سبحانه :

{ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }
[الآية ١٠٣]

والمعنى : لا تحيط به أبصار المخلوقين ، وهو يحيط بهم علما وقدرة ٠
وهو (اللطيف) بأوليائه ، والعالم بدقائق الأمور (الخبير) بهم ، والعليم بظواهر الأشياء وخفاياها ٠

*****

ثم يقول ربنا على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وهو يقول لقومه :

{ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ }
[الآية ١٠٤]

يعنى : قل يا محمد لهؤلاء المعاندين (قد جاءكم بصائر) أى دلائل – بعضها يرى بالعين الباصرة ، وبعضها بالبصيرة – على وحدانية الله ، وقدرته ، وضرورة الإيمان به ٠
(فمن أبصر) ها منكم ، ففهمها ، وانتفع بها ، فآمن (فلنفسه) ثواب ذلك ٠
(ومن عمى) عنها منكم ، وضل ، ولم يؤمن (فعليها) أى على نفسه ، وبال ضلاله ، وضرر عناده ٠
وكل منكم له اختباره وحريته ، فى الضلال والهداية ٠
(وما أنا عليكم بحفيظ) أراقب أعمالكم ، أو أجازيكم عليها ، إنما أنا مبلغ ونذير ٠

* * *

{ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }
[الآية ١٠٥]

يعنى : وهكذا فعلنا ·· (نصرف الآيات) نكررها ، ونؤكدها، ونوضحها ؛ حالا بعد حال ، ولونا بعد لون ·
لماذا ·· ؟
أولا : ليعتبروا ، فيؤمنوا ·
ثانيا : ليقول بعضهم (درست) كتب أهل الكتاب ، ونقلت ذلك منها ؛ فيزداد كفرا على كفر ·
ثالثا : (لنبينه لقوم يعلمون) أنه الحق ؛ فيزدادوا إيمانا على إيمانهم ·

*****

ثم يتوجه رب العزة بالخطاب إلى محمد يثبته ، ويوضح له منهج الحق فى الدعوة وطريق الصواب ·
حيث يقول :

{ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ }
[الآية ١٠٦]

يعنى : اتبع يا محمد (ما أوحى إليك من ربك) أى : فى القرآن والكلام – كذلك – لكل من اتبعه صلى الله عليه وسلم ·
حالة كونك ثابتا مداوما على توحيد الله ، الذى (لا إله إلا هو)·
وفى الوقت ذاته (أعرض عن المشركين) لا تتأثر بهم ، ولا تهتم بأقوالهم ، ولا تلتفت إلى رأيهم ·

* * *

هؤلاء المشركون ·· يقول عنهم سبحانه :

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ }
[الآية ١٠٧]

أى : (لو شاء الله) عدم إشراكهم(ما أشركوا) ولكنه علم منهم اختيار الشرك، فشاء لهم ذلك ، فأشركوا·
فلا تتأثر بهم ، ولا تهتم بأقوالهم ، ولا تلتفت إلى رأيهم ·
(وما جعلناك عليهم حفيظا) مراقبا لهم ، فتؤاخذ بجرائمهم ·
(وما أنت) كذلك (عليهم بوكيل) تقوم بأمورهم ، وتدبر مصالحهم ، وتجبرهم على الإيمان ·

*****

أيها القارئ الكريم ..

روى أنه لما نزل قوله تعالى فى حق الكفار (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون)[الأنبياء ٩٨]

قال المشركون : يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا ، أو : لنهجون ربك .

فنهاهم الله عن أن يسبوا أوثان الكفار ، حتى لا يسبوا الله عدوا بغير علم..

وذلك فى هذه الآية :

{ وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

[الآية ١٠٨]

يعنى : (لا تسبوا) أيها المؤمنون : المشركين (الذين يدعون من دون الله) أى : يعبدون غير الله ، أى : الأصنام وأشباهها من الكواكب وغيرها .

حتى وإن كان سب آلهتهم فيه تحقير لها .. !!

لئلا يكون ذلك سببا لسب الله ، تعالى الله عن ذلك .

(فيسبوا الله عدوا) أى : ظلما وعدوانا (بغير علم) أى : على جهالة بالله ، وبما يجب له من التعظيم وذكر كل كمال يليق به سبحانه .

(كذلك) أى : مثل تزيين عبادة الأصنام للمشركين .

(زينا لكل أمة عملهم) من الخير والشر ، والإيمان والضلال .. فأتوه ، وعملوه ، وأحبوه .

(ثم إلى ربهم مرجعهم) فى الآخرة .

(فينبئهم بما كانوا يعملون) ويجازيهم عليه .

* * *

هؤلاء المشركون .. يقول عنهم ربنا :

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ }

[الآية ١٠٩]

معنى الآية : أن هؤلاء الكفار (أقسموا بالله جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فى القسم وتأكيدهم له .

أقسموا على ماذا .. ؟

أقسموا (لئن جاءتهم آية) مما اقترحوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بها ليؤمنوا (ليؤمنن بها) إذا جاءتهم ٠

(قل) يا محمد (إنما الآيات) التى تقترحونها ، وغيرها (عند الله) ينزلها كما يشاء ، وإنما أنا فقط نذير مبين ٠

ولكن : ماذا لوجاءتهم الآيات ، بل لماذا لا تأتيهم ؟

يقول الله بيانا لما سيكون ٠٠

(وما يشعركم) أى : وما يدريكم بإيمانهم إذا جاءت ، يعنى : أنتم لا تدرون ذلك ، ولا تعرفونه ؛ لأنه غيب ، والغيب عند الله .

والحقيقة (أنها إذا جاءت لا يؤمنون) .

* * *

ثم يبين ربنا – تبارك وتعالى – لم لا يؤمنون ٠٠ بقوله :

{ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }
[الآية ١١٠]

يعنى : هؤلاء لا يؤمنون ، حتى ولو جاءتهم الآيات ؛ لأننا (نقلب أفئدتهم) نحول قلوبهم عن الحق فلا يفهمونه ، وعن الهدى فلا يتبعونه ، ونقلب كذلك (أبصارهم) عنه ، فلا يؤمنون به ٠

وليس عدم إيمانهم ببعيد ولا بغريب ٠

فسيكون فى هذه الحال (كما لم يؤمنوا به أول مرة) عندما نزلت آياتنا أولا، فكذلك : لن يؤمنوا به إذا جاءت الآيات الآن ٠

ولذلك (نذرهم) نتركهم (فى طغيانهم) فى ظلمهم لأنفسهم وبعدهم عن الحق (يعمهون) يترددون ، ويتحيرون ، عدلا من الله تعالى ، على اختيارهم الضلال على الهدى ، والكفر على الإيمان ٠

*****

لما أقسم الكافرون – فيما سبق – (جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية) مما اقترحوا(ليؤمنن بها) وهذا كذب منهم بدليل أنهم لم يؤمنوا من قبل ٠

لذلك يرد رب العزة ويكشف زيف ادعاءاتهم هذه ٠٠ بقوله :

{ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ }
[الآية ١١١]

يعنى : (لو أننا) استجبنا لهم ٠
و(نزلنا إليهم الملائكة) كما اقترحوا فى قولهم (لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) [الفرقان ٢١] .
وكذلك (كلمهم الموتى) كما اقترحوا فى قولهم (فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) [الدخان ٣٦] .
وأيضا (وحشرنا) جمعنا (عليهم كل شىء قبلا) أى فوجا بعد فوج ، يشهدون بنبوتنا ، وصحة ما بشرنا به وأنذرنا ٠
لو فعلنا كل ذلك : (ما كانوا) أهلا للإيمان حتى يؤمنوا ٠
(إلا أن يشاء الله) إيمانهم فيؤمنون .
(ولكن أكثرهم يجهلون) إنهم لا يؤمنون ، إلا بمشيئة الله ٠

* * *

ثم يبين رب العزة – تخفيفا عن حبيبه ، مؤانسة له – أن العداء لرسل الله ليس خاصا به ٠
حيث يقول :

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ }
[الآية ١١٢]

والمعنى : (وكذلك) أى : وكما جعلنا لك أعداء من المشركين ٠٠ (جعلنا لكل نبى) ممن سبقوك (عدوا)٠
وذلك : ابتلاء ، وإظهارا لفضيلة الثبات ، وتحصيلا للأجر والثواب ٠
لذلك : (جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن) أى : (شياطين) من الإنس ، وشياطين من الجن ، والشيطان كل عات متمرد من الإنس والجن ٠
هؤلاء الشياطين (يوحى) أى : يوسوس (بعضهم إلى بعض)٠
ماذا يوسوسون ٠٠ ؟
(زخرف القول) أى : الكلام المزين والمخلوط بالباطل والأكاذيب ٠
ولكن : لماذا يوسوسون ٠٠ ؟
(غرورا) أى : ليغروهم ، ويغدروا بهم ، ويضلونهم عن الحق والصواب٠
واعلم أن هذا الإيحاء بالباطل بين الجن والإنس : لا يتم إلا بمشيئة الله٠
إذّ (لو شاء الله ما فعلوه) ..
لذلك : (ذرهم وما يفترون) اتركهم وما يختلقونه عليك من الأكاذيب ٠٠ ومن المعلوم أن هذه الآية وأمثالها فى السور المكية كانت قبل الأمر بقتال المشركين ٠

* * *

اعلم أن هذا الإيحاء بزخرف القول بين شياطين الإنس والجن كان لأربعة أغراض :
أحدهما : لإغراء الكافرين بالباطل ، كما فى الآية الفائتة ٠
والباقى ٠٠ فى قوله تعالى :

{ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ }
[الآية ١١٣]

فى هذه الآية الكريمة : ذكر لباقى أهداف ٠٠ الوسوسة بالباطل ..
وهى على النحو التالى ، بعد ذكر الأول فى الآية السابقة :
الثانى : (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى : لتميل إليه قلوب هؤلاء ٠
الثالث : (وليرضوه) أى : يستريحون إليه ، ويؤمنون بما فيه ٠
الرابع : (وليقترفوا ما هم مقترفون) أى : ليفعلوا ما يريدون من المعاصى والآثام ٠
ويلاحظ : أن ترتيب هذه الأغراض فى الآية جاء على غاية الفصاحة ٠٠ لأنه أولا : يكون الخداع (يوحى) فيكون الميل (ولتصغى) فيكون الرضى (وليرضوه) فيكون الفعل (وليقترفوا) .
لذلك : فليحذر المسلم من هذا الخداع ، حتى لا يحدث ما يليه ٠

*****

أيها الأحباب ٠٠
طلب الكفار من النبى صلى الله عليه وسلم يوما ٠٠ أن يجعل بينه وبينهم حكما من أحبار اليهود ، أو أساقفة النصارى ؛ ليخبرهم بما فى كتابهم من أمر نبوته صلى الله عليه وسلم ٠
فأنزل الله ٠٠

{ أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ }
[الآية ١١٤]

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الكفار ٠٠ ءأطلب حاكما بينى وبينكم غير الله سبحانه وتعالى ، ليفصل ويبين المحق منا من المبطل ٠٠ ؟
كيف يحدث هذا ؟ مع أن الله (هو الذى أنزل إليكم الكتاب) أى : القرآن (مفصلا) موضحا فيه الحق من الباطل ٠
كما أن المنصفين من (الذين آتيناهم الكتاب) كالتوراة ، والإنجيل (يعلمون) ويعترفون ، كعبد الله بن سلام وأمثاله (أنه) أى القرآن (منزل من ربك بالحق) ٠

لذلك (فلا تكونن) أيها السامع (من الممترين) الشاكين ٠

* * *

وبعد أن بين ربنا كمال القرآن بإضافة إنزاله إلى الله ، يبين سبحانه كمال هذا القرآن – كذلك – من حيث ذاته ٠
فيقول :

{ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الآية ١١٥]

والمعنى : (وتمت كلمة ربك) أى : بلغت الغاية فى الكمال والتمام ، من حيث ما أخبر به ربنا ، وأمر به ، ونهى عنه من الأحكام والشرائع٠
(صدقا) فى أخباره (وعدلا) فى أحكامه ٠
(لا مبدل لكلماته) بتحريف ، أو زيادة ، أو نقص ؛ مصداقا لقوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر ٩]٠
(وهو السميع) لما يقال (العليم) بما يُفْعَل ، فيجازى على القول وعلى الفعل.

*****

ثم يبين ربنا – تبارك وتعالى – موقف المسلم من اقتراحات الكافرين ومن وساوس الشياطين ؛ حيث يقول :

{ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ }
[الآية ١١٦]

والمعنى : لا تطع الكافرين فى اقتراحاتهم ، ولا الشياطين فى وساوسهم ، خاصة وأنهم أكثر من فى الأرض ، حيث إنك إن تطعهم ٠٠ (يضلوك) ويبعدوك ويفتنوك (عن سبيل الله) الذى هو دينه ٠
هؤلاء : ليسوا على علم ، ولا عقل ، وإن ادعوا ذلك ، وهم ما (يتبعون إلا الظن) فيما هم فيه ٠
وما هم كذلك (إلا يخرصون) أى يكذبون فيما يقولون ٠
فلا تطعهم ، ولا تصدقهم ، ولا تتبعهم ٠

* * *

بل : أطع ربك ، وصدق نبيك ، واتبع قرآنك ٠
حيث :

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }
[الآية ١١٧]

والمعنى : أن الله لا تفيد عنده الدعاوى الكاذبة ، حيث إنه أعلم بمن يضل عن سبيله ، ويختار الضلال ، وهو أعلم بالمهتدين ، الذين اختاروا الهداية فقهم لذلك ٠

*****

ولما نهى الله عز وجل عن اتباع المضلين ، الذين كان من إضلالهم : تحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، قال :

{ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ }
[الآية ١١٨]

أى : لا تتبعوا الكفار يا مسلمون ، و(كلوا) حلالا لكم (مما) ذبح ، و(ذكر اسم الله عليه) عند ذبحه٠
(إن كنتم بآياته مؤمنين) وبأحكامه مصدقين وملتزمين ٠

* * *

ثم قال :

{ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ }
[الآية ١١٩]

يعنى : وما الذى يمنعكم أن (تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) من الذبائح ٠

خاصة : وأن الله تعالى (قد فصل لكم) فى كتابه (ما حرم عليكم) وذلك فى قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ٠٠٠) الآية [المائدة ٣] (إلا ما اضطررتم إليه) من هذا المحرم ، فهو حلال لكم ٠

وهذا الذى ذكر اسم الله عليه ليس من هذا الذى حرم عليكم ٠

واعلموا :

أن (كثيرا) من الناس (ليضلون) فيحرمون ويحللون (بأهوائهم) وشهداتهم من (غير علم) بالشريعة ٠

وهذا منهم عدوان على أحكام الله ٠

(إن ربك هو أعلم بالمعتدين) هؤلاء ، فيعاقبهم أشد أنواع العقاب ٠

* * *

ثم يهدد الله تعالى ٠٠ الذين يضلون بأهوائهم ، فيرتكبون المعاصى ، بقوله:

{ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ }
[الآية ١٢٠]

أى : اتركوا الإثم كله ، ظاهره وباطنه ، والمعاصى كلها ، صغيرها وكبيرها ، ومن المعاصى : تحليل الحرام ، وتحريم الحلال ٠

حيث (إن الذين يكسبون الإثم) ويقترفونه (سيجزون) فى الآخرة إن لم يتوبوا عن معاصيهم جزاء سيئا ، بسبب (ما كانوا يقترفون) ٠

*****

وإذا كان الله قد أباح أكل ما ذبح وذكر اسم الله عليه ٠٠

فإنه ينهى عن أكل ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه ٠

بقوله سبحانه :

{ وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ }
[الآية ١٢١]

المعنى : (ولا تأكلوا) يا مسلمون (مما) مات ، أو ذبح ، و (لم يذكر اسم الله عليه) ٠

(وإنه لفسق) خروج عن طاعة الله ، لو أكلتموه ٠

وفى هذا الموضوع (إن الشياطين) من الجن (ليوحون) أى : ليوسوسون (إلى أوليائهم) من الإنس (ليجادلوكم) ويناقشوكم فى أكل الميتة ليقنعوكم ، فتطيعونهم فى أكلها ٠

(وإن أطعتموهم) فى ذلك (إنكم لمشركون) مثلهم ، حيث إن من اتبع غير الله فى دينه ، ورضى بشرع غير شرعه فقد أشرك ٠

* * *

ثم يضرب الله مثلا ٠٠ للمؤمن الذى أحيا الله قلبه بالإيمان ، والكافر الغارق فى الظلمات ٠٠ فيقول :

{ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٢٢]

والمعنى : هل يستوى (من كان ميتا) أى من كان كافرا ٠٠ (فأحييناه) بالإيمان ، (وجعلنا له نورا) أى يقينا كالنور (يمشى به فى الناس) آمنا من جهتهم، لا خوف من أحد غير الله ٠

هل يستوى هذا مع الذى (فى الظلمات) يتخبط فيها (ليس بخارج منها) لا يفارقها ٠

أبدا ٠٠ أبدا ٠٠ لا يستويان ٠

(كذلك) أى : كما زين الله للمؤمن الإيمان ٠٠ (زُيِّن) منه تعالى (للكافرين ماكانوا يعملون) من الآثام والمعاصى والكفر ٠

*****

وبعد أن بين ربنا ٠٠ أن الكافرين هم أصحاب المعاصى ٠٠
يبين – عز وجل – أن هؤلاء الكافرين هم أكابر المجرمين فى كل قرية ومكان ٠
فى قوله تعالى :

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }
[الآية ١٢٣]

والمعنى : وكما جعلنا فساق مكة وكفارها ٠٠ أكابرها ورؤساءها جعلنا فى كل قرية مجرميها وفساقها ٠٠ أكابر ٠

وكان ذلك : (ليمكروا فيها) أى : فى كل قرية هم فيها ، وذلك بالتجبر على الناس ، وإيذائهم ، والعمل بالمعاصى ٠

ولكنهم (ما يمكرون) بهذا الشكل ، وعلى هذا النحو (إلا بأنفسهم) فقط ٠
(وما يشعرون) أن ضررهم هذا يحيق ويحيط بهم وحدهم ٠

*****

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾
[الآية ١٢٤]

قال الوليد بن المغيرة للنبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم : لو كانت النبوة حقا ٠٠ لكنت أنا أولى بها منك ؛ لأنى أكبر منك سنا ، وأكثر منك مالا ٠
فأنزل الله هذه الآية ٠
والمعنى :
(وإذا جاءتهم) أى أهل مكة الكفار (آية) تدل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم : (قالوا لن نؤمن) به (حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) من النبوة لنا وفينا والوحى إلينا وذلك : حسدا منهم للنبى صلى الله عليه وسلم ٠
وكان الجواب : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) أى : يعلم الموضع الصالح، والمرء الصالح لوضعها فيه ، فيضعها ، وهؤلاء ليسوا أهلا لها ٠
والأمر لا ينتهى عند ذلك :
بل (سيصيب الذين أجرموا) بهذا القول (صغار) ذل عند الله والناس فى الدنيا (وعذاب شديد) فى الآخرة (بما كانوا يمكرون) .

*****

وبعد أن قرر الله تعالى : أن الهدى من الله ، وأن الضلال من الله ٠٠
يذكر الله – عز وجل – علامة من يريد هدايته ، وعلامة من يريد ضلاله٠
وذلك فى قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾
[الآية ١٢٥]

والمعنى : (من يرد الله أن يهديه) للإيمان .. يهديه ، وعلامة ذلك : أن (يشرح صدره للإسلام) أى : يوسع قلبه لقبول الإيمان ، وينور بصيرته لعمل الخير ٠

وأما (من يرد) الله (أن يضله) عن الإيمان ٠٠ يضله ، وعلامة ذلك : أن (يجعل صدره ضيقا حرجا) لا يقبل الإيمان ، بل يختنق به ، كمن يصعَّد فى السماء ، حتى يصل إلى درجة الاختناق ٠

وهكذا : (يجعل الله الرجس) أى العذاب (على الذين لا يؤمنون) .

* * *

ثم يقول تعالى :

{ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ }
[الآية ١٢٦]

يعنى : هذا الدين ، أو هذا القرآن ٠٠ هو (صراط ربك) أى : طريقه وهديه (مستقيما) لا عوج فيه ٠
(قد فصلنا) فيه (الآيات) والدلائل (لقوم يذكرون) يتعظون وينتفعون بما فيه٠

*****

هؤلاء القوم :

{ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٢٧]

والمراد : لهؤلاء الذين يذَّكَّرون فينتفعون بما فى القرآن (دار السلام) وهى الجنة ، التى لا ينقطع سلامها ولا سلامتها٠

(عند ربهم) معدة مهيأة عنده ، مضمونة منه ٠

(وهو وليهم) أى : محبهم ، وناصرهم على أعدائهم٠

(بما كانوا يعملون) أى : يجازيهم فى الآخرة بالنجاة والفوز ؛ بسبب أعمالهم التى كانوا يعملونها فى الدنيا ٠

*****

هذا عن الصالحين .

فماذا عن شياطين الإنس والجن ؟

يقول ربنا عز وجل :

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }

[الآية ١٢٨]

يعنى : (ويوم) القيامة (يحشرهم) الله أى : الإنس والجن (جميعا) .

وهذا الخطاب التوبيخى لعصاة الجن .

يقال لهم (يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) بإغوائكم لهم ، وإضلالكم إياهم ، وجعلهم تابعين لكم ٠

ومع أن الكلام مع شياطين الجن ٠٠ !!

والرد متوقع ومطلوب منهم ٠٠ !!

إلا أنهم لا يتكلمون ، بل .. (قال أولياؤهم) الذين أطاعوهم ، وخدعوا بوسوستهم (من الإنس) معترفين بما حدث :

(ربنا استمتع بعضنا ببعض) زينوا لنا الشهوات فاستمتعنا بها ، واستمتعوا بطاعتنا لهم فى إغوائهم لنا ٠

ثم قالوا متحسرين (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) أى يوم القيامة للحساب والعقاب ٠

ويكون الحكم العادل ..

يقول الله تعالى لهم (النار مثواكم) منزلكم ومأواكم ، ودار إقامتكم (خالدين فيها) أبدا (إلا ما شاء الله) لمن علم سبحانه أنهم يؤمنون ، فهؤلاء : لا يدخلونها أصلا ، أو يدخلونها فترة ثم يخرجون منها ٠

(إن ربك) فيما يفعل بأعدائه وأوليائه (حكيم عليم) .

* * *

هكذا ٠٠ تمتع الإنس بالجن والجن بالإنس ٠

{ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }

[الآية ١٢٩]

وهكذا ٠٠ كما متعنا الإنس بالجن والجن بالإنس (نولى بعض الظالمين بعضا) أى : نسلط بعضهم على بعض (بما كانوا يكسبون) من المعاصى والآثام٠

*****

وبعد أن وبخ الله معشر الجن ، فيما سبق ؛ لإغرائهم الإنس ..
يوبخ – عز وجل – الجن والإنس معا ؛ لضلالهم فى أنفسهم ..
فيقول :

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ }
[الآية ١٣٠]

يعنى : يوم القيامة .. يقال من باب التوبيخ (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل) أى نذر (منكم يقصون عليكم آياتى) يقرءون كتبى ، ثم يوضحونها ويبينون ما فيها من آيات التوحيد والتشريع .. ؟

وكذلك (ينذرونكم) أى : يخوفونكم (لقاء) ربكم ، فى (يومكم هذا) وهو يوم القيامة .. ؟

(قالوا) أى : الجن والإنس .. فى الجواب على هذا السؤال التوبيخى لهم:

(شهدنا على أنفسنا) أنه قد أتتنا الرسل ، وبلغونا ، وخوفونا ، ولكنا كنا عن هذا غافلين ، وللحق معاندين .

وهكذا (غرتهم الحياة الدنيا) بزخرفها وبريقها .. فلم يؤمنوا .

(وشهدوا) اليوم (على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) .

* * *

ولماذا .. كان إرسال الرسل ، وقراءة الآيات منهم على أقوامهم .. ؟

{ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ }
[الآية ١٣١]

يعنى : كان إرسال الرسل من الله ؛ لأن ربك تعالى لا يهلك البلاد ، بسبب ظلمهم (وأهلها غافلون) لا يعرفون الحق عن طريق الرسل ، بل لابد من إرسال الرسل إليهم ، يعلمونهم ، وينذرونهم فإن آمنوا أثابهم الله ، وإن كفروا عذبهم الله.

* * *

{ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ }

[الآية ١٣٢]

أى : (ولكل) واحد من الفريقين الطائعين والعصاة ، سواء من الإنس أو الجن (درجات) مراتب ومنازل ، بسبب (ما عملوا) من خير أو شر ٠

(وما ربك بغافل عما يعملون) أى : بساه عما يعمل هؤلاء أو هؤلاء ٠

وفى ذلك وعد بالخير للطائعين ، ووعيد بالشر للعاصين ٠

* * *

هذا ٠٠ وإرسال الرسل من الله تعالى رحمة ٠

{ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ }
[الآية ١٣٣]

يعنى : (وربك) أيها الإنسان (الغنى) عنك ، وعن عبادتك (ذو الرحمة) على خلقه ، بإرسال الرسل وإيصال المنافع إليهم ٠

(إن يشأ يذهبكم) أيها الكفار ، بإهلاككم واستئصالكم دفعة واحدة ؛ لأنكم عاندتم وكفرتم ٠

(ويستخلف من بعدكم) من الخلق (ما يشاء) ممن لا يعاندون ولا يكفرون٠

فلا تستغربوا ذلك أو تستبعدوه ٠٠ فقد حدث قبلا٠

(كما أنشاكم) أنتم (من ذرية قوم آخرين) أذهبهم الله ، وأبقاكم ٠

* * *

على كل حال ٠٠

{ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ }
[الآية ١٣٤]

لما قالوا : من مات فقد فات ٠

قال تعالى : لا ٠٠ بل (إن ما توعدون) من البعث والحساب والعذاب ..

(لآت) لا محالة (وما أنتم بمعجزين) لنا ، أو هاربين منا ، بل سنحشركم ونحاسبكم ونجازيكم ٠

* * *

يا محمد ..

{ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ }
[الآية ١٣٥]

يعنى : (قل) يا محمد لهؤلاء المعاندين الكافرين ..

(يا قوم اعملوا) ما شئتم (على مكانتكم) أى : على راحتكم وما تحبون ، وكيفما تريدون من الكفر والعصيان ، وهذا ظلم .

وأمَّا أنا فـ(إنى عامل) على راحتى ، وما أحب ، وكيفما أريد ، من الإيمان والطاعة ، وهذا عدل .

(فسوف تعلمون) أنتم وأنا ، فى نهاية الأمر (من تكون له عاقبة) ونتيجة حسنى ، فى (الدار) الآخرة .. أنحن أو أنتم .. ؟

ولكن .. حسب هذه القاعدة الإلهية .

(إنه لا يفلح الظالمون) أى : لا ينجوا ولا يسعد الظالمون الكافرون ، وقد ظلمتم وكفرتم .

*****

ولما بين ربنا قبح طريقتهم فى إنكار البعث .. عقب ذلك بذكر أنواع من أحكامهم الفاسدة .. تنبيها على ضعف عقولهم .

حيث قال :

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ }
[الآية ١٣٦]

والمعنى : أن الكفار قسموا ما (ذرأ) الله من الزرع والأنعام أى ما خلق إلى قسمين .. قسم جعلوه لله يصرفونه على الضيوف والمساكين ، وقسم لأصنامهم يصرفونه على خدمتها .

وهذا من اختراعهم وكذبهم ؛ لأن الله لم يأمر بذلك ولم يشرعه .

ولكن الأمر الأعجب أنهم كانوا عند الإنفاق لما خلق الله ، وأنعم عليهم .. يفرقون بين ما لله وما لأصنامهم .

فما كان من نصيب أصنامهم : لا يصل منه شىء أبدا لله تعالى ، بل يحصوه ، ويعدوه ، ويحفظوه لأصنامهم بغاية العناية .

أما ما كان لله (فهو يصل إلى) أصنامهم ، ويحرمون منه الضيوف والمساكين .

حقا (ساء ما يحكمون) يعنى : بئس الحكم حكمهم ، وساء الفعل فعلهم ٠

* * *

وكما زينت الشياطين لهؤلاء الكفار هذا التقسيم الكاذب – كما أشارت الآية السابقة – زينت لهم الشياطين قتل أولادهم خشية الفقر ٠
يقول سبحانه :

{ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ }
[الآية ١٣٧]

يعنى : وكما زين (لكثير من المشركين) شركاؤهم من الشياطين تقسيم ما خلق الله بين المولى عز وجل وأصنامهم كذبا وزورا وبهتانا ٠٠ زينوا لهم قتل أولادهم خوفا من الفقر ، ووأد البنات خوفا من العار ؛ (ليردوهم) ليهلكوهم ويفنوهم عن طريق إهلاك نسلهم ، (وليلبسوا) أى : ليخلطوا ، ويدخلوا الشك عليهم فى دينهم الذى كانوا عليه ، وهو دين إسماعيل عليه السلام ٠
على أية حال : هذا لا يتم منهم إلا بمشيئة الله ، (ولو شاء الله ما فعلوه) ولذلك : علم سبحانه أنهم يحبونه ، فشاء لهم ذلك ففعلوه ٠
ولذلك : (ذرهم) يعنى : اتركهم يا محمد وما يختلقونه ، فإن ضرر ذلك عائد عليهم لا عليك ٠
وأنت أيها المسلم ٠٠ ابتعد عنهم وعن سلوكهم ، واحمد الله على الهدى الذى أنعم الله عليك به ٠

*****

وأيضا ٠٠ كما أخطئوا فى قتل أولادهم : أخطئوا كذلك فى التحريم والتحليل من عند أنفسهم بالنسبة للزروع والأنعام ٠٠
يقول تعالى :

{ وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }
[الآية ١٣٨]

يعنى : هؤلاء الكفار شرعوا لأنفسهم وبأنفسهم تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان ٠

حيث زعموا ونسبوا – ما زعموه – كذبا وافتراء على الله ٠

أن هناك أنعاما يعنى : إبلا ، وأبقارا ، وأغناما ، ومزروعات : (حجر) أى : حرام لا يطعمها أكلا ، ولا يستعملها ركوبا إلا من شاءوا هم له ذلك ٠

وأن هناك أنعاما : (حرمت ظهورها) على الركوب ، مطلقا ٠

وأن هناك – كذلك – أنعاما : (لا يذكرون اسم الله عليها) لا عند الركوب ، ولا عند حلبها ، ولا ٠٠ فى أية حال من أحوالها ٠

هؤلاء (سيجزيهم) الله سوءا (بما كانوا يفترون) من تقسيماتهم هذه ، ونسبتها زورا إلى الله تعالى ٠

* * *

ثم يذكر المولى سبحانه نوعا آخر ٠٠ من نتائج كفرهم ٠

فيقول :

{ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }

[الآية ١٣٩]

أى : قال الكفار ٠٠ (ما فى بطون هذه الأنعام) التى حرموها من عند أنفسهم ونسبوا ذلك لله ، فكذبهم الله بقوله (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) [المائدة ١٠٣] ٠

يعنى : أولاد هذه الأنعام إذا ولدت حية : فهى حلال للرجال يأكلون منه ، حرام على النساء لا تأكل منه ٠

وأما إذا ولدت ميتة : فيشترك فيه الذكور والإناث ٠

(سيجزيهم) ربنا على وصفهم هذا الكذب من التحليل والتحريم على الله جزاء سيئا (إنه حكيم) فى عقابهم (عليم) بعقيدتهم الفاسدة ٠

* * *

وبعد ٠٠ فهذه هى النتيجة لما فعلوا ٠

{ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ }

[الآية ١٤٠]

يعنى : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) مخافة الفقر ، بمنع النسل ، ووأدوا بناتهم ، مخافة العار ٠

وخسارتهم فى الدنيا : بنقص عددهم وزوال ما أنعم الله عليهم ، وفى الآخرة : بالعذاب الأليم ٠

وقد فعلوا ذلك (سفها بغير علم) أى : لخفة عقولهم ، وتفاهة تفكيرهم ، وغير دليل عندهم يحتجون به أن الرزق بيدهم سوى جهلهم بأن الرازق هو الله تعالى ٠

وكذلك : خسروا فى الدنيا والآخرة ، لتحريمهم ما رزقهم الله من النعم، وادعائهم زورا أن هذا التحريم من الله ٠

هؤلاء الكفار (قد ضلوا) وتاهوا عن الصواب والطريق المستقيم (وما كانوا مهتدين) إليه مرة أخرى ، بعد أن ضلوا عنه ٠

******* وبعد ذلك :**

يبين الله عز وجل ٠٠ أنه الخالق لكل شىء ، من الزروع ، والثمار ، والأنعام ٠

فيقول عز شأنه :

{ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }

[الآية ١٤١]

يعنى : (وهو) الله (الذى) خلق البساتين المنوعة ، فيها النباتات المعروشات ، المبسوطات على وجه الأرض ، أو المرفوعات على عريش ، وفيها (غير معروشات) أى ما قام على ساق كالأشجار ٠

وهو أيضا : الذى خلق (النخل والزرع مختلفا أكله) فى اللون ، والطعم ، والرائحة ، وغير ذلك ٠

وهو كذلك : الذى خلق (الزيتون والرمان متشابها) شجرا وورقا (وغير متشابه) ثمرا ، ولونا ، وطعما ٠

(كلوا من ثمره) أى : يباح لكم أن تأكلوا من ثمار هذه الأنواع المذكورة ٠

ولكن عليكم أن تعطوا زكاة هذه النعم ٠

حيث يقول تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) وسواء كان هذا الحق زكاة أو صدقة فهو واجب الأداء يوم الحصاد ٠

(ولا تسرفوا) فى الأكل ، حتى لا تصابوا بالضرر ، (ولا تسرفوا) كذلك فى التصدق ، حتى لا تضيعوا حق الأولاد ٠

(إن الله لا يحب المسرفين) المتجاوزين الحد فى البخل ، أو فى العطاء ٠

* * *

ثم يقول ربنا لإبطال ما تقول به الكافرون على الله فى شأن الأنعام من التحليل والتحريم :

{ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }

[الآية ١٤٢]

يعنى : وخلقنا لكم (من الأنعام) التى هى الإبل والبقر والغنم (حمولة) تحملكم وتركبون عليها (وفرشا) تأكلون وتحلبون منها ٠

(كلوا مما رزقكم الله) من هذه الأنعام ، ومن الزروع ، والثمار المذكورة فى الآية السابقة ٠

(ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى طرقه فى التحليل والتحريم ٠

(إنه لكم عدو) شديد العداوة (مبين) واضحها؛ حيث لا تخفى عداوته ٠٠ لذلك : فاحذروه ، وابتعدوا عنه ، ولا تطيعوه ٠

هذا ٠٠

وليكن معلوما ٠٠ أن هذه الحمولة والفرش من الأنعام .

* * *

{ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }

[الآية ١٤٣]

يعنى :خلقنا لكم حمولة وفرشا من الأنعام (ثمانية أزواج)٠

(من الضأن) خلقنا(اثنين) وكذلك (من المعز) خلقنا (اثنين) أى : من كل منهما زوجين اثنين ، أى واحد ومعه زوج له من جنسه ٠

ولأنهم – أى الكفار – كانوا يحرمون ذكور هذه الأنعام تارة وإناثها مرة أخرى ، وأولادهما تارة ثالثة ، وينسبون هذا التحريم لله تعالى : فقد أنكر الله عليهم ذلك وكذبهم بهذا الاستفهام الإنكارى (قل) يا محمد لهؤلاء الكفار موبخا (آلذكرين حرم) ربنا ، (أم) حرم (الأنثيين) ، (أم) حرم ما تحمل إناث هذه الأنعام فى بطونها ٠٠ ؟

قل لهم : أخبرونى كيف عرفتم أن الله حرم ذلك ، إن كان عندكم علم بهذا (إن كنتم صادقين) فيما تدعون من التحريم والتحليل المنسوب لله تعالى منكم ، وطبعا ليس عندهم أى علم بهذا ٠

* * *

كذلك ٠٠

{ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

والمعنى : وبقية الأزواج الثمانية التى خلقناها لكم من الأنعام (من الإبل اثنين ومن البقر اثنين) أى زوجين من كل منهما ٠

(قل) لهم يا محمد (آلذكرين حرم) منهما ، (أم) حرم (الأنثيين) أم حرم ما تحمل إناثهما ٠٠ ؟

ولما ثبت أنه لا علم حقيقى عندهم بهذا التحريم فى الآية السابقة : أثبت سبحانه أنهم لم يشاهدوا هذا التحريم أيضا ٠

حيث يقول متحديا لهم متهكما بهم (أم كنتم شهداء) أى حاضرين هذا التحريم وهو يوحى به إلى رسول من الله ٠٠ علما بأنكم لا تؤمنون بالرسل ٠٠ ؟

ولأنه لا علم عندكم من وحى ، ولا مشاهدة منكم لوحى : فأنتم كاذبون ، ظالمون ، بل أظلم الظالمين ٠

حقا ٠٠ (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) لا أظلم من هذا ، ولذلك يستحقون ما يقول عنهم ربهم :

(إن الله لا يهدى القوم الظالمين)٠

*****

يا محمد ٠٠

{ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

[الآية ١٤٥]

يعنى : (قل) يا محمد لهؤلاء الكفار ، الذين يحرمون ويحللون من عند أنفسهم وبأهوائهم ٠٠ (لا أجد) فى هذه السورة ولا فى القرآن ، ساعة نزول هذه الآية (فيما أوحى إلى) من الله تعالى ، الذى بيده التحليل والتحريم ، شيئا (محرما) مما ذكرتم ، قد حرم (على طاعم يطعمه) أى : يأكله (إلا) هذه الأشياء الأربعة :

(أن يكون ميتة) فهذا أكله حرام ٠

(أو دما مسفوحا) أى : سائلا ، منزوعا من الحيوان ، فهذا حرام ، وأما الكبد والطحال ، وبقايا الدم فى اللحم والعروق فهى حلال ٠

(أو لحم خنزير) وكل شىء منه فهو حرام ، وذكر اللحم فقط أهم شىء يراد منه ، وتحريمه كان ؛ لأنه (رجس) أى : نجس حرام٠

(أو فسقا أهل لغير الله به) يعنى ما ذبح وذكر عليه غير اسم الله ؛ لأن ذلك فسق وخروج عن طاعة الله ٠

ومع ذلك ، وتيسيرا من المولى على عباده ٠

فإن هذه المحرمات المذكورات : يباح الأكل منها ، وفق قوله تعالى (فمن اضطر) أى : دعته الضرورة الشديدة إلى أكل شىء منها ٠٠ فله أن يأكل مراعيا أمرين ٠٠ (غير باغ) على مضطر مثله ، فيظلمه (ولا عاد) أى : أكل أكثر من حاجته التى تنتهى بها ضرورته ٠

فمن اضطر لذلك وأكل من هذه المحرمات : فلا يؤاخذ على ذلك ، حيث (إن ربك غفور رحيم) لا يؤاخذ المضطر ، بل يرحمه بهذا التشريع .

* * *

وفى مجال التحليل والتحريم فى الأنعام ٠٠

وبعد أن بين لنا ربنا عز وجل موقف الكفار المشركين من العرب من قضية التحليل والتحريم فى الأنعام ، ورد عليهم ٠٠

يرد الله – تبارك وتعالى – على اليهود ، الذين حرفوا دينهم ، وغيروا تعاليمهم ، وحللوا وحرموا بأهوائهم ٠

حيث يقول :

{ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ }

[الآية ١٤٦]

يعنى : حرم الله على اليهود خاصة ، دون ما عداهم من الأولين والآخرين، هذه الأشياء :

(كل ذى ظفر) أى كل ما له إصبع من دابة أو طائر ٠٠ فهو حرام عليهم لحمه وشحمه وكل شىء فيه ٠

وكذلك : شحوم البقر والغنم ٠٠ حرام عليهم ٠

ولكن يستثنى من هذه الشحوم المحرمة :

(ما حملت ظهورها) من الشحوم ٠٠ فهو حلال ٠

(أو الحوايا) وهى الأمعاء ٠٠ فهى حلال ٠

(أو ما اختلط بعظم) من الشحوم ٠٠ فهو حلال ٠

وبهذا يكون الذى حرم عليهم من الشحوم : شحم الكرش والكلى ، وما عدا ذلك فهو حلال ٠

وهذا الذى حرم الله عليهم فى الآية : هو من باب التضييق عليهم ٠

يقول ربنا : (ذلك) أى : هذا التحريم (جزيناهم) به عقابا لهم ، بسبب (بغيهم) وظلمهم ٠

حيث كانوا كلما ارتكبوا معصية من معاصيهم الكثيرة : عوقبوا بتحريم شىء مما أحل الله لهم ٠

وهم ينكرون ذلك ، ويدعون أنها مما حرم على الأمم قبلهم ٠

فكذبهم الله تعالى فيما زعموا ٠

(وإنا لصادقون) فيما كذبناهم فيه ، وأخبرنا به عنهم ٠

*****

ثم يرشد المولى تبارك وتعالى حبيبه إلى التصرف الصحيح مع هؤلاء اليهود ، بقوله :

{ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ }
[الآية ١٤٧]

يعنى : (فإن) كذبك يا محمد هؤلاء اليهود الذين يعاصرونك ، والذين تدعوهم إلى الإيمان ٠٠ فيما جئت به وأوحى إليك من الإسلام ، ومن جملته التحليل والتحريم الذى ذكرناه عنهم فى الآيات السابقة ٠

إن كذبوك : (فقل) لهم (ربكم) صاحب (رحمة واسعة) حيث لم يعاقبكم فور تكذيبكم ٠

وحتى لا يغتروا بهذه الرحمة ، التى هى إمهال لهم لا إهمال لعذابهم قال: (ولا يرد بأسه) أى عقابه إذا جاء (عن القوم المجرمين) الذين يكذبون رسل الله ٠

وهكذا ٠٠ بين الله تعالى كذب كل من زعم شيئا من التحليل والتحريم ٠

وبهذا البيان ٠٠ لزمتهم جميعا من مشركين ويهود الحجة وقام عليهم الدليل ٠

*****

ولما ظهر فساد كلامهم ، وبطلان موقفهم من التحليل والتحريم ٠٠

أخبر الله عنهم بما سيقولونه عنادا ٠٠

حيث قال :

{ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍكَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ }
[الآية ١٤٨]

وهكذا ٠٠ لما سقطت أدلتهم : تعللوا بمشيئة الله ٠٠!!

والمعنى : (سيقول) لك (الذين أشركوا) إظهارا وتأكيدا أنهم على الحق ، وليس اعتذارا عن ارتكابهم هذه المعاصى (لو شاء الله) عدم إشراكنا به ، وعدم تحريمنا لما حرمنا (ما أشركنا ولا أباؤنا) كذلك (ولا حرمنا من شىء) ولذلك : فهو راض عنا ، وعن إشراكنا ، وعن تحريمنا وتحليلنا ٠٠ كذبوا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ٠

(كذلك) أى مثل هذا التكذيب (كذب الذين من قبلهم) رسلهم ، وتعللوا – كذبا – بمشيئة الله ، فلم ينفعهم ذلك (حتى ذاقوا بأسنا) أنزلنا عليهم العذاب ٠

(قل) لهم يا محمد ٠٠ ما يلى :

أولا : (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) أى : هل عندكم علم صحيح من وحى أو خبر صادق بما تدعونه ، فتظهروه لنا ٠٠ ؟

ولن يجيبوا ٠٠ لأنه ليس عندهم (إلا الظن) الوهم والخيال والاعتقاد الفاسد، وما هو (إلا يخرصون) أى يكذبون على الله فيما يدعون ٠

* * *

ثانيا :

{ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ }
[الآية ١٤٩]

يعنى : (قل) لهم (فلله الحجة البالغة) عليكم ، وهى الدليل القاطع الواضح ٠٠ من إنزال الكتب ، وإرسال الرسل إليكم ٠

وليس لكم أية حجة ، ولا أدنى دليل على الله ٠

(فلو شاء) الله هدايتكم (لهداكم أجمعين) ولكنه علم رغبتكم فى الضلال ، ولذلك لم يشأ هدايتكم ٠

* * *

ثالثا :

{ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ }
[الآية ١٥٠]

يعنى : (قل) لهم يا محمد هاتوا شهداءكم الذين يشهدون معكم فيما زعمتم (أن الله حرم هذا) الذى حرمتم ٠

(فإن) جاءوا بشهداء ، و (شهدوا) : فإنهم شهود زور (فلا تشهد معهم) أى : فلا تصدقهم وتسلم لهم ، فتكون كمن شهد معهم زورا ٠

هؤلاء يا محمد ٠٠ قد اتبعوا أهواءهم ٠

لذلك :

(لا تتبع أهواء) هؤلاء (الذين كذبوا بآياتنا) واتبعوا أهواءهم (والذين لا يؤمنون بالآخرة) والذين (هم بربهم يعدلون) أى : يسوون به خلقه ٠

*****

رابعاً :

{ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }

[الآيتان ١٥١ ، ١٥٢]

فى هاتين الآيتين عشرة أشياء : خمسة بصيغة الأمر ، وخمسة بصيغة النهى.

وهذه الأحكام العشرة التى فيها : لا تختلف باختلاف الأمم .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : هن محكمات ، لم ينسخهن شىء فى جميع الكتب ، وهن محرمات على بنى آدم كلهم ، من عمل بهن : دخل الجنة ، ومن تركهن : دخل النار .

ومعنى الآيتين : يا من تحرِّمون وتحلّلون ، وتَنْسبون ذلك زورا وكذبا لله تعالى .. أقرأ ما حرم ربكم عليكم حقا ويقينا ، ولا شك فيه ، ولا ظنا ، ولا كذبا، كما تزعمون أنتم ، بل هو وحى من الله تعالى .

ويلاحظ ابتداء : أن الأوامر المذكورة فيما يلى .. مؤولة إلى نواهٍ ، فيصير المحرم هو عكسها .. ويتضح ذلك أكثر فيما يلى من البيان والتوضيح .

وهذه الأشياء العشرة .. بيانها كالآتى :

الأول : (ألا تشركوا به شيئا) يعنى .. محرم عليكم : الشرك بالله .

الثانى : (وبالوالدين إحسانا) يعنى .. محرم عليكم : ترك الإحسان إلى الوالدين ، ومن باب أولى .. عقوق الوالدين .

الثالث : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ..) الآية .. يعنى .. محرم عليكم : قتل الأولاد – بأية وسيلة – بسبب الفقر ، أو خوف الفقر (نحن نرزقكم وإياهم) حيث إن رزق الخلق على خالقهم ، وليس على بعضهم البعض .

الرابع : (ولا تقربوا الفواحش) الآثام والمعاصى كلها (ما ظهر منها) واطلع عليه الناس أو كان بينك وبينهم (وما بطن) ولم يطلع عليه إلا الله ، أو كان بينك وبين الله .. يعنى : محرم عليكم ارتكاب الفواحش كلها .

الخامس : (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) كالقصاص ، وحد الردة ، ورجم الزانى المحصن ، الذى يقوم به ولى الأمر ، .. يعنى : محرم عليكم قتل النفس بغير الحق .

وفى نهاية هذه المحرمات الخمسة الظاهرة الواضحة .. يقول ربنا تبارك وتعالى (ذلكم) أى ذلكم المذكور مما تلى عليكم (وصاكم به) أى أمركم به (لعلكم تعقلون) فوائد هذه التكاليف فى الدنيا والآخرة .

السادس : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) أى : إلا بالصفة الحسنة ، والتصرف النافع ، (حتى يبلغ أشده) فسلموه له ، وادفعوه إليه ، ليتصرف فيه بنفسه ، يعنى : محرم عليكم أكل مال اليتيم .

السابع والثامن : (وأفوا الكيل والميزان بالقسط) أى : بالعدل ، والمعنى : محرم عليكم إنقاص الكيل ، ومحرم عليكم أيضا : إنقاص الميزان (لا نكلف نفسا إلا وسعها) أى : الوصول إلى العدل فى ذلك قدر الطاقة .

التاسع : (وإذا قلتم فاعدلوا) أى : فاصدقوا ، حتى (ولو كان) المقول له أو عليه ، فى شهادة أو غيرها (ذا قربى) أى : من الأقارب .

يعنى : ومحرم عليكم الكذب وشهادة الزور ٠

العاشر : (وبعهد الله أوفوا) أى : التزموا بما عاهدتم عليه ربكم ، أو أى أحد من خلقه ، يعنى : ومحرم عليكم نقض العهد ٠

وفى النهاية ٠٠ يقول ربنا (ذلكم) أى : ما مر جميعه ، وذكر تفصيله ٠٠ أمركم به ربكم (لعلكم تذكرون) أى : تتعظون ، وتنتفعون به فى دنياكم وأخراكم٠

*****

وقل لهم أيضا يا محمد :

{ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }
[الآية ١٥٣]

والمعنى : (أن هذا) الذى سبق ذكره فى السورة ٠٠ من إثبات : التوحيد ، والنبوة ، وبيان الشريعة ، أو (أن هذا) الذى سبق ذكره فى الآيتين السابقتين من الأوامر والنواهى ، هو (صراطى) أى : دينى (مستقيما) لا اعوجاج فيه (فاتبعوه) والتزموا به (ولا تتبعوا السبل) أى الطرق المختلفة عنه ٠٠ من اليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية ، وسائر البدع والضلالات (فتفرق بكم) أى : فتفرقكم (عن سبيله) الذى هو الصراط المستقيم ، وهو الإسلام ٠

(ذلكم) الأمر باتباع دينه ، وترك غيره من الأديان (وصاكم به) أى : أمركم به ربكم (لعلكم تتقون) النار باتباعكم دينه وترك الأديان الباطلة ٠

يلاحظ : أنه قال : أولا (تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون) لأنهم ٠٠ إذا عقلوا ، تفكروا وتذكروا فاتعظوا واتقوا المحارم ٠

* * *

ثم أخبرهم يا محمد – كذلك – عنا ، بقولنا :

{ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ١٥٤]

ومعنى الآية : (ثم) أخبركم بعد أن بينت لكم ما حرم عليكم ، أنا (آتينا موسى الكتاب) قبل ذلك ٠

(تماما) لنعمتنا عليكم (على الذى أحسن) العمل بأحكامه ٠

(وتفصيلا) مبينا(لكل شىء) يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا ٠

(وهدى ورحمة) من ربكم ٠
(لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) أى : لعل بنى إسرائيل يصدقون بالبعث والحساب ٠
وهذا ثناء على التوراة ، والرسول الذى أنزلت عليه ٠

* * *

ثم أثنى ربنا عز وجل على القرآن ٠٠ فقال :

{ وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }
[الآية ١٥٥]

والمعنى : (وهذا) القرآن (كتاب أنزلناه) على محمد – صلى الله عليه وسلم – (مبارك) كثير المنافع دينا ودنيا ٠
(فاتبعوه) واعملوا بما فيه ٠
(واتقوا) الله ، بعدم مخالفة ما فيه من أحكام٠
(لعلكم ترحمون) بسبب اتباع ما فيه ، وتقواكم الله ٠
وكان ذلك بالنسبة للقرآن ؛ لينقطع عذر المشركين العرب فى عدم الإيمان.

* * *

ثم خاطب الله مشركى العرب قائلا :

{ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ }
[الآية ١٥٦]

يعنى : أنزلنا القرآن كتابا مباركا بلسان عربى ، على رسول منكم ، حتى لا (تقولوا) معللين لعدم إيمانكم (إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) وهما اليهود أهل التوراة ، والنصارى أهل الإنجيل ٠
ثم تقولوا :
ولكنا كنا عن تلاوة ودراسة هذه الكتب ، التى نزلت عليهما (لغافلين) لعدم معرفتنا بما فيها ، إذّ هى ليست بلغتنا ، ولذلك : لم نعرف الوحى ولا الرسالات ، وبالتالى فلم نؤمن لذلك ٠

* * *

أيضا :

{ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ }
[الآية ١٥٧]

والمعنى : أنزلنا القرآن كتابا مباركا بلسان عربى ، على رسول منكم ، حتى لا (تقولوا) أيضا ‥ معللين لعدم إيمانكم (لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) إلى الحق الذى جاء به ، لغزارة حفظنا ، وذكاء عقولنا، وسرعة استجابتنا٠

(فقد جاءكم) الآن ، ونزل على رسول منكم الكتاب (بينة من ربكم وهدى ورحمة) لكم ، فإن كنتم صادقين ‥ فآمنوا ٠

فماذا فعلتم ‥ ؟

لقد كذبتم بهذا الكتاب ، الذى هو أعظم آية من الله ، وأعرضتم عنه ٠

خيرونى إذا (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف) أى أعرض (عنها) ‥ ؟

لا أحد أظلم من ذلك ٠

ولذلك يهددهم ربنا عز وجل قائلا :

(سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) وهو النهاية فى التنكيل بهم (بما كانوا يصدفون) أى بسبب إعراضهم ٠

إن أمر هؤلاء الكفار عجيب ‥ !!

*****

ماذا ينتظر هؤلاء ‥ حتى يؤمنوا ‥ ؟

{ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ }
[الآية ١٥٨]

والمعنى : لقد أقمنا الدلائل على وحدانية الله ، وثبوت الرسالة ، وأبطلنا ضلالاتهم ،

ولم يؤمنوا ٠

فماذا ينتظرون إلا :

(أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم ٠

(أو يأتى ربك) أى أمره ، يعنى أمر ربك بعذابهم ٠

(أو يأتى بعض آيات ربك) أى : علاماته الدالة على يوم القيامة ، كطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة التى تكلم الناس ٠٠ إلخ .

على كل حال ٠٠

(يوم يأتى بعض آيات ربك) هذه (لا ينفع نفسا) كافرة (إيمانها) فى هذه اللحظة ، لأنها (لم تكن آمنت من قبل) كما لا ينفع نفسا مؤمنة عاصية توبتها من المعاصى لم تكن (كسبت فى إيمانها خيرا) يعنى طاعة ، قبل ذلك ٠

يا محمد ٠٠

(قل) لهم : (انتظروا) واحدة من هذه الأشياء الثلاثة (إنا) فى ذات الوقت (منتظرون) لكم ذلك ٠

*****

ثم يهدد ربنا عز وجل من فارق دين الله وخالفه بقوله :

{ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ }
[الآية ١٥٩]

والمعنى : (إن الذين فرقوا دينهم) أى : اختلفوا فيه ٠٠ فصاروا فرقا ، كاليهود والنصارى ٠

أو : نوعوه ٠٠ كل فرقة عبدت شيئا ، هؤلاء عبدوا الأصنام ، وهؤلاء عبدوا الملائكة ، وذلك كالمشركين عامة ٠

أو : اختلفوا فيه ، وفرقوه ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض كأهل الضلالات والبدع من هذه الأمة ٠

أو: فارقوا دينهم ٠٠ يعنى تركوه ٠

(وكانوا شيعا) أى : فرقا متنازعة ٠

(لست منهم فى شىء) أى : أنت منهم ومن تفرقهم برىء ، فلا عليك منهم ، ولا من تفرقهم شىء ، فلا تتعرض لهم ، هذا منسوخ بآية السيف ٠

(إنما أمرهم إلى الله) فى الدنيا (ثم) فى الآخرة (ينبئهم) ويجازيهم بنوع (ما كانوا يفعلون) .

* * *

ثم بين ربنا – تبارك وتعالى – مقدار جزاء العاملين ٠٠

فقال جلت حكمته :

{ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }
[الآية ١٦٠]

يعنى : جزاء الحسنة : عشر أمثالها ، وجزاء السيئة : مثلها فقط ٠
(وهم) أى : العاملون لهذه وتلك (لا يظلمون) بنقص من الحسنات ولا بزيادة للسيئات ٠
وكان هذا البيان ؛ ليعرف العباد فضل الله تعالى وعدله ؛ فيقبلوا على الحسنات ، ويبتعدوا عن السيئات ٠

*****

وبعد ذلك : يأمر ربنا حبيبه – صلى الله عليه وسلم – أن يخبر بما أنعم الله عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم ٠
فيقول له :

{ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }
[الآية ١٦١]

يعنى : (قل) يا محمد لهؤلاء الذين فرقوا دينهم وفارقوه ؛ مبينا لهم ما أنت عليه من الدين الحق ٠
(إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم) وهو الإسلام ، الدين القويم ، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ٠
(دينا قيما) قائما ثابتا ، لم يحرف ، ولم يغير ، ولم يبدل ٠
(ملة إبراهيم حنيفا) أى : وهو الذى كان عليه إبراهيم عليه السلام ، مائلا به عن الشرك ، ومبتعدا به عن الأصنام ، التى أنتم عليها ٠
(وما كان) إبراهيم عليه السلام (من المشركين) بالله تعالى أبدا .

* * *

ثم يأمره سبحانه كذلك ٠٠ أن يعلن لهؤلاء المشركين : إخلاصه لله ٠٠
إذ يقول له :

{ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ }
[الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣]

والمعنى : (قل) يا محمد للدنيا كلها ٠٠ معلنا قمة الإخلاص :
(إن صلاتى) أى عباداتى كلها (ونسكى) من حج وذبح ، (ومحياى ومماتى) وما أتيته فى حياتى واعتقدته ، وأموت عليه ، من الإيمان بالله ، وتوحيده ، والإيمان برسله ، واتباعهم ، والعمل الصالح ، كل ذلك ، خالص (لله رب العالمين) وحده (لا شريك له) فى ذلك ، ولا فى شىء منه ٠

(وبذلك) التوحيد والإخلاص (أمرت) ٠
(وأنا من المسلمين) مسارعة فى امتثال ما أمرت به ٠

* * *

لما قال الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم : ارجع الى ديننا ٠٠
قال له ربه :

{ قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }
[الآية ١٦٤]

والمعنى : (قل) يا محمد لهؤلاء ، الكفار من قومك (أغير الله) الذى أعبده، وأوحده ، وأخلص له ٠
(أبغى ربا) أطلب ربا آخر لى غير الله تعالى ٠
وهو ربى وربكم (وهو رب كل شىء) ومالكه ، وخالقه ، ومربيه ٠
ولما كان المشركون يقولون للمسلمين (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) [العنكبوت ١٢] .
بمعنى ٠٠ ليكتب علينا لا عليكم من الخطايا ٠
أو بمعنى ٠٠ لنحمل يوم القيامة ما كتب عليكم من الخطايا ٠
رد الله عليهم ما قالوا بقوله ، قل لهم ٠٠
(ولا تكسب كل نفس إلا عليها) أى كل نفس عليها إثم ما كسبت لا على غيرها ٠
وكذلك (لا تزر وازرة وزر أخرى) لا تحمل نفس عن نفس سيئاتها ٠
وقل لهم كذلك :
(ثم إلى ربكم) وربى (مرجعكم) يوم القيامة ٠
(فينبئوكم بما كنتم فيه تختلفون) من الأديان التى فرقتموها ، أو فارقتموها ، أو افترقتم فيها ٠

*****

ثم تختم السورة بتقرير أن الله تعالى جعلنا خلائف الأرض ؛ ابتلاءً ٠

فقال :

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }

والمعنى : واعلموا جميعا ‎٠٠‎ أن الله الواحد الأحد ، سبحانه (هو الذى) لا غيره ، من الأنداد والشركاء الذين تزعمون ٠

(جعلكم خلائف الأرض) خلائف : جميع خليفة ، يعنى : يخلف بعضكم بعضا فيها ‎٠٠‎ تتملكونها ، وتتصرفون فيها ٠

وهو وحده الذى (رفع بعضكم فوق بعض درجات) فى الرزق ، والعقل ، والشرف ، إلى غير ذلك٠

وكان ذلك الاستخلاف ، والرفع (ليبلوكم فيما آتاكم) أى : يختبركم فيما أعطاكم من النعم ، كنعمة المال ، ونعمة الولد ، ونعمة الصحة ، ونعمة الجاه والمنصب ٠

ويختبركم كيف تشكرون ، وكيف تتصرفون ، وكيف يصنع القوى بالضعيف ، والغنى بالفقير ، والكبير بالصغير ، والحاكم بالمحكوم ، إلى غير ذلك؟

فيكون الثواب والعقاب ٠

(إن ربك سريع العقاب) لمن كفر ، ولمن عصاه ولم يتب .

(وإنه لغفور رحيم) لمن آمن وعمل صالحا ، وقام بشكر هذه النعم ٠

*****

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ٠
أما بعد :
فيقول تعالى :

{ المص }
[الآية ١]

هذه هى الحروف المقطعة فى أوائل السور ٠
وقد تكلم العلماء فى تحديد معناها ٠٠ بأقوال عديدة ، من أبرزها : أنها حروف من جنس ما تحدث به العرب ، جاءت هكذا ٠٠ للفت أنظار المشركين ، وجذب اهتمامهم لسماع القرآن الكريم ، الذى كانوا يعرضون عنه ، بل كانوا يقولون لبعضهم البعض (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) [فصلت ٢٦] ولكن القرآن غلبهم ، فأسمعهم ، و ألزمهم ، وأسقط حجتهم بهذه الحروف ٠

{ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ٢]

والمعنى : هذا القرآن (كتاب أنزل إليك) من ربك يا محمد ؛ لتبليغه ٠
(فلا يكن فى صدرك حرج منه) أى : ضيق بسبب ما ينالك من أذى قومك، وتكذيبهم لك ، وعنادهم معك ٠
وقد أنزل إليك هذا القرآن :
(لتنذر به) الكافرين ، وتخوفهم من عذاب الله تعالى ٠
(و) ليكون (ذكرى للمؤمنين) تذكرهم به ٠

*****

ثم ينتقل الخطاب الإلهى إلى الكافرين ٠
فيقول رب العزة :

{ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ }

[الآية ٣]

والمعنى :
(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) على لسان نبيكم ، من القرآن ، والسنة ، والتزموا بهما ، واهتدوا بهديهما .
(ولا تتبعوا من دونه أولياء) غير الله تعالى ، تتخذونهم لكم أولياء ومعبودات ، يضلونكم عن كتاب الله وسنة رسوله ، إلى الأهواء والبدع والضلالات٠
(قليلا ما تذكرون) حيث تتركون دين الله ، وتتبعون غيره ، بسبب تذكركم القليل ، وإعمال فكركم الكليل ٠
ولهذا : فالذكر الكثير ، والتذكر الكثير : هما طريق الهداية ، والنجاة من الانحراف ٠

* * *

ثم ٠٠ يهدد ربنا سبحانه وتعالى من مخالفته بضرب المثل بمن خالف قبلا ؛ فأهلكه الله ٠
حيث يقول :

{ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ }
[الآية ٤]

يعنى : (وكم من قرية) من قبلكم عاند أهلها ، فلم يؤمنوا، (أهلكناها) أردنا أهلاكها ؛ عقابا لأهلها ٠
(فجاءها بأسنا) أى عذابنا (بياتا) أى : ليلا كما حدث لقوم لوط عليه السلام (أوهم قائلون) أى : فى النهار ، وقت القيلولة والاستراحة فى الظهيرة ، كما حدث لقوم شعيب عليه السلام٠
فماذا فعلوا ساعتها ٠٠ ؟
دعوا ربهم واستغاثوا ٠

* * *

فماذا كان دعاؤهم ٠٠ ؟

{ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ }
[الآية ٥]

يعنى : حينما (جاءهم بأسنا) أى عذابنا ، وإهلاكنا لهم ولقراهم ٠٠ دعوا ربهم ، واستغاثوا ٠
وما كان دعواهم واستغاثتهم (إلا أن قالوا) تحسرا وندامة (إنا كنا ظالمين)٠

ولم يستطيعوا دفع العذاب عن أنفسهم ٠٠
ولم ينفعهم – فى الوقت ذاته – الندم ٠
وأنتم – أيها الكفار جميعا – كذلك ٠
وهذا عن العذاب فى الدنيا ٠

* * *

فماذا عن العذاب فى الآخرة ٠٠ ؟

{ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ }
[الآية ٦]

يعنى : سيكون السؤال والحساب يوم القيامة ٠
حيث نسأل الأمم : عما أجابوا به رسلهم ٠
كما نسأل الرسل : عما أجابتهم به أممهم ٠

* * *

أيضا ٠٠

{ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ }
[الآية ٧]

يعنى : (فلنقصن عليهم) أى : فلتخبرن الرسل عليهم السلام ، والأمم ، بما كان من كل منهم (بعلم) ونحن عالمون بأحوالهم الظاهرة والباطنة ، ومواقفهم كلها٠

* * *

ولكن ٠٠
كيف يكون الجزاء ٠ ؟

{ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ }
[الآيتان ٨ ، ٩]

والمعنى : يكون الجزاء يوم القيامة ٠٠ بوزن الأعمال ، والأقوال والمواقف ٠

(والوزن يومئذ الحق) أى : يوم القيامة ٠٠ يكون الوزن حينما يسأل المولى الرسل والأمم : بالعدل ٠

(فمن ثقلت موازينه) بالحسنات٠

(فأولئك هم المفلحون) أى : الفائزون برضوان الله ٠

(ومن خفت موازينه) بسبب السيئات٠

(فأولئك الذين خسروا أنفسهم) وضيعوها ، وصيروها إلى النار، بسبب (ما كانوا بآياتنا يظلمون) أى : يظلمون أنفسهم بعدم الإيمان بالله والاعتبار بآياته ٠

*****

هذا ٠٠

وبعد أن أمر الله الكفار باتباع ما أنزل الله ، ونهاهم عن اتباع غيره ، وخوفهم بما حدث للأمم من قبلهم من العذاب فى الدنيا والآخرة ٠٠

ذكرهم بنعمه ٠٠ التى تقتضى منهم الإيمان بالله تعالى ، والشكر عليها ٠

حيث يقول :

{ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ }
[الآية ١٠]

يعنى : (ولقد مكناكم فى الأرض) يا بنى آدم ، وملكناكم وأقدرناكم على التصرف فيها ٠

(وجعلنا لكم فيها معايش) من المطعم والمشرب ، وما تكون به الحياة والمعيشة الهنية ٠

ومع ذلك ٠٠ فأنتم :

(قليلا ما تشكرون) الله على هذا التمكين لكم فى الأرض ، والجعل لكم من ألوان المعايش ، حيث لا تؤمنون به ، ولا تتبعون ما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ٠

*****

ثم يذكر ربنا بنعمة عظيمة على آدم عليه السلام ، لا تزال سارية على ذريته إلى يوم القيامة ٠

حيث يقول :

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ }
[الآيتان ١١ ، ١٢]

والمعنى : (ولقد خلقنا) أبا (كم) آدم من العدم ، حين كان طينا ، فصار بشرا٠
(ثم صورنا) أبا (كم) آدم ، حين كان بشرا ، بشق حواسه ، من السمع والبصر ، وغير ذلك ٠
(ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) سجود تحية ٠
(فسجدوا) طاعة لأمر ربهم ٠
(إلا إبليس) أبا الجن ، الذى كان بين الملائكة (لم يكن من الساجدين) ٠
حيث تأبى على أمر الله تعالى ، ولم يسجد لآدم .
(قال) الله تعالى له :
(ما منعك ألا تسجد إذا أمرتك) بالسجود ، وأنت بين الملائكة ٠٠ ؟
(قال) إبليس جوابا لسؤال ربه : (أنا خير منه) ولذلك لم أسجد له٠
ولكن ما وجه هذه الخيرية التى يدعيها إبليس ٠٠ ؟
قال (خلقتنى من نار وخلقته من طين) والنار ٠٠ خير من الطين ٠٠ فأنا خير منه٠
وقد أخطأ إبليس فى ذلك عدة أخطاء ٠٠
حيث : خالف الأمر ، وفارق الجماعة ، واستكبر على أمر الله ، وحقر آدم عليه السلام ٠
وكلها : بلايا تؤدى بصاحبها إلى شر المهالك ٠
ولذلك ٠٠

* * *

{ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ }
[الآية ١٣]

أى : (قال) تعالى لإبليس اللعين ٠٠ (فاهبط) يعنى : انزل هابطا مطرودا (منها) أى الجنة ، وقيل السماوات ؛ لأنك استكبرت ٠

(فما يكون لك) فما ينبغى لك (أن تتكبر فيها) حيث إنها مكان الطائعين المتواضعين ، وأنت لست منهم٠

(فاخرج) منها ، ومن بين أهلها (إنك من الصاغرين) الذليلين الحقيرين ، يذمك كل إنسان ، ويلعنك كل لسان ٠

* * *

ولما كان أهل الجنة لا يموتون ، ومن ليسوا فيها من أهل الدنيا يموتون : خاف إبليس أن يموت ، بل أن يذوق طعم الموت ٠٠ !!
لذلك : سأل ربه أن لا يموت ٠
حيث :

{ قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }
[الآية ١٤]

يعنى : (قال) إبليس لربه (أنظرنى) أخرنى ، ولا تمتنى (إلى يوم يبعثون) أى : لا تمتنى نهائيا ؛ لأنه لا موت بعد البعث ٠

* * *

ولذلك ، وتفويتا لقصده ورفضًا لطلبه ٠

{ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ }
[الآية ١٥]

أى : (قال) الله تعالى له (إنك من المنظرين)٠٠
أى : المؤخرين ، ولكن ٠٠ ليس (إلى يوم يبعثون) بل (إلى يوم الوقت المعلوم) [الحجر ٣٨ ، ص ٨١] أى : وقت النفخة الأولى ، التى تميت جميع الخلائق ٠

* * *

وهنا ٠٠

{ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ }
[الآيتان ١٦ ، ١٧]

يعنى : (قال) إبليس اللعين ، لما رفض الله طلبه الخلود : أحب أن ينتقم أخذا بثأره ، فيما يتصور ٠
(فبما أغويتنى) أى : بسبب وقوعى فى الغى والضلال ٠

(لأقعدن لهم) يعنى : لبنى آدم ، أحول بينهم وبين ..

(صراط المستقيم) أى : الموصل إليك ، وهو الإسلام.

(ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) يعنى : من كل جهة ، فأمنعهم من سلوك الطريق المستقيم ، وهو الإسلام .

ويلاحظ : أنه لم يذكر جهتين .. الجهة السفلى : تكبرا منه ، والجهة العليا: حيث لا يستطيعها – كما يقول ابن عباس – لئلا يحول بين العبد ورحمة ربه .

(و) لذلك (لا تجد أكثرهم شاكرين) أى : مؤمنين ، بسبب إغرائه لهم .

* * *

وبعد هذا الحوار ..

{ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَدْحُورًا لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ }
[الآية ١٨]

يعنى : (قال) الله تعالى .. آمرا له :

(اخرج منها) أى : من الجنة ، أو من السماء .

(مذءوما) معيبا (مدحورا) مطرودا من رحمة الله تعالى ؛ لتفسد فى الأرض ، وتغوى أتباعك من الضالين .

وأقسم (لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم) أى منك وذريتك وممن تبعك من الناس (أجمعين) أعذبه فيها .

*****

وبعد ذلك ..

وجه الله الخطاب لآدم عليه السلام .. قائلا :

{ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ }
[الآية ١٩]

يعنى : (و) بعد طرد إبليس من الجنة .. قال الله تعالى (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) فهى سكنكما ، ومقر إقامتكما.

(فكلا) منها ، ومن ثمارها(من حيث شئتما) الأكل فيه .

(و) لكن .. (لا تقربا هذه الشجرة) أى : بالأكل منها ، ولو فعلتما ذلك ، وأكلتما منها ..

(تكونا من الظالمين) أى : فتصيرا بمخالفتكما للأمر الإلهى من الظالمين لأنفسكما .

* * *

ماذا حدث لهما ؟

{ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ }
[الآية ٢٠]

يعنى : بعد النهى الإلهى لآدم وزوجه عن الأكل من الشجرة ، التى حددها لهما رب العزة ٠٠ تدخل الشيطان ٠٠
(فوسوس لهما الشيطان) أى : إبليس بكلام خفى ، مكدر .
لماذا ٠٠ ؟
(ليبدى لهما ما ووری عنهما) أى : ليكشف لهما ما اختفى واستتر عنهما (من سوآتهما) يعنى عوراتهما ٠
وذلك : ليوقعهما فى المعصية ؛ فيخرجا من الجنة ، كما خرج منها ٠
(وقال) لهما (ما نهاكما ربكما عن) الأكل من (هذه الشجرة إلا) بقصد أن لا (تكونا ملكين) تعلمان الخير والشر (أو) لا (تكونا) فى الجنة (من الخالدين) الذين لا يموتون أبدا ٠

* * *

ثم أكد لهما صدق كلامه ٠٠

{ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ }
[الآية ٢١]

يعنى : أقسم لهما بالله وقال (إنى لكما لمن الناصحين) الذين يدلانكما على النفع والخير لكما ٠
وهو كاذب فى هذه النصيحة ٠

*****

ولأن آدم عليه السلام ٠٠ كان يظن أن لا أحد يحلف بالله كاذبا : فصدقه ، واغتر به ٠
ولذلك ٠٠ يقول رب العزة :

{ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ }
[الآية ٢٢]

والمعنى : (فدلاهما) أى: فخدعهما (بغرور) أى : بزخرف من القول الباطل ٠

(فلما ذاقا الشجرة) أى : أكلا منها أكلا خفيفا لمعرفة الطعم : (بدت لهما سوآتهما) أى ظهر لكل واحد منهما عورته وعورة الآخر ٠

ولذلك ٠٠

(طفقا يخصفان عليهما) أى : أخذا يلذقان على عورتيهما (من ورق الجنة) ليسترا به عورتيهما٠

(و) هنا (ناداهما ربهما) قائلا (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) فلا تطيعانه ٠

وهذا : عتاب من الله لهما ، وتنبيه على الخطأ منهما ٠

* * *

لذلك ٠٠

{ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }
[الآية ٢٣]

يعنى : (قالا) أى : آدم وحواء (ربنا ظلمنا أنفسنا) بمعصيتك ومخالفة أمرك وتعاليمك ، ومطاوعة عدونا وعدوك ٠

(وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) لرحمتك ورضوانك ٠

وكان فى هذا : توبتهما من هذه المعصية ٠

*****

وبهذا ٠٠

ثم عرض قصة بداية الوجود الإنسانى على الأرض ٠

وها نحن الآن – على الأرض – تجرى علينا أحكام وقوانين جديدة تناسب هذا الوضع الجديد ٠

ولذلك :

يبدأ المولى بعدة نداءات لبنى آدم :

النداء الأول :

{ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }
[الآية ٢٦]

وفى هذا النداء : يذكرهم بنعمة ستر عوراتهم ٠

والمعنى : (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم) لباسين ٠٠ (لباسا يوارى سوآتكم) ويغطيها ويسترها ، ولباسًا يزينكم ويجملكم ويحسن مظهركم ٠

هذا ٠٠

(ولباس التقوى) الذى يقى عذاب الله ، وهو طاعته : (ذلك خير) من كل لباس سواه ٠

(ذلك) أى إنزال اللباس نعمة من الله ، آية (من آيات الله) الدالة على فضله ورحمته بعباده ٠

(لعلهم يذكرون) فيعرفون عظيم إنعام الله ، فيؤمنون ٠

*****

والنداء الثانى :

{يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٢٧]

وفى هذا النداء : يحذرهم فيه من إبليس وذريته ٠

والمعنى :

(يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان) أى لا يخدعنكم ، ويضلنكم ، ويغوينكم بالمعصية ، فيبعدكم عن دخول الجنة ، (كما أخرج أبويكم) آدم وحواء سابقا (من الجنة) وهو (ينزع عنهما لباسهما) بخداعه لهما (ليريهما سوآتهما) عوراتهما ٠

يا بنى آدم احذروه ، وانتبهوا له ٠

حيث ٠٠

(إنه يراكم هو وقبيله) ذريته (من حيث لا ترونهم) أنتم ، وهم على صورهم الأصلية ؛ للطافة أجسامهم ٠ خاصة ٠٠

(إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) أى : أعوانا لهم ، كما مكناهم من غوايتهم وإفسادهم ٠

* * *

لذلك ٠٠

{ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٢٨]

يعنى : (وإذا فعلوا) أى الذين لا يؤمنون (فاحشة) بإغواء الشياطين لهم ٠

(قالوا) متعللين فى فعلها (وجدنا عليها آباءنا) ٠

ذلك : أن العرب كانت تطوف بالبيت عرايا ، ويقولون لا نطوف فى ثوب عصينا الله فيه ؛ ويقولون (الله أمرنا) بذلك ٠

فكذبهم الله وأنزل هذه الآية ٠

ثم قال ربنا :

(قل) لهم يا محمد (إن الله لا يأمر بالفحشاء) التى تمارسونها ٠

كما أنكم (تقولون على الله ما لا تعلمون) لأنكم لم تسمعوه ، لا من الله تعالى مشافهة ، ولا من الأنبياء الذين تنكرون نبوتهم ٠

* * *

يا محمد ٠

{ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ }
[الآيتان ٢٩ ، ٣٠]

والمعنى : أن الله عز وجل بعد أن كذبهم فيما قالوه عن الله ، يأمر حبيبه ببيان الحقيقة الناصعة فيما يأمر به الله ٠

حيث يقول :

(قل) يا محمد لهم (أمر ربى بالقسط) وهو العدل ، وليس بالفاحشة ، كما تزعمون ٠

وقل لهم كذلك ٠٠ أقبلوا على الله ، (وأقيموا وجوهكم) لله (عن كل مسجد) أى: أخلصوا له فى سجودكم وطاعتكم ، وصلاتكم ٠

وقل لهم أيضا (وادعوه) أى : اعبدوه (مخلصين له الدين) من الشرك والضلالات ٠

وقل لهم (كما بدأكم) أى خلقكم من العدم (تعودون) إليه أحياء ، بالبعث يوم القيامة ٠

وتكونون فى هذه الحالة بعد البعث فريقين ..
(فريقا هدى) وهم المسلمون ، الطائعون٠
(وفريقا حق عليهم الضلالة) وهم الكافرون .
ولكن ٠٠ لماذا حق عليهم الضلال ؟ .
(إنهم اتخذوا الشياطين أولياء) لهم وأنصارا وأعوانا (من دون الله) أى : غير الله تعالى ٠
وفى الوقت ذاته ٠
(يحسبون أنهم مهتدون) وهذا عين الضلال ، أن يخدع المرء فى نفسه ، ويحسب أنه على صواب ، وهو ليس بذلك ٠

*****

النداء الثالث :

{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }
[الآية ٣١]

وفى هذا النداء : إعلان عن شريعة الله ، بإباحة الزينة ، وستر العورات ، ولبس الجميل ، والتمتع بالطيبات دون إسراف ٠
والمعنى :
(يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) للصلاة ، أو الطواف ٠
وسبب نزول هذه الآية : أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة – الرجال بالنهار ، والنساء بالليل – ويقولون : لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها ٠
وأيضا : كان بعض العرب ٠٠ لا يأكلون فى أيام حجهم إلا قليلا ، ولا يأكلون لحما ولا دسما ؛ يعظمون بذلك حجهم ٠
فنزل قوله تعالى :
(وكلوا واشربوا) أى ما شئتم من الحلال (ولا تسرفوا) بتحريم الحلال ، أو أكل الحرام ، أو الإفراط فى الطعام ٠
(إنه) سبحانه (لا يحب المسرفين) فى كل شىء من أمورهم ٠

* * *

ثم قال الله لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }

والمعنى: (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يشرعون لأنفسهم غير ما أنزل الله ، على سبيل الإنكار عليهم .

(من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) من اللباس بأنواعه ، التى تستر العورة ، وتزين الإنسان ؟ أى : هى حلال مباح .

وكذلك : من حرم (الطيبات من الرزق) الذى أنعم الله به على عباده .. ؟ أى : هى حلال مباح .

(قل) أيضا يا محمد ..

(هى) أى زينة الله ، والطيبات من الرزق.

(للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) غير خالصة لهم ، أو خاصة بهم ، حيث يشاركهم فيها الكفار .

ولكنها (خالصة يوم القيامة) لهم ، لا يشاركهم فيها أحد .

(كذلك نفصل الآيات) ليتميز الحلال من الحرام .

(لقوم يعلمون) أى : يتدبرون ، فينتفعون بها .

* * *

وبعد أن بين ربنا الحلال ، واستنكر على من حرمه .

شرع سبحانه فى تبيين الحرام ..

فقال لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }

[الآية ٣٣]

أى : (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يشرعون لأنفسهم ، غير ما أنزل الله ، مبينا لهم ما حرمه الله .

(إنما حرم ربى) عليكم وعلى الدنيا كلها .. ما يلى :

(الفواحش) وهى : ما تفاحش وتزايد قبحه ، كالزنا ، وسائر الكبائر (ما ظهر منها وما بطن) أى : سرها وجهرها .

(والإثم) أى : المعصية المخالفة لأمر الله ، بكل أنواعها ، وأحجامها .

(والبغى) أى : على الناس وظلمهم (بغير الحق) أى : دون أن يكون دفاعا عن النفس ، أو ردًّا لعدوان .

(وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) أى دليلا وبرهانا .

وهذا : رد لقولهم وزعمهم .. أنهم أشركوا بأمر الله .

(وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) من تحريم ما لم يحرم ، أو تحليل ما حرم ، أو وصفه سبحانه بغير صفاته .

* * *

ثم يخوف ربنا هؤلاء المشركين وينذرهم ؛ لعلهم يتعظون ٠
فيقول :

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ }
[الآية ٣٤]

والمعنى : اعتدلوا واستقيموا وآمنوا أيها الكفار ؛ فإن لكم نهاية ، ولكم عقاب ٠
حيث إنه بصفة عامة :
(لكل أمة أجل) أى : ميعاد معلوم ، ونهاية محتومة ، يكون فيها عذابهم على عنادهم ٠
(فإذا جاء أجلهم) وحل عذابهم (لا يستأخرون ساعة) عنه (ولا يستقدمون)٠
فآمنوا ٠

*****

النداء الرابع :

{ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }
[الآية ٣٥]

وفى هذا النداء : بيان أن من ترك المحرمات ، وفعل الطاعات لا يحزن أبدا ولا يخاف ، وأما من كذب واستكبر ٠٠ فإنه من أصحاب النار ٠
وذلك : فى حالة بعث الرسل عليهم السلام ٠
والمعنى :
(يا بنى آدم) عندما (يأتينكم رسل منكم) يبلغونكم رسالة الله ، ويدعونكم لتوحيده وعبادته ، و (يقصون عليكم آياتى) أى : ويقرءون عليكم كتبى ٠٠ فإنكم تكونون بين فريقين .
الفريق الأول : (من اتقى) الشر منكم ؛ خوفا من الله ، (وأصلح) نفسه ، والبلاد ، وأسعد العباد ؛ طاعة لله ٠
هؤلاء : (لا خوف عليهم) فيما هو آت (ولا هم يحزنون) على شىء فات٠

* * *

وأما الفريق الثانى ٠٠
فيقول عنه المولى :

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ٣٦]

يعنى : (والذين كذبوا) منكم يا بنى آدم (بآياتنا) أى : بكتبنا ووحينا (واستكبروا عنها) فلم يؤمنوا بها ، ويذعنوا لها ، ويعملوا بما فيها ٠

(أولئك أصحاب النار) الذين هم أهلها ، وهى لهم و (هم فيها خالدون) باقون فيها أبدا ، لا يخرجون منها ، ولا يموتون فيها ٠

وهؤلاء : هم الظالمون ٠

*****

ثم يكون حديث المولى سبحانه عن أظلم الظالمين ، وما يحدث لهم ٠٠
فيقول :

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ }
[الآية ٣٧]

والمعنى :

لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) فقال على الله ما لم يقله ، أو كذب قول الله ، أو نسب الشريك أو الولد إليه ٠

(أو كذب بآياته) يعنى : كذب بالقرآن ٠

(أولئك ينالهم) أى : يصلهم (نصيبهم من الكتاب) يعنى : مما كتب وقسم لهم ٠٠ من : الأرزاق ، والأعمار ، والسعادة فى الدنيا ، أو الشقاء فيها ٠٠ إلى غير ذلك ٠

وهذا : مستمر ما داموا أحياء ، إلى أن يحين موتهم ٠

(حتى إذا جاءتهم رسلنا) أى : ملك الموت وأعوانه ، (يتوفونهم) يقبضون أرواحهم ٠

(قالوا) أى : الملائكة ٠٠ تقريعا ، وتوبيخا ، وتأنيبا ٠

(أين ما كنتم تدعون) تعبدون (من دون الله) ليدفعوا عنكم آلام الموت ، وشدة سكراته ، والعذاب الآتى بعد ؟ ٠

(قالوا) مجيبين للملائكة : لا نراهم ، لقد (ضلوا عنا) أى : غابوا وتركونا فى وقت الحاجة والشدة ٠

وأدركوا ٠٠ أنهم كانوا يعبدون ما لا ينفع ولا يضر ٠

ولذلك :

(شهدوا على أنفسهم) واعترفوا عليها عند الموت ٠

(أنهم كانوا كافرين) يستحقون ما ينزل بهم من عذاب ٠

* * *

وهنا ٠٠

{ قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٣٨]

والمعنى :

(قال) الله تعالى لهؤلاء الذين افتروا الكذب على الله ، وجعلوا له شركاء :

(ادخلوا فى) جملة (أمم) من الجماعات والأحزاب ، وأهل الملل ، وأهل الضلالات ٠

(قد خلت) مضت (من قبلكم من الجن والإنس) ودخلت (فى النار)٠

وكانوا ٠٠

(كلما دخلت أمة) فى النار (لعنت أختها) فى الضلال والانحراف٠

(حتى إذا اداركوا فيها) أى : تلاحقوا فيها ، واجتمعوا فى دركاتها ، كلهم السابقون واللاحقون ، والسادة منهم والأتباع٠

كان الحوار التالى :

(قالت أخراهم لأولاهم) أى : قال الأتباع عن سادتهم (ربنا هؤلاء أضلونا) فى الدنيا ، حتى صرنا هنا (فآتهم) يا ربنا ، جزاءً لهم على إضلالهم لنا (ضعفا) أى : مضاعفا لا ينتهى (من) عذاب (النار)٠

(قال) تعالى مجيبا لهم (لكل) منكم ومنهم (ضعف) مضاعف من العذاب (ولكن لا تعلمون) مقداره ، لا أنتم ولا هم ٠

* * *

هل سكتت أولاهم لأخراهم فى هذا الموقف ٠

لا ٠٠

{ وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ }
[الآية ٣٩]

يعنى :

أجابت (أولاهم) أى : السادة (لأخراهم) وهم التابعون مشافهة ومخاطبة ، قائلة :

(فما كان لكم علينا من فضل) لأنكم لم تكفروا ولم تضلوا بسببنا ، بل باختباركم ، ونحن وأنتم فى العذاب سواء ٠

وهنا يقول الله تعالى للجميع ٠

(فذوقوا العذاب) أنتم وهم (بما كنتم تكسبون) أى : بكسبكم وعملكم وكفركم، عدلا منا فى معاملتكم ٠

*****

وبعد بيان ما يكون بين الملائكة والكافرين عند الموت ٠٠

وكذلك : بيان ما يكون بين الكافرين وبعضهم البعض يوم القيامة ٠٠

يكون الإخبار عنهم بما يلى :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ }

[الآيتان ٤٠ ، ٤١]

يقول تعالى مبينا جزاء (الذين كذبوا) بآيات الله ٠٠ (واستكبروا عنها) فلم يؤمنوا بها ، وعاندوا حتى ماتوا :

وهذا الجزاء على النحو التالى :

أولا : (لا تفتح لهم أبواب السماء) أى : إذا ماتوا وصعدت الملائكة بأرواحهم إلى السماء ، لا تفتح لهم ، كما تفتح لأرواح المؤمنين ، فيهبط بها الملك إلى أسفل سافلين ٠

ثانيا : (ولا يدخلون الجنة) أبدا ٠

وذلك التأبيد ٠٠ لقوله تعالى (حتى يلج) أى : يدخل (الجمل) بحجمه الكبير وهو حى (فى سم الخياط) ثقب الإبرة الضيق ، وهذا لا يكون أبدا ٠

(وكذلك نجزى المجرمين) الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها ، فلم يؤمنوا ، وصاروا مجرمين فى حق أنفسهم وغيرهم ٠

ثالثا : (لهم من جهنم مهاد) يعنى : فراش ، ولهم فيها (من فوقهم غواش) أغطية من نار جهنم كذلك ٠

(وكذلك نجزى) بهذا الجزاء الفظيع (الظالمين) أنفسهم بالكفر ٠

*****

هذا ٠٠

وبعد التفصيل السابق فى أحوال المكذبين ، وجزائهم ٠٠
يكون الإخبار عن المؤمنين المصدقين ٠٠
حيث يقول الملك العلام :

{ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ٤٢]

يعنى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) قدر طاقتهم ٠٠ (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) ٠
ومعنى (لا نكلف نفسا إلا وسعها) أى : لا نكلفها ما فيه مشقة وحرج ، حتى لا يفهم فاهم أن دخول الجنة ٠٠ متوقف على ما لا يمكن عمله ٠

* * *

هؤلاء ٠٠ يقول عنهم ربهم :

{ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآية ٤٣]

والمعنى :
أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات : دخلوا الجنة طاهرين ، مطهرين ؛ حيث (نزعنا ما فى صدورهم من غل) أى : من حقد كان بينهم فى الدنيا ، ولم يتبق بينهم إلا المحبة والتواد والتعاطف ٠٠
وهذا : من تمام سعادتهم فى الجنة ، التى ليس فيها إلا السلام الحسى والمعنوى ٠
ولتتم لهم سعادة المنظر (تجرى من تحتهم) أى : من تحت قصورهم التى يقيمون فيها (الأنهار) .
وهؤلاء : قد (قالوا) عند دخلولهم الجنة ، واستقرارهم فى منازلهم وقصورهم (الحمد لله الذى هدانا لهذا) العمل ، الذى هذا ثوابه ٠
كما اعترفوا بفضل الله عليهم ، وإنعامه بهم ٠
حيث قالوا كذلك :
(وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) أى : لولا هداية الله لنا : ما اهتدينا ، وما صرنا إلى ما نحن فيه من نعيم مقيم ٠
ثم قالوا كذلك :
(لقد جاءت رسل ربنا) فى الدنيا(بالحق) الذى أخبرونا به ، ودعونا إليه ؛ حيث حصل لنا ثوابه ، وننعم به الآن ٠
وبعد ذلك ٠٠

(نودوا) أى : نودى على أهل الجنة ‥ بهذا النداء :

(أن تلكم الجنة) التى كانت الرسل تعدكم بها فى الدنيا (أورثتموها) يعنى : آلت إليكم ، وصارت فى ملككم بلا تعب ولا مشقة (بما كنتم تعملون) أى : بسبب أعمالكم الصالحة ٠

*****

ولأنه من تمام النعمة : أن ترى عدو العقيدة الصحيحة فى النار ، وأن يراك فى الجنة ‥

كان ما يلى :

{ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ }

[الآيتان ٤٤ ، ٤٥]

والمعنى :

أنه : بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة ، واستقرار أهل النار فى النار ‥

يقول (أصحاب الجنة) يا (أصحاب النار) لقد (وجدنا ما وعدنا ربنا) على ألسنة رسله من الثواب على الإيمان به ، وطاعته ، واتباع رسله (حقا) ‥ فهل (وجدتم ما وعد ربكم) من العذاب على كفركم واستكباركم (حقا) ؟

قال (أصحاب النار) مجيبين (أصحاب الجنة) نعم وجدنا ذلك (حقا)٠

وهنا ‥ وفى هذه اللحظة :

(أذن مؤذن بينهم) منادى ، يسمعه الجميع (أن لعنة الله على الظالمين)٠

وهم (الذين يصدون) الناس (عن سبيل الله) أى : دينه (ويبغونها) أى : يريدون دين الله عوجا ، أى : منحرفة عن الحق والصواب ، بتغييرها وتحريفها٠

(وهم) فى الوقت ذاته (بالآخرة) أى : الدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب (كافرون) ٠

ويلاحظ : أنه قد اجتمع فيهم ‥ الصد عن سبيل الله ، وإرادة الإفساد ، والكفر باليوم الآخر ٠

*****

وقد يظن ظان : أن الجميع مع بعضهم البعض ‥

ولكن الحقيقة غير ذلك ٠

حيث يقول المولى مصورا هذا المشهد البديع :

{ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ }
[الآية ٤٦]

يعنى :

(وبينهما) أى : بين أصحاب الجنة وأصحاب النار (حجاب) يعنى : حاجز، يمنع وصول أثر كل من الجنة أو النار إلى الآخرى.

وهذا الحجاب : هو (الأعراف) الذى هو سور الجنة ، وهو المذكور فى قوله تعالى (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) [الحديد ١٣].

وهنا : يظهر فريق ثالث .. غير أصحاب الجنة ، وغير أصحاب النار ، وهم أهل الأعراف.

يقول تعالى (وعلى الأعراف) يعنى على هذا السور(رجال) استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم يدخلوا النار ، ولم يدخلوا الجنة بعد .

هؤلاء الرجال : (يعرفون كلا) من أهل الجنة وأهل النار (بسيماهم) أى : بعلاماتهم .. فأهل الجنة بيض الوجوه من النعيم ، وأهل النار سود الوجوه من العذاب.

(ونادوا) أى : نادى أهل الأعراف (أصحاب الجنة) قائلين لهم (أن سلام عليكم) أى : سلمتم من الآفات ودخول جهنم ، وحييتم بتحية أهل الجنة .

ثم يخبر الله تعالى عن أهل الأعراف هؤلاء بقوله :

(لم يدخلوها) بعد (وهم يطعمون) فى دخولها

*****

وبعد أن ينادى أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة ، ويسلمون عليهم ..

ماذا يحدث .. ؟

يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٤٧]

والمعنى :

(وإذا صرفت أبصارهم) أى : إذا وقعت أنظار أصحاب الأعراف من غير قصد منهم (تلقاء) جهة (أصحاب النار) ورأوا ما هم فيه .

(قالوا ربنا لا تجعلنا) فى النار (مع القوم الظالمين) أصحاب النار.

* * *

وبعد أن طلبوا النجاة من النار لأنفسهم : توجهوا باللوم والتقريع لأهل النار٠

{ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ }
[الآية ٤٨]

يعنى : (نادى أصحاب الأعراف رجالا) من أهل النار ٠٠
كانوا عظماء فى الدنيا ، فينادونهم ، وهم على السور بأسمائهم ، يا فلان ، يا فلان ٠
كيف يعرفونهم ٠٠ ؟
(يعرفونهم بسيماهم) أى : بعلاماتهم ، التى يعلمون بها فى جهنم ٠
فإذا عرفوهم ، ونادوا عليهم ٠٠
(قالوا) لهم ٠٠ تقريعا ، وتوبيخا (ما أغنى عنكم جمعكم) يعنى : لم يغن عنكم ، ويدفع عنكم العذاب ما كنتم فيه من الحراس ، أو الأصحاب ، أو الأولاد ، أو ما جمعتموه من الأقوال ، وما وصلتم إليه من الجاه والمناصب ٠
وكذلك : ما أغنى عنكم ، ودفع عنكم العذاب (ما كنتم تستكبرون) به على الناس ، وعلى الخضوع للحق ، والإيمان٠
لقد زال كل شىء ، ولم يبق لكم إلا الذل والعار والنار ٠

* * *

ثم يقول أهل الأعراف لأصحاب النار ، وهم يشيرون إلى ضعفاء المسلمين، ودعاتهم ، الذين ظُلموا ، وتحملوا الأذى ٠

{ أَهَـؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ }
[الآية ٤٩]

يعنى : (أهؤلاء الذين) احتقرتموهم ، وعذبتموهم ، و (أقسمتم) على عدم دخولهم الجنة ، وأن (لا ينالهم الله برحمة) منه ٠ ؟
انظروا إليهم ٠٠ وقد قيل لهم :
(ادخلو الجنة) بفضل الله (لا خوف عليكم) فيما هو آت (ولا أنتم تحزنون) على شىء فات ٠

* * *

وبعد أن عرف أصحاب الأعراف : أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وبعد أن نادوا على كل من الفريقين ، وتحدثوا معهما ٠

يصور الله تعالى ٠٠ بعض صرخات أهل النار ٠
فيقول :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾
[الآية ٥٠]

يعنى : (ونادى أصحاب النار) وهم فى شدة العذاب (أصحاب الجنة) قائلين لهم : قد احترقنا ، ونحن فى شدة العطش (أفيضوا علينا من الماء) الذى تشربونه ، وتتنعمون به (أو مما رزقكم الله) من الطعام٠
فيقال لهم : أجيبوهم ٠
(قالوا) أى أهل الجنة لأهل النار (إن الله حرمهما) أى : منعهما (على الكافرين)٠

*****

ثم يصف ربنا هؤلاء الكافرين بالصفات التى أدخلتهم النار ٠٠ قائلا :

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾
[الآية ٥١]

يعنى :
هؤلاء الكافرون ، هم (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) فحرموا وحللوا ما شاءوا بأهوائهم ، أو اتخذوا اللهو واللعب دينا لهم ٠
(وغرتهم الحياة الدنيا) بزخرفها ، ومتاعها ، وشغلتهم بالطمع فى طول العمر ، وحسن العيش ، ونيل الشهوات ، فنسوا الآخرة ، ولم يؤمنوا بالله تعالى ٠
لذلك :
(فاليوم ننساهم) أى : نفعل بهم فعل الناسى بالمنسى ، من عدم الاعتناء بهم، وتركهم فى النار يعذبون ٠
(كما نسوا) هم (لقاء يومهم هذا) أى نسوا العمل للقاء يومهم هذا ٠
وكذلك : نفعل بهم فعل الناسى لهم بتركهم فى عذاب جهنم ، بسبب (ما كانوا بآياتنا يجحدون) أى : ينكرون أن الآيات من عند الله ٠
وبهذا : يتبين أن الذى أدخلهم النار ٠٠ حب الدنيا ، ونسيان الآخرة ، والتكذيب بآيات الله ٠

*****

ثم يخبر تعالى أنه أعذر إلى هؤلاء الكفار ·· حيث أرسل إليهم الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ومعه القرآن ، فيه تفصيل كل شىء ·

حيث يقول جل وعلا :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
[الآية ٥٢]

يعنى :

ما عذبنا هؤلاء الكافرين ، وما نسيناهم فى العذاب ، إلا بعد أن (جئناهم بكتاب) وهو القرآن ، وقد (فصلناه) وبينا فيه ما قال الناظم :

حلال حرام محكم متشابه .:. بشير نذير قصة عظة مثل

(على علم) أى : عالمين بما فيه ، مما يصلح الخلق ويسعدهم ·

كما أنه ·· أى القرآن (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) به ، فينتفعون بما فيه·· من الهدى والرحمة ، وغير ذلك ·

فهل ·· آمنوا ··

كلا ··

* * *

ولكن ·· ماذا يمنعهم من الإيمان ، بل ماذا ينتظرون ·· ؟

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾
[الآية ٥٣]

يعنى : (هل ينظرون) أى ينتظرون (إلا تأويله) أى : إلا عاقبة ما وعد الله فيه من البعث والنشور والحساب والعقاب ، ومجازاة كل نفس بما كسبت ·

حيث إن هذه الأمور : هى التى تؤول إليها المواعيد المذكورة فى القرآن الكريم ·

على كل حال ..

(يوم يأتى تأويله) وتحدث هذه الأشياء ، كما وضح القرآن ·

(يقول الذين نسوه) أى : أهملوا القرآن ، وتركوا العمل به ، بل أنكروا أنه من عند الله (من قبل) أى وهم فى الدنيا (قد جاءت رسل ربنا بالحق) يعنى: يعترفون بذلك ·· بعد مشاهدتهم ومعاينتهم للعذاب الذى أخبروا به ، ولكن ·· لا ينفعهم هذا الاعتراف والإقرار ·

ثم يقولون متسائلين :

(هل لنا من شفعاء) عند ربنا (فيشفعوا لنا) أن يخفف عنا هذا العذاب ٠

(أو) هل (نرد) إلى الدنيا ، مرة أخرى (فنعمل) صالحا (غير الذى كنا نعمل) من الكفر والتكذيب ٠

ولكن ٠٠ هل يفيدهم هذا التحسر والندم والتمنى ٠٠ ؟

كلا ٠٠

(قد خسروا أنفسهم) وأضاعوها (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من الأكاذيب ، ويعبدون من الأصنام ٠

*****

ثم يكون النموذج على هذا الكتاب الذى فصل الله فيه بعلم ، فى آية ٠٠ تذكر بالله وقدرته عز وجل ٠
يقول تعالى :

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }
[الآية ٥٤]

والمعنى : (إن ربكم) الذى ينبغى الإيمان به ، والخضوع له ، والعمل بتشريعه : هو (الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام)٠

ويلاحظ : أنه سبحانه لو شاء لخلقهن فى لمحة ؛ لأنه هو الذى يقول للشىء: كن ، فيكون ٠٠ ولكن لم يفعل ذلك : لتعليم خلقه ٠٠ التثبت ، والتمهل والأناة فى الأمور ٠

(ثم استوى على العرش) استواءً يليق بكمال ذاته ٠

(يغشى الليل النهار) أى : يغطى كلا منهما بالآخر ، بقدرته سبحانه وتعالى ٠

(يطلبه حثيثا) أى : يطلب كلٌّ منهما – الليل والنهار – ويجرى وراء الآخر بسرعة ٠

وهو الذى خلق (الشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ) أى : مذللات ، طائعات (بأمره) أى : بقدرته٠

(ألا له) لا لغيره (الخلق) جميعا (والأمر) كله ٠

(تبارك الله) تعاظم وتمجد وارتفع (ربُّ العالمين) كلِّهم ، أى خالقهُم ، وسيدُهم ، ومربيهم ٠

*****

وبعد أن عرَّفنا ربُّنا قدرتَه وعلمه ٠٠
يرشدُنا إلى حسنِ عبادته ٠
فيقول :

{ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }
[الآية ٥٥]

يعنى : (ادعو ربكم) أى : اعبدوا ربكم (تضرعا) فى خشوع وتذلل (وخفية) أى : سرا .
(إنه لا يحب المعتدين) المجاوزين لما أمروا به ، ونهوا عنه ، فى كل شىء .

* * *

كما يرشدنا إلى عدم الإفساد ، وكذلك إلى الدعاء ؛ طلبا للرحمة .. فيقول :

{ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٥٦]

يعنى : (ولا تفسدوا فى الأرض) بالمعصية ، أو بالشرك ، أو بالظلم (بعد إصلاحها) بالطاعة ، أو بالتوحيد ، أو بالعدل .. إلخ .
(وادعوه خوفا) من عقابه (وطمعا) فى رضوانه .
والمعنى : أحسنوا .. بإصلاح البلاد ، وإسعاد العباد وطلب الرحمة من رب العالمين ، لتنالوا رحمة الله .
حيث (إن رحمة الله قريب من المحسنين).

* * *

ومن رحمته ما يتجلى فى الآية التالية :

{ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }
[الآية ٥٧]

يعنى :
(وهو) الله القادر (الذى يرسل الرياح بشرا) أى : مبشرة بمجىء المطر (بين يدى رحمته) أى : أمام الغيث ، وهو أجل نعم الله تعالى .
(حتى إذا أقلت) حملت الرياح (سحابا ثقالا) بالماء (سقناه) بقدرتنا وحكمتنا (لبلد ميت) ليس فيه ماء ؛ ولا حياة فيها .
(فأنزلنا به) أى : بهذا البلد من السحاب (الماء) فشرب أهله ، ورويت أرضه ، ودبت فيها الحياة .

(فأخرجنا به) أى : بهذا الماء (من كل الثمرات) ألوانا وأشكالا متعددة متنوعة ، بقدرتنا ٠

وهكذا ٠٠

(كذلك) الإخراج للنبات من الأرض (نخرج الموتى) من قبورهم أحياء ؛ للبعث والنشور والحساب ٠

وكان هذا المثل :

(لعلكم تذكرون) فتؤمنون بالله تعالى ، وتستعدون ليوم البعث بالعمل الصالح ٠

* * *

ثم يضرب الله مثلا للمؤمن والكافر ٠٠ بالبلد الطيب ، والبلد الخبيث ٠٠ فيقول الله عز وجل :

{ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ }
[الآية ٥٨]

والمعنى :

والمؤمن : الذى ينزل القرآن على قلبه ٠٠ فينتفع به وتظهر منه الطاعات والعبادات والأخلاق الحميدة : يشبه (البلد الطيب) الذى ينزل عليه المطر ، فـ(يخرج نباته) الحسن (بإذن ربه) ٠

وأما الكافر الذى لا ينتفع بالقرآن إذا سمعه ، بل يزيده عنادا وكفرا ، وسوء خلق : فهو يشبه البلد (الذى خبث) ترابه ، حيث (لا يخرج) نباته (إلا نكدا) بعسر وصعوبة ومشقة ٠

(كذلك) التمثيل والتقريب (نصرف الآيات) وبينها (لقوم يشكرون) الله ، فيؤمنون ٠

*****

بعد أن وضحت الآيات السابقة موقف المؤمنين ، وما أعد الله لهم من نعيم، وموقف الكافرين ، وما أعده الله لهم من عذاب ٠٠ !!

تأتى آيات تقص علينا قصص أمم أنزل الله عليها الهدى ، وتبين لنا موقف هذه الأمم من هذا الهدى ، وكيف عوقبت عندما رفضته ٠

ومن هذا القصص : قصة قوم نوح عليه السلام ٠

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }
[الآية ٥٩]

والمعنى : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله ٠

(فقال) لهم (يا قوم اعبدوا الله) وحده (ما لكم من إله غيره) يستحق أن يعبد٠
ثم قال لهم (إنى أخاف عليكم) إن ظللتم تعبدون غيره (عذاب يوم عظيم) وهو يوم القيامة ، فآمنوا ٠

* * *

فماذا كان جوابهم ٠٠ ؟

{ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٦٠]

يعنى : (قال الملأ من قومه) أى : الرؤساء ، الذين يملئون العيون أبَّهة ، والصدور هَيْبة ٠٠ فى الجواب على دعوته :
(إنا لنراك فى ضلال مبين) أى : بعيد عن الصواب والحق .
وهكذا ٠٠ فى كل عصر : يزعم الكافرون ٠٠ أن أهل الهدى فى ضلال ٠

* * *

وهنا ٠٠ رد عليهم نوح عليه السلام :

{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }
[الآيات ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣]

يعنى : (قال) لهم نوح عليه السلام مترفقا بهم (يا قوم ليس بى ضلالة) وهى أعم من الضلال ٠ وهذا : أولا ٠
وثانيا: (ولكنى رسول من رب العالمين) إليكم والرسالة تنافى الضلال ٠
وثالثا: دورى (أبلغكم رسالات ربى) إليكم ، أدعوكم فيها للإيمان به ، وتوحيده وترك ما أنتم عليه من فساد ٠
رابعا: (أنصح لكم) بالخير ، مع تعريفكم وجه المصلحة ، بخلوص نِيَّة ، ورغبة فى النجاة لكم من كل مكروه ٠
خامسا : (أعلم من الله) وعذابه (ما لا تعلمون) أنتم ؛ حيث لم تسمعوا عن قوم عذبوا قبلا ٠
ثم قال :

(أوعجبتم) أى : أصابكم العجب والاستغراب ، بسبب (أن جاءكم ذكر) وموعظة (من ربكم على رجل منكم) .

(لينذركم) ويخوفكم عذاب الله إن لم تؤمنوا ٠
(ولتتقوا) غضب الله ، بطاعته ، والإذعان لتعاليمه ٠
(ولعلكم ترحمون) إذا آمنتم بالله ، بسبب تبليغ رسالات ربى إليكم ٠

*****

ماذا كان موقف قومه من هذه الدعوة الواضحة الشفوقة ٠٠ ؟

{ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ }
[الآية ٦٤]

يعنى : لم يستجيبوا لدعوته ، بل لم يفكروا فيها أصلا ٠٠ حيث يقول ربنا بالفاء المعقبة :
(فكذبوه) أى : مباشرة وبسرعة ، واستمروا على تكذيبه فى دعوى النبوة ، وما نزل عليه من الوحى الذى بلغه إليهم ، وأنذرهم بما فيه من تهديد لهم وتخويف٠
وجاء العذاب بالطوفان ٠
(فأنجيناه والذين معه فى الفلك) أى : فى السفينة ، أنجيناهم من الغرق ٠
(وأغرقنا) فى ماء الطوفان (الذين كذبوا بآياتنا) واستمروا على هذا التكذيب، ولم يتوبوا عنه ، ويؤمنوا بالله ، ويتبعوا نوحا عليه السلام ٠
وكان ذلك العذاب ، وهذا الإغراق ..
حيث (إنهم كانوا قوما عمين) عن الحق ، لا يبصرونه وغير مستعدين لقبوله ٠
وهكذا : كانت عاقبة المكذبين من قوم نوح عليه السلام ٠٠ بالإغراق فى ماء الطوفان ٠

* * *

ومن هذا القصص :
ثانيا : قصة عاد قوم هود عليه السلام ٠
يقول تعالى :

{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ }
[الآية ٦٥]

والمعنى :

(و) أرسلنا (إلى عاد أخاهم هودا) يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله ٠
(قال) لهم (يا قوم اعبدوا الله) وحده (ما لكم من إله غيره) يستحق أن يعبد ٠
ثم قال لهم : (أفلا تتقون) الله ، وتخافون عذاب يوم عظيم ، وهو يوم القيامة ؟ فآمنوا ٠

* * *

فماذا كان جوابهم ٠٠ ؟

{ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ }
[الآية ٦٦]

يعنى : (قال الملأ) أى : الرؤساء ، الذين يملئون العيون أبَّهة ، والصدور هيبة (الذين كفروا)واستكبروا (من قومه) فى الجواب على دعوته ٠٠
(إنا لنراك فى سفاهة) أى : فى جهالة ، وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك وتتركه ، إلى دين آخر ، وتدعونا إليه أيضا ٠
(وإنا) كذلك (لنظنك) زيادة على جهالتك (من الكاذبين) فى رسالتك ، التى تدَّعيها ٠
وهكذا ٠٠ فى كل العصور : يزعم الكافرون ٠٠ أن أهل الهدى فى جهالة وتخلف ، وتفاهة عقل ٠

* * *

وهنا ٠٠ رد عليهم هود عليه السلام ٠

{ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
[الآيات ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩]

يعنى : (قال) لهم هود عليه السلام ، مترفقا بهم (يا قوم ليس بى سفاهة) كما تزعمون ، وهذا ٠٠ أولا ٠٠
ثانيا : (ولكنى رسول من رب العالمين) إليكم ، والرسالة تنافى السفاهة ، وسخافة العقل ٠
ثالثا : (أبلغكم رسالات ربى) إليكم، أدعوكم فيها ٠٠ للإيمان به ، وتوحيده وترك من أنتم عليه من فساد ٠
رابعا : (وأنا لكم ناصح أمين) أنصحكم بالخير ، وأعرفكم وجه المصلحة ، بخلوص نية ، ورغبة فى النجاة لكم من كل مكروه ٠

ثم قال :

(أوَعجبتم) أى : أصابكم العجب والاستغراب ، بسبب (أن جاءكم ذكر) وموعظة (من ربكم على رجل منكم) ؟

يا قوم ٠٠

(اذكروا) نعمة الله عليكم (إذّ جعلكم خلفاء) فى الأرض (من بعد قوم نوح) وكأنه يذكرهم – فى الوقت ذاته– بما حدث لقوم نوح لما عاندوا نبيهم ، ، وكذبوا دعوته ٠

كما أن الله تعالى (زادكم فى الخلق بسطة) أى : قوة وطولا ، ومالا ٠

لذلك :

(فاذكروا آلاء الله) نعمه ، وآمنوا به (لعلكم تفلحون) تفوزون برضوانه ، ودخول جنانه ٠

*****

ماذا كان موقف قومه من هذه الدعوة الواضحة ، الشفوفة ٠٠ ؟

{ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }
[الآية ٧٠]

يعنى : لم يستجيبوا لدعوته ؛ بل تهكموا به وبدعوته ٠

حيث (قالوا) له (أجئتنا لنعبد الله وحده) وتطالبنا أن (نذر) يعنى : نترك (ما كان يعبد آباؤنا) من الأصنام ٠

وبعد أن سخروا منه ، وأنكروا عليه ما دعاهم إليه : تحدوه قائلين :

(فأتنا بما تعدنا) به من العذاب (إن كنت من الصادقين) فى أن العذاب سينزل بنا لو لم نؤمن بربك ، ونتبع دعوتك ٠

* * *

{ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ }
[الآية ٧١]

أى : (قال) لهم هود عليه السلام (قد وقع) أى : وجب وثبت (عليكم من ربكم رجس) أى : عذاب (وغضب) يعنى : سخط منه تعالى عليكم ٠

ثم قال لهم منكرا عليهم عدم استجابتهم لدعوته ، وطلبهم العذاب ، وتحديهم له ، ومجادلتهم إياه :

(أتجادلوننى فى أسماء) أصنام ، ليس فيها من معنى الألوهية شىء ، وأنتم الذين (سميتوها) أى اخترعتموها من عند أنفسكم وأهوائكم وشياطينكم ، (ما نزل الله بها) أى بعبادتها (من سلطان) أى : دليل أو برهان لكم فى ذلك تتعللون به ، وأنتم تعبدونها ٠

ثم قال لهم مهددا ٠٠

(فانتظروا) العذاب الذى تطلبونه (إنى معكم من المنتظرين) وقوع ذلك العذاب بكم ؛ بسبب تكذيبكم ٠

وجاء العذاب ٠

وأرسلت عليهم الريح العقيم ، التى لا خير فيها ؛ حيث إنها لا تحمل المطر، ولا تلقح الشجر ٠

وأهلكتهم ٠٠ هذه الريح العقيم ، بقدرة الله تعالى ٠

* * *

أما عاد عليه السلام ٠

{ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ }
[الآية ٧٢]

يعنى : (فأنجيناه و) المؤمنين (الذين معه) من عذاب هذه الريح العقيم (برحمة منا)٠

وبهذا :

(قطعنا دابر) يعنى : أنهينا تماما على (الذين كذبوا بآياتنا) ودمرناهم عن آخرهم ، واستأصلناهم من الوجود ٠

وذلك : لأنهم (كذبوا بآياتنا) وكذلك (ما كانوا مؤمنين) أى : بسبب عدم إيمانهم بالله ٠

وهكذا ٠٠ كانت عاقبة المكذبين من عاد ، قوم هود عليه السلام ٠٠ بالريح العقيم ٠

*****

ومن هذا القصص – ثالثا – قصة ثمود ، قوم صالح عليه السلام ٠

يقول تعالى :

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ٧٣]

والمعنى :

(و) أرسلنا (إلى ثمود أخاهم صالحا) يدعوهم إلى التوحيد ، وعبادة الله ٠

(قال) لهم (يا قوم اعبدوا الله) وحده (ما لكم من إله غيره) يستحق أن يعبد منكم ٠

فعاندوه ، وكذبوه ٠٠

وظل يدعوهم ، وينصحهم ، وهو يصبر على أذاهم ٠

حتى طلبوا منه آية تدل على صدقه فى دعواه ، وهذه الآية التى طلبوها ٠٠ ناقة : يخرجها لهم من صخرة عينوها ٠

وتحققت الآية ٠٠

وخرجت الناقة ، على الوجه الذى طلبوا ٠

وهنا ٠٠

قال صالح عليه السلام لهم :

(هذه ناقة الله) بتكوينه المباشر ، بلا صلب ولا رحم ، قال لها الله كونى : فكانت ، كما ترون ٠

وهى لكم (آية) على صدقى ، كما طلبتم ٠

(فذروها) أى : اتركوها (تأكل فى أرض الله) وتشرب من ماء الله ، ولا تتعرضوا لها بمنع عن هذا أو ذاك ٠

(و) كذلك (لا تمسوها بسوء) بأذى ، أو ذبح ؛ إكراما لآية الله ٠

ولو تعرضتم لها بمنع ، أو أصبتموها بسوء (فيأخذكم عذاب أليم)٠

* * *

ثم وعظهم وذكرهم بمن كان قبلهم ٠٠

حيث قال :

{ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ }

[الآية ٧٤]

والمعنى :

(و) يا قوم (اذكروا) نعمة الله عليكم (إذْ جعلكم خلفاء) فى الأرض (من بعد عاد) قوم هود عليه السلام ٠

وكأنه – بهذا – يذكرهم بما حدث لقوم هود لما عاندوا نبيهم ، وكذبوا دعوته ٠

(و) كما أن الله تعالى (بوأكم) أسكنكم (فى الأرض) مكانا بين الحجاز والشام (تتخذون) أى : تعملون وتصنعون (من سهولها) أى : فى سهولها (قصورا) تقيمون فيها صيفا ، (وتنحتون الجبال) أى : فى الجبال (بيوتا) تقيمون فيها شتاءً ٠

(فاذكروا آلاء الله) أى : نعمه هذه ، وآمنوا به سبحانه ، واشكروه عليها٠

(ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) أى : ولا تفسدوا فى أرض الله ، وتتعبوا خلق الله ، بسبب عدم إيمانكم بالله ٠

فإذا تذكرتم نعم الله عليكم ··
ولم تفسدوا فى الأرض ·
وآمنتم بالله ·
تفوزون برضوانه ، ودخول جناته ·

*****

فماذا كان موقف قومه ·· من هذه الدعوة الواضحة الشفوقة ·· ؟

{ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ }
[الآيتان ٧٥ ، ٧٦]

يعنى : لم يستجيبوا لدعوته ، بل تندروا به ، وبدعوته·
وأكثر من هذا ·· لم يخاطبوه ، كما خاطبهم ··
حيث توجهوا بالخطاب للمستضعفين الذين آمنوا معه ·
(قال الملأ) أى : الرؤساء ، الذين يملئون العيون أبهة ، والصدور هيبة ، وهم (الذين استكبروا) وكفروا (من قومه) فى الجواب على دعوته ··
قالوا : (للذين استضعفوا لمن آمن منهم) فقط دون من كفر ، استهزاءً (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) إليكم ·· ؟
قالوا : أى المؤمنون الضعفاء ·· نعم نعلم أن صالحا مرسل من ربه،
و(إنا بما أرسل به) من ربه (مؤمنون) ·
(قال الذين استكبروا) وكفروا : لهم ·· (إنا بالذى آمنتم به) أى : بما أرسل به صالح (كافرون)·

* * *

ولم يكتفوا بالقول ، والاستهزاء فقط ·
بل أتبعوا القول الفعل ··
حيث ·· يقول تعالى عنهم :

{ فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ }
[الآية ٧٧]

يعنى : سخروا منه ، ومن الذين آمنوا معه ، وأنكروا عليه ما دعاهم إليه ، وتحدوه ٠
وجاءت الآية ، التى طلبوها ، ورأوا الناقة ، وشربوا من لبنها ٠
ولكنهم ازدادوا كفرا وطغيانا ٠٠
(فعقروا الناقة) التى قال لهم نبيهم عنها (فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء) ٠
حيث ذبحها واحد منهم ، بأمرهم ، ورضاهم٠
(و) بهذا (عتوا) تكبروا (عن أمر ربهم) ولم يؤمنوا به ، ولم يخضعوا له ٠
(و) ازدادوا عنادا وتحديا ؛ حيث :
(قالوا) لنبيهم (يا صالح) استهزاءً به ، وازدراءً لدعوته (ائتنا بما تعدنا) به من العذاب على قتلها (إن كنت من المرسلين)

* * *

وجاءهم العذاب ٠

{ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ }
[الآية ٧٨]

يعنى : (أخذتهم الرجفة) زلزلة شديدة من الأرض ، وصيحة عنيفة من السماء ٠
فماتوا جميعا ، وهم فى بيوتهم ٠
يقول تعالى :
(فأصبحوا فى دارهم) أى : فى بيوتهم (جاثمين) يعنى : باركين على ركبهم ميتين ٠

* * *

وأما صالح عليه السلام :

{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ }
[الآية ٧٩]

يعنى : (فتولى عنهم) صالح ، وتركهم موتى ، هلكى ٠
(وقال) توبيخا وتقريعا ، وليكون كلامه موعظة ودعوة باقية لمن يأتى من بعده ليعتبر :
(يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى) إليكم بالخير ، (ونصحت لكم) لتؤمنوا (ولكن) أنتم وأمثالكم (لا تحبون الناصحين) ولذلك حدث لكم ما حدث ، ونزل بكم ما نزل ، مما تستحقون لعدم إيمانكم ٠

وهكذا ٠٠
كانت عاقبة المكذبين من قوم صالح عليه السلام أن أخذتهم الرجفة ، وهى الزلزلة والصيحة الشديدتان ٠

*****

ومن هذا القصص – رابعا – قصة قوم لوط عليه السلام ٠

ويلاحظ : أن الله عز وجل بعد أن قص علينا قصة ثمود وقوم صالح ، يقص علينا بعدها – مباشرة – قصة قوم لوط مع أنه عليه السلام من المستجيبين لإبراهيم عليه السلام ، الذى لم تذكر الآيات قصة قومه ، بل تدخل مباشرة إلى قصة قوم لوط ٠

ذلك : حيث إن السورة ٠٠ تتحرى – كما يقول صاحب الظلال عليه رحمة الله – مصارع المكذبين ، وقوم إبراهيم ٠٠ لم يهلكوا ؛ لأنه لم يطلب من ربه هلاكهم ، بل اعتزلهم وما يعبدون ٠

فإلى قصة لوط عليه السلام ٠

يقول تعالى :

{ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ }
[الآية ٨٠]

يعنى : (و) أرسلنا (لوطا) إلى قومه ٠٠ يدعوهم إلى التوحيد ، وعبادة الله، وترك الفاحشة ٠

(إذ قال لقومه) مستنكرا عليهم فعلهم ، يا قوم (أتأتون الفاحشة) فى أدبار الرجال ، وهى فعلة سيئة قبيحة (ما سبقكم بها) أى : ما عملها قبلكم (من أحد) أبدا (من العالمين) من الإنس والجن ٠

* * *

ثم قال لهم :
أنتم أول من فعلها ، حيث :

{ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ }
[الآية ٨١]

يعنى : إنكم تجامعون الرجال (شهوة) بهيمية (من دون النساء) اللائى هن محل الشهوة الحقيقية ٠

هذا منتهى التوبيخ على هذا الفعل الخبيث ؛ لأن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان ، وركب فيه شهوة النكاح ؛ لبقاء النسل ، وعمران الدنيا ، وجعل النساء محلا للشهوة ، وموضعا للنسل ٠٠ فإذا تركهن الإنسان ، وعدل إلى غيرهن من الرجال : فكأنما أسرف فى ظلمه وبغيه ؛ لأنه وضع الشيء فى غير محله ٠

لذلك قال :
(بل أنتم قوم مسرفون) متجاوزون الحلال إلى الحرام ٠

*****

فماذا كان جوابهم ٠٠
يقول تعالى :

{ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ }
[الآية ٨٢]

يعنى : لم يكن (جواب قومه) المستكبرين ، عليه (إلا أن قالوا) لبعضهم لبعض (أخرجوهم) أى : لوطًا ومن معه على دينه (من قريتكم) حيث إنهم (أناس يتطهرون) ٠
وقد قالوا ذلك : تجبرا وطغيانا واستهزاءً٠
وهذه طبيعة المستكبرين : يهزءون من أهل الطهر ، والصلاح ، ويأمرون بإبعادهم عن مواقع التأثير والإصلاح ٠

* * *

وكتب الله عليهم العذاب والهلاك ٠
ولكنه : نجا لوطا والذين آمنوا معه من هذا العذاب ٠
حيث يقول :

{ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ }
[الآية ٨٣]

يعنى : (فــ) لما جاء العذاب ، ونزل بقوم لوط – كما سيأتى عنه الحديث – (أنجيناه) أى : لوطا عليه السلام (وأهله) وهما فقط ابنتاه (إلا امرأته) الكافرة ٠
يا ألله ٠٠ ماذا حدث لها ٠٠ ؟
(كانت من الغابرين) أى : الباقين فى العذاب ٠

* * *

ولكن ٠٠ ما هذا العذاب الذى نزل بقوم لوط ٠٠ ؟
يقول تعالى :

{ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ }
[الآية ٨٤]

يعنى : (وأمطرنا عليهم) من السماء (مطرا) عجيبا ، بينه الله تعالى فى آية أخرى بقوله : (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود) [هو ٨٢]٠
(فانظر) أيها العاقل ، واعتبر بحالهم ، وابتعد عن أفعالهم (كيف كان عاقبة المجرمين) ؟
وهكذا ٠٠
كانت عاقبة (المجرمين) من قوم لوط عليه السلام ، أن أمطر الله عليهم (حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد)
[هود ٨٢ ، ٨٣]

*****

ومن هذا القصص – خامسا – قصة أهل مدين ، قوم شعيب عليه السلام ٠
يقول تعالى :

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ٨٥]

والمعنى : (و) أرسلنا (إلى مدين أخاهم شعيبا) ٠
(قال) لهم (ياقوم اعبدوا الله) وحده (ما لكم من إله غيره) يستحق أن يعبد منكم ٠
فعاندوه ، وكذبوه ٠
وظل يدعوهم ، وينصحهم ، وهو يصبر على أذاهم ٠
حتى طلبوا منه آية تدل على صدقه فى دعواه ٠
وتحققت الآية ٠٠ وجاءت ٠
وقال لهم :
(قد جاءتكم بينة من ربكم) أى : آية ، معجزة ، بينة واضحة على صدقى لكم ، وكل رسول له معجزة ، أو معجزات ٠
ولكن القرآن الكريم : لم يبين هذه الآية ، وسكت عنها ، ونحن بدورنا نسكت عما سكت عن بيانه القرآن ٠

ثم قال لهم :

(فأوفوا الكيل والميزان) أى : أتموه فيما بينكم ؛ حيث كانت عادتهم ٠٠ نقص الكيل والميزان ، وهى آفة خطيرة ٠

(ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أى : لا تنقصوا الناس حقوقهم وأقدارهم ، حيث كانت هذه عادتهم ، بخس الحقوق ، وهى : آفة خطيرة ٠

(ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) بالكفر والمعاصى ، والظلم والسرقات ٠٠ إلخ ؛ حيث كانت هذه عادتهم ، الإفساد فى الأرض ، وهى آفة – كذلك – خطيرة ٠

(ذلكم) المذكور (خير لكم إن كنتم مؤمنين) أى : إن أردتم الإيمان ، فبادروا إليه ، والتزموا بهذه التعاليم ٠

* * *

ثم قال لهم كذلك :

{ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }
[الآية ٨٦]

يعنى : (ولا تقعدوا بكل صراط) طريق (توعدون) تخوفون من يريد شعيبا، وتقولون له : إنه كذاب ارجع حتى لا يفتنك عن دينك ، فإن لم ترجع ، وآمنت به : قتلناك ٠

وبذلك كنتم (تصدون عن سبيل الله من آمن به) وتصرفونهم عن الإيمان٠

(وتبغونها) أى : الطريق إلى الله (عوجا) معوجة منحرفة ٠

(واذكروا) يا قوم نعمة الله عليكم (إذ كنتم قليلا) عددكم (فكثركم) الله ، وبارك فى نسلكم ، حتى كثرت أعدادكم ، لتؤمنوا به وتشكروه على هذه النعمة ٠

(وانظروا) ياقوم (كيف كان عاقبة المفسدين) وهى الهلاك والدمار ؛ لتعتبروا ، فتؤمنوا ، ولا تفسدوا ؛ فينجيكم الله من الفساد وأخطاره ٠

* * *

ثم قال لهم مهددا :

{ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }
[الآية ٨٧]

يعنى : إن كانت الدعوة التى أتيتكم بها ، ودعوتكم إليها ·· انقسم الناس فيها فريقان : طائفة آمنت ، وطائفة لم تؤمن ·

(فاصبروا) وانتظروا (حتى يحكم الله بيننا) أى بين الفريقين ، فيظهر المحق من المبطل ·

(وهو خير الحاكمين) لأن حكمه عدل وحق ·

وفى الآية : بيان أن الدعوة تقسم الناس ، أو ينقسم معها الناس ، إلى فريقين ·· أهل حق ، وأهل باطل ·

كما أن الآية فيها : وعد للمؤمنين بالفوز والنصر ، ووعيد للكافرين بالخسران والهزيمة ·

***** فماذا قال الملأ من قومه ·· ؟
وماذا كان موقفهم ·· ؟

{ قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ }
[الآيتان ٨٨ ، ٨٩]

يعنى : لم يستجيبوا لدعوته ، ولم يردوا على حجته ، بل لجئوا إلى التخويف والتهديد ·· حينما عجزوا عن الرد ، وبَعُدوا عن الهداية ·

حيث (قال الملأ) أى : الرؤساء والكبار فيهم ، الذين يملئون العيون أبَّهة ، والصدور هيبة ، وهم (الذين استكبروا) وكفروا (من قومه) فى الجواب على دعوته ·· أمامك واحد من أمرين :

(لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) وتبتعدون عنا بدعوتكم هذه ·· !!

(أو لتعودن فى ملتنا) إن أردتم العيش بيننا ، والبقاء على ديننا ··!!

قال لهم شعيب عليه السلام ·· أتخرجوننا من ديارنا ، أو تجعلوننا نكفر معكم ·· حتى ولو كنا كارهين لهذا وذاك ·· ؟

ثم أضرب صفحا عليه السلام عن الرد على قضية الطرد من الديار ، واهتم بقضية كفرهم ، حيث قال (إن عدنا فى ملتكم) أى : كفرنا مثل كفركم (بعد إذّ نجانا الله منها) وهدانا إلى الإيمان ، فـ(قد افترينا على الله كذبا)·

وفوق كل هذا ·· ما يتصور أبدا ، وما يصح ، وما ينبغى ، (وما يكون لنا أن نعود فيها) بحال من الأحوال ، ولا فى وقت من الأوقات (إلا أن يشاء ربنا) ذلك ؛ حيث إن الكائنات كلها بمشيئته سبحانه ، خيرها وشرها ·

(وسع ربنا كل شيء علما) أى : هو عالم بكل شيء ، وعلمه محيط بكل شيء ، فهو يعلم أحوال عباده ·· كيف تتحول ، وقلوبهم كيف تتقلب ·· ومرد الأمر كله إليه ·

(على الله توكلنا) فى أن يثبتنا على الإيمان ، ويحمينا من كيد الأعداء ·

ثم أعرض عنهم وتوجه إلى ربه عز وجل قائلا :

ربنا (افتح) أى : احكم بيننا وبين قومنا بنصرك وعدلك ، (وأنت) يا ربنا (خير) الحاكمين ·

* * *

ولما عجز الكفار عن مناقشة شعيب عليه السلام ، وأغلقوا فى ذات الوقت آذانهم عن دعوته : اتجهوا إلى عامة الشعب فيهم ؛ يحذرونهم من شعيب عليه السلام ٠

قال تعالى :

{ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ }
[الآية ٩٠]

أى : قال الكبار منهم ، والرؤساء فيهم ، الذين يملئون العيون أبهة ، والصدور هيبة ، وهم (الذين كفروا من قومه) ٠٠ لعامة الشعب ، (لئن اتبعتم شعيبا) وآمنتم بدعوته ، وتركتم ديننا ، وما نحن فيه (إنكم إذا لخاسرون) ما أنتم فيه من مكاسب مادية ٠

وهكذا ٠٠

عاند الكبار والرؤساء ٠٠ ولم يؤمنوا ٠٠ !!

وطغى الكبار والرؤساء ٠٠ فصدوا غيرهم عن الإيمان ٠٠!!

ورضى الكبار والرؤساء ، والأتباع ٠٠ بالكفر الذى هم عليه ، والضلال الذى هم فيه ، ولم يتبعوا دعوة نبيهم ٠

* * *

فماذا حدث لهم ؟

{ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ }
[الآية ٩١]

يعنى : فأخذتهم الزلزلة ، فأهلكتهم ، سريعا سريعا ، (فأصبحوا فى دارهم) ميّتين٠

* * *

وبهذا الشكل ٠٠ وبهذه السرعة ، وبهذا العدل ٠٠ صار :

{ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ }

[الآية ٩٢]

يعنى : صار (الذين كذبوا شعيبا) ولم يؤمنوا بدعوته ، من الكبار والرؤساء والأتباع ، بعد هلاكهم ٠٠ كأن لم يكونوا أصلا ، ولم يقيموا فى هذه الديار قبلا٠

صحيح ٠٠

(الذين كذبوا شعيبا) ولم يؤمنوا بدعوته ، من الكبار والرؤساء والأتباع ٠٠ (كانوا هم الخاسرين) لا من اتبعه وآمن به٠

* * *

وبعد أن نزل العذاب بقوم شعيب ، وبعد هلاكهم ؛ نظرا لكفرهم : يبدو أن سيدنا شعيبا عليه السلام حزن على عدم إيمان قومه ٠

{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ }
[الآية ٩٣]

يعنى : أعرض عنهم ، (وقال) فى نفسه (يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى) لتؤمنوا بها (ونصحت لكم) حتى لا يصيبكم العذاب٠

ولكنكم : كفرتم بــ(رسالات ربى) ولم تنتفعوا بنصحى ؛ فأصابكم العذاب ، لكفركم ٠

وينبغى أن لا أحزن عليكم ٠٠ وإلا (فكيف آسى) أى : أحزن (على قوم كافرين) ٠٠ ؟!!

*****

أيها القارىء الكريم ٠٠

بعد أن قص الله تبارك وتعالى علينا – كما قرأنا – ما فعله بأقوام نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، عليهم السلام : يعقب– سبحانه وتعالى – بتعقيب يوضِّح فيه سنتَّه فى المكذبين ، ويخوِّف به أهلَ الكفر على مدار الزمان٠

حيث يقول عز من قائل :

{ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ }
[الآية ٩٤]

يعنى : لم نرسل فى (قرية) أى : مدينة ، نبيا ، يدعو أهلها للإيمان بالله رب العالمين ، فكفروا ، وتكبروا ، ولم يتبعوا نبيهم ، ولم يؤمنوا بربهم (إلا أخذنا أهلها) أى : أهل هذه المدينة ، (بالبأساء) أى : بالبؤس والفقر (والضراء) من متاعب وأمراض ٠

وذلك (لعلهم يضرعون) إلى ربهم ، ويتخلوا عن الكفر والكبر ٠

* * *

{ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ }
[الآية ٩٥]

يعنى : بعد أن عاملناهم بالشدة والمحنة : نعاملهم بالرخاء والنعمة ٠٠

(ثم بدلنا مكان السيئة) وهى كل ما يسوؤهم (الحسنة) وهى كل ما يسرهم ؛ اختبارا لهم ؛ ليؤمنوا ، ويشكروا ٠٠!!

(حتى عفوا) أى : كثروا ، وتحسنت أحوالهم ، ونمت أموالهم ٠٠

فماذا فعلوا ٠٠ ؟ هل آمنوا ٠٠ ؟

كلا ، بل (قالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) ٠

أى : هذه عادة الدهر ، وطبيعة الأيام ، يوم لك ويوم عليك ، وما هذا التحول بين الضراء والسراء بعقوبة ولا اختبار ٠٠ !!

ولا رب هناك ، ولا رسول يطاع ، ولا إيمان يكون ٠٠ !!

يقول رب العزة :

(فأخذناهم) أى : بالعذاب (بغتة) أى : فجأة (وهم لا يشعرون) بوقت نزوله٠

*****

ثم يبين المولى – فى هذا التعقيب – العلاقة بين الإيمان ومعاملة الله لأهله ٠٠

هذه العلاقة : التى قد تخفى على الكثيرين ؛ لأن آثارها قد لا تظهر فى المدى القريب ، وإن كانت واقعة لا محالة ، ولو على المدى البعيد ٠٠

حيث يقول :

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ }
[الآية ٩٦]

يعنى : (لو أن أهل) البلاد (آمنوا) بالله ورسله (واتقوا) الشرك ، وابتعدوا عن الذنوب والمعاصى : (لفتحنا عليهم بركات) أى : خيرات (من السماء والأرض) يعنى : من كل جهة ٠
(ولكن كذبوا) بالله وآياته ورسله (فأخذناهم) عاقبناهم (بما كانوا يكسبون) بسبب كفرهم ، وسوء فعلهم ٠

* * *

ثم يكون التذكير بمصارع المكذبين ، والتهديد الإلهى ، الذى يهز القلوب ، ويوقظ الغافلين ٠٠
فى قوله تعالى :

{ أفَأمِنَ أهْلُ القُرَى أن يَأتِيَهُمْ بَأسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أوَ أمِنَ أهْلُ القُرَى أن يَأتِيَهُمْ بَأسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أفَأمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ * أوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرْضَ مِن بَعْدِ أهْلِهَا أن لَوْ نَشَاء أصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ }
[الآيات ٩٧ – ١٠٠]

يعنى : هل أمِنَ الكافرون من أهل البلاد ٠٠ أن يأتيهم عذابُنا ليلا ، وهم نائمون ٠٠ ؟
أو : أمِنَ الكافرون من أهل البلاد ٠٠ أن يأتيهم عذابُنا نهارا وهم لاهون بأعمالهم التى لا تنفعهم عن الإيمان شيئا ٠٠؟
هل أمِنوا مكرَ الله بهم ، وأخْذَهم بالعذاب من حيث لا يشعرون ٠٠ ؟
إن كان كذلك ٠٠ فقد خسروا ٠٠ إذّ لا يأمَنُ عذاب الله إلا الكافرون، الذين خسروا أنفسهم ، حتى صاروا إلى النار ٠٠!!
ثم ٠٠
أو لم يتبين (للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) ويَخْلُفونَهم فيها (أن لو نشاء أصبناهم) أى : عذَّبناهم (بذنوبهم) كما عذبنا من قبلهم ، وبذلك : نهلك – بقدرتنا – الوارثين ، كما أهلكنا الموْرُوثين ٠٠؟
على كل حال ٠٠
نحن (نطبع) أى : نختم على قلوب الكافرين (فهم) لا يتعظون ، و (لا يسمعون) أخبار الأمم السابقة ، سماع تدبر وتعقل وإفادة ٠

* * *

وينتهى هذا التعقيب الإلهى ٠٠ بلفت نظر الحبيب صلى الله عليه وسلم ٠٠ إلى : تلخيص لأمْر الأقوام التى تعطَّلت فطرتُها ، وغَفلتْ قلوبُها ، وكذَّبت رُسُلَها ، وكفَرَت بربّها٠
حيث يقول له :

{ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ }
[الآيتان ١٠١ ، ١٠٢]

يعنى : هذه القرى ، التى هى قرى قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ٠٠ نقص عليك – تثبيتا لك ، وتحذيرا للمكذبين – بعضَ أنبائها ، هنا فى هذه السورة ، وبعضَ أنبائها فى سور أخرى من سور القرآن الكريم ٠

هؤلاء جاءتهم رسلُهم بالمعجزات ؛ فكذبوا بها ، ولم يؤمنوا ، واستمروا على هذا التكذيب إلى آخر أعمارهم ؛ حيث إنه طُبع وخُتم على قلوبهم ، فلم يصل إليها هدى ولا إيمان ٠

(كذلك) أى : مثل هذا الختم على القلوب (يطبع الله على قلوب الكافرين) به، وبدعوة رسله عليهم السلام ؛ لِمَا علم الله منهم أنهم يختارون الثبات والاستمرار على هذا الكفر ٠

هذا ٠٠

(وما وجدنا) لأكثر الناس ، ومنهم أهل هذه القرى (من عهد) يستمسكون به، ويثبتون عليه ٠٠ ولكنه : الهوى المتقلب ، والطبيعة التى لا تصبر على تكاليف العهد ، ولا تستقيم على صواب ٠

(وإن وجدنا) أى : ولكن وجدنا (أكثرهم لفاسقين) منحرفين عن دين الله ٠

*****

أيها القارئ الكريم ٠٠

بعد هذا التعقيب – الذى عشنا معه – على مصارع المكذبين من : قوم نوح، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب٠

يأتى الحديث ٠٠ عن : قصة موسى عليه السلام ، مع فرعون وملائه أولا، ثم مع قومه بنى إسرائيل أخيرا ٠٠

ويلاحظ : أن قصة موسى عليه السلام ٠٠ تشغل فى هذه السورة ، أوسع مساحة ، وأكبر قدر شغلته فى سورة واحدة من سور القرآن كلها٠

ويبدأ الحديث عن قصة موسى عليه السلام ، على النحو التالى ٠٠

قال الله عز وجل :

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }
[الآية ١٠٣]

يخبر ربنا – سبحانه وتعالى – أنه بعث موسى عليه السلام ، بعد هلاك هذه الأمم المكذبة ، بعثه إلى فرعون مصر وقومه بالآيات البينات والحجج الواضحات ؛ ليؤمنوا بالله رب العالمين ٠

ولكنهم (ظلموا) أى : كفروا ، وظلموا الناس ٠٠ حين صدوهم عن الإيمان بالله رب العالمين ، واتباع أنبيائه المرسلين ٠

(فانظر) يا محمد ، ويا كل من يقتدى به ، ويتابعه ، ويعتبر بمصارع المكذبين (كيف كان عاقبة المفسدين) الذى كفروا ، وكذبوا ، وصدوا عن سبيل الله؛ حيث كانت نهايتهم : الغرق ٠

*****

ثم يبدأ المولى فى تفاصيل قصة موسى عليه السلام ٠٠
فيقول :

{ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآية ١٠٤]

أى : (قال موسى) حين بعثه الله إلى فرعون (يا فرعون إنى رسول) إليك (من رب العالمين) لتؤمن به ، وتتبع تعاليمه ٠

* * *

ثم قال له تقوية لكلامه ، وتوضيحا لقضيَّته :

{ حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ }
[الآية ١٠٥]

يعنى : جدير بى ، ولا يليق منى أن (أقول على الله إلا الحق) ٠
حيث (قد جئتكم) أنتَ وقومَك ٠٠ بآية واضحة (من ربكم) دلالة على صدقى معكم ٠
لذلك (أرسل معى بنى إسرائيل) وأطلق سراحهم ؛ حتى يذهبوا معى راجعين إلى الأرض المقدسة ٠

* * *

فماذا فعل فرعون ٠٠ ؟

{ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }
[الآية ١٠٦]

أى : (قال) فرعون لموسى عليه السلام (إن كنت جئت بآية) كما تدعى من عند من أرسلك (فأت بها) إلىَّ ، وأظهرها أمامى ، لتُثْبت بها دَعْواك ، وأصَدِّقَكَ فيما تريد (إن كنت من الصادقين)٠

* * *

ماذا فعل موسى عليه السلام ٠٠ ؟

{ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ }
[الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨]

يعنى : أجاب موسى عليه السلام فرعون فورا ، لمَّا قال له (فأت بها) أى : هذه العلامة التى تدعيها على صدقك ٠

(فألقى عصاه) من يده ، أمام فرعون وملائه (فإذا هى) فى الحال ٠٠ تتحول – بقدرة الله تعالى – إلى (ثعبان مبين) حية عظيمة واضحة ٠

ثم ٠٠ (نزع يده) أخرجها من جيبه (فإذا هى) فى الحال ٠٠ (بيضاء) بياضا عجيبا ، خارجا عن العادة ، فيه نور واضح (للناظرين) من غير مرض بها، ولا برص فيها ٠

* * *

وهنا ٠٠ يتفق فرعون مع من حوله من بطانته على إطفاء نور آيته ، وإفساد حجته ٠
حيث ٠٠

{ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ }
[الآيتان ١٠٩ ، ١١٠]

أى : قالوا هذا ساحر ماهر ، عليم بفنون السحر ٠
وهو (يريد) بسحره هذا (أن يخرجكم من أرضكم) مصر ، ويستولى عليها هو ، ويستأثر بكنوزها وخيراتها هو ٠٠ !!
وهنا ٠٠ قال فرعون لبطانته : فبماذا تشيرون علىَّ ؟

*****

وفكرت البطانة وقدَّرتْ ، ثم نظرتْ ، ثم عَبَسَتْ وبَسَرَتْ ، ثم أدْبرتْ واستكبرتْ ٠

{ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ }
[الآيتان ١١١، ١١٢]

أى : (قالوا) لفرعون (أرجه وأخاه) اى : احبسه وأخاه هارون ، ولا تقتله (وأرسل فى المدائن) جندك (حاشرين) جامعين للسحرة ، وسوف (يأتوك بكل ساحر عليم) ماهر ، يكشف سحره للناس ، ويبين كذبه للخلق أجمعين ٠

* * *

وأرسل فرعون جنوده لجمع السحرة من البلاد ٠٠

{ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ }
[الآية ١١٣]

يعنى : (جاء السحرة) من بلادهم ، لبلاط فرعون ، وعلموا بالقصَّة ، وعرفوا أهميتهم ، ومدى الحاجة إلى سحرهم ٠
لذلك (قالوا) لفرعون (إن لنا لأجرا) كبيرا عظيما ، إنْ غَلَبْنا موسى فى سحره بِسِحْرنا ٠

* * *

ولرغبة فرعون فى النصر على موسى ، وإبطال سحره :

{ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ }
[الآية ١١٤]

أى : (قال) لهم فرعون (نعم) لكم ما أردتم ٠٠ وفوق ذلك : تكونون من (المقربين) لى ، المنعمين بعطائى ٠

* * *

ولما اطمأن السحرة إلى وعد فرعون ، وداعَبت خيالهم ميزات القرب منه، وكثرة عطاياه لهم : اتجهوا إلى موسى عليه السلام ، فى تحدٍّ وعناد ٠

{ قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ }
[الآية ١١٥]

أى : (قالوا) لموسى (يا موسى إما أن) تبدأ أنت ، و (تلقى) عصاك ، كما فعلت أمام فرعون (وإما أن) نبدأ و(نكون نحن الملقين) لما معنا ٠

*****

وهنا ٠٠ أراد موسى : أن يظهر للناس بطلان سحرهم بعد أن يَنْدَهِشوا به ٠٠ ثم تأتى عليه المعجزة فتسْحَقه وتَمْحَقه ٠٠
حيث ٠٠

{ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ }
[الآية ١١٦]

أى : (قال) موسى للسحرة (ألقوا) ما معكم ؛ ازدراء لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم وبسحرهم ٠
(فلما ألقوا) أى : السحرة ، ما معهم من الحيل (سحروا أعين الناس) يعنى: صرفوها عن حقيقة إدراكها بالحيل والشعوذة ، (واسترهبوهم) أى : أخافوهم ؛ حيث ٠٠ خَيَّلوها حيات تسعى ، وتتجه نحو الجماهير التى خافت جدا ٠
(وجاءوا) فى أفعالهم هذه (بسحر عظيم) عندهم ، وفى أعين الناس ، وإن كان فى نفسه حقيرا تافها ٠

(فأوجس فى نفسه خيفة موسى) [طه ٦٧]
(قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) [طه ٦٨]

*****

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ }
[الآية ١١٧]

يعنى : فألقى موسى عصاه من يده ، فإذا هى حية تسعى ، وإذا هى (تلقف) أى : تبتلع آلاتهم ، وأدواتهم ، التى يدعونها سحرا ، و (يأفكون) على الناس ٠٠ أى : يكذبون عليهم بها ٠

{ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ١١٨]

أى : بعصى موسى ٠٠ أصبح الحق واقعا ، ماثلا للعيان ، يراه الجميع، وأما ما فعله السحرة ، وما كانوا يدعونه ، ويعيشون عليه ، ويكذبون على الناس به : فقد ظهر بطلانه ٠
وأول من أدرك ذلك : هم السحرة أنفسهم ٠
ولهذا يقول المولى :

{ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ }
[الآية ١١٩]

يعنى : غلبوا على أمرهم ، وشعروا بهوانهم (وانقلبوا صاغرين) أمام آية الله تعالى ، التى آمنوا بصدقها ٠
ولذلك : وقعت الواقعة ٠٠

{ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ }
[الآية ١٢٠]

وليس لفرعون ، كما كانوا يفعلون قبلا ، بل :

{ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآية ١٢١]

وحتى لا يظن فرعون أو غيره ٠٠ أنهم يقصدونه بقولهم : (رب العالمين)٠٠
فقد بينوا للحاضرين ، وللدنيا كلها : من الذى يقصدون ؟ .
حيث قالوا :

{ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ }
[الآية ١٢٢]

إذّ ٠٠ أن ما رأيناه لا يكون من بشر ، بل هذا فعل رب البشر ٠
نعم ٠٠ فعل رب موسى وهارون ٠٠!!

* * *

وهنا ٠٠ جن جنون فرعون ٠٠!!

{ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ }
[الآية ١٢٣]

أى : لابد لمن أراد الإيمان بموسى ٠٠ أن يحصل على إذن منى ، وقد (آمنتم به قبل أن آذن لكم) ٠
قمة الكبرياء ٠٠ !!
وقمة الطغيان ٠٠!!
ثم لم يحقق معهم ، ولم يسألهم عن السبب لما فعلوا ٠٠
بل ألقى التهمة عليهم ، ولفق القضية لهم ٠٠
حيث قال (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها)٠
وهدد وتوعد ٠٠ قائلا (فسوف تعلمون) ما سأفعله بكم وبأمثالكم ؛ حتى يرجعوا عن إيمانهم بـــ (رب موسى وهارون) ٠٠!!

* * *

ولما لم يرجعوا ٠٠
ولما ثبتوا على إيمانهم ٠٠
قال :

{ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ }
[الآية ١٢٤]

أى : لأقطعن منكم اليد اليمنى مع الرجل اليسرى ، واليد اليسرى مع الرجل اليمنى ٠
وبعد ذلك (لأصلبنكم أجمعين) بدون استثناء على جذوع النخل ٠
وهذا : تهديد مخيف ، تنخلع له القلوب ، وتطير منه الأفئدة ٠

ولكن المؤمنين : يثبتهم الله ، ويهون عليهم الآلام ، بل يجعلهم – بقدرته – يستعذبون آلام الدنيا للنجاة من آلام الآخرة ٠

حيث نرى : أن السحرة ٠٠

{ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ }
[الآية ١٢٥]

يعنى : نحن لا نبالى بتهديدك وتعذيبك ؛ لأنا صائرون إلى رحمة ربنا سبحانه وتعالى ٠

ثم قالوا له :

{ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ }
[الآية ١٢٦]

أى : نحن نعرف جيدا أن تهديدك لنا ، وتعذيبك إيانا ، ليس لشىء إلا (أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) ٠

ولذلك : لن نتخلى عن إيماننا هذا ٠٠ مهما فعلت بنا ٠٠

ثم أهملوه ، وتركوا النقاش والكلام معه ٠٠

وتوجهوا إلى ربهم قائلين :

يا ربنا ٠٠ هب لنا منك صبرا واسعا ، وأكثره علينا ، حتى يفيض ويغمرنا٠

وثبتنا على إيماننا ، حتى (توفنا مسلمين) لك ، غير مفتونين ، بسبب وعيد وتهديد وتعذيب هذا الطاغية ٠٠ فرعون ٠

* * *

وبهذا انتهى الكلام عن هؤلاء السحرة – الذين آمنوا بالله رب العالمين – فى هذه السورة ٠

فهل انتهت قصة موسى عليه السلام نفسه مع فرعون ؟

لا ٠٠ لم تنته بعد ٠٠

حيث إن بطانة فرعون وحاشيته، والمنتفعين برفقته ٠٠ صاروا يحرضون طاغوتهم على موسى عليه السلام ٠

اقرأ قوله تعالى :

{وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ }
[الآية ١٢٧]

قالوا لفرعون : أتترك موسى وقومه ، بعد هذه الجولة التى انتصر فيها عليك (ليفسدوا فى) أرض مصر ، بالاستعلاء والتكبر عليك ، وتغيير دين الناس (ويذرك) ويترك احترامك والخضوع لك ، والمذلة بين يديك ، ولا يعبد (آلهتك)٠٠؟

وقد أثر هذا الكلام فى فرعون ٠٠

حيث ٠٠

سنفعل بهم ما كنا نفعل من قبل (سنقتل أبناءهم) الذكور (ونستحيي نساءهم) لخدمتنا٠

وعلى كل : لا تخافوا فالأمن مستتب ، وكل شيء تحت سيطرتنا ، (وإنا فوقهم قاهرون) أى : قادرون وغالبون٠

* * *

وبلغ هذا الكلام ٠٠ موسى عليه السلام وقومه ٠٠

وخاف قومه ٠٠

فماذا فعل ٠٠ ؟

{ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }
[الآية ١٢٨]

يعنى : طلب منهم ٠٠ الاستعانة بالله تعالى ، والصبر على تحمل مشاق الدعوة إلى الله ، وإيذاء فرعون لهم ٠

ثم وعدهم بميراث أرض مصر والشام : إذا اتقوا الله ، وثبتوا على إيمانهم ومبادئهم ٠

* * *

ولكنهم ٠٠

مع ذلك : اشتكوا لموسى ٠٠

{ قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ }
[الآية ١٢٩]

أى : (قالوا) لموسى ٠٠ لقد (أوذينا) من فرعون وقومه (من قبل أن تأتينا) وزاد إيذاؤهم لنا (من بعد ماجئتنا) ٠٠

فمتى النصر ٠٠ والحال يزداد سوءا ٠٠ ؟

أجاب موسى قومه ٠٠

(قال) اصبرو (عسى ربكم) نتيجة صبركم واستعانتكم به (أن يهلك) فرعون (عدوكم) ٠

ثم (يستخلفكم فى الأرض) من بعده ٠

وسوف يكون هذا : اختبارًا لكم ، فى حسن خلافتكم من بعده ، حيث (ينظر) ربكم (كيف تعملون) آنذاك ؟

هل تحسنون ٠٠؟ أو تسيئون ٠٠ ؟

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠

وبعد أن حض موسى قومه على الصبر ، والرجاء الحسن ٠٠

بدأت العقوبات الإلهية : تتوالى على فرعون ؛ انتصارا لموسى عليه السلام وقومه ، ووعظا لفرعون وقومه ٠

تعالوا بنا نعرف ٠٠ ماذا حدث لفرعون وقومه ٠٠؟

يقول رب العزة :

{ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }
[الآية ١٣٠]

يعنى : ولقد ابتلينا (آل فرعون) وهم المصريون ، (بالسنين) وهى : الجدب والقحط والمجاعة بسبب عدم نزول الأمطار ، وكذلك بنقص الثمرات ٠٠ يعنى إتلاف الغلات والثمار بالآفات ؛ لعلهم يتعظون ، فيؤمنون ٠

ولكنهم ٠٠ كانون كغيرهم من أهل الكفر ٠

{ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ١٣١]

يعنى : كانوا يتمادون فى الكفر والضلال ، ولا يردون الفضل لله تعالى ٠

(فإذا جاءتهم الحسنة) وهى : الخصب والغنى ٠٠ (قالوا) هذه حق واجب لنا نستحقه ٠

(وإن تصبهم سيئة) أى : قحط ومجاعة ٠٠ (يطَّيَّروا) يعنى : يتشاءموا بموسى عليه السلام ومن معه ، وكأنهم هم السبب ٠

(ألا إنما طائرهم عند الله) أى : الحقيقة ·· أن سبب خيرهم وشرهم عند الله تعالى ؛ حيث إنه وحده الذى يقدر ما يصيبهم من حسنة أو سيئة (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك ؛ لجهلهم وكفرهم ·

* * *

{ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ }
[الآية ١٣٢]

أى : قالوا لموسى ·· بالرغم من هذه الابتلاءات والمجاعات ، وحتى (مهما تأتنا به من آية) من آياتك (لتسحرنا بها) حتى نؤمن لك (فما نحن لك بمؤمنين) ·

* * *

ولعنادهم هذا ··
سلط الله عليهم عذابه ·
حيث يقول :

{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ }
[الآية ١٣٣]

أى : سلطنا عليهم هذه الآيات الخمس الواضحات ؛ ليؤمنوا : ولكنهم ·· استكبروا وعاندوا ولم يؤمنوا (وكانوا قوما مجرمين) فى إيذائهم لله ولرسوله وللمؤمنين ·

* * *

وقد يمكرون مع كل آية تنزل عليهم من هذه الآيات ·
قال تعالى :

{ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ }
[الآية ١٣٤]

يعنى : كانوا كلما وقع عليهم (الرجز) وهو العذاب الحاصل من كل آية من هذه الآيات ٠٠ (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) أى : بما بينك وبينه من صلة وعهد ٠٠ أن يكشف عنا ما نحن فيه (ولئن كشفت عنا) بدعائك هذا (الرجز) الذى نزل بنا (لنؤمنن لك ولنرسلن معك) كما تطلب (بنى إسرائيل) ٠

* * *

وهنا : يدعو موسى ربه ٠٠ أن يحقق ما طلبوا ، حتى يؤمنوا ٠
فيستجيب له ربه ٠
ولكنهم ينكثون فى وعدهم ٠
يقول تعالى :

{ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ }
[الآية ١٣٥]

يعنى : (فلما كشفنا عنهم) العذاب بسبب دعاء موسى عليه السلام ، فى كل واحدة (إلى أجل هم بالغوه) أى : إلى وقت ينكثون فيه وعدهم ، ويغدرون فى عهدكم (إذا هم ينكثون) ينقضون عهدهم ، ويصرون على كفرهم ٠

* * *

ولنقضهم العهود ٠٠!!
ولعدم إيمانهم ٠٠!!
ولإصرارهم على الكفر ٠٠!!
يقول ربنا :

{ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ }
[الآية ١٣٦]

أى : عاقبناهم ٠٠ بالإغراق فى البحر العميق ، وأمواجه العاتية ٠
وذلك : لأنهم كفروا وكذبوا بآياتنا ، وغفلوا عنها ، ولم يتفكروا فيها، وينتفعوا بها ٠

* * *

{ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ }
[الآية ١٣٧]

فى هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى أنه – بعد إهلاك فرعون وملائه – أورث (القوم الذين كانوا يستضعفون) منهم ، وهم بنو إسرائيل (مشارق الأرض ومغاربها) وهى : أرض الشام٠

وبذلك (تمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) وهى وعده تعالى لهم فى قوله عز وجل (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) [القصص ٥ ، ٦] ٠

ثم قال : (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه) من العمارات والمصانع والمزارع (وما كانوا يعرشون) أى : يبنون٠

* * *

وبعد هلاك فرعون وقومه فى البحر ٠٠
وبعد نجاة موسى عليه السلام وقومه من الغرق ٠٠
يقول تعالى :

{ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }
[الآية ١٣٨]

ومن هنا٠٠ أيها القارئ الكريم : يبدأ الحديث عن بنى إسرائيل فى حياة موسى عليه السلام ٠

والمعنى : وعبرنا ببنى إسرائيل البحر ، ونجيناهم من فرعون وقومه ، ورأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ٠٠!!

ولكنهم حين مروا على قوم يعبدون أصناما صنعوها ، واتخذوها آلهة لهم : قال الجهلة فيهم ٠٠ (يا موسى اجعل لنا إلها) نعبده ، (كما لهم آلهة) يعبدونها٠

وهكذا ٠٠ ولفساد طبيعتهم ، وانحراف فطرتهم : نسوا الله تعالى سريعا ٠

وهنا (قال) لهم موسى (إنكم) بطلبكم هذا (قوم تجهلون) عظمة الله تعالى ، وما يجب له من التنزيه عن الشريك ٠

* * *

ثم بين لهم بطلان ما عليه عبدة الأصنام هؤلاء ··
حيث قال :

{ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٣٩]

يعنى : إن عبادة هؤلاء هالكة ، وعملهم هذا باطل ، فلا تكونوا مثلهم ·

* * *

ثم ··

{ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }
[الآية ١٤٠]

يعنى : أغير الله تعالى (أبغيكم) أطلب لكم ، وهو سبحانه الذى (فضلكم على العالمين) من أهل مصر ، وخلصكم من ذلهم لكم ، ونصركم عليهم ؛ حيث أنجاكم وأغرقهم ·
فكيف أطلب لكم إلها غيره سبحانه وتعالى ··؟
هذا طلب لا يليق منكم أبدا ·
أنسيتم ما كان يحدث لكم ··؟
ولكن ·· أيها القارئ الكريم ·· ماذا كان يحدث لهم ··؟
فلنقرأ تذكير المولى لهم فى قوله تعالى·

{ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ }
[الآية ١٤١]

يعنى : اذكروا حالكم – يا من تطلبون إلها غير الله تعبدونه– عندما نجيناكم (من آل فرعون) وهم يذيقونكم أشد ألوان العذاب ، وأصعب أحواله ·
ومن صوره : أنهم كانوا (يقتلون أبناءكم) أى : الذكور منكم ، (ويستحيون نساءكم) لخدمتهم ، وإذلالكم ·
(و) إن (فى ذلكم) الإنجاء من الله ، أو سوء العذاب (بلاء) أى : اختبار (من ربكم عظيم)·

أفلا تتعظون ٠٠ وتنتهون عما قلتم ٠٠ ؟

* * *

ثم يقص الله تعالى علينا ما أتم به النعمة على موسى عليه السلام وقومه٠٠ بما حصل لهم من الهداية ؛ بتكليمه موسى عليه السلام ، وإعطائه الألواح ، وفيها أحكامهم ، وتفاصيل شرعهم ٠٠

وماذا فعلوه من انحرافهم الآخر ، الجديد ، خلال غيبته عليه السلام عنهم٠٠؟

حيث يقول تبارك وتعالى :

{ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ }

[الآية ١٤٢]

يعنى : (واعدنا موسى) أن يصوم (ثلاثين ليلة) فصامها ٠

يقول ابن كثير رحمه الله : وأكثر المفسرين على أنها ليالى شهر ذى القعدة، وبعد أن صامها موسى : استاك لتذهب رائحة خلوف فمه ٠٠ فأمره الله أن يصوم عشرا أخرى (وأتممناها بعشر) وهى عشر ذى الحجة ، فصامها ٠

(فتم ميقات ربه) أى : أمره به (أربعين ليلة) ٠

فعلى هذا : يكون تمام الميقات٠٠ يوم النحر ، وهو الذى حصل فيه التكليم لموسى ، وهو الذى كمل فيه الدين – كذلك – لمحمد صلى الله عليه وسلم (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) [المائدة ٣] ٠

وبعد تمام الميقات : استخلف موسى عليه السلام أخاه هارون على بنى إسرائيل ، وأوصاه – من باب التذكير – بالإصلاح ، وعدم الإفساد ٠٠ وإلا فهارون عليه السلام نبى كريم ، يصلح ولا يفسد ٠

* * *

ثم يخبر ربنا – تبارك وتعالى – عن موسى عليه السلام ٠٠ قائلا :

{ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَـكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }

[الآية ١٤٣]

يعنى : (ولما جاء موسى لميقاتنا) أى الوقت الذى حددناه ٠

(وكلمه ربه) بلا واسطة ، ولا كيفية ٠

ولما سمع موسى عليه السلام ٠٠ كلام ربه تعالى : طمع فى رؤيته لغلبة شوقه ؛ فسأل الرؤية (قال رب أرنى أنظر إليك) أى : مكنى من رؤيتك بأن تتجلى لى حتى أرى ذاتك ٠

(قال) له ربه (لن ترانى) أى : بالعين الفانية ، فى هذه الدنيا الفانية ، بل بعين باقية فى الدار الباقية ؛ حيث لم يقل له "لن أرى" ليكون نفيا لجواز الرؤية ٠

ولذلك : علق ربنا الرؤية باستقرار الجبل ، وهو ممكن ؛ حيث قال له (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه) أى بقى على حاله (فسوف ترانى) ٠

ويلاحظ : أن الله لم يعنف موسى عليه السلام على هذا السؤال ، بل لم يعاتبه ٠

ولذلك : نظر موسى إلى الجبل ٠

(فلما تجلى ربه للجبل) أى : ظهر وبان ظهورا بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل ، وخلق الله فى الجبل حياة وعلما ورؤية ٠

(جعله دكا) أى : جعل الله الجبل مدكوكا، مستويا بالأرض ٠

(و) هنا (خر موسى صعقا) أى : مغشيا عليه ؛ لهول ما رأى من النور ٠

(فلما أفاق) موسى عليه السلام ، من غشيته ، (قال سبحانك) ربى من النقائص كلها ، ومن أن ترى فى الدنيا ٠

ثم قال (تبت إليك) ربى ، من سؤالى رؤيتك فى الدنيا ٠

ثم قال (وأنا أول المؤمنين) بعظمتك وبجلالك ، وبأنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة ٠

* * *

وهنا ٠٠

{ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ }
[الآية ١٤٤]

يعنى : (قال) الله تعالى (يا موسى إنى اصطفيتك) اخترتك (على الناس) من أهل زمانك (برسالاتى) أى : بما أوحيه إليك ، لتبلغه عنى (وبكلامى) أى : بتكليمى إياك ٠٠

(فخذ ما آتيتك) أى : أعطيتك من شرف النبوة والتكليم والرسالة والتوراة ٠

(وكن من الشاكرين) على هذه النعم ، ولا تطلب ما لا طاقة لك به فى الدنيا، مثل الرؤية ٠

* * *

ثم يخبر ربنا عز وجل قائلا :

{ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ }
[الآية ١٤٥]

أى : كتب ربنا سبحانه وتعالى لموسى (فى الألواح) وهى التوراة ، أو كانت قبل التوراة (من كل شيء موعظة) ينتفعون بها ، وكتب فيها كذلك (تفصيلا لكل شيء) يحتاجونه فى دينهم ٠

ثم يأمر ربنا موسى قائلا (فخذها بقوة) أى : خذ ما فى هذه الألواح من المواعظ ، والتفصيلات بجد وعزم واجتهاد ٠

ويأمره أيضا قائلا (وأمر قومك) بنى إسرائيل ، أن (يأخذوا بأحسنها) أى : بالأحسن فيها ٠٠ كالعفو وهو الأحسن بدل القصاص وهو حسن ٠

ثم قال عز وجل لموسى وقومه (سأوريكم دار الفاسقين) أى : دار من ظلم، وفسق عن أمر ربه ٠

وفى هذا : وعد لهم أن ينزلهم منازل الظالمين ، فى بلاد الشام ، وهو – فى ذات الوقت – تنبيه لهم أن لا يكونوا من الفاسقين ، الخارجين عن طاعته ٠

* * *

وبعد هذا ٠٠
يبين الله عز وجل سنة من سننه وقاعدة من قواعده التى لا تتخلف ، فى أى عصر ، وفى أية بيئة ٠٠
حيث يقول :

{ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ }
[الآية ١٤٦]

يعنى : سأمنع فهم آياتى والانتفاع بها ٠٠ عن عقول وقلوب المتكبرين عن طاعتى ، والذين يتكبرون على الناس بغير حق ٠

ولذلك ٠٠

(إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) ٠٠!!

(وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) ٠٠!!

(وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا)٠٠!!

وما كل ذلك ٠٠ إلا بسبب (أنهم كذبوا بآياتنا) أى : كذبت قلوبهم بها (وكانوا عنها غافلين) لا ينتفعون بها ، ولا يعملون شيئا مما فيها ٠

* * *

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٤٧]

يعنى : (والذين كذبوا بآياتنا) وأنكروا (لقاء الآخرة) واستمروا على ذلك إلى مماتهم : حبطت أعمالهم ، مهما كانت ، وضاع ثوابها ٠

(هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) ؟

أى : نحن نجازيهم بحسب أعمالهم التى عملوها ، ونياتهم فيها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وكما تدين تدان ٠

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠ هذه القاعدة الربانية ، التى قرأناها ، فهى وإن كانت واردة فى سياق الحديث عن بنى إسرائيل ، فهى أيضا لهم ، ولنا ، ولكل أمم الأرض إلى يوم القيامة ٠

* * *

وبعد ٠٠

فيخبر ربنا عز وجل عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل ٠٠

فيقول :

{ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ }
[الآية ١٤٨]

أى : بعد أن ذهب موسى عليه السلام للقاء ربه فى الطور اتخذ "السامرى" ورضى القوم ٠٠ عجلا ، صنعه لهم من الحلى التى استعارها من أهل مصر حين خروجهم منها ، وجعله جسدا (له خوار) أى : صوت كصوت البقر ، بسبب مرور الهواء فى جوفه ٠

واتخذوه إلها لهم ، وعبدوه ٠

وينكر الله عليهم كفرهم ، وتفاهة عقولهم ؛ حيث يقول (ألم يروا أنه لا يكلمهم) بل الصوت كالبقر فقط (ولا يهديهم سبيلا) لأنه جماد لا يعقل ، فكيف يهدى ٠٠ ؟!!

بل كيف يفعلون ذلك أصلا ٠٠ ؟!!

وكيف يتخذون هذا إلها ، ويتركون من خلصهم من فرعون وذله لهم ، وأنجاهم من الغرق ، وأغرق عدوهم أمام أعينهم ، و ٠٠ إلخ ٠

حقا ٠٠ (اتخذوه وكانوا ظالمين) فيما فعلوه ٠٠!!

* * *

ولما رجع موسى عليه السلام – كما سنبين فيما بعد – وبين خطأهم وعنفهم ، وعرفوا أنهم أذنبوا ٠٠!!

يقول تعالى :

{ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }

[الآية ١٤٩]

يعنى : (ولما سقط فى أيديهم) أى عرفوا خطأهم – بعد عودة موسى عليه السلام – ندموا ندما شديدا ٠

(و) لما (رأوا) كذلك (أنهم قد ضلوا) بفعلهم هذا عن الصواب – وذلك ببيان موسى لهم – ٠٠ !!

(قالوا) مستغفرين (لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) المغبونين فى الدنيا والآخرة ، بسبب ما فعلناه ٠

* * *

ثم يبين ربنا ما فعله موسى عليه السلام ، بعد عودته من لقاء ربه ، وقبل توبة هؤلاء الذين عبدوا العجل ٠

فيقول :

{ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

[الآية ١٥٠]

أى : (لما رجع موسى) عليه السلام (إلى قومه) ، من لقاء ربه وكان الله عز وجل قد أعلمه بما فعل قومه ؛ حيث قال له – كما فى سورة طه – (إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى)[طه ٨٥] عاد إليهم (غضبان) من فعلهم (أسفا) أى : أشد الغضب ٠

ثم (قال) لهم (بئسما خلفتمونى من بعدى) أى : بئس ما صنعتم من عبادتكم العجل بعد أن تركتكم وذهبت إلى لقاء ربى (أعجلتم أمر ربكم) وسبقتم إلى عبادة العجل قبل أن آتيكم بالتوراة ٠٠ ؟

(وألقى الألواح) من غضبه عليهم ، وتأسفه من فعلهم ٠

والتفت إلى أخيه ٠٠ غاضبا كذلك ٠

(وأخذ برأس أخيه يجره إليه) فى عتاب شديد ، خوفا من أن يكون قصر فى نهيهم عما فعلوا ، قائلا له- كما فى سورة أخرى - : (يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى) [طه ٩٢ ، ٩٣]٠

وهنا ٠٠ أجاب هارون عليه السلام ، مستدرجا عطف أخيه ، قائلا : (ابن أم) أى : يا أخى (إن القوم استضفعونى وكادوا يقتلوننى) وهذه طبيعة بنى إسرائيل ٠٠ لا يحترمون الضعفاء ولو كانوا على حق (فلا تشمت بى الأعداء) فطبيعتهم الشماتة ، وإيذاء الأنبياء ٠

ثم قال له (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) أى : لا تخلطنى بهم ، ولا تعاملنى معاملتهم ٠

* * *

ولما اتضح لموسى عليه السلام عذر أخيه ٠٠

{ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }
[الآية ١٥١]

أى : رب اغفر لى ما فرَط منى فى حق أخى ، واغفر لأخى إن كان قد فرَّط فى حسن الخلافة (وأدخلنا فى رحمتك) فى عصمتك فى الدنيا ، وجنتك فى الآخرة (وأنت أرحم الراحمين) فلا راحم لنا ولا لغيرنا سواك ، فارحمنا ٠

* * *

هذا ما كان من شأن موسى عليه السلام وأخيه ٠

وأما الذين اتخذوا العجل من بعد موسى ، وندموا ٠٠

فيقول عنهم رب العزة :

{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ }
[الآية ١٥٢]

وهذا الغضب الإلهى الذى نال بنى إسرائيل بسبب عبادة العجل : فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة ٠٠ إلا أن يقتل بعضهم بعضا ، كما فى قوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) [البقرة ٥٤] ٠

وأما الذلة فى الحياة الدنيا : فهى بمزيد التغريب والتشتيت لهم ، أو بمواقف الذلة فى الأرض التى هم فيها ، والتى يعانون منها إلى يوم القيامة ٠

(وكذلك نجزى المفترين) الكاذبين على الله ٠

* * *

ثم – بعد هذا – ينبه ربنا – تبارك وتعالى – إلى أنه يقبل توبة عباده من أى ذنب كان ٠٠ فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾
[الآية ١٥٣]

أى : كل من عمل سيئة ، أيا كانت – ويدخل فيها سيئة عبادة العجل من بنى إسرائيل – ثم تاب عنها – ويدخل فيها توبتهم بقتل بعضهم البعض – وآمن أى : وحسن إيمانه فإن ربك من بعد توبته وإيمانه (لغفور) لذنبه (رحيم) به ، منعم عليه ٠

* * *

وأما بالنسبة لغضب موسى عليه السلام ٠٠
فيقول رب العزة :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾
[الآية ١٥٤]

يعنى : ولما سكن الغضب عن موسى (أخذ الألواح) التى كان قد ألقاها قبل ذلك من شدة الغضب ؛ غيرة لله تعالى ، وغضبا لدينه ٠

ولما أخذها ٠٠ (و) جد (فى نسختها) أى : فيما كتب فيها (هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) أى : يخشعون له ، ويخضعون لأحكامه وتعاليمه ٠

* * *

بعد ذلك ..

يقول رب العزة :

{ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ }

[الآية ١٥٥]

أى : (اختار موسى) من (قومه سبعين رجلا لميقاتنا) من أجل أن يعتذروا لربهم عن الذين عبدوا العجل ، فى موعد حدده الله تعالى .

فلما ذهبوا إلى المكان المحدد فى الموعد المحدد .. قالوا لموسى (أرنا الله جهرة) فأخذتهم الصاعقة ؛ فماتوا جميعا .

(فلما أخذتهم الرجفة) أى الصاعقة ، أو الذلة ، وماتوا (قال) موسى (رب لو شئت أهلكتهم من قبل) حين عبدوا العجل ، وليس الآن (وإياى) لقتلى القبطى .

ثم قال : يا رب (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) وهم الذين عبدوا العجل .

يا رب (إن هى) أى : قضية العجل (إلا فتنتك) أى : اختبارك (تضل بها من تشاء) فيسقط (وتهدى من تشاء) حين لا يفتن ولا يضل .. فالأمر أمرك ، والحكم حكمك .

(أنت ولينا) القائم على أمورنا كلها ، وليس لنا سواك .

(فاغفر لنا) ولا تؤاخذنا بذنوبنا .

(وارحمنا) بعدم الوقوع فى الذنوب مستقبلا .

(وأنت خير الغافرين) لا يغفر الذنوب إلا أنت .

* * *

وبعد دعاء موسى ربه بما يطلب النجاة منه ..

دعا عليه السلام بما يحب أن يحصل عليه ..

حيث قال :

{ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ }

[الآية ١٥٦]

يعنى : حقق لنا فى الدنيا .. ما يحسن من نعمة وطاعة وعافية ، وفى الآخرة .. الجنة .

ثم علل هذا الطلب بقوله (إنا هدنا إليك) أى : رجعنا إليك ، وتبنا عن خطايانا.

عن على رضى الله عنه قال : إنما سميت اليهود بهذا الاسم لأنهم قالوا : (إنا هدنا إليك) ٠

يقول العلماء : وكان هذا الاسم ٠٠اسم مدح لهم قبل نسخ شريعتهم ، وبعده ٠٠ صار اسم ذم ، وهو لازم لهم ٠

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠

تحب – وأنا معك – أن تعرف٠٠ ماذا قال الله تعالى لموسى بعد هذا الدعاء ٠٠ ؟

(قال) تعالى (عذابى أصيب به من أشاء) تعذيبه ٠

ثم قال (ورحمتى وسعت) أى : عمت (كل شيء) فى الدنيا٠

يقول المفسرون : ولما نزل هذا الجزء من الآية ٠٠ فرح إبليس وقال: أنا من ذلك الشيء ، أى الذى ستعمه رحمة الله ٠٠!!

فأخرجه الله منها ؛ وقال (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون)٠

ففرح اليهود ٠٠ وقالوا : نحن نتقى ونؤمن بآيات ربنا ٠٠!!

فأخرجهم الله منها ، وأثبتها لمن يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم ٠

حيث قال : مبينا لهؤلاء (الذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم) بآيات ربهم يؤمنون :

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

[الآية ١٥٧]

يعنى : أكتب رحمتى لهؤلاء (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (الذى يجدونه) اسما ووصفا (مكتوبا) (عندهم فى التوراة والإنجيل) دون من بقى على دينه ولم يؤمن به ويتبعه ٠

ومن أوصاف هذا النبى الموجودة فى الكتابين – التوراة والإنجيل – كذلك ٠٠ أنه (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات) مما حرم عليهم فى شرعهم كلحوم الإبل ، وشحم الغنم والمعز والبقر ، (ويحرم عليهم الخبائث) كالميتة والدم ولحم الخنزير (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) العهود الشديدة التى أخذت عليهم ٠٠ مثل قتل النفس فى التوبة ، وتحريم أخذ الدية ، وترك العمل فى يوم السبت ، وغير ذلك ٠

ثم يقول رب العزة (فالذين آمنوا به) أى : بهذا النبى الأمى ، الموصوف – فى التوراة والإنجيل – بالصفات السابقة (وعزروه) أى : وقروه واحترموه (ونصروه) على أعدائه (واتبعوا النور الذى أنزل معه) وهو القرآن (أولئك هم المفلحون) الفائزون بكل خير – من أية أمة كانوا ، أو فى أى عصر وجدوا – والناجون من كل شر ٠

* * *

وبعد أن بين ربنا – تبارك وتعالى – ما فى الكتابين – التوراة والإنجيل – من صفات محمد صلى الله عليه وسلم ..

وبعد أن شرف من اتبعه ، ووصفه بالفلاح ..

أمره – صلى الله عليه وسلم – ببيان أن ذلك الشرف شامل لكل من اتبعه ، وبدعوتهم للإيمان به واتباعه ..

فقال له :

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

[الآية ١٥٨]

أى : (قل) يا محمد للناس جميعا ، أحمرهم وأسودهم ، عربهم وعجمهم (إنى رسول الله إليكم جميعا) بلا استثناء .

هذا الإله (الذى له ملك السموات والأرض)..!!

هذا الإله الذى(لا إله إلا هو يحيى ويميت)..!!

وما دام هذا الإله كذلك : فإنه سبحانه يأمرهم جميعا .. بقوله (فآمنوا بالله ورسوله) الذى جاء وصفه فى الكتب السابقة بأنه (النبى الأمى) الذى يصدق قوله عمله ، و(الذى يؤمن بالله وكلماته).

ثم يقول رب العزة (واتبعوه) أى : اسلكوا طريقه أيها الناس ، والتزموا شريعته (لعلكم تهتدون) إلى الصراط المستقيم ، والنعيم المقيم .

* * *

هذا ..

وإذا كان اليهود .. هم أصحاب الكتاب الأول ، وهم الذين بشر الله فى كتابهم بهذا النبى الأمى : فهم مدعوون للإيمان به واتباعه .

ولذلك جاء الكلام عنهم مباشرة .. فيما يلى :

حيث يقول رب العزة :

{ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ }

[الآية ١٥٩]

يعنى : أن بنى إسرائيل – قوم موسى – كانوا طائفتين .. واحدة منهم (أمة) عندها استعداد للحق وقبوله واتباعه (يهتدون بالحق) فى عقيدتهم وسلوكهم ، ويهدون به غيرهم (وبه يعدلون) أى : يحكمون.

والطائفة الأخرى : ليس عندها هذا الاستعداد ، وهم الكثرة ، وهم الذين انحرفوا ، وكثر وطال انحرافهم .

* * *

ثم يحدثنا ربنا عز وجل عن بنى إسرائيل .. قائلا :

{ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }
[الآية ١٦٠]

يعنى : وفرقنا بنى إسرائيل إلى اثنتى عشرة قبيلة وكل قبيلة أسباط ، والأسباط : ولد الولد، (أمما) لأن كل سبط صار أمة كبيرة ، وكل أمة كانت تتجه خلاف الأخرى .

وحين طلب قوم موسى منه أن يشربوا ، وهم فى الصحراء : أوحينا إلى موسى (أن اضرب بعصاك الحجر) فلما ضرب الحجر بعصاه (انبجست) أى : انفجرت من الحجر (اثنتا عشرة عينا) من ماء.

وبهذا (علم كل أناس) أى : سبط (مشربهم) .

وكذلك .. وهم فى هذه الصحراء القاحلة (ظللنا عليهم الغمام) أى : السحاب ؛ ليقيهم حراة الشمس .

(و)أيضا (أنزلنا عليهم المن) وهو شيء حلو كان ينزل عليهم من السماء ، مثل الثلج ، من الفجر إلى طلوع الشمس (والسلوى) وهو طائر السمان .

وقلنا لهم (كلوا) واشربوا (من طيبات ما رزقناكم) فكان الواحد منهم يأخذ ما يكفيه من هذا الطعام والشراب .

ومع ذلك : قابلوا هذه النعم بالكفران ، وظلموا أنفسهم بالشرك ، فعاد وباله عليهم ، وما ظلمناهم فى شيء (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

* * *

هؤلاء هم : بنو إسرائيل .. كانوا يرون آيات الله ، ويتنعمون بها ؛ ثم لا يشكرون الله عليها ، بل يكفرون .

فهل يستغرب منهم الكفر بالدين الجديد ، ومحاربة أهله وأتباعه ..؟

وهذا الذى يقدَّم عنهم : حجة عليهم ، ودرس للمسلمين ، حتى لا ينخدعوا بهم ، ويثقوا فى وعودهم يوما ما .

* * *

ثم يقول رب العزة لحبيبه صلى الله عليه وسلم ، ولكل عاقل كذلك :

{ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ١٦١]

يعنى : اذكر واعتبر ، أو اذكر وذكر يهود اليوم بما فعله أسلافهم حين (قيل لهم) من رب العزة ، بعد خروجهم من التيه فى الصحراء (اسكنوا هذه القرية) وهى بيت المقدس (وكلوا منها) أى : من ثمارها ومطعوماتها (حيث شئتم) على راحتكم ٠

ثم قلنا لهم (وقولوا حطة) أى : حط عنا يا ربنا خطايانا (وادخلوا الباب سجدا) أى : منحنين خاضعين خاشعين ٠

فإن قلتم وفعلتم ذلك : (نغفر لكم) جميعا (خطيآتكم) من جهة و(سنزيد المحسنين) منكم ثوابا من جهة أخرى ٠

* * *

ماذا قالوا ٠٠ ؟

وماذا فعلوا ٠٠ ؟

يقول رب العزة سبحانه وتعالى :

{ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ }
[الآية ١٦٢]

يعنى : بدلا من أن يشكروا الله تعالى بطاعته ، والاستجابة لأوامره ٠٠

(بدل الذين ظلموا منهم) بالذى قيل لهم (قولا غير الذى قيل لهم) حيث قالوا كلاما لا معنى له ، يغيظون به موسى عليه السلام ٠

وبدلوا الفعل أيضا : كما سيأتى بيان ذلك ٠

(فأرسلنا عليهم) بسبب مخالفاتهم هذه وعدم طاعتهم (رجزا) أى : عذابا (من السماء) وهو الطاعون ، وقد مات به منهم سبعون ألفا فى وقت واحد (بما كانوا يظلمون)٠

فهل نستغرب – بعد ذلك – رفض اليهود لدعوة الله ٠٠؟

وهل ننتظر منهم – بعد هذا – وفاء للعهود ٠٠؟

وهل نتعظ – بدورنا – ونبتعد عن ظلم أنفسنا بمعصية الله ، ومخالفة أوامره ، وإهمال تعاليمه ٠٠ ؟

* * *

ثم يقول ربنا عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم :

{ واسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }
[الآية ١٦٣]

أى : واسأل يا محمد اليهود المعاصرين لك عن أسلافهم من أهل القرية الذى ظلموا وبدلوا فعلا غير ما أمر الله به ٠

هذه (القرية التى كانت حاضرة البحر) أى : قريبة منه أو على ساحله ، وهى "أيلة" على خليج العقبة ، وهى التى أحيا اليهود حاليا اسمها مرة أخرى ، وسموها "إيلات"٠

وكان أهلها(يعدون) أى : يتجاوزون حد الله ويخالفونه فى يوم السبت ٠

وذلك أنهم كانوا قد نهوا عن العمل واصطياد السمك فيه ، ولكنهم هتكوا حرمته ٠

(إذْ) كانت (تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم) الذى منعوا من العمل فيه ؛ تعظيما له (شُرَّعا) أى : ظاهرة واضحة ، فيحبسونها ، لاصطيادها فى غير السبت ٠

(ويوم لا يسبتون) أى: فى غير يوم السبت (لا تأتيهم) هذه الأسماك ٠

وهذا : ابتلاء وامتحان لهم من الله ٠٠ تظهر به طاعتهم لله أو مخالفتهم ٠

(كذلك) أى : مثل هذا الابتلاء بموضوع السمك (نبلوهم) نختبرهم (بما كانوا يفسقون) أى : بسبب فسقهم ومخالفتهم أوامر ربهم ، وتحايلهم على انتهاك محارم الله ٠

* * *

وبالنسبة لموضوع صيد السمك هذا ٠٠ يروى عن ابن عباس رضى الله عنه ، أنه قال : انقسم أهل هذه القرية إلى ثلاث فرق :

فرقة : خالفت أمر الله ، واحتالت فى صيد السمك ، وارتكبت المحظور ٠

وفرقة : نهت المخالفين عن هذا المنكر ، واعتزلتهم ٠

وفرقة : سكتت ٠٠ فلم تفعل ، ولم تنه ٠

ويخبر ربنا عز وجل عن هذه الفرقة التى سكتت ٠٠ أنها قالت لمن أنكروا، ونهوا غيرهم عن المخالفة ٠٠

{ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }
[الآية ١٦٤]

أى : قالت فرقة منهم وهى التى سكتت لمن نهت عن المنكر (لم تعظون قوما الله مهلكهم) بسبب مخالفتهم(أو معذبهم عذابا شديدا) حيث لا ينفع الوعظ معهم ٠٠؟

أجاب أهل الفرقة الصالحة ، التى لم تسكت على المنكر ، بل رفضته ، ونهت عنه (قالوا معذرة إلى ربكم) أى : وعظناهم ليعذرنا الله ، ولا ننسب إلى التفريط فى النهى عن المنكر ، وأيضا : (لعلهم يتقون) الله ، ويستجيبون لنا٠

* * *

أتدرى ماذا حدث أيها القارئ الكريم ٠٠ ؟

يقول تعالى :

{ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }

[الآية ١٦٥]

أى : (فلما نسوا) الذى خالفوا ، وتركوا (ما ذكروا به) من وعظ الصالحين لهم ٠٠ كانت النتيجة : أننا (أنجينا الذين ينهون عن السوء) والذين قالوا لهم (لم تعظون قوما) من العذاب ٠٠(وأخذنا الذين ظلموا) وخالفوا ، وارتكبوا المنكر (بعذاب بئيس) أى : شديد (بما كانوا يفسقون) أى : بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله ٠

{ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ }

[الآية ١٦٦]

يعنى : (فلما عتوا) أى : تكبروا وتمردوا (عن) ترك (ما نهوا عنه) كما أمرهم ربهم : (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى : جعلناهم قردة ذليلين حقيرين ، وهذا هو العذاب البئيس الذى ذكرته الآية السابقة ٠

* * *

وبعد ذلك : يأمر ربنا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يذكرهم بما هددهم به سبحانه أن إنحرفوا ٠٠ فقال :

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }

[الآية ١٦٧]

يعنى : (وإذ تأذن) أى : قضى (ربك) يا محمد (ليبعثن عليهم) أى : ليسلطن على اليهود (من يسومهم) يعنى : يذيقهم (سوء العذاب) إذا عصوا وخالفوا أوامره ٠٠ وقد فعلوا ٠

(إن ربك لسريع العقاب) لمن عصاه ٠

(وإنه لغفور) لأهل طاعته (رحيم) بهم ٠

* * *

ثم يخبر ربنا عز وجل ٠٠ كيف أنه فرق اليهود فى الأرض كلها ، وجعلهم طوائف ممزعة ٠٠ حيث يقول سبحانه :

{ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }
[الآية ١٦٨]

يعنى : (وقطعناهم) أى اليهود (فى الأرض) كلها (أمما) أى : فرقا ، فلا تخلوا بلد عن فرقة من فرقهم ٠

(منهم) أى من هذه الفرق (الصالحون) الذين اتبعوا موسى عليه السلام ، والتزموا بشرع الله ، وبعد بعثة عيسى عليه السلام : لا صالح منهم إلا من اتبعه ، ثم بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم : لا صالح منهم – أيضا – إلا من اتبعه ٠

(ومنهم) أى : من هذه الفرق (دون ذلك) أى : غير صالحين ، وهم الفسقة٠

(وبلوناهم) أى : اليهود (بالحسنات والسيئات) بالرخاء والشدة ، بالنعم والنقم ، كسنتنا فى كل أمة (لعلهم يرجعون) إلى الله بالطاعة ، وينتهون عن المعصية ٠

فهل رجعوا إلى الله ٠٠ ؟

يقول تعالى :

{ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }
[الآية ١٦٩]

يعنى : (فخلف من بعدهم) أى : من بعد هذا الجيل الذى عوقب بالتشتت (خَلْف) أى : جيل سىء ، لأن الخلَف بفتح اللام هو الجيل الصالح ، وبسكونها هو السىء ، (ورثوا الكتاب) أى التوراة عن أسلافهم ، وعرفوا ما فيها ، ولم يعملوا بها ، حيث صاروا (يأخذون عرض هذا الأدنى) أى : الحطام والدّنى من متاع الدنيا (ويقولون سيغفر لنا) أى : لن يؤاخذنا الله بما فعلنا دون أن يقلعوا عن ذلك ، بدليل أنهم (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) أى : يعودون إلى الخطأ دون إقلاع عنه ، وعدم عود إليه ٠

هل ينتظر من هؤلاء صلاح ٠٠ ؟

(ألم يؤخذ عليهم) قبل ذلك (ميثاق الكتاب) أى : العهد المذكور فى الكتاب ، وفيه (ألا يقولوا على الله إلا الحق) وهم قد (درسوا ما فيه) وعرفوا ميثاقهم ، وما أخذ عليهم ٠٠ ؟

ومع ذلك : كانوا يخونون حكم الله ، ويخالفون شرعه ، من أجل الدنيا ٠

(والدار الآخرة خير) من ذلك العرض الخسيس الذى يخونون ، ويخالفون بسبب (للذين يتقون) الله بفعل ما أمر ، والبعد عما نهى عنه ٠

(أفلا تعقلون) فيؤثرون الآخرة ويفضلونها على الدنيا ٠٠ ؟

أو (أفلا تعقلون) يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فتنتبهون لهم ، ولا تأمنونهم ، ولا تعاهدونهم ٠٠ ؟

* * *

ثم أثنى ربنا سبحانه ومدح من تمسك بالحق واتبعه ٠٠

حيث يقول :

{ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ }

[الآية ١٧٠]

يعنى : من تمسك بكتابه ، الذى يقوده إلى الحق ، وإلى اتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما فيه من أوصاف له وبشارات به ، وأقام الصلاة : فهذا هو المصلح الحقيقى ، والمحسن الحقيقى ، الذى لا يضيع أجره عندنا ٠٠

(إنا لا نضيع أجر المصلحين)٠

* * *

بعد أن بين الله تعالى مخالفات اليهود وانحرافاتهم ، بل تحريفاتهم لتعاليم ربهم ٠٠!!

وكذلك : كيف أن الله قضى أن يبعث عليهم (إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) ؟ وكيف أنه قطعهم وفرقهم (فى الأرض أمما) ؟ وكيف أنه خلف من بعدهم (خَلْف) أسوأ منهم ٠٠ ؟ وكيف أن الله بين أن من يمسك كتابه ، والعمل بتعاليمه ويقيم الصلاة ٠٠ هو من الصالحين ، والله لا يضيع المصلحين ٠٠ ؟

تأتى الآيات الكريمة التى سوف نقرأها لتبين لنا لونا من معاناة موسى عليه السلام معهم ، وصورة من صور اعوجاجهم وعنادهم لآيات ربهم ٠

يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

[الآية ١٧١]

هذه الآية الكريمة تحكى ردا على بنى إسرائيل حينما قالوا : لم يحدث منا مخالفات للحق ٠

يعنى : واذكر يا محمد ، أو يا كل إنسان ٠٠ وقت أن جاء موسى عليه السلام لهم بالتوراة ، وقرأها عليهم : فرفضوها ، وامتنعوا عن العمل بها ، فاقتلع الله الجبل ، ورفعه حتى صار (كأنه ظلة) فوق رءوسهم ، (وظنوا) أى : تأكدوا (أنه واقع بهم) أى ساقط عليهم لا محالة ٠

وهنا : خروا ساجدين مرغمين ٠

ثم ٠٠ قلنا لهم (خذوا ما آتيناكم) أى التوراة وما فيها من أحكام (بقوة) أى: بجد واجتهاد (واذكروا ما فيه) أى : اعملوا بما فيه من تعاليم وشرائع (لعلكم تتقون) فلا تنحرفون ٠

ومع ذلك ٠٠ ومع كل المواثيق والعهود : فقد انحرفوا ، وما يزالون ينحرفون ٠٠!!

وبهذا ٠٠ تنتهى قصة موسى مع قومه ٠٠ بذكر أخذ الله تعالى الميثاق منهم ٠

* * *

وتبدأ آيات السورة الكريمة أخذ الميثاق من البشرية كلها ، بالعبودية لله رب العالمين ٠

حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى :

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ }

[الآية ١٧٢]

يعنى : اذكر ٠٠ وقت أن (أخذ ربك من) ظهور بنى آدم (ذريتهم) حيث أخرج بعضهم من صلب بعض ، حتى يصل هذا الإخراج إلى صلب آدم عليه السلام ٠٠ ونصب لهم دلائل ربوبيته ، وركب عقولا تميز الهدى من الضلال بقدرته ٠٠

(وأشهدهم على أنفسهم) قائلا لهم (ألست بربكم)؟

(قالوا بلى) أنت ربنا وخالقنا ، ولا رب لنا سواك ٠

وقد فعلنا ذلك ٠٠ من أخذ شهادة الأرواح هذه ، حتى لا (تقولوا يوم القيامة) عند الحساب (إنا كنا عن هذا) التوحيد (غافلين) لا نعرفه٠

{ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ }

[الآية ١٧٣]

أى : (أو) تحتجون بحجة أخرى على عدم التوحيد ، بأن (تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فاقتدينا بهم ، وسرنا على دربهم ٠٠ فلا لوم علينا ، ولا عقاب لنا ٠

(أفتهلكنا بما فعل المبطلون) ؟

يعنى : لولا أن الله عز وجل ٠٠ أخذ من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على ربوبيته ووحدانيته : لقالوا هذا الكلام ، وتعللوا بهذه العلل الساقطة ٠

* * *

{ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }
[الآية ١٧٤]

أى : هذا التفصيل الذى نفصله ، والتوضيح الذى نوضحه ، والبيان الذى نقدمه ٠٠ (لعلهم يرجعون) أى : لعل الذين كفروا يرجعون إلى مقامهم الأصيل ، وفطرتهم الحقيقية ، وهى : العبودية لله رب العالمين ٠

والعبودية ، تكون : باتباع وحى الله تعالى ، ورسله عليهم السلام ٠

* * *

وبعد هذا ٠٠

يأمر الله حبيبه صلى الله عليه وسلم ٠٠ أن يتلو على الناس خبر الذى استحوذ عليه الشيطان ، وابتعد عن تعاليم الرحمن ٠٠

حيث يقول له :

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ }
[الآية ١٧٥]

أى : (واتل) يا محمد ، على اليهود ، أو الدنيا كلها (نبأ) خبر (الذى آتيناه آياتنا) التى تصلح شأنه ، وتنفعه فى الدنيا والآخرة ، إذا اتبعها وعمل بها ٠

(فانسلخ منها) أى : ابتعد عنها ، وكفر بها (فأتبعه الشيطان) وصار قرينا له ؛ يضله أكثر وأكثر ٠

(فصار من الغاوين) الضالين الكافرين الخاسرين ٠

* * *

هذا ٠٠

{ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }
[الآية ١٧٦]

أى : (لو شئنا) لهذا (الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الهداية : لاهتدى ، ولم ينسلخ من آياتنا ، ويكفر بها ، و (لرفعناه) على منازل الأبرار من العلماء ، بسبب العمل (بها) ونشرها فى العالمين ٠

(ولكنه) سبق فى علمنا أنه (أخلد إلى الأرض) أى مال إلى الدنيا ، ورغب فيها (واتبع هواه) فى تفضيل الدنيا ولذتها على الآخرة ونعيمها ٠

وهذا : صار (مثله) فى ذلك ٠٠(كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أى : يلهث أن تطرده أو تتركه ، يعنى : صار ٠٠ ذليلا دائم الذلة وهوان النفس ٠

(ذلك) المثل (مثل القوم) الكافرين (الذين كذبوا بآياتنا) ٠

(فاقصص) يا محمد ، أو يا أيها الداعية ، هذا (القصص) وأمثاله مما فيه العظة (لعلهم يتفكرون) فيحذرون مثل هذه النهاية السيئة ، والصورة البغيضة ٠

* * *

حقا ٠٠

{ سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ }
[الآية ١٧٧]

يعنى :(ساء) المثل (مثلا) مثل (القوم الذين كذبوا بآياتنا) وضموا إليه ظلم أنفسهم ؛ حيث أوردوها موارد التهلكة ٠

* * *

والذى ينبغى أن يعرف جيدا ٠٠ أنه :

{ مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }
[الآية ١٧٨]

يعنى : لا هداية إلا من الله ، ومن هداه الله : فهو الناجى الفائز ، ومن أضله الله : فهو الهالك الخاسر ٠
فاطلبوا الهداية دائما– أيها الأحبة فى الله – منه سبحانه وتعالى ٠

هدانى الله وإياكم ·· إلى ما يحبه ويرضاه ··

* * *

ثم يخبر ربنا – عز وجل – أنه خلق لجهنم – أعاذنا الله وإياكم منها – خلقا، هم لها وهى لهم ·· وهذه صفاتهم ··

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾
[الآية ١٧٩]

يقول تعالى ·· جلت حكمته (ولقد ذرأنا) أى خلقنا (لجهنم كثيرا من الجن والإنس) وهم الكفار من الجن والإنس ، الذين علم الله تعالى – فى الأزل – منهم اختيار الكفر على الإيمان ؛ فشاء لهم الكفر ، وجعل مصيرهم – بسبب اختيارهم – جهنم ·

هؤلاء ·· من أوصافهم أنهم :

(لهم قلوب) خلقها الله لينتفعوا بها ، ولكنهم (لا يفقهون بها) أى : لا يعقلون بها الحق ، ولا يتفكرون فيه ·· فيؤمنون ·

(ولهم أعين) خلقها الله لينتفعوا بها ، ولكنهم (لا يبصرون بها) آيات الله ، ويتفكرون فيها ·· فيؤمنون ·

(ولهم آذان) خلقها الله لينتفعوا بها ، ولكنهم (لا يسمعون بها) الوعظ ، فيعقلونه ، و ينتفعون به ·· فيؤمنون ·

(أولئك كالأنعام) فى عدم الفقه والتعقل ، والنظر للاعتبار ، والاستماع للتدبر والاتعاظ ·

(بل هم أضل) من الأنعام ؛ لأنهم كابروا وعاندوا ، ولم يعرفوا ما يضرهم؛ حيث اختاروا النار ، والأنعام ·· تطلب منافعها ، وتهرب عن مضارها ·

(أولئك هم الغافلون) الحقيقيون ، والخاسرون الحقيقيون ·

* * *

ولكن يجب علينا ألا نكون – أيها الأحبة الكرام – من هؤلاء الغافلين عن آيات الله : يذكرنا الله تعالى بما يلى :
قائلا :

﴿ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾
[الآية ١٨٠]

يعنى : (ولله) تعالى (الأسماء الحسنى) التى هى أحسن الأسماء ٠
(فادعوه) أنتم يا مسلمون ، وسموه (بها) واستعملوها فى ندائه ، وفى دعائه، وغير ذلك ٠
(وذروا) أى : اتركوا (الذين يلحدون) يكذبون ويغيرون فى (أسمائه) سبحانه وتعالى ٠
هؤلاء الذين يكفرون ، أو يكذبون ، أو يلحدون فى أسمائه (سيجزون) فى الآخرة (ما كانوا يعلمون)٠
وهذا : تهديد لكل من يكفر بالله تعالى ، ويلحد فى أسمائه ٠

* * *

وإذا كان الله تعالى ٠٠ قد خلق لجهنم أهلها (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) : فقد خلق – تبارك وتعالى – للجنة – كذلك – أهلها ٠٠
حيث يقول :

{ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ }
[الآية ١٨١]

يعنى : ومن خلقنا ٠٠ جعلنا (أمة) فى كل عصر (يهدون بالحق) يهتدون ، فيعملون به ، ويدعون الناس إليه ، لا يسكتون عن دعوتهم ، ولا يتخلون عنها ، ولا يتقوقعون على أنفسهم ، ولكنهم يهدون به غيرهم ، من الضالين عن هذا الحق، المتنكرين له ، المعادين للعمل به ٠
وكذلك ٠٠ هم (به) أى بهذا الحق (يعدلون) بين الناس إذا حكموا ٠
وهذا الحق الذى يهدون إليه ، ويحكمون به : هو ما أنزله الله ٠٠ هو آياته فى كتابه ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ٠

* * *

وفى مقابل هؤلاء الذين (يهدون بالحق وبه يعدلون) يوجد المكذبون بآيات الله ٠٠
الذين يقول عنهم المولى :

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ }
[الآيتان ١٨٢ ، ١٨٣]

يعنى : هؤلاء (الذين كذبوا بآياتنا) سنفتح لهم أبواب الرزق ، والمناصب ، والمكاسب ، و(سنستدرجهم) بها ، حتى يغتروا ، ويعتقدوا أنهم على شىء ، دون أن يعلموا أننا سنضربهم الضربة القاضية (من حيث لا يعلمون) ما يراد بهم ٠

وكذلك : (أملى لهم) أى : أمهلهم ، قبل إهلاكهم – فيما هم فيه من النعيم ، أو الضلال – ثم أكيد بهم وأهلكهم (إن كيدى) بهم ، وأخذى لهم ، حين يكون (متين) قوى ، لا نجاة لهم منه ، ولا رحمة لهم فيه ٠

* * *

وما دام الأمر كذلك ٠٠

والعذاب الشديد ينتظر المكذبين ٠٠

فلم لم يتفكروا فى وضع المنقذ لهم من هذا المصير الأليم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠ ؟!!

{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ }
[الآية ١٨٤]

أى : لِمَ لَمْ يتفكر هؤلاء المكذبون ، ويستعملوا عقولهم ؟!!

إنهم لو تفكروا فى أمر من يدعوهم إلى الإيمان : لعلموا أنه (ما بصاحبهم) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (من جنة) يعنى ليس مجنونا ، كما يدعى بعضهم٠

ولو تفكروا لعلموا يقينا (إن هو إلا نذير) لهم من عذاب الله (مبين) واضح فى دعوته ، قوى صادق فى حجته صلى الله عليه وسلم ٠

* * *

أيضا ٠٠

{ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ١٨٥]

يعنى : أو لم ينظر هؤلاء المكذبون ٠٠ نظر استدلال واعتبار ، فى هذا الملكوت العظيم (ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) لا يحصى ولا يعد ؟

خاصة : وأنه ربما (يكون قد اقترب أجلهم) وحانت نهايتهم ٠

فليبادروا إذن إلى التفكر والاعتبار ، ومن ثم ٠٠ الإيمان ٠٠

وإلا (فبأى حديث بعده) أى : القرآن ، أو الاعتبار الصحيح بخلق الأكوان (يؤمنون) إذا لم يهدهم ذلك إلى الإيمان ٠٠ ؟!!

* * *

ومن العجب ٠٠ أن يبقى الإنسان – مع وضوح القرآن ، ووضوح دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ووضوح آيات الله فى الكون – أن يبقى كافرا ٠
ولذلك :

{ مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }
[الآية ١٨٦]

أى : (من يضلل الله فلا هادى له) من أى أحد٠
(و) الله (يذرهم) يتركهم ؛ لاختيارهم الضلال (فى طغيانهم) كفرهم (يعمهون) يتحيرون ، لا يستريحون ، ولا يهتدون ٠

* * *

ومن الضلال ٠٠ ومن الطغيان : أن يتركوا التفكير فيما ينبغى ، وأن يتركوا العمل بما ينبغى ، ويسألون عن أشياء ، لا تقدم معرفتها ولا تؤخر ٠٠ مثل سؤالهم عن ميعاد يوم القيامة ٠٠
يقول تعالى :

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ١٨٧]

(يسألونك) أى : اليهود ، أو كفار قريش ، أو من يضل ضلالهم (عن الساعة) يوم القيامة (أيان مرساها) متى تكون ، ويرسيها الله ٠٠ ؟
(قل) هذا أولا ٠٠
(إنما علمها عند ربى) لم يخبر أحدا ، لا ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ٠
(لا يجليها لوقته إلا هو) لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاءها إلا هو سبحانه وتعالى ٠
ومع أنها (ثقلت) أهوالها وشدائدها على العقلاء (فى السموات والأرض) حتى يستعدون لها بالعمل الصالح : فإنها (لا تأتيكم إلا بغتة) أى : فجأة .

(يسألونك) أى : اليهود ، أو كفار قريش ، أو من يضل ضلالهم (كأنك حفى) مبالغ فى السؤال (عنها) حتى علمت وقتها .

(قل) ثانيا ..

(إنما علمها عند الله) لم يخبر به أحدا ، لا ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك .

* * *

ثم قال ربنا عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم :

{ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ١٨٨]

أى : (قل) ثالثا يا محمد .

أنا عبد ضعيف (لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله) لى من النفع والضر .

(ولو كنت أعلم الغيب) أى : المستقبل (لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) شأنى شأن كل الناس فى هذا .

وما (أنا إلا نذير وبشير) فقط (لقوم يؤمنون) ولا صلة لهذا ، ولا لذاك بعلم الغيب .

وهكذا ..

لفت الله عز وجل أنظار المشركين إلى التفكر فى وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) ؟

ثم أعطاهم دليلا من خلال إعلانات محمد صلى الله عليه وسلم عن نفسه .. بما يدل على أنه رسول الله إليهم ، وإلى الدنيا كلها ..

* * *

وكما لفت الله عز وجل أنظارهم إلى التفكر فى ملكوت السموات والأرض (أو لم يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) .. ليكون دليلا يوصلهم إلى التوحيد ..

يلفت نظرهم – كذلك – إلى ما يوصلهم إلى التوحيد..

حيث يقول :

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ }

[الآية ١٨٩]

يعنى : (هو) الله (الذى خلقكم من نفس واحدة) هى نفس آدم عليه السلام (وجعل منها) أى من نفس آدم (زوجها) أى حواء (ليسكن) يطمئن ويميل ويشتاق (إليها) ٠

(فلما تغشاها) آدم ، أى : جامعها٠

(حملت) منه (حملا خفيفا) شأن كل حمل فى أول أمره ٠

(فمرت به) الأيام ، وهو – أى الحمل – يكبر فى بطنها شيئا فشيئا ٠

(فلما أثقلت به) أى : ثقل حملها ، وقرب ميعاد وضعه : (دعوا الله ربهما) أى : دعا آدم وحواء ربهما ، قائلين ٠٠ يا ربنا (لئن آتيتنا) ولدا (صالحا) سويا سليما فى بدنه وعقله (لنكونن من الشاكرين) لك ، نحن ، وهو ، ومن يتناسل من ذرياتنا ٠

* * *

{ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }

[الآية ١٩٠]

أى : (فلما) استجاب الله دعاءهما ، و (آتاهما) ولدا (صالحا) كما طلبا : (جعلا) أى الرجل والمرأة من ذرية آدم وحواء (له) أى : لله (شركاء) أى : شريكا (فيما آتاهما) أى : فيما آتى وأعطى أولادهما ٠

وللعلم : الذى جعل الشركاء لله ٠٠ هم ذرية آدم وحواء ٠

وأما آدم عليه السلام وحواء : فهما بريئان من هذا الشرك تماما ٠

وعلى كل ٠٠

(فتعالى الله) وتنزه (عما يشركون)٠

* * *

{ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ }

[الآية ١٩١]

أى : (أيشركون) مع الله الخالق (ما لا يخلق شيئا) ولا يستطيعه (وهم) فى ذات الوقت (يُخلقون) أى : مخلوقون .

{ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ }

[الآية ١٩٢]

يعنى : كما أن هذه الآلهة المزعومة (لا يستطيعون لهم نصرا) أى لمن جعلوهم آلهة وأشركوهم مع الله ، (ولا) حتى (أنفسهم ينصرون) فيدفعون عنها ما يحدث لها من كسر أو غيره ٠٠!!

* * *

{ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ }
[الآية ١٩٣]

أى : (وإن تدعوهم) وتطلبوا منهم خيرا ، أو ترشدونهم (إلى الهدى) كما تطلبون من الله تعالى (لا يتبعوكم) إلى مرادكم ، ولا يجيبوكم فى تحقيق ما تطلبون ٠

(سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) أى : فدعوتكم لهم ، وسؤالكم لهم ، وعدم دعوتكم وعدم سؤالكم سواء ٠٠ فى أنه لا فلاح معهم ٠

* * *

وما ذلك ٠٠ إلا بسبب أنهم مخلوقون مثلكم ، لا يملكون شيئا ٠٠
يقول تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ١٩٤]

يعنى : (إن) هؤلاء الشركاء (الذين تدعون من دون الله) وتسمونهم آلهة (عباد آمثالكم) مخلوقون لا يملكون لكم ولا لأنفسهم شيئا ٠

وإلا ٠٠

(فادعوهم) لجلب نفع لكم ، أو لدفع ضر عنكم (فليستجيبوا لكم) إذّن ٠٠ فى جلب النفع ، أو دفع الضر (إن كنتم صادقين) فى زعمكم أنهم آلهة ؛ وتشركونها مع الله ٠٠ !!

* * *

ثم ·· يا أيها الناس ··
أيعقل أن يكون هؤلاء (الذين تدعون من دون الله) : عباد أمثالكم ،وهى أصنام لا تعقل ··؟
أيعقل أن يكون هؤلاء ·· آلهة ·· ؟

{ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ }
[الآية ١٩٥]

يعنى: ألهؤلاء الشركاء ·· (أرجل يمشون بها) مثلكم ·· ؟ (أم لهم أيد) يتناولون بها الأشياء ·· ؟ (أم لهم أعين) يرون بها ··؟ (أم لهم آذان) مثل آذانكم (يسمعون بها) ·· ؟

لا ·· ليس لهم هذا ولا ذلك ، من الأعضاء الأربعة ، ومنافعها ·

فلم تعبدوا هذه الأشياء إذن ·· ؟

وما داموا مصرين على عبادتهم ··!!

(قل) لهم يا محمد (ادعوا شركاءكم) واستعينوا بهم ، فى عدواتكم لى وهلاكى (ثم كيدون) أى : ابذلوا كل جهودكم فى الكيد لى ، أنتم وهم ·

(فلا تنظرون) أى : ولا تعطونى مهلة فى هذه الحرب ؛ حتى لا أستعد لها·

فإنى بالرغم من ذلك كله ·· لا أبالى بكم ، ولا أهتم لأمركم ·

حيث ··

{ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ }
[الآية ١٩٦]

نعم ·· (إن وليى الله) فهو ناصرى عليكم ، وهو الله (الذى نزل الكتاب) علىَّ وأعزنى به ، وشرفنى برسالته ، (وهو) سبحانه (يتولى الصالحين) فينصرهم على أعدائهم ، ولا يخذلهم ·

* * *

أما الذين تدعون أنتم من دونه ، فيقول عنهم ربنا :

{ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ }
[الآية ١٩٧]

أى : فهم عجزة مثلكم (لا يستطيعون نصركم) علينا (ولا أنفسهم ينصرون) على من يعتدى عليهم ·

{ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ }
[الآية ١٩٨]

يعنى : لا يستجيبون لهداية ؛ لأنه لا عقل عندهم ، ولا حياة فيهم ، (وتراهم) وأنت تنظر إليهم ، كأنهم (ينظرون إليك وهم) فى حقيقة الأمر (لا يبصرون) شيئا ٠

* * *

وبعد هذا النقاش مع المشركين ٠٠!!
وبعد إقامة الأدلة على ضلالهم ٠٠!!
يأمر الله تعالى حبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم : بأربعة أشياء ٠٠ هى له، ولأمته ، فى قوله عز وجل :

{ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآيتان ١٩٩ ، ٢٠٠]

فالأول : (خذ العفو) أى : اجعل العفو صفتك ؛ حيث إنه لما نزلت هذه الآية ؛ قال صلى الله عليه وسلم ما هذا يا جبريل ٠٠ ؟ قال : إن الله يأمرك ٠٠أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك ٠
والثانى : (وأمر بالعرف) أى : بالمعروف والجميل من الأفعال والأقوال، التى يرتضيها العقل ، ويقبلها الشرع ٠
والثالث : (وأعرض عن الجاهلين) أى : لا تقابلهم بمثل سفههم ، وهى كقوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)[الفرقان ٦٣] ٠
يقول جعفر الصادق رضى الله عنه "ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية "٠
والرابع : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) أى : ينخسك بوسوسته (فاستعذ بالله) منه ، أى : فالجأ إلى الله ، واستجر به ، بذكر الاستعاذة (إنه) سبحانه وتعالى (سميع) يسمع وسوسة الشيطان ، ويسمع استعاذتك منه (عليم) بما فيه صلاح أمرك ، يفعله كرما منه لك ، وعطفا عليك ٠

* * *

{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ }
[الآية ٢٠١]

حيث (إن الذين اتقوا) ربهم (إذا مسهم طائف من الشيطان) أى شىء، كوسوسة بفعل المعاصى أو ترك الطاعات (تذكروا) الله تعالى ومراقبته ؛ فخافوه واتقوه ، وتذكروا عقابه على فعل المعاصى ، وضياع ثوابه بسبب ترك الطاعات (فإذا هم مبصرون) الحق ، فاعلون له ، راشدون به ٠

وذلك بالرغم من العوائق التى تحول بينهم وبين النجاح فى تنفيذ ذلك ، والتى يشير إليها قوله تعالى :

{ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ }
[الآية ٢٠٢]

يعنى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ناجون ، بالرغم من أن (إخوانهم) وزملاءهم وأصدقاءهم السوء ، من شياطين الإنس والجن (يمدونهم فى الغى) يشجعونهم فى الانحراف والفساد ، وما فيه ضررهم وهلاكهم ، ويستمرون على ذلك التشجيع لهم (ثم لا يقصرون) فيه ، ولا يسكتون عنه ٠

* * *

ثم يبين ربنا عز وجل ٠٠ أنه بينما المتقون على بصيرة من نور الله : فإن المشركين فى عماهم يقترحون على محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠ أن يأتى لهم بالآيات الدالة على صدقه ؛ استهزاء منهم ٠

يقول تعالى :

{ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٢٠٣]

أى : هم يقترحون عليك يا محمد أن تأتى لهم بالآيات ٠٠ (وإذا لم تأتهم بآية) كما يطلبون : يقولون لك (لولا اجتبيتها) أى : لولا اختلقتها من نفسك ، كما فعلت ما قبلها ، مثل القرآن الذى جئت به من عند نفسك ٠

(قل) لهم (إنما أتبع ما يوحى إلىَّ من ربى) لا أقترح عليه ، ولا آتى بشىء من عندى ، فأنا متبع لوحى ربى ملتزم به ، ولست مبتدعا لشىء مما جئت به ٠

وقل لهم أيضا (هذا) القرآن (بصائر) وآيات (من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) به ، فينتفعون ٠

فهلا آمنتم ، وانتفعتم ٠٠ ؟!!

* * *

ولما ذكر ربنا سبحانه ٠٠ أن القرآن بصائر للناس ، وهدى ، ورحمة٠٠

أمر بالاستماع له ، والإنصات عند تلاوته ؛ إعظاما له ، واحتراما ٠
فقال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل لهم وللدنيا كلها ٠٠

{ وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }
[الآية ٢٠٤]

يعنى : يجب عليكم ، ولمصلحتكم ٠٠ (إذا قرئ القرآن) أن تستمعوا له ٠٠ استماع تدبر وتعقل ، وأن تنصتوا فى خشوع وتواضع ، (لعلكم ترحمون)٠
وفى الحديث من استمع إلى آية من كتاب : كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها : كانت له نورا يوم القيامة ٠

* * *

ثم يأمر المولى – تبارك وتعالى – رسوله صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين ٠٠ أن يذكروا الله تعالى ٠
وذلك فى قوله :

{ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ }
[الآية ٢٠٥]

أى : (اذكر ربك فى نفسك) أيها المؤمن بكل ما تستطيعه من الأذكار ، مثل: قراءة القرآن ، والدعاء ، والتسبيح ، والتهليل ، سرا ، على أن يكون هذا الذكر (تضرعا) تذللا لله تعالى (وخيفة) منه (ودون الجهر) لأن الإخفاء ٠٠ أقرب إلى الإخلاص وحسن التفكر (بالغدو والآصال) أوائل النهار وآخره ٠
وداوم على ذلك (ولا تكن من الغافلين) اللاهين عن ذكر الله ومراقبته ٠
حيث ٠٠

{ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ }
[الآية ٢٠٦]

يعنى : : إذا كان (الذين عند ربك) وهم الملائكة (لا يستكبرون) ولا يترفعون ، ولا يمتنعون ، ولا يتكاسلون (عن عبادته) قلبيا كالتسبيح (ويسبحونه) أى : ينزهونه عما يليق به ، وبدنيًا كالسجود له (وله يسجدون) أى : يخصونه بالخضوع والخشوع والتذلل والعبادة ٠
فكيف بكم أنتم ٠٠ ؟
يعنى : فكونوا مثلهم ٠٠ لا تستكبروا عن عبادة الله ، وسبحوه ، ونزهوه ، وعظموه ، واخضعوا له ٠

وهذه – أيها القارئ الكريم – أول سجدة فى القرآن ٠

وهى : من السجدات ، التى يشرع لتاليها ومستمعها ٠٠ السجود بالإجماع٠

وقد ورد فى حديث عن أبى الدرداء : أن النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ عدها فى سجدات القرآن (رواه : ابن ماجه)٠

فإذا قرأها المؤمن أو سمعها : سجد لله تعالى ٠

ويقول فى سجوده : ما يقول فى سجود الصلاة ٠

أو يقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجرا ، وضع عنى بها وزرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود .

(رواه : الترمذى ٠٠ كتاب الجمعة ، باب ما يقول فى سجود القرآن ، وابن ماجه ٠٠ كتاب إقامة الصلاة ، باب سجود القرآن) ٠

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ١]

هذه هي بداية سورة الأنفال المدنية ٠
وقد نزلت في غزوة بدر الكبرى ، في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة النبوية ٠
والسورة : تهتم بتربية الجماعة المسلمة على منهج الله ، وتعدها لقيادة البشرية للعمل بهذا المنهج الرباني ٠

وقد نزلت : لما اختلف المسلمون في غنائم بدر ، بعد المعركة ٠
فقال الشباب : هي لنا ؛ لأنا باشرنا القتال ، وقمنا به ٠
وقال الشيوخ : هي لنا ؛ لأنا كنا حماية لكم تحت الرايات ، ولو انكشفتم لرجعتم إلينا ، فلا تأخذوها وحدكم ٠

وهنا : نزل (يسألونك عن الأنفال ٠٠)
والمعنى : (يسألونك) يا محمد عن الأنفال ٠
والأنفال : هي غنائم الحرب ، وسميت بالأنفال ؛ لأنها نفل وعطية من فضل الله تعالى ٠
(قل) لهم : حكم (الأنفال لله والرسول) يأمر الله فيها ، وينفذ الرسول ، ويقسم كما أمر الله ، وليس ذلك لأحد آخر ٠
ثم يأمر الله المؤمنين بثلاثة أوامر ، مهمة جدا في موضوع "الجهاد في سبيل الله" الذي هو خط السورة العام ٠
يأمر أولا: بالتقوى ٠٠ فيقول :
(فاتقوا الله) أي : في تنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه ؛ حيث إن الجهاد بدون تقوى الله ليس بجهاد ٠
ويأمر ثانيا : بإصلاح ذات البين ٠٠ فيقول :
(وأصلحوا ذات بينكم) أي : أصلحوا ما بينكم ، حتى تكونوا مجتمعين على أمر الله ورسوله ، في ألفة ومحبة واتفاق ؛ حيث إن الجهاد يحتاج إلى وحدة صف ، ومن ثم فلابد من إصلاح ذات البين ٠
ويأمر ثالثا : بالطاعة لله والرسول صلى الله عليه وسلم ٠٠ فيقول :
(وأطيعوا الله ورسوله) أي : في كل ما يأمر به الله ورسوله ؛ حيث إن الجهاد يحتاج إلى انضباط .. ، والانضباط هو الأساس في الجهاد ، ولا انضباط بدون طاعة الله ورسوله ٠
ثم يقول تعالى (إن كنتم مؤمنين) أي : فالتزموا بهذه الأوامر الثلاثة المذكورة ٠

* * *

وبعد ذلك ٠٠

يحدد ربنا – سبحانه وتعالى – صفات المؤمنين الحقيقيين ، الذين يقوم بهم " الجهاد الإسلامي" فيقول :

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }
[الآيتان ٢ ، ٣]

أي : (إنما المؤمنون) الكاملون في إيمانهم ٠٠ هم (الذين) يتصفون بهذه الصفات الخمس ٠٠ ثلاث قلبية ، وواحدة بدنية ، وواحدة مالية ٠

الصفة الأولى : قلبية (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) يعنى : فزعت وخافت من وعيده ، واستعظمت وتهيبت من جلاله٠

الصفة الثانية : قلبية (إذا تليت عليهم آياته) أي : القرآن (زادتهم إيمانا) ازدادت قلوبهم بها اطمئنانا ويقينا بالله تعالى ٠

الصفة الثالثة : قلبية (على ربهم يتوكلون) أي : يعتمدون عليه ، ويفوضون أمورهم إليه ، لا يرجون سواه ، ولا يطلبون إلا منه ، ويعلمون أن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ فيسلمون الأمر إليه ٠

الصفة الرابعة : بدنية (الذين يقيمون الصلاة) أي : يحافظون عليها ٠٠ في مواقيتها ، وكيفيتها ، وشروطها ، والإخلاص لله فيها ٠

الصفة الخامسة : مالية (ومما رزقناهم ينفقون) وذلك يشمل الزكاة ، والصدقات ، وسائر حقوق العباد ، من واجب ومستحب ٠

* * *

ثم يبين ربنا تبارك وتعالى : أن المتصفين بهذه الصفات الخمس ، هم (المؤمنون حقا) ٠٠ فيقول :

{ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }
[الآية ٤]

يعني : هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات المذكورة (هم المؤمنون حقا) أي : إيمانا صادقا ، لا شك فيه ، ولا تردد به ٠

هؤلاء (لهم) :

(درجات عند ربهم) أي : منازل ومراتب ومقامات ، بعضها فوق بعض ، على قدر أعمالهم وإخلاصهم فيها ٠

(ومغفرة) لسيئاتهم وخطاياهم التي كانت منهم بحكم بشريتهم ٠

(ورزق كريم) في الجنة ، خال من الجهد في كسبه ، أو الخوف من انتهائه ٠

* * *

ونلاحظ – أيها القارئ الكريم – أن الآيات بهذا الشكل : رفعت الهمم والعزائم لكل لوازم الجهاد في سبيل الله ، وعالجت كل عوامل الخذلان ، والخلاف، ودعت إلى الطاعة ، والارتفاع إلى درجات الإيمان الكامل ٠

* * *

ثم تدخل الآيات إلى غزوة بدر وأحداثها ٠٠
فيقول ربنا عز وجل :

{ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ }
[الآية ٥]

والمعني : (قل الأنفال) استقرت (لله والرسول) بالحق ، بعد خلافكم حولها (كما أخرجك ربك) يا محمد (من بيتك) في المدينة ، (بالحق) للقتال (وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) لهذا القتال لعدم استعدادهم له ، مثلما كانوا كارهين لتوزيع الغنائم قبل تقسيم الله تعالى لها .

* * *

هذا الفريق ٠٠ كانوا :

{ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ }
[الآية ٦]

يعني : (يجادلونك في) القتال ، لعدم استعدادهم له ، والقتال هو (الحق) .
وكانوا يجادلونك (بعد ما تبين) لهم الحق في القتال ، وإعلامك لهم بأنهم سينصرون .
وصار حالهم (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) وذلك لقلة عددهم ، وانعدام فرسانهم ، وكثرة عدوهم ، وقوة شوكتهم .
ومع ذلك : فقد كان في القتال كل الخير للإسلام والمسلمين .

* * *

ثم يذكر الله عز وجل المؤمنين بما وعد به رسوله صلى الله عليه وسلم ٠٠ فيقول :

{ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ }
[الآية ٧، ٨]

أي : واذكروا يا مسلمون (إذ يعدكم الله) نوال (إحدى الطائفتين أنها لكم) القافلة ٠٠ فتأخذونها بما فيها من أموال ، أو الجيش ٠٠ فتنتصرون عليهم وتغنمون منهم .

وكنتم (تودون) وترغبون (أن) تكون لكم القافلة (غير ذات الشوكة) أي : غير ذات السلاح والحرب .

ولكن (يريد الله) غير ذلك ، فهو يريد (أن يحق الحق) ويعليه ويثبته (بكلماته) أي : بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة ، وهي الجيش الكافر ٠

وذلك : لـــ (يقطع دابر الكافرين) فيهزمهم ، ويستأصلهم ٠

وما ذلك ٠٠ إلا (ليحق الحق) وهو الإسلام ، فيظهره على الكفر ، وينصر أهله على أعدائهم (ويبطل الباطل) وهو الكفر ، فيمحقه ، ويدحر أهله .

حتى (ولو كره المجرمون) الكافرون ، إحقاق الحق ، الذي يكرهونه ، وإبطال الباطل الذي يحبونه ٠

وعلى ذلك : فليس الخير فيما تودون وتحبون أنتم ، بل الخير كل الخير فيما يحبه الله ويريده ٠

ويلاحظ أنه إذا كان الله تعالى ٠٠ يحب القتال في سبيله : فينبغي أن يحبه المسلمون ويألفوه ، ويحملوا أنفسهم عليه ؛ حبا في الله ، وطاعة له ، ولرسوله .

* * *

ثم يذكر الله تعالى المؤمنين – أيضا – بموقف من مواقف يوم بدر ٠٠ فيقول :

{ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ }
[الآية ٩]

أي : اذكروا نعمة الله عليكم ، وقت أن كنتم (تستغيثون ربكم) أن ينصركم؛ لضعفكم ، وقلة عددكم ، ونقص عُدَدكم ، وقوة عدوكم ، وكثرة عَدَدِه وعُدَدِه .

(فاستجاب لكم) أي : أجابكم ، ولبى استغاثتكم .

وكانت هذه الإجابة : بما يفيده قوله (أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) أي : سأغيثكم ، وأرسل لكم هذا العدد من الملائكة ، متتابعين ، يناصرونكم في قتال عدوكم .

{ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }
[الآية ١٠]

أي : وما جعل الله هذا الإمداد بالملائكة ، بعد استغاثتكم بنا : (إلا بشرى) لكم بالنصر (ولتطمئن به) أي : بهذا الإمداد بالملائكة (قلوبكم) .

ولكن : إياكم وأن تفهموا أن النصر من صنعكم ، أو من مساعدة الملائكة لكم ..

بل الحقيقة التي ينبغي معرفتها جيدا .. أنه (وما النصر إلا من عند الله) فقط ، والمنصور : من نصره الله .

حيث (إن الله عزيز) ينصر أولياءه (حكيم) في شرع الجهاد لقهر أعدائه .

* * *

وعلى هذا : فالواجب على المسلم .. ألا يتوكل إلا على الله فى جميع أحواله ، وأن لا يثق بغيره ، وأن يثق به وحده ، وأن لا يتكل على قوته ، وشدة يأسه ، حيث إن الله تعالى بيده وحده الإعانة والنصر .

يقول ربنا سبحانه وتعالى... عما حدث من مبشرات في بداية المعركة :

{ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ }
[الآية ١١]

يعنى : اذكروا من نعم الله عليكم وبشاراته بالنصر لكم (إذ يغشيكم النعاس) أي : ينزل عليكم ليلة المعركة النعاس ، وكأنه يغطيكم به (أمنة منه) فيجعله لكم أمنا من الخوف من أعدائكم .

(وينزل عليكم من السماء) صبيحة يوم المعركة ، بقدرته (ماء) .

وذلك ..

(ليطهركم به) من كل حدث – أصغر أو أكبر – أصابكم .

(ويذهب عنكم رجز الشيطان) أي : وسوسته ، التي تعذب نفوسكم ، وتخويفه لكم من العطش لقلة الماء .

(وليربط على قلوبكم) بالصبر ، واليقين في النصر .

(ويثبت به الأقدام) حتى لا تسوخ في الرمل اليابس .

وكل هذا .. تذكير لهم بما في قدرة الله .. لمن توكل عليه ، وقاتل في سبيله ..

* * *

وهناك .. بشارات أخرى في قوله تعالى :

{ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ }
[الآية ١٢]

وهذه نعمة أخرى وبشارة جديدة .. خفية : يظهرها الله تعالى ، ليشكره المؤمنون عليها ، ولتتذكرها الأجيال ؛ فيتوكلوا على الله ، واثقين بنصره وتأييده في أية معركة للإسلام يدخلونها .

والمعنى : اذكر أيها المؤمن (إذ يوحي ربك إلى الملائكة) الذين أنزلهم في بدر ، قائلا لهم (أني معكم) بالتأييد ، والعون ، والنصر .

(فثبتوا الذين آمنوا) بتقوية قلوبهم ، أو بتكثير عددهم ، أو بتبشيرهم بالنصر .

ومن جهتي أنا (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) والهزيمة النفسية .

(فاضربوا فوق الأعناق) أي : الرءوس ففلقوها ، والرقاب فقطعوها .

(واضربوا) كذلك (منهم كل بنان) أي : قطعوا أصابعهم ، وشلوا أيديهم وأطرافهم ، حتى يعجزوا تماما عن القتال .

* * *

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }
[الآية ١٣]

يعني : وما كل (ذلك) إلا (بأنهم) أي : بسبب أنهم (شاقوا) أي: خالفوا ، وعاندوا ، وحاربوا (الله ورسوله) .

(ومن يشاقق الله ورسوله) في الدنيا (فإن الله شديد العقاب) له ، في الدنيا والآخرة .

* * *

وما رأيتم وحدث لكم في المعركة : لون من العذاب .

{ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ }
[الآية ١٤]

أي : (ذلكم) العذاب ، بالهزيمة والخذلان في الدنيا (فذوقوه) الآن .
(وأن للكافرين) فوق ذلك ، عند الله (عذاب النار) في الآخرة .

* * *

أيها القارئ الكريم : الآيات التي سوف نقرأها إليها : فيها نداءات توجيهية لأهل الإيمان .
وهذه التوجيهات : تستند إلى دروس غزوة بدر .
وهي – أي التوجيهات – :
تضع : دستور الحركة الجهادية المفروضة على المسلمين .
كما تضع : خطوات النجاح في هذه الحركة .
وتحدد – ثالثا – الأساسيات التي تقوم عليها فريضة الجهاد ٠٠ وهي :

(١) الثبات في المعركة .
(٢) الطاعة .
(٣) الاستجابة المباشرة للأمر .
(٤) الحذر من الخيانة .
(٥) التقوى .

فلنقرأ – سويا – هذه النداءات الإيمانية ، التي تحمل هذه التوجيهات الربانية :
النداء الإيماني الأول : حول ضرورة الثبات في المعركة .
يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ }
[الآية ١٥]

يعني : (إذا لقيتم الذين كفروا) في المعركة ، وجها لوجه (فلا) تخافوهم ،
وتنهزموا أمامهم ، و (تولوهم الأدبار) أي : تفرون أمامهم ، وتعطونهم ظهوركم، وتهربون منهم .

* * *

{ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }
[الآية ١٦]

يعني : ومن يفعل ذلك الفرار من ميدان المعركة : فقد عاد منها وعليه غضب من الله ، وصار (مأواه) مصيره في يوم القيامة (جهنم) (وبئس) هذا (المصير) .

ولا ينجو من غضب الله وهذا المصير ٠٠ إلا من كان بهذا التولي (متحرفا لقتال) أي : مغيرا لموقعه ، كفن من فنون الحرب ، أو خدعة من خدعه ، وهو يريد هزيمة عدوه ، أو كان (متحيزا إلى فئة) أي : منضما إلى جماعة أخرى مقاتلة من جماعة المسلمين التي تقاتل هؤلاء الأعداء ، فتصرفه حيلة من حيل الحرب .

* * *

وإذ قد اتضح ذلك ٠٠ واستقر في النفوس : وجوب عدم الفرار ٠٠
فاعلموا أن الفاعل الحقيقي لكل شيء هو الله تعالى .
حيث يقول :

{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ١٧]

أي : اثبتوا يا أيها الذين آمنوا في المعركة ، واطمئنوا ، وثقوا في النصر ، ولا تغتروا ٠٠
فإن الذين قتلوا من الكفار في بدر (لم تقتلوهم) أنتم بقوتكم (ولكن الله قتلهم) بقدرته ، ونصره إياكم .
وإن الذين عموا من الكفار في بدر (ما رميت) يا محمد أعين القوم (إذ رميت) بالحصى لأن كفا من الحصى لا يملأ أعين الجيش الكثير (ولكن الله رمى) حيث أوصل ذلك إليهم ، وأعمى به عيونهم .
وقد فعل الله ذلك من القتل والرمي ٠
ليقهر الكافرين ، ويهزمهم .
(وليبلي المؤمنين) أي يعطيهم (منه) سبحانه (بلاء) عطاء (حسنا) وهي الغنائم التي حصلوا عليها ، والنصر الذي فرحوا به .
(إن الله سميع) للأقوال (عليم) بالأحوال .

* * *

{ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ }
[الآية ١٨]

أي : (ذلكم) القتل ، والرمي ، والعطاء الحسن للمؤمنين : حق .

يضاف إليه (أن الله موهن) أي : مضعف (كيد الكافرين) أي : حقدهم ، وتخطيطهم ، وحروبهم .

ويلاحظ : أنه في إضعاف كيد الكافرين ، وإعطاء المؤمنين العطاء الحسن: تثبيت لهم ، وتقوية لنفوسهم ، حتى لا يخافوا من أعدائهم .

فهل يفعلون ٠٠ ؟

* * *

ثم يخاطب الله الكافرين – استهزاء منه بهم – ليعلم المؤمنين بما يريد عز وجل ، وليزيد في طمأنتهم . فيقول :

{ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ١٩

]

يعني : أيها الكفار (إن تستفتحوا) أي : تطلبون النصر (فقد جاءكم الفتح) يعني : فقد جاءكم النصر للمسلمين عليكم .

(وإن تنتهوا) عن عداوة الإسلام وأهله (فهو خير لكم).

(وإن تعودوا) لعداوة الإسلام وأهله (نعد) لنصرة الإسلام وأهله عليكم .

واعلموا ٠٠ أنه (لن تغني عنكم فئتكم) أي جمعكم وعددكم مهما كانت (شيئا) مما تريدون ، حتى (ولو كثرت) فئتكم لتحقيق هذا الغرض .

خاصة وإنكم لا تعلمون (أن الله مع المؤمنين) بالنصر والتأييد .

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠ هل تذكر أننا ما زلنا حتى الآن في رحاب النداء الإيماني الأول : حول ضرورة الثبات في المعركة ٠٠ ؟

على كل حال ٠٠ انتهى الحديث حول النداء الأول .

* * *

والآن يبدأ الحديث عن النداء الإيماني الثاني :

وهو : حول ضرورة "الطاعة" .

يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ }
[الآيتان ٢٠ ، ٢١]

يعنى : (أطيعوا الله ورسوله) في كل شيء ، ومن ذلك : القتال .
(ولا تولوا عنه) أي : تعرضوا ، أو تبتعدوا ، أو تتهاونوا في هذه الطاعة٠٠ خاصة (وأنتم تسمعون) القرآن يتلى عليكم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يتحدث إليكم .
(ولا تكونوا) أيها المؤمنون ٠٠ كالمنافقين (الذين قالوا) كذبا (سمعنا وهم) في الحقيقة (لا يسمعون) أي : لا يصدقون .

* * *

ثم يبين ربنا سبحانه وتعالى ٠٠ أن هؤلاء الذين يقولون (سمعنا وهم لا يسمعون) شر الناس ، وأسوأ أصنافهم .
حيث يقول :

{ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ }
[الآية ٢٢]

أي : (إن شر الدواب) التي خلقها الله ، وتدب على وجه الأرض ، وهي بغيضة (عند الله) .
الذين هم : صم عن سماع الحق ، بكم عن فهمه ، وعدم تعقله ، والنطق به.
وذلك : لأن كل دابة سواهم ٠٠ مطيعة لله فيما خلقها له ، وأما هؤلاء ٠٠ فقد خلقوا لعبادة الله ، ولكنهم كفروا .

* * *

ولذلك ٠٠
عاقبهم الله تعالى ٠٠ بما يفيده قوله :

{ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ }
[الآية ٢٣]

يعنى : (لو علم الله) في هؤلاء البكم (خيرا) من صدق ، أو رغبة في صلاح (لأسمعهم) سماعًا يفيدهم .

(و) لكنه (لو أسمعهم) وصدقوا (لتولوا) وارتدوا بعد ذلك (وهم معرضون) عن الإيمان ، لعدم توافر الطاعة لديهم ، وتكبرهم عن الحق يأتيهم .

* * *

وهكذا ينتهي النداء الإيماني الثاني .

ويبدأ النداء الثالث ٠٠

وهو : حول ضرورة الاستجابة المباشرة لأمر الله ورسوله .

يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }

[الآية ٢٤]

يعني : (استجيبوا) فورا (لله وللرسول) بالطاعة والانقياد لأمرهما (إذا دعاكم) أحدهما (لما يحييكم) من أمر الدين ، بالامتثال للأمر ، والاجتناب للنهى ؛ حيث إن ذلك ٠٠ فيه السعادة الكاملة ، التامة ، في الحياة الأبدية ، ومن هذه الأشياء التي يجب تلبية الدعوة فيها فورا الجهاد ؛ لأن فيه : السعادة في الدنيا بالنصر ، وفي الآخرة بالشهادة .

(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) فلا إيمان إلا بإرادته ، ولا صلاح إلا بمشيئته .

ولذلك : عليكم بالاستجابة الفورية ، لأمر الله ورسوله ؛ ليوفق الله قلوبكم للخير ، ونفوسكم للصلاح .

خاصة : (وأنه) سبحانه (إليه تحشرون) فيثيبكم على حسب سلامة القلوب ، وإخلاص الطاعة ، وسرعة الاستجابة .

* * *

أيضا ٠٠

{ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

[الآية ٢٥]

أي : (اتقوا) أيها المؤمنون (فتنة) أي : معصية (لا تصيبن) بضررها (الذين ظلموا منكم خاصة) بل تعم الجميع بهذا الضرر ، المسيء والمحسن.

(واعلموا أن الله شديد العقاب) إذا عاقب من خالفه .

* * *

ويلاحظ : أنه لابد إذن من تطبيق الإسلام كله ·· بالاستجابة لله ولرسوله ، وأنه لابد من قتال الأعداء .

وأنه : إذا لم تكن هناك استجابة ، ولا أمر بالمعروف ، ولا نهى عن المنكر ، ولا قتال من أجل نصرة الإسلام ·· فإن المسلمين معرضون لكارثة تحل بهم جميعا .

* * *

ثم يأمر الله عباده المؤمنين ·· أن يتذكروا نعم الله عليهم .

فيقول :

{ وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

[الآية ٢٦]

وفي هذه الآية الكريمة : يذكرهم الله بحالهم قبل بدر ، وحالهم بعدها ·· فيقول :

(واذكروا) حالكم (إذ أنتم) عددكم (قليل) وحالكم ذليل ؛ حيث إنكم (مستضعفون في الأرض) أي : مكة ، فقد كنتم (تخافون أن يتخطفكم الناس) إذّ كانوا كلهم لكم أعداء ، مضادين لدعوتكم ، كافرين بها .

ولكن الله عز وجل ·· أنعم عليكم ، نعما كثيرة .

(فآواكم) في المدينة ، حيث أصبحت لكم وطنا .

(وأيدكم بنصره) على الكفار ، يوم بدر .

(ورزقكم من الطيبات) وهي الغنائم الكثيرة ، التي حصلتم عليها ، بعد نصركم على أعدائكم .

(لعلكم تشكرون) الله ، على هذه النعم التي أنعم بها عليكم ، ومن الشكر : أن تستجيبوا لله وللرسول في كل شيء .

* * *

يلاحظ :أن مجيء هذه الآية بعد الأمر بالاستجابة لله وللرسول ·· فيه تذكير لهذه الأمة ·· بأن طريقها للقوة ، والرزق ، والرفاهية هو الاستجابة الفورية المباشرة لله وللرسول .

كما أنها : إذا فكرت في غير هذا ٠٠ فقد انحرفت عن الطريق السليم ٠٠ وهذا حال الناس اليوم ٠٠ !!

* * *

وهكذا : ينتهي النداء الإيماني الثالث .

ويبدأ النداء الرابع .
وهو : حول التحذير من الخيانة .
يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٢٧

]

يعني : (لا تخونوا الله والرسول) بترك الطاعة ، وارتكاب المعصية .
(و) لا (تخونوا أماناتكم) بإفشاء أسرار المؤمنين للكافرين والمنافقين (وأنتم تعلمون) ضرر ذلك الإفشاء للأسرار ، والخيانة للأمانة .

* * *

ثم يأمر الله المسلم ٠٠ أن يعلم أمرا هاما ٠٠ قائلا :

{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }
[الآية ٢٨]

أي : (اعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أي : قد تكون سببا في وقوع الإنسان في الفتنة ؛ حيث إنه لا يدفع الإنسان إلى ترك القتال ، أو ارتكاب المعصية ، أو إفشاء الأسرار ، أو خيانة الأمانة ٠٠ إلا رجاء : المال أو الخشية على العيال ، أو حب الأولاد .
إن (الله عنده أجر عظيم) فلا ترتكبوا المعاصي ، ولا تتركوا القتال في سبيل الله ، ولا تفشوا الأسرار ، ولا تخونوا الأمانات ؛ لتنالوا من الله هذا الأجر العظيم .

* * *

وهكذا : ينتهي النداء الإيماني الرابع .
ويبدأ النداء الخامس .
وهو : حول ضرورة التحلي للمجاهدين وغيرهم بالتقوى .
يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }
[الآية ٢٩]

يعني : إن تتقوا الله أيها المؤمنون ٠٠ فإن الله عز وجل ٠٠ يعدكم ، ويمنحكم هذه الأشياء :
(يجعل لكم فرقانا) مخرجا من ضيقكم ، ونجاة من أزماتكم ، ونصرا على عدوكم .
(ويكفر عنكم سيئاتكم) أي : يمحوها من صحائفكم .
(ويغفر لكم) ذنوبكم ؛ حيث يسترها عن أعين الناس ، يوم (تعرضون لا تخفى منكم خافية) .
(والله ذو الفضل العظيم) على عباده المؤمنين .

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠
بعد هذه النداءات الإيمانية التوجيهية الخمسة ، التي تعرضنا لها بالتوضيح.
يكون الحديث الإلهي ٠٠ مع النبي صلى الله عليه وسلم .
حيث يقول ربنا عز وجل :

{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }
[الآية ٣٠]

أي : اذكر يا محمد (إذ يمكر بك الذين كفروا) في مكة ؛ حيث كانوا ٠٠ يخططون ، ويدبرون (ليثبتوك) أي : يحبسونك (أو يقتلوك) بسيوفهم قتلة رجل واحد ، يشتركون فيها (أو يخرجوك) من مكة ، منفيا بعيدا عنها وعن أهلها .
(ويمكرون) في ذلك ، ويتآمرون عليك ، في الخفاء .
ولكن (يمكر الله) بهم ؛ حيث يعاملهم بمكرهم ، فيخفى عنهم ما أعد لهم .
(والله خير الماكرين) إذ مكره أنفذ من مكرهم ، وأشد تأثيرا .

* * *

ثم يخبر ربنا عز وجل ٠٠ عن كفر قريش ، وعتوهم ، وعنادهم ، وباطلهم، هم وأمثالهم .
فيقول :

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ }
[الآية ٣١]

أي : إذا تلي عليهم القرآن ٠٠ عاندوا وتبجحوا ، و (قالوا قد سمعنا) هذا من قبل (لو نشاء لقلنا مثل هذا) وهم كاذبون في ذلك ؛ لأنهم دعوا – قبل ذلك كثيرا – إلى أن يأتوا بسورة واحدة ، من مثل هذا القرآن ٠٠ فلم يفعلوا ، ولن يفعلوا .
ولذلك : لما عجزوا ، قالوا (إن هذا إلا أساطير الأولين) أي : ما هذا إلا خرافات السابقين .

* * *

ومن كفرهم ٠٠ وعنادهم ، وعتوهم ٠٠ كذلك : ما يحكيه عنهم رب العزة٠٠

{ وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }
[الآية ٣٢]

يعني : اذكر وقت أن (قالوا اللهم إن كان هذا) القرآن (هو الحق من عندك) فعاقبنا على إنكاره .
ثم حددوا نوع العقاب ٠٠ حيث قالوا :
(فأمطر علينا حجارة من السماء) كما فعلت بأصحاب الفيل .
(أو ائتنا بعذاب أليم) يعني : أي نوع مؤلم من العذاب .
ويلاحظ : أنهم – لعنادهم – لم يقولوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) فاهدنا له ، أو وفقنا لاتباعه .

بل قالوا ما قالوا لشدة جهلهم وعنادهم .

* * *

هذا ..
ولن يستجيب الله لعنادهم ، ولا لدعائهم ٠٠ بأن يعذبهم .
حيث يقول :

{ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }
[الآية ٣٣]

أي : ولن يعذبهم الله (وأنت فيهم) ؛ لأنك بعثت رحمة للعالمين ، كما أن سنة الله أن لا يعذب قوما فيهلكهم ، ونبي الله بينهم .

وأيضا : لا يعذبهم الله ، والمسلمون المستضعفون ، الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستطيعوا الهجرة ، ما يزالون بين أظهرهم يستغفرون الله .

* * *

ثم ‥ هل يستبعدون العذاب ‥ ؟

{ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٣٤]

يعني : لا مانع من تعذيب الله لهم ، خاصة (وهم يصدون) النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه (عن المسجد الحرام) أن يطوفوا به .

إضافة إلى أنهم ليسوا أولياء الحرم ، وولاة أمره ، كما يزعمون ، إنما (أولياؤه) الحقيقيون : هم المسلمون (المتقون) عن الشرك ، الذين لا يصدون الناس عنه (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن لا ولاية لهم عليه .

* * *

ثم ‥ كيف تكون لهم الولاية ‥ ؟

{ وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ }
[الآية ٣٥]

يعني : ليس لهم حق الولاية على البيت ؛ لأن صلاتهم عنده ليست صلاة ، وما هي (إلا مكاء) صفيرا (وتصدية) أي تصفيقا .

وهل هذه صلاة ‥ ؟

(فذوقوا العذاب) في الدنيا (بما كنتم تكفرون) ثم في الآخرة تقيمون في هذا العذاب دائمين .

* * *

ومن أنباء هؤلاء الكفار أيضا ٠٠ وأفعالهم ضد الدعوة ٠٠
ما يوضحه رب العزة في قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ }
[الآية ٣٦]

أي : هم ينفقون أموالهم (ليصدوا) ويمنعوا الناس عن الدخول في دين الله ، والدعوة من الانتشار ، ومبادئ الإسلام من أن تكون معروفة وواضحة .
على أية حال ٠٠
(فسينفقونها) وتضيع عليهم ، دون تحقيق الهدف .
(ثم تكون عليهم حسرة) لضياعها ، والندم عليها ، وعلى جهودهم في جمعها ، وإنفاقها عبثا .
(ثم) بعد هذا الإنفاق للأموال ، وهذا التشويه لمبادئ الدعوة ، والمنع للناس عن الدخول في دين الله (يغلبون) حيث لا يتحقق لهم من أهدافهم شيء سوى الحسرة والندامة .
(والذين كفروا) وظلوا على كفرهم وعنادهم منهم (إلى جهنم) في النهاية يوم القيامة (يحشرون) جزاء لهم ، ونكالا بهم .
وبذلك يكون قد اجتمع على أعداء الدعوة هؤلاء : ضياع المال ، والهزيمة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .
وكل ذلك – بفضل الله تعالى – لصالح المؤمنين .

* * *

ويلاحظ : أن كل ذلك ٠٠ قد كان ، ويكون ٠٠

{ لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }
[الآية ٣٧]

يعني : (ليميز الله) أي : يفصل (الخبيث من الطيب) أي : الكافر الخبيث من المؤمن الطيب ويبعده عنه ، (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) في مكان واحد (فيركمه جميعا) أي : يجعله متراكما طبقات بعضها فوق بعض ، وذلك (في جهنم) حيث العذاب الشديد ، والازدحام الواضح .

(أولئك) أي : أفراد وجماعات الفريق الخبيث (هم الخاسرون) الذين خسروا أموالهم في الدنيا ، وأنفسهم في الدنيا والآخرة .

* * *

ثم يقول ربنا لمحمد صلى الله عليه وسلم :

{ قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ }
[الآية ٣٨]

أي : (قل) لهم يا محمد (إن ينتهوا) ويكفوا عن كفرهم وعنادهم وتشويههم لمبادئ الدعوة ، وحربهم للإسلام ، ومنعهم الناس عنه (يغفر لهم) كل (ما قد سلف) وسبق من أعمالهم السيئة ، التي انتهوا عنها ، وتابوا منها .

(وإن يعودوا) إليها ، ولا يتوبون عنها ، ويستمرون فيها : (فقد مضت) أي: وجبت فيهم ، واستقرت عليهم (سنة الأولين) وهي العذاب والإهلاك .

* * *

ثم يقول ربنا عز وجل للمؤمنين :

{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ }
[الآيتان ٣٩ ، ٤٠]

يعني : إن لم ينتهوا عن كفرهم وعنادهم ، وعادوا إلى حرب الإسلام وأهله ، فـ(قاتلوهم) يا مسلمون (حتى لا تكون فتنة) للمسلمين بوجودهم وحربهم لمبادئ الإسلام (ويكون الدين كله لله) أي : ينتهي كل باطل في الوجود ٠٠ وذلك: لا يكون إلا في عز الدولة الإسلامية .

(فإن انتهوا) عن الكفر ، وحرب الإسلام والمسلمين ، وأعلنوا إسلامهم (فإن الله بما يعملون بصير) يثيبهم على إسلامهم إن صدقوا .

وبعد كل هذا ٠٠ ومع كل هذا٠٠

(إن) لم ينتهوا ، مع تلطف النبي صلى الله عليه وسلم معهم ، ثم مع قتالكم لهم و(تولوا) وأعرضوا عن الإيمان ..!!

(فاعلموا) جيدا (أن الله مولاكم) وناصركم عليهم ، ومعينكم في قتالهم ، فثقوا بولايته لكم ، حيث إنه (نعم المولى) لمن تولاه (ونعم النصير) لمن استنصر به .

* * *

قال تعالى :

{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ٤١]

وفي هذه الآية الكريمة – أيها القارئ الكريم – يبين ربنا سبحانه وتعالى : تفصيلات ما شرعه من غنائم الحرب ، وإباحة خاصة لهذه الأمة الشريفة ، من بين سائر الأمم المتقدمة ؛ حيث لم تكن هذه الغنائم حلالا لمن كان قبلنا من الأمم .

والمعنى : (اعلموا) يا أيها الذين آمنوا (أنما غنمتم من شيء) في الحرب ، من الكفار : أن تقسيمه هكذا .. أربعة أخماس للمجاهدين ، وخمسا واحدا للمذكورين في قوله تعالى (فأن لله خمسه) يأمر فيه بما يشاء (وللرسول ولذي القربى) أي : قرابته .. سهمان من هذا الخمس (واليتامى والمساكين وابن السبيل) ثلاثة أسهم من هذا الخمس .

ذلك تقسيم الله .. فاقبلوه ، واعملوا به (إن كنتم آمنتم) حقا (بالله) تعالى ، وآمنتم بـــ(ما أنزلنا) من الملائكة والقرآن (على عبدنا) محمد (يوم الفرقان) وهو يوم بدر .

(والله على كل شيء قدير) ومن قدرته أنه نصركم يوم بدر وأنتم قليل على الكفار وهم كثير .

* * *

ثم فصل ربنا للمسلمين بعض أحوال يوم بدر ، مما قد يكون خافيا عليهم .
فقال :

{ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٤٢]

أي: اذكروا وقت أن كنتم (أنتم بالعدوة الدنيا) أي : شط الوادي القريب من جهة المدينة ، (وهم) أي الكفار من قريش (بالعدوة القصوى) أي : شط الوادي البعيد عن المدينة من جهة مكة .

وكان (الركب) أي : عير الكفار وقافلتهم (أسفل منكم) أي : بعيدون عنكم مما يلي البحر .

ولذلك : لم تتمكنوا منهم ، ولم تحصلوا على ما تريدون من القافلة .

ثم قدر الله أن تخرج إليكم قريش ؛ لتحاربكم ..

والتقيتم معهم ..

وكان ذلك على غير ميعاد – للحرب – بينكم وبينهم .

(ولو تواعدتم) معهم على ذلك (لاختلفتم في الميعاد) لأي سبب من جهتكم أو من جهتهم .

(ولكن) قدر الله اللقاء على غير ميعاد بينكم ، واستعداد منكم .

(ليقضي الله أمرا كان مفعولا) وهو نصركم عليهم ، وأنتم قليل ، وعلى غير أهبة ، وبدون سلاح .. وفي هذا : كمال النصر ، وإعزاز الدين .

و(ليهلك من هلك عن بينة) من الكافرين مع وضوح الحق .

(ويحيا من حي عن بينة) من المؤمنين مع نصر الله لهم .

(وإن الله لسميع) للأقوال (عليم) بالأفعال ؛ فيعاقب من كفر ، ويثيب من آمن .

* * *

ثم يقول لحبيبه صلى الله عليه وسلم .. بما فيه إخبار للمسلمين :

{ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }

[الآية ٤٣]

أي : اذكر يا محمد والمسلمون معك (إذ يريكهم الله) أي : المشركين (في منامك) أي في رؤياك وأنت نائم (قليلا) حتى يهون أمرهم ، ويضعف في نظرك شأنهم ، وتخبر أصحابك بذلك ؛ فتقوى عزائمهم .

(ولو أراكهم كثيرا) عددهم (لفشلتم) أي : خفتم منهم (ولتنازعتم) بينكم (في الأمر) يعني : في أمر قتالهم ، فيقول بعضكم : نقاتل ، وبعضكم يقول : لا نقاتل، وتحدث الفتنة ، ثم الهزيمة .

(ولكن الله سلم) ونجاكم من التنازع والفشل والهزيمة .

(إنه عليم بذات الصدور) أي : القلوب ، وما يحدث لها من تقلبات .

* * *

أيضا ..

{ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ }
[الآية ٤٤]

يعني : اذكروا وقت اللقاء ‥ إذّ قللهم في أعينكم ؛ لتثبتوا ، وقللكم في أعينهم ؛ ليندفعوا إلى ما فيه هلاكهم ، وأغرى – بذلك – كل فريق بالآخر .
(ليقضي الله أمرا) وهو نصر المؤمنين ؛ حيث (كان مفعولا) أي : مقدرا .
(وإلى الله ترجع الأمور) أي : تنتهي إليه يحكم فيها ، وقد حكم لأهل الإيمان بالنصر .

* * *

أيها القارئ الكريم ‥
في الآيات التالية : يعلم الله تعالى المؤمنين آداب اللقاء عند مواجهة الأعداء.
قال تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ }
[الآية ٤٥]

يعني : اثبتوا يا مؤمنون (إذا لقيتم فئة) من أعدائكم في الحرب .
(واذكروا الله كثيرا) في مواطن القتال ، مستعينين به على عدوكم .
(لعلكم تفلحون) في الحصول على النصر الذي تريدون .

* * *

وأيضا ‥

{ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }
[الآية ٤٦]

والأدب الثالث : (أطيعوا الله ورسوله) في كل شيء ، وبخاصة في ساحات الجهاد .
والأدب الرابع : (لا تنازعوا) لا تختلفوا فيما بينكم ، أو مع قادتكم ، ولو فعلتم (فتفشلوا) في تحقيق النصر (وتذهب ريحكم) هيبتكم وقوتكم ، ويتجرأ عليكم أعداؤكم ؛ فيهزمونكم .

والأدب الخامس : (واصبروا) في ساحات اللقاء ، وعلى مشقات القتال ؛ يحقق الله آمالكم .
(إن الله مع الصابرين) بالحفظ والعون والنصر .

* * *

ثم يقول ربنا ٠٠ موضحا الأدب السادس من آداب اللقاء عند مواجهة الأعداء ، والقتال معهم :

{ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ }
[الآية ٤٧]

يعني : اخرجوا للقتال من أجل إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، على حال من التقوى ، والخضوع لله ٠٠ (ولا تكونوا) كهؤلاء الكفار (الذين خرجوا من ديارهم) للقتال ومنع الناس عن دين الله (بطرا) أي : فخرا وغرورا (ورئاء الناس) أي : مراءاة للناس؛ حتى يسمع الناس عنهم وعن شجاعتهم (ويصدون عن سبيل الله) الراغبين فيه ، المحبين له .
(والله بما يعملون محيط) وهذا منتهى التهديد لهم ، والوعيد بعذابهم .

* * *

هذا ٠٠ هو حالهم الظاهر ٠٠ في الخروج للقتال .
فلنعرف – عزيزي القارئ – إلى نفسياتهم كذلك في هذا الخروج .
وذلك من قوله تعالى :

{ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ }
[الآية ٤٨]

أي : اذكر أيها المؤمن هؤلاء الكفار وحالهم ٠٠ وقت أن (زين لهم الشيطان أعمالهم) التي عملوها مع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الإيذاء ، والتعذيب ، وهم في مكة ، ثم الخروج لقتالهم في المدينة (وقال) لهم حينها (لا غالب لكم اليوم من الناس) أي : من محمد وأتباعه ، ثم قال لهم (إني جار لكم) أساعدكم وأعاونكم عليهم حتى تبيدونهم من الوجود .
وتشجعوا به ، واستجابوا لإغرائه ٠٠!!
وحضروا إلى "بدر" لحرب المسلمين ، وأبادتهم .

(فلما تراءت) التقت (الفئتان) المسلمة والكافرة ، ورأى الشيطان الذى أغراهم الملائكة مع المؤمنين في ساحة القتال (نكص على عقبيه) رجع وولى هاربا (وقال) لهم – لما قالوا له : أتخذلنا ، وتتركنا في هذه اللحظة ، وهذا الحال– (إني برىء منكم) ومن جواركم ، ومن نصرتكم ؛ حيث (إني أرى ما لا ترون) من الملائكة .

ثم قال – وهو كاذب – (إني أخاف الله) أي : أخاف عقوبته .

(والله) حقيقة (شديد العقاب) لمن أراد عقابه من هؤلاء الكفار ، أو الشيطان، أو كل عاص لأوامره ، مخالف لتعاليمه .

* * *

وإذا كان هذا حال كفار مكة يوم بدر ٠٠ ضحك عليهم الشيطان ، وخذلهم٠٠

فماذا كان حال المنافقين بالمدينة ٠٠ ؟

يوضح ذلك قوله تعالى :

{ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

[الآية ٤٩]

يعني : اذكر أيها المؤمن ٠٠ هؤلاء المنافقين (والذين في قلوبهم مرض) من ضعاف الإيمان ، وماذا قالوا يوم بدر على المسلمين ٠٠ !!

لقد قالوا : (غر هؤلاء دينهم) أي : اغتر المسلمون بدينهم ، ونسوا ضعفهم وقلة عددهم ، حتى خرجوا بسبب هذا الغرور لقتال أهل مكة الأشداء .

ونسوا تماما ٠٠ أن ..

(من يتوكل على الله) ويعتمد عليه ، ويكل أمره إليه ٠٠ ينصره الله على عدوه ؛ حيث (إن الله) تعالى (عزيز) ينصر الضعيف المؤمن ، على القوى الكافر (حكيم) لا يسوى بين عدوه ووليه .

* * *

ثم ٠٠ يذكر الله تعالى ما يشفى صدور المؤمنين من الكافرين ٠٠

إذ يقول عز وجل :

{ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ }

[الآية ٥٠]

أي: (ولو ترى) أيها المؤمن (إذّ يتوفى الذين كفروا) حين موتهم في ساحة المعركة ، و(الملائكة) الذين أمد الله بهم المؤمنين ، (يضربون) وجوه المشركين إذا أقبلوا للقتال (وأدبارهم) إذا ولوا وهربوا من الساحة ٠٠ يعني ٠٠ لو ترى ذلك: لرأيت أمرا فظيعا .

والملائكة ٠٠ يقولون لهم في هذه اللحظة (ذوقوا عذاب الحريق) فهذه عينة منه ، والعذاب الحقيقي في نار جهنم التي تنتظركم .

* * *

ثم تقول الملائكة – كذلك – لهم :

{ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ }
[الآية ٥١]

يعني : هذا الذي يفعل لكم ، على أيدينا ، وأيدي المسلمين من القتل والتعذيب ٠٠ بسبب (ما قدمت أيديكم) من سوء كفركم ، ومعاصيكم .

وأيضا : بسبب (أن الله ليس بظلام للعبيد) حيث إنه عادل ، ومن عدله أن يفعل بكم ذلك .

* * *

يلاحظ : أن ما فعله هؤلاء وما فعل بهم ٠٠ ليس غريبا .

فعادتهم هذه في الكفر ٠٠

{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ }
[الآية ٥٢]

أي : عادة هؤلاء في الكفر والعناد ودأبهم (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) من الكافرين ، وعادتهم .

وذلك : أنهم (كفروا بآيات الله) كما كفر هؤلاء (فأخذهم الله) وأهلكهم بسبب ذنوبهم كما أهلك هؤلاء .

(إن الله قوي) لا يعجزه شيء (شديد العقاب) لمن طغى وتجبر ، وعاند ، وظل على كفره وعناده ، حتى مات .

* * *

ثم يخبر الله تعالى ·· أن من تمام عدله ، وقسطه في حكمه : أنه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ··
حيث يقول :

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٥٣]

أي : (ذلك) العذاب ، الذي نزل بكفار مكة ، والذين من قبلهم : لم يكن إلا بسبب ذنوبهم ومعاصيهم .
لأن الله جلت حكمته (لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وهؤلاء غيروا أنفسهم إلى الأسوأ ·· فغير الله النعمة التي أنعمها عليهم بالعذاب الذي نزل بهم .
(وأن الله سميع) لما يقوله المكذبون (عليم) بما يفعلون .

* * *

تماما ..

{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ }
[الآية ٥٤]

يعني : فعلنا بهم ·· لأنهم كذبوا بآيات ربهم من العذاب ما فعلنا بآل فرعون لما كذبوا ، حيث أغرقناهم ، وما فعلناه بالذين من قبلهم لما كذبوا ، حيث أهلكناهم ·· (وكل) فريق منهم ·· مثلكم (كانوا ظالمين) .

* * *

وهكذا ··
بعد أن شرح الله أحوال كفار مكة بمناسبة غزوة بدر ··
يوضح لنا – في الآيات التالية – أحوال غيرهم من الكفار ··
فيقول :

{ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ }
[الآيتان ٥٥ ، ٥٦]

يقول المفسرون : نزلت هذه الآيات في يهود بني قريظة ، حيث كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد .. أن لا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه أحدا يحاربه ، فنقضوا العهد ، وأعانوا – في بدر – كفار مكة بالسلاح على قتال المسلمين .

ثم قالوا : نسينا ، وأخطأنا .

فعاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم مرة ثانية .. ولكنهم نقضوا العهد أيضا في غزوة الأحزاب .

ومن هنا تبدأ الآيات .. في تعليم المسلمين أحكام المعاهدات .

والمعنى : (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا) ويصرون على الكفر (فهم لا يؤمنون) ولا يتوقع منهم إيمان .

وهم (الذين عاهدت منهم) أي : أخذت منهم العهد أكثر من مرة ، في أن لا يعينوا عليك وعلى حربك المشركين (ثم ينقضون عهدهم في كل مرة) ويغدرون .

(وهم لا يتقون) لا يخافون عاقبة الغدر .

يقول الإمام النسفى : جعل الله الذين كفروا شر الدواب ؛ لأن شر الناس الكفار ، وشر الكفار : المصرون على الكفر ، وشر المصرين : الناكثون للعهود .

ألا يستحقون العذاب .. ؟

بلى .. وألف بلى .. !!

* * *

ولذلك يقول ربنا :

{ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }
[الآية ٥٧]

يعني : عندما (تثقفنهم) تقابلهم وتظفر بهم (في الحرب) :

(فشرد بهم من خلفهم) أي : فاضربهم ضربة قاصمة لظهرهم ، مخيفة لغيرهم ، تجعلهم عبرة لمن بعدهم .

(لعلهم يذكرون) يعرفون ذلك ، ويعملون لكم ألف حساب .

ويلاحظ : أن هذه الضربة لا تكون إلا إذا كان المسلمون على أعلى درجات التدريب والسلاح والتخطيط ، وآداب القتال ، وامتلاك كل أنواع القوة .

* * *

ولذلك يقول ربنا :

{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ }
[الآية ٥٨]

أي : إذا خفت – أيها المؤمن – من قوم بينك وبينهم عهد ٠٠ أن يغدروا في عهدهم معك : (فانبذ) أي : اطرح إليهم العهد ، بكل وضوح ، قبل أن تحاربهم٠٠ حتى لا تكون خائنا للعهد مثلهم .
(إن الله لا يحب الخائنين) الناقضين للعهود .

* * *

ثم يذكر الله تعالى المسلمين بعجز الكافرين ٠٠
حيث يقول :

{ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ }
[الآية ٥٩]

يعني : (ولا يحسبن الذين كفروا) أنهم (سبقوا) المسلمين ووصلوا إلى حال لا يُغْلَبون عليها ، بل يَغْلِبون غيرهم معها ، حتى وإن كان الواقع يخدع بما هم فيه، فيظن الرائي لهم٠٠ أنهم سبقوا .
وما قولنا ذلك : إلا بسبب أن العبرة في السبق : بالغلبة في النهاية ، والتعجيز الكامل للأعداء .
وذلك ليس لهم ؛ حيث يقول تعالى عنهم (إنهم لا يعجزون) بل الإعجاز التام ، والغلبة الحقيقية لله تعالى وحده .

* * *

هذا ٠٠
ثم يوجب الله تعالى – في ذات الوقت – على المؤمنين : امتلاك القوة ٠٠ حيث يقول لهم :

{ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}
[الآية ٦٠]

أي : (أعدوا) يا مسلمون (لهم) أي : لأعدائكم ، وامتلكوا (ما استطعتم) بأقصى ما في وسعكم (من قوة) في كل شيء ، مادية ، ومعنوية (ومن رباط الخيل) وأدوات القتال .

ما يجعلكم بسبب امتلاكه ، والتفوق فيه (ترهبون به) تخيفون بسببه (عدو الله وعدوكم) الذين تعرفونهم ، (و) تخيفون به كذلك (آخرين من دونهم) من غيرهم ، أو من بعدهم ، يعادونكم ، أو يعادون من بعدكم من المسلمين (لا تعلمونهم) حيث يخفون عنكم عداوتهم لكم ، أو لم يوجدوا بعد ، بل (الله) وحده (يعلمهم) .

أيضا ..

أنفقوا في سبيل الله من أجل هذا الإعداد الجيد لقتال الأعداء (وما تنفقوا من شيء في سبيل الله) قل أو كثر (يوف إليكم) ثوابه أضعافا مضاعفة من الله تعالى (وأنتم لا تظلمون) في هذه الحال ، لا من الله بالنقصان في الأجر ، ولا من الأعداء بالهزيمة في الحرب .

* * *

{ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

[الآية ٦١]

أي : (إن جنحوا) يعني : مالوا (للسلم) وهو الصلح والمعاهدة : (فاجنح لها) فمل إليها ، وصالحهم وعاهدهم .

(وتوكل على الله) في صلحك معهم ، حتى ولو كنت تخشى منهم المكر في هذا الصلح ، حيث إن الله هو العاصم من مكرهم ، و(هو السميع) للأقوال (العليم) بالأحوال ، فيعامل على أساسها .

ويلاحظ : أن الله تعالى .. بدأ في التحذير ممن ينقض الميثاق ، ثم ممن يخشى منه نقض الميثاق .

وأمر المسلمين : أن يكونوا في الوضع المناسب لكل الاحتمالات .

ثم صرح لهم بالمصالحة مع العدو وعقد المعاهدات – إن رغب العدو في ذلك ومال إليه – والتوكل على الله ، بعد أخذ الأسباب كلها .

* * *

ثم قال تعالى .. بعد هذا كله :

{ وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ }

[الآية ٦٢]

يعني : (وإن يريدوا) بهذا الصلح (أن يخدعوك) ويغدروا بك : فلا تخف (فإن حسبك الله) كافيك ، ومنجيك من غدرهم .

حيث إنه (هو الذي أيدك) قواك عليهم (بنصره) لك وأيدك كذلك (بالمؤمنين) وهم الأنصار بالمدينة .

هؤلاء الأوس والخزرج الذين كانوا متفرقين .

{ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٦٣]

يعني : (و) لكن الله (ألف) وربط (بين قلوبهم) بعد هذا العداء الطويل الذي كان بينهم ، والذي (لو أنفقت ما في الأرض جميعا) لإزالته وعلاجه ما استطعت ، و (ما ألفت بين قلوبهم) .

(ولكن الله) بفضله ورحمته (ألف بينهم) وجمع كلمتهم ، ووحد صفهم ، وأزال الحقد من قلوبهم .

(إنه) سبحانه (عزيز) لا يخدعه أحد (حكيم) ينصر من يشاء ، إذا شاء .

* * *

أخي المسلم ..

بعد هذه التوجيهات حول العهود والمعاهدات ..

يأتي حديث هام حول "أدب القيادة ودورها في قضية وفرضية الجهاد " .

فلنقرأ هذه الآيات الكريمة ..

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ٦٤]

آية : فيها بث الثقة والطمأنينة الكاملة في نفس القيادة ، قبل الدخول إلى أية معركة ، أو أية مواجهة مع العدو .

والمعنى : (يا أيها النبي) يا أيها القائد المسلم (حسبك الله) يكفيك أنت (ومن اتبعك من المؤمنين) في إحراز النصر على الأعداء ، فكن واثقا به ، متوكلا عليه، آخذا بالأسباب قدر طاقتك .

* * *

ثم ..

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ }
[الآية ٦٥]

يعني : (يا أيها النبي) يا أيها القائد المسلم (حرض المؤمنين على القتال) شجعهم ، وبث الثقة فيهم ، وبشرهم بنصر الله ووعده ، إنه (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا) أي : أن الجماعة المسلمة إذا صبرت وثبتت في ساحة القتال ·· تهزم من الأعداء عشرة أمثالها ·

وما ذلك : إلا لأن المسلمين يحاربون لهدف وغاية سامية ، وعقيدة صحيحة ، ورغبة في نوال مرضاة الله ، وأما الذين كفروا ، فهم (قوم لا يفقهون) شيئا من ذلك .

* * *

وكان هذا أمرًا للمسلمين : بأن يقاتلوا من الكفار ·· عشرة أمثالهم ويثبتوا في مواجهتهم ، مهما كان عددهم .

ثم لما ثقل عليهم ذلك : خفف الله عليهم بقوله تعالى :

{ الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }

[الآية ٦٦]

(الآن) البشارة لكم – يا مسلمون – بالنصر على الأعداء ولكن (خفف الله عنكم) في العدد الذي تواجهونه من الأعداء فصار مثلين ، بدلا من عشرة أمثال ، (و) ذلك لـــ (أن فيكم ضعفا) .

وبذلك : (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله) وإرادته ، فاثبتوا ، واصبروا (والله مع الصابرين) .

* * *

أيها القارئ الكريم ··

بعد موقعة بدر ·· أسر المسلمون عددا من الكفار ، واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في شأن هؤلاء الأسرى .

فقال أبو بكر : نأخذ الفدية فيهم ، ونطلق سراحهم .

وقال عمر : نقتلهم .

وقال غيرهما : غير ذلك.

ومال الرسول صلى الله عليه وسلم لرأي أبي بكر رضي الله عنه ، في أخذ الفدية ، وإطلاق سراحهم .

وفعل ··

وهنا : نزل القرآن بخصوص هذا الموضوع يقول :

{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

[الآية ٦٧]

والآية : فيها العتاب لرسول الله والمؤمنين على أخذ هذا الفداء .

والمعنى : (ما كان) ينبغي (لنبي أن يكون له أسرى) أي : يأخذ في عملية الأسر أصلا ، حتى يجهز على الكفار إجهازا تاما ، ويشيع الرعب في الباقين منهم ؛ بما يعز الإسلام وأهله ٠٠ ثم يكون الأسر بعد تحقيق ذلك ، خاصة وأن "بدرا" أول المعارك ، مع الكفر وأهله .

ثم يقول لهم (تريدون عرض الدنيا) الزائل ؛ بأخذكم هذا الفداء ، مع أن(الله يريد) لكم السعادة في (الآخرة) باجهازكم عليهم ، وقهركم لهم .

(والله عزيز) يهزم أعداءه ويقهرهم (حكيم) يعاتب أولياءه .

* * *

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ٠٠ اجتهدوا في موضوع الأسرى ٠٠

ولأن لا يعاقب اجتهاد فيه صدق وإخلاص ٠٠

فهو يقول عز من قائل :

{ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

[الآية ٦٨]

يعني : (لولا كتاب من الله سبق) في أن لا يؤاخذ ويعاقب أحدا قبل بيان الحكم (لمسكم) أي : نالكم (فيما أخذتم) من هذا الفداء ، وبسببه (عذاب عظيم) .

وهذا عتاب : على ترك الأولى ، وليس على شيء محرم .

أي : أنهم أخذوا الفداء في الأسرى وليس محرما عليهم ، وكان الأولى أن يهلكوهم قتالا في ساحة المعركة .

* * *

ولذلك ٠٠

وحتى لا يفهم أنهم أخذوا محرما عليهم ،وهي الفدية ٠٠

فإن الله – تبارك وتعالى – يقول لهم :

{ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٦٩]

أي : (فكلوا) مباح لكم الأكل دون عتاب أو مؤاخذة (مما غنمتم) من فداء الأسرى وغيره (حلالا طيبا) .
(واتقوا الله) وراقبوه في تصرفاتكم ‧‧ (إن الله غفور) لما فعلتم من قبل ، ومن ذلك موضوع الأسرى (رحيم) حيث أحل لكم كل ما غنمتم .

* * *

وبما أن الفدية قد أجيزت ، والأكل منها قد أبيح ‧‧
فإن الله عز وجل يقول لحبيبه بعض التوجيهات التي يبلغها لهؤلاء الأسرى‧‧ حيث يقول له :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٧٠]

يا الله ‧‧ على هذه الدعوة الرقيقة المهذبة الحكيمة : للدخول في الإسلام .
(قل) لهؤلاء الأسرى الذين معكم وفي أيديكم يا محمد : (إن يعلم الله في قلوبكم خيرا) ولا خير أفضل من الإيمان بعد الكفر .
ومعنى الكلام : اجعلوا في قلوبكم خيرا ، يعني : آمنوا .
فإذا آمنتم وتشرفتم بالدخول في هذا الدين (يؤتكم) الله (خيرا مما أخذ منكم) من الفدية ؛ حيث يرزقكم أضعافه في الدنيا ، ويثيبكم على إيمانكم في الآخرة .
وفوق ذلك (يغفر لكم) كل ذنوبكم (والله غفور رحيم) على الكفر وما كان فيه ، بعد الإسلام وما يصير معه .

* * *

{ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٧١]

يعني : (إن) كان هؤلاء الأسرى ، لا يريدون الدخول في الإسلام بل يريدون بعد إطلاق سراحهم (خيانتك) بالكيد لك ، وحربك : فلا تخش منهم ولا من كيدهم شيئا .
(فقد) سبق ، و (خانوا الله من قبل) بكفرهم من قبل أسرهم .
فماذا حدث ‧‧؟

أمكن الله منهم ، بأن أظفرك بهم ، ونصرك عليهم وجعلك تأسرهم .
وإن عادوا للخيانة لك ، والحرب معك : فسيمكن منهم مرة أخرى .
وهذه بشارة بالنصر الدائم للمسلمين إذا التزموا بدينهم على الأعداء .
(والله عليم) بهم وبما يفكرون فيه (حكيم) في بشارتك بالنصر عليهم .

* * *

أيها المسلم الحبيب ..

هل تذكر معي أن هذه السورة الكريمة – سورة الأنفال – ذكرت في آياتها الأولى بعضا من صفات المؤمنين الحقيقيين .. وكان ذلك : في قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقا ...) [الآيات ٢ ، ٣ ، ٤] .. ؟

نعم .. تذكر إن شاء الله ذلك ..

والآن .. وفي آيات خاتمة هذه السورة : يرينا الله عز وجل نماذج من هؤلاء المؤمنين ، ويحدثنا عنهم .
وذلك .. في قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }
[الآية ٧٢]

وفي هذه الآية : يذكر الله تعالى من المؤمنين ثلاثة أصناف ، ثم يذكر حكم التعامل مع كل صنف منهم :

الصنف الأول : الذين آمنوا وهاجروا (إن الذين آمنوا وهاجروا) من ديارهم إلى المدينة (وجاهدوا) الكفار (بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) .

الصنف الثاني : الذين آمنوا ونصروا (والذين آووا) إخوانهم المهاجرين (ونصرو) هم ، ونصروا الدعوة .

(أولئك) الصنفان .. المهاجرون والأنصار : (بعضهم أولياء بعض) في النصرة ، وفي الميراث أيضا ، حتى نسخ التوارث بينهم بقوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) .

الصنف الثالث : (الذين آمنوا ولم يهاجروا) وظلوا في مكة .

وهؤلاء (ما لكم من ولايتهم من شيء) لا ولاء بينكم وبينهم ؛ لأنهم لا يستطيعون لكم نصرا ، وما كانوا يتوارثون مع مؤمني المدينة .

وذلك الحكم مستمر (حتى يهاجروا) فيصير حكمهم حكم سائر المسلمين الذين هاجروا من قبل .

وإن ظلوا في مكانهم ولم يهاجروا ، ووقعت بينهم وبين الكفار حرب و(استنصروكم في الدين) أي : باسم الدين الذي يربط بينكم وبينهم (فعليكم النصر) والمعاونة لهم .

(إلا) إذا استنصروكم (على قوم بينكم وبينهم ميثاق) على عدم الحرب : فلا يلزمكم معاونتهم ، بحكم هذا العهد والميثاق .

(والله بما تعملون بصير) فالتزموا بشرعه ، ولا تتعدوا حدوده .

* * *

وإذا كان هذا وضع المؤمنين ، والتعامل بينهم .
فما حال الكافرين ٠٠ والتعامل معهم ٠٠ ؟
يقول ربنا سبحانه :

{ وَالَّذينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ }
[الآية ٧٣]

يعني : أما (الذين كفروا) فـ(بعضهم أولياء بعض) يتناصرون فيما بينهم ، ويتوارثون فيما بينهم .
وليس بينكم وبينهم أية موالاة ، ولا أية صورة من صور التقارب والمودة٠٠ حتى ولو كانوا أقارب لكم .
(إلا تفعلوه) أي : موالاة المؤمنين ، وقطع موالاة الكافرين ، كما يأمركم الشرع (تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) بإضعاف المسلمين ، وتقوية الكافرين .

* * *

وأما هؤلاء المهاجرون والأنصار ٠٠فـ(أولئك هم المؤمنون حقا) .
يقول تعالى :

{ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }
[الآية ٧٤]

يعني : الصنف الأول ٠٠ وهم الذين آمنوا وهاجروا ، والصنف الثاني ٠٠ وهم الذين آمنوا ونصروا (هم المؤمنون حقا) ؛ لأنهم صدقوا إيمانهم ، وحققوه في دنيا الواقع .
وهؤلاء (لهم مغفرة) من الله (ورزق كريم) وهو الجنة .

* * *

هذا ٠٠

وهناك صنف رابع من المؤمنين ·· يذكره الله تعالى في قوله :

{ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآية ٧٥]

وهذه الآية : تتحدث عن المؤمنين الذين هاجروا بعد الحديبية ، في العام السادس ، وحتى عام الفتح .

يعني : (والذين آمنوا من بعد وهاجروا) بعد السابقين الأولين ، الذين هاجروا قبل العام السادس (وجاهدوا معكم) يا من هاجرتم قبلا .

(فأولئك منكم) أيها المهاجرون قبلا ، والأنصار ، حكمهم حكمكم في الموالاة والنصر والمودة .

ثم يقول ربنا عز وجل ·· بالنسبة للتوارث بالهجرة ، الذي كان يتم بين المسلمين الأوائل .

(وأولوا الأرحام) أي : الأقارب (بعضهم أولى ببعض) في الإرث من التوارث بالإيمان والهجرة .

وذلك الحكم الجديد بخصوص الإرث ، الذي ينسخ الحكم القديم ، أحق (في كتاب الله) اللوح المحفوظ ، أو القرآن .

(إن الله بكل شيء عليم) ومن ذلك حكم الميراث هذا ، فالتزموا به ولا تخالفوه .

وبهذا ··

انتهت – والحمد لله – سورة الأنفال .

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر